



يوسف زيدان

عزازيل

رواية

يوسف زيدان

عزازيل
رواية

طبعة دار الشروق الأولى ٢٠٠٨

رقم الإيداع ٢٤٩٧٤/٢٠٠٧

ISBN 978-977-2282-0

جميع الحقوق محفوظة

© دار الشروق

٨ شارع سيديييه المصري

مدينة نصر - القاهرة - مصر

تليفون: ٢٤٠٢٣٣٩٩

فاكس: ٢٤٠٣٧٥٦٧ (٢٠٢)

email: dar@shorouk.com

www.shorouk.com

دار الشروق

إهداء خاص جداً ،

إلى آية ..

تلك يا ابنتي ، آيتي ، التي لم تجعل للعالمين !

لِكُلِّ امْرِئٍ شَيْطَانُهُ ، حَتَّى أَنَا ، غَيْرَ أَنَّ اللَّهَ أَعَانَنِي عَلَيْهِ فَأَسْلَمَ ..

(حديث شريف ، رواه الإمام البخارى بلفظ قريب)

مقدمة المترجم

يضمُّ هذا الكتابُ الذي أُوصِيَتْ أن يُنشرَ بعد وفاتي، ترجمةً أمينةً قَدَرُ المستطاع لمجموعة اللقائف (الرقوق) التي اكتُشِفَتْ قبل عشر سنوات بالخرائب الأثرية الحافلة، الواقعة إلى جهة الشمال الغربي من مدينة حلب السورية، وهي الخرائب الممتدة لثلاثة كيلومترات، على مقربةٍ من حواف الطريق القديم الواصل بين مدينتي حلب وأنطاكية العتيقتين اللتين بدأنا تاريخهما قبل التاريخ المعروف. وهو الطريق المرصوف، الذي يُعتقد أنه المرحلة الأخيرة من طريق الحرير الشهير، الذي كان في الأزمنة السحيقة يبدأ من أقاصي آسيا، وينتهي مُنهَكًا عند ساحل البحر المتوسط. وقد وصلتنا هذه الرقوق بما عليها من كتابات سُريانية قديمة (آرامية) في حالةٍ جيدة، نادرًا ما نجد مثيلاً لها، مع أنها كُتبت في النصف الأول من القرن الخامس الميلادي، وتحديداً: قبل خمس وخمسين وخمسمائة وألف، من سنين هذا الزمان.

وكان المأسوفُ عليه، الأبُّ الجليلُ ولیم كازاری الذي أشرف بنفسه على التنقيبات الأثرية هناك، وهناك لقي مصيره المفجع المفاجئ (منتصف شهر مايو سنة ١٩٩٧ الميلادية) يرجَّح أن السَّرَّ في سلامة هذه اللقائف، هو جودة الجلود (الرقوق) التي كُتبت عليها الكلمات، بحبرٍ فاحمٍ من أجود الأحبار التي استُعملت في ذاك الزمان البعيد. علاوةً على حفظها

فى ذلك الصندوق الخشبى، محكم الإغلاق، الذى أودع فيه الراهب المصرى الأصل هيبا مادونه من سيرة عجيبة وتاريخ غير مقصود لوقائع حياته القليلة، وتقلبات زمانه المضطرب.

وكان الأب كازارى يظن أن الصندوق الخشبى المحلى بالخاراف النحاسية الدقيقة، لم يفتح قط طيلة القرون الماضية. وهو ما يدل على أنه، عفا الله عنه، لم يتفحص محتويات الصندوق بشكل جيد. أولعله خشى أن يفرد اللغاف قبل معالجتها كيميائياً، فتتقصف بين يديه. ومن ثم، فهو لم يلحظ الحواشى والتعليقات المكتوبة على أطراف الرقوق، باللغة العربية بقلم نسخى دقيق، فى حدود القرن الخامس الهجرى تقديراً. كتبها فيما يبدو لى، راهب عربى من أتباع الكنيسة الرها التى اتخذت النسطورية مذهباً لها، ولا يزال أتباعها يعرفون إلى اليوم بالنساطرة! ولم يشأ هذا الراهب المجهول أن يصرح باسمه. وقد أوردت فى هوامش ترجمتى، بعضاً من حواشيه وتعليقاته الخطيرة، ولم أورد بعضها الآخر لخطورته البالغة.. وكان آخر ما كتبه هذا الراهب المجهول، على ظهر الرق الأخير: سوف أعيد دفن هذا الكنز، فإن أوان ظهوره لم يأت بعد!

وقد أمضيت سبع سنين فى نقل هذا النص من اللغة السريانية إلى العربية. غير أنني ندمت على قيامى بترجمة رواية الراهب هيبا هذه، وأشفت من نشرها فى حياتى. خاصة وقد خطبى عمرى فى أرض الوهن، وآل زمانى إلى خط الزوال.. والرواية فى جملتها تقع فى ثلاثين رقاً، مكتوبة على الوجهين بقلم سريانى سميك، بحسب التقليد القديم للكتابة السريانية الذى يسميه المتخصصون الخط الأسطرنجيسى؛ لأن الأناجيل القديمة كانت تكتب به. وقد اجتهدت فى التعرف إلى أية معلومات عن المؤلف الأصلى، الراهب هيبا المصرى، إضافة لما رواه هو عن نفسه فى روايته، فلم أجده أى خبر فى المصادر التاريخية القديمة.

ومن ثم، فقد خلّت المراجع الحديثة من أى ذكر له. فكأنه لم يوجد أصلاً، أو هو موجود فقط فى هذه (السيرة) التى بين أيدينا. مع أننى تأكدت بعد بحوث مطولة من صحة كل الشخصيات الكنسية، ودقة كل الوقائع التاريخية التى أوردها فى مخطوطته البديعة هذه، التى كتبها بخطه الأنيق المنمق من دون إسراف فى زخرفة الكلمات، وهو ما تُغرى به الكتابة السريانية القديمة (الأسطرنجيلية) الزخرفية بطبعها.

وقد مكنتنى وضوح الخط فى معظم المواضع من قراءة النص بيسر، وبالتالى ترجمته إلى العربية دون قلق من قلق الأصل واضطرابه، مثلما هو الحال فى معظم الكتابات التى وصلتنا من هذه الفترة المبكرة.. ولا يفوتنى هنا أن أشكر العلامة الجليل، كبير الرهبان بدير السريان بقبرص، لما أبداه من ملاحظات مهمة على ترجمتى، وتصويبات لبعض التعبيرات الكنسية القديمة التى لم تكن لى ألفة بها.

ولست واثقاً من أن ترجمتى هذه إلى العربية، قد نجحت فى مماثلة لغة النص السريانى بهاء ورونقاً. فبالإضافة إلى أن السريانية كانت تمتاز منذ هذا الوقت المبكر بوفرة آدابها وتطور أساليب الكتابة بها، فإن لغة الراهب هيبا وتعبيراته، تعدّ آية من آيات البيان والبلاغة. ولطالما أمضيت الليالى الطوال فى تأمل تعبيراته الرهيفة، البليغة، والصور الإبداعية التى تتوالى فى عباراته، مؤكدة شاعريته وحساسيته اللغوية، وإحاطته بأسرار اللغة السريانية التى كتب بها.

وقد جعلت فصول هذه (الرواية) على عدد الرقوق التى هى متفاوتة الحجم؛ بطبيعة الحال. وقد أعطيت للرقوق عناوين من عندى، تسهياً لقارئ هذه الترجمة التى يُنشر فيها هذا النص النادر لأول مرة. وتسهياً للقارئ أيضاً، استعملت فى ترجمتى الأسماء المعاصرة للمدن التى ذكرها الراهب هيبا فى روايته. فإذا ذكر مدينة بانوبوليس الواقعة بقلب صعيد

الرَّقُّ الْأَوَّلُ بَدَأُ التَّدْوِينِ

الرحمة يا إلهي. الرحمة والعفو يا أبانا الذي في السماوات. ارحمني واعفُ عني، فإنني كما تعلم ضعيفٌ. يا إلهي الرحيم، إن يدي ترتعشان رهبةً وخيفةً، وقلبي وروحي يرتجفان من تصاريف وعصف هذا الزمان. وأنت وحدك يا إلهي الرحيم، لك المجد، تعلم أنني اقتنيتُ هذه الرقوق قبل سنين، من نواحي البحر الميت، كي أكتب فيها أشعاري ومناجاتي لك في خلواتي، ليتمجد اسمك بين الناس في الأرض مثلما هو مجيدٌ في السماوات. وكنت أنوي أن أدون فيها ابتهالاتي التي تقربني إليك، وقد تكون من بعدى صلوات يتلوها الرهبان وأهل الصوامع الأتقياء في كل زمانٍ ومكان. وها أنا لَمَّا حان وقت التدوين، أوشك أن أكتب فيها ما لم يخطر لي من قبلُ على بال، وقد يجرئني إلى طرق الويل والوبال. يا إلهي، أسمعني! أنا عبدك المخلص، الحيران: هيبا الراهب وهيبا الطبيب وهيبا الغريب.. على ما يدعونني به الناس في بلاد غربتي! وأنت وحدك يا إلهي تعرف اسمي الحقيقي، أنت والناس في بلادى الأولى التي شهدت مولدى. ياليتني لم أولد أصلاً، أو ليتني متُّ في طفولتي من دون أثام، حتى أضمن عفوك ورحمتك.

مصر، ترجمتها عن اسمها اليوناني هذا، إلى الاسم المعروفة به اليوم: أخميم. وبلدة جرمانيقى الشامية، جعلتها باسمها المعاصر: مرعش! وصحراء الأسقيط جعلتها باسمها المشهور اليوم: وادى النظرون... وهكذا في بقية المدن والمواضع التي وردت في النص الأصلي، اللهم إلا تلك المواضع التي صار لاسمها القديم دلالةٌ قد يضيعها اسمها المعاصر، مثل نيقية الواقعة اليوم في حدود تركيا؛ فمع أنها صارت تعرف باسم أزنيق، إلا أنني فضّلت أن أذكرها باسمها القديم، لما له من أهمية خاصة في تاريخ المجامع الكنسية؛ إذ انعقد في هذه المدينة سنة ٣٢٥ ميلادية، المجمع العالمي (المسكوني) لرؤساء الكنائس، الذي تمّ فيه الحكم على القسّ المصري آريوس بالحرم والطرْد والنفي، باعتباره مُهرِّطاً وكافراً بالارثوذكسية (الإيمان القويم).. أما ما لم يشتهر من المواضع الواردة في الرواية، فقد أوردت اسميه القديم والجديد معاً، منعاً للالتباس.

وقد وضعتُ بعد الشهور والسنوات القبطية التي ذكرها المؤلّف؛ ما يقابلها من الشهور والسنوات الميلادية المعروفة اليوم. وأوردتُ، في مراتٍ قليلة، بعض الملاحظات والإشارات الضرورية الموجزة، وبعض التعليقات (العربية) التي وجدتُها في الحواشي. ثم ألحقتُ بالرواية بعض الصور المرتبطة بأحداثها.

المترجم

الإسكندرية في ٤ إبريل ٢٠٠٤

ارحمنى يا رحيم، فإننى مشفقٌ مما أنا مقبلٌ عليه، ولكننى مضطربٌ. فأنت تعلم، فى سماواتك البعيدة، كيف يحوطنى إلحاحُ عدوِّى وعدوِّك اللعين عزازيل الذى لا يكفُّ عن مطالبتى بتدوين كل ما رأيته فى حياتى.. وما قيمة حياتى أصلاً، حتى أدون ما رأيته فيها؟ فأنفذنى يا إلهى الرحيم من وسوسته لى، ومن طغيان نفسه. إننى يا إلهى، لا زلتُ أنتظر منك إشاراتٍ لم تأت. وقد استبطأتُ عفوك، ولكننى إلى الآن ما شككتُ. فإن شئتُ يا صاحب العزة السماوية والمجد الذى فى الأعلى، أن تدركنى بإشارةٍ منك، فإننى مستقبلٌ أمرك ومطيعٌ. ولو تركتنى لنفسى، أضيع.. فقد صارت نفسى معلقة من أطرافها، تتنازعها غواياتُ عزازيل اللعين، ونكاياتُ أشواقى بعد ابتعاد مرثا التى انقلبت معها دولة باطنى.

سأبتهلُ إليك ياربَّ الليلة، وأصلى، وأنام. وقد خلقتنى لحكمةٍ خفية، كثيرَ الأحلام. فأرسل لى فى منامى من فيض كرمك إشارةً تُنير لى الطريق، مادامت بشارتك قد عززت فى صحوى وامتنعت. فإن صرفتنى بإشارتك يا إلهى عن الكتابة انصرفْتُ، وإن تركتنى لنفسى كتبتُ.. وما أنا يا إلهى إلا ريشةٌ فى مهب ريح، يمسكها إصبعٌ ضعيف ينوى أن يغمسها فى الدواة، ليخطَّ كُلَّ ما وقع معى، وكُلَّ ما جرى ويجرى مع أعتى العصاة عزازيل وعبدك الضعيف، ومرثا.. الرحمة، الرحمة، الرحمة.



بسم الإله المتعالى (١) أبدأ فى كتابة ما كان وما هو كائنٌ من سيرتى، واصفاً ما يجرى من حولى وما يضطرم بداخلى من أهوال. وأول تدوينى هذا، الذى لا أعرف كيف ومتى سيكون متناه، هو ليلة السابع والعشرين من شهر توت (أيلول، سبتمبر) سنة ١٤٧ للشهداء، الموافقة لسنة ٤٣١

(١) فى هذا الموضع من المخطوطة، اضطرابٌ ملحوظ فى رسم الكلمات. (المترجم).

لميلاد يسوع المسيح. وهى السنة المشؤومة التى حُرِم فيها وعُزل، الأسقفُ المبيجلُ نسطور، واهتزت أركان الديانة. وقد أحكى ما جرى بينى وبين مرثا الجميلة من غوايات وعذابات، وما كان من أمر عزازيل المراءوغ اللعين، وأقصُ بعضاً مما وقع مع رئيس هذا الدير الذى أسكن فيه ولا أجد السكينة. وسوف أروى بين الثنايا، حكايًا عايشتها منذ خروجى من بلادى الأولى الواقعة بأطراف بلدة أسوان جنوب مصر، حيث يجرى نهر النيل الذى كان أهل قريتى يعتقدون أنه ينبع من بين أصابع الآلهة، ويهبط ماؤه من السماء. وكنتُ فى صغرى أعتقدُ ذلك الوهم مثلهم، حتى تعلّمتُ ما تعلمته فى نجع حمادى وأخميم، ثم فى الإسكندرية.. فأدركتُ أنه نهرٌ كبقية الأنهار، وأن بقية الأشياء مثل بقية الأشياء، لا يمتاز منها إلا ما نميّزه نحنُ بما نكسوه به من وهم وظنٍّ واعتقاد.

من أين أبدأ تدوينى؟.. البدايات متداخلةٌ ومحتشدةٌ برأسى. ولعل البدايات كما كان أستاذى القديم سوريانوس يقول، ما هى إلا محضُ أوهام نعتقدُها. فالبداية والنهاية، إنما تكونان فقط فى الخط المستقيم. ولا خطوط مستقيمة إلا فى أوهامنا، أو فى الوريقات التى نسطر فيها ما نتوهمه. أما فى الحياة وفى الكون كله، فكلُّ شئٍ دائرىٌ يعود إلى ما منه بدأ، ويتداخلُ مع ما به اتصل. فليس ثمة بدايةٌ ولا نهايةٌ على الحقيقة، وما ثمَّ إلا التوالى الذى لا ينقطع، فلا ينقطع فى الكون الاتصال، ولا ينفصم التداخل، ولا يكفُّ التفريغ، ولا الملاء ولا التفريغ.. الأمرُ الواحد يتوالى اتصاله، فتتسع دائرته لتتداخل مع الأمر الآخر، وتتفرّع عنهما دائرةٌ جديدةٌ تتداخل بدورها مع بقية الدوائر. فتمتلئ الحياة، بأن تكتمل دائرتها، فتفرغ عند انتهائنا بالموت، لنعود إلى ما منه ابتدأنا.. آهٍ لحيرتى، ما هذا الذى أكتبه؟ إن الدوائر كلها تدور برأسى، فلا توقفها إلا لحظات النوم، حيث تدور أحلامى. وفى الأحلام، مثلما هو الحال فى صحوى، تحتشد بقلبى

الذكريات وتعتصرني.. الذكريات دَوَامَاتُ متتالية الدوائر، ومتداخلة. فإن
أستسلم لها وأحكيها بقلمى، فمن أين أبدأ؟

سأبدأ من الحاضر، من اللحظة الحالية، من جلستى هذه فى صومعتى
التي لا يزيد طولها ولا عرضها عن مترين. من القبور المصرية ماهو أوسع
منها. جذرائها من الحجر الذى يبنى به الناس فى هذه النواحي، يأتون به
من محاجر قريية. كان لون الحجر أبيض، ثم صار اليوم بلا لون.

لصومعتى باب خشبي ضعيف غير محكم الإغلاق، يفتح إلى خارجها
حيث الممر الطويل المار على بقية صوامع (قلايات) الرهبان. لاشئ هنا،
حولى، غير لوح خشبي أنام عليه، عليه ثلاث طبقات من صوف وكثان،
هى الفرش الوثير والدثار. على أننى اعتدت النوم جالساً، مثلما يفعل
الرهبان المصريون.

فى الزاوية اليسرى المواجهة للباب، طاولة صغيرة قصيرة القوائم.
عليها المحبرة والسراج القديم ذو الفتيلة البائسة واللهب المتراقصة
شعلته. وتحت الطاولة الرقوق البيضاء النقية من أى كتابة، والرقوق
الحائلة اللون التى غسلت كتاباتها.. بجوار الطاولة كيس فيه كسر من الخبز
الجاف، وإناء ماء وقبينة زيت للسراج وكتب مطوية. وفوقها، علقت على
الحائط، صورة للعذراء مريم محفورة على الخشب.. فإننى يُريحنى النظر
إلى وجه العذراء، الأم.

فى زاوية الغرفة الملاصقة للباب صندوق خشبي محلى بنقوش
نحاسية، كان قد أهده لى، مملوءاً تمراً، رجلٌ موسرٌ من مدينة صور،
عالجته من إسهال مزمن ولم آخذ منه أجراً، إحياءً لسنّة الحكيم الفاضل
أبقراط الذى علّم الإنسانية الطب بأن جرؤ على تدوينه فى الكتب.. تُرى،
هل كان عزازيل، هو الذى دعاه للتدوين؟

إذا أتممت ما أبدؤه الليلة، فسوف أضع ما أكتبه فى هذا الصندوق
مع الأنجيل المحرمة والكتب الممنوعة، وأدفنه تحت البلاطة الرخامية
متخلخلة عند بوابة الدير، وأسد عليه، وأطمُر البلاطة بالتراب. فأكونُ
قد تركتُ منى شيئاً هنا، قبل رحيلى النهائى بعد انتهاء خلوة الأربعين يوماً
التي تبتدى بها اليوم عزلتى، ويبدأ تدوينى هذا الذى لم أخبر به أحداً.

تقع صومعتى بالدور الأعلى من المبنى، وهى واحدة من أربع وعشرين
غرفةً مماثلة، يسكنها رهبانُ هذا الدير. بين الغرف غرفٌ مغلقة، ومخازنُ
حبوب، ومكانٌ للصلاة. الدور الأول من هذا المبنى، فيه مطبخ الدير وقاعةُ
الطعام وغرفة الضيافة الواسعة. يسكن الدير اثنان وعشرون راهباً. وفيه
عشرون من طالبى الرهينة، يخدمون المكان إلى حين رسامتهم رهباناً.
لكنيسة الدير الكبيرة كاهنٌ مؤقت، قسّ ليس براهب، هو فى الأصل كاهنٌ
الكنيسة الصغيرة الواقعة بين البيوت المتناثرة عند سفح تلة الدير. وهو
يخدم كنيسة الدير منذ تتيج (توفى) كاهنها الراهب قبل أعوام، انتظاراً
لرسامة كاهن آخر من الرهبان. الرسامة تكون فى كنيسة أنطاكية التى يتبعها
هذا الدير. للقسوس الكهنة زوجات ينامون فى أحضانهم، أما نحن الرهبان
فننام منفردين، وفى معظم الليالى ننام جالسين، أو لانام أصلاً لاستغراقنا
فى الصلوات والتشبهات الطويلة.

رئيس الدير يسكن غرفة قائمة بذاتها، واسعة. زواياها أربعة أعمدة
رومانية قديمة، كانت قائمة فى الساحة الفسيحة الممتدة أمام كنيسة الدير
الكبيرة، فلما وصلوا بينها بجدران رقيقة، صارت الأعمدة هى زوايا الغرفة
الواسعة. بجوار غرفته، الكنيسة الصغيرة التى نصلّى فيها عادة. الكنيسة
الكبيرة لها بابان، واحدٌ من جهة الدير، والآخر مطل على التلة من خارج
السور، فكأنها كنيسة ثان، واحدة للرهبان فى معظم الأيام، والأخرى
للمؤمنين والموعوظين الذين يأتون أيام الأحاد والأعياد لحضور القدّاس.

مَنْ يحضر منهم متأخرًا، لا يجد مكانًا ويتحشّر خارج السور المتهدم، حول الباب الخارجى.

صومعتى هى الدائرة الصغرى من عالمى المحسوس، تحيط بها دائرة أكبر، هى هذا الدير الذى هويته يوم دخلته أول مرة، قبل سنين، ولزمته من يومها، ونعمتُ فيه بالسكينة التى طالما تمنيتها قبل مجيئى إلى هنا، حتى كان ما كان مما سوف أذكره.

جئتُ إلى الدير من القدس.. ساليمة، هيروسليم، أورشليم، أوروشاليم، إيلياء، بيت الرب! أسماء كثيرة حملتها تلك المدينة المقدسة، المحاطة بالجدب من كل النواحي. أقمتُ فيها بضع سنين، قبل المجيئى إلى هنا تنفيذًا لمشية الرب، وتلبيةً لإشارة نسطور ونصيحته، وتوصيته. مع أنه، كان الرب اليوم فى عونه، قد دعانى أولاً للذهاب معه إلى أنطاكية، والإقامة فيها إلى آخر عمرى. ثم بدا له أمرٌ، فعاد ونصحنى بالمجيئى إلى هنا. كتب لى بخطه رسالة توصية إلى رئيس الدير، وكتب على الزمان أحداثًا عاينتها، وعانيتُ منها، وما كانت تخطر لى على بال. الخطاب الذى أرسله نسطور معى إلى رئيس الدير، لازلتُ أحتفظ به تحت مخدتى الخشنة. رده إلى رئيس الدير حين طلبتُ ذلك منه، بعد عام من مجيئى إلى هنا من أورشليم.. أورشليم.. كم تبدو لى الآن بعيدة، وكم تبدو أيامى هناك كحلم لمع فى سماء حياتى الباهتة، ثم انطفأ لمعانه.

لماذا انطفأ كلُّ شئ؟ نور الإيمان الذى كان يضيئ باطنى، شموع السكينة التى طالما آنستُ وحدتى، الاطمئنان إلى جدران هذه الصومعة الحانية.. حتى شمس النهار، صرّت أراها اليوم مُطفأة، وموحشة.

هل سينزاح هذا الهم عن روحى، وتأتينى أخبارٌ مبهجات بعد تلك التى وردتنا من بلدة إفسوس، حيث حاصر القسوس والأساقفة، الأسقف

المبارك نسطور، واجتهدوا حتى نالوا منه. لقد نال الزمان منى، وغلبنى الهمُّ والقلق.. إلى أين سينتهى الحال بالأسقف نسطور المعزول، الذى عرفته أيام كان قسًا. كان لقاءنا فى أورشليم يوم أتاها للحج مع الوفد الأنطاكى، قبل أربع سنوات من رسامته أسقفًا للقسطنطينية. كان لقاءنا منذ زمن، يبدو لى اليوم بعيدًا بعدما مضت سنون طوال، صارت معها المواضع والمدن نائية عني، موعلة فى النأى.

.. هل كُنّا، حقًا، فى أورشليم!

قضيتُ أيامًا في أورشليم حاجًا، بعد ثلاث سنين طوّفتُ خلالها بالمواضع المباركة، تنفيذًا لنصيحة الراهب القديس خريطون المنقطع للعبادة في المغارة الموحشة، قرب البحر الميت. كان قد قال لي وهو يودّ عني: يا ولدي، لا تدخل أورشليم فور وصولك أرض فلسطين، لا تدخل إليها إلا إذا استعد قلبك للحجّ، وتهيأت روحك. فما الحجّ إلا رحلة تهيئة، وما السّفَرُ إلا إسفارٌ عن الأمر المقدّس المكنون بجوهر الروح.

الرّقُّ الثاني

بَيْتُ الرَّبِّ

أتذكّر جيدًا، ظهيرة اليوم الذي دخلتُ فيه أورشليم عبر الجزء المنهار من أسوارها العالية، الجزء الذي كان فيما سبق يُمسك البوابة الكبيرة المسماة بوابة صهيون.. ألقى عصا ترحالي هناك، بعد سياحات طويلة بين قُرى اليهودية (فلسطين) والسامرة.

دخلتُ أورشليم في حدود الثلاثين من عمري الذي كان قد أنهكه سفرُ الجسم والروح في الأرض والسموات، وحيرَ ارتحالُ العين بين صفحات الكتب. دخلتها مترنّح الخطو مستندًا إلى الهواء، في قِظ شهر أيب (تموز، يولييه) وعلى باب كنيسة الكبري أخذتني إغماءة، فحملني بعض الحجّاج إلى الداخل ليعالجنى كاهنُ كنيسة القيامة المجيدة، ويضحك حين يعرف مني أنني طبيبٌ، وراهب. بعدما أفقتُ من إغماءتي، مازحني قائلاً: عرفتُ برهبانيتك من غطاء رأسك، لكنني لم أعرف من إغماءتك أنك طبيب! ثم سألتني عن اسمي، فقلتُ هيبا.

هل أتيت للحجّ أم تنوي الإقامة بيننا، أيها الراهب المبارك؟

- الحجّ أولاً، ثم تكون مشيئة الرب.

فجر اليوم التالي للبشارة، توجّهتُ رأسًا إلى أورشليم.. كان قلبي يبتهل طيلة الطريق، راجيًا الربّ أن يطهرني من آثار الغرق في بحار الحيرة، وأن يفيض على روحي بالسكينة، ويُنعم على قلبي بالإيمان القويم ونور

اليقين. لم أتوقف في طريقى من نواحي صيدا حيث جاءتنى البشارة، إلى أورشليم التى كنت أنوى الاستقرار فيها بقية العمر، إلا ساعتين فى جوف الليل، حاولتُ فيهما النوم تحت شجرة، فمنعتنى رؤاى المتوالية: المخلص يتألم فوق صليب الفداء، نحيبُ الأمِّ العذراء المقدسة، صرخاتُ يوحنا المعمدان فى البرية، ما وقع معى أيام كنتُ بالإسكندرية.. لم أستطع ليلتها النوم.

دخلتُ أورشليم من طريق السامرة وقت الظهيرة، فتملكتنى مشاعرُ الغربة التى تعصف بى فى المدن الكبيرة. كان الحرُّ شديداً، وصخبُ البشر. مررتُ فى طريقى إلى كنيسة القيامة بأسواقٍ وبيوتٍ كثيرة، ورهبانٍ وتجارٍ وناسٍ من كل الأجناس: عربٌ وسريانٌ ويونانٌ وفرنسٌ، وأممٌ أخرى لم أفهمُ بأى لسان كانوا فيما بينهم يتكلمون. كنتُ قد نسييتُ صخبَ المدن الكبيرة خلال تجوالى الطويل بقرى فلسطين، فهربتُ من الزحام إلى أسوار الكنيسة وبابها الكبير المفتوح. بالكاد وصلتُ، ثم غلبنى جوعى وإنهاكى البردى، فأخذتنى الإغماءُ التى عالجنى منها كاهنُ الكنيسة.

قضيتُ أياماً بين الرهبان حاجاً. كانوا يتلطفون معى، غير أنهم أكثروا من سؤالى عن البلاد التى مررتُ بها والصعاب، وعمّن التقيتُ بهم من القديسين، أو زرتُ مقابرهم من الشهداء. وكانوا يلحّون فى السؤال عن الإسكندرية، فكنتُ أجيبُ بحسب ما يقضى به الحال والمقام، وبقدر ما يهدئ من شغف الرهبان والكهنة السائلين.

فى أيامى الأولى بأورشليم، كنتُ أفكر فى سِرِّ الحج! وأسائل نفسى عمّا أخرجنى من بلادى الأولى، وأتى بى إلى تلك البقعة المقدسة. أما كان من الممكن لى، أن أمسَّ جوهر القداسة فى نفسى، وأنا معتكفٌ فى صحراء قريبة من موطنى الأول؟.. وإن كان المكان يُجلى ما بداخلنا،

ويديه من أعماقنا السفّر، ألا يمكن للخشوع والتطهر ومداومة الصلاة وتسييح الرب وحياة الرهينة؛ أن يُجلوا ما فىنا من النعمة الإلهية والقداسة الكامنة؟.. فأين إذن بركة الأماكن؟.. هل البركة سرٌّ فىنا يفيض على الأماكن، إذا وصلنا إليها بعد رحلة توقٍ وشوقٍ؟ هل المهابة التى شعرتُ بها لحظة رأيتُ أسوار كنيسة القيامة، كان مرّدها إلى شعورى بالمبنى الهائل، أم أن مرّة الأمر إلى المعنى الكامن فى واقعة القيامة ذاتها؟.. هل قام يسوع حقاً من بين الأموات! وكيف له وهو الإله، أن يموت بأيدي البشر.. هل الإنسان قادرٌ على قتل الإله وتعذيبه، وتعليقه بالمسامير فوق الصليب!

- هل تريد الإقامة معنا فى الكنيسة، أم تقيم فى المدينة لتعالج المرضى من أبناء الرّب، والقادمين إلى هنا للحج؟

سألنى الكاهنُ الطيبُ بعد عدة أيام من وصولى، فتركتُ له الاختيار.. لا أحد يختار، وإنما هى مشيئة السماء تتخلل الأشياء والكلمات حتى تصلنا على نحوٍ خفى. قلتُ له ذلك، فابتسم راضياً. ثم كان ما أرادَه الله، وأنطق به كاهنُ كنيسة القيامة: يمكنك أن تسكن فى الصومعة التى بناها الراهب الرهاوى، بالقرب من ساحة الكنيسة. أعنى تلك الغرفة التى على يمين الخارج من بوابة المدخل الكبير. تُقيم فيها، فتكون معنا، ومع الناس فى الآن ذاته. الصومعة مغلقة منذ تبيّح^(١) ساكنها قبل عامين، رحمه الله، كان قديساً. سأطلب من خادم الساحة أن ينظفها لك، ويمكنك الإقامة هناك من يوم غدٍ.

أدركتُ وقتها أنهم كانوا قلقين منى، وما اطمأنوا بَعْدُ لهذا الراهب

(١) تبيّح: كلمة سريانية مازالت مستعملة فى الكنائس، بمعنى مات أو توفى؛ وهى فى أصلها السريانى تعنى: استراح. (المترجم).

المصرى الذى هبط عليهم من دون رسالة توصية، ومن دون إبانة عن سبب مجيئه. لو كنت قد أقمت داخل الكنيسة، فما كانوا سيقبلونى بين الرهبان، إلا بعد أعوام من الملاحظة. ولو أقمت فى المدينة، كان سيقتلنى صخبُ الناس! الموضعُ المقترح كان مناسباً، فهو متوسط بين المدينة والكنيسة. لاهو هنا ولا هناك، هو مثلى: بينَ بين.

بثَّ ليلتى الأولى فى صومعة الرهاوى كما كانوا يسمونها، سعيداً بأن أقيم فى موضع عُبد فيه الربُّ عشرين عامًا متوالية بإخلاص. رأيتُ فى ذلك بشارة خير وملاًذاً لروحي الحيرى.. وها هى كنيسة القيامة التى دُعيت إليها قريبة منى لصيقةً بى. ومن شباكى الوحيد يمكننى أن أرى، وفودَ الأنقياء والمؤمنين والموعوظين القادمين إليها للحج والزيارة طيلة العام.

الرهبان والكهنة الذين يخدمون كنيسة القيامة، طيبون وبسطاء. معظمهم تقرب منى، لما عرفوا بمزاولتى الطب وفن المعالجة.. لم يهتموا بكونى شاعرًا. اعتاد خُدام الكنيسة والشمامسة والقسوس الصغار، التودُّد إلَّيَّ والتردُّد على طلب المداواة. أما قدامى القسوس وكبار الرهبان، فكنتُ أذهب إليهم داخل الكنيسة إذا استدعونى.

كانت أغلبُ أمراض الناس فى أورشليم ناشئة من الجفاف، وعدم تنوع الطعام. أَكلهم واحدٌ معظم الأوقات زيت الزيتون، خبز الخشكار المصنوع من الدقيق الأسمر غير المنخول، جبن الماعز، الفواكه الفقيرة.. عيشة الناس فى أورشليم خشنة، وجو المدينة لطيفٌ صيفًا فى معظم الأيام، لكنه قارسُ البرد فى الليل، وفى الشتاء.

لما هدأت نفسى قليلاً بعد شهور من إقامتى، وسكنتُ شكوكى مع كثرة المحيطين بى من المؤمنين. بدأتُ فى نظم التراتيل الكنسية، بالشرائية، مستلهماً الروح السماوى الذى يجلل المكان ويملؤه رهبة.. من أشعار هذا الزمان، قولى فى ترنيمة طويلة:

من هنا بدا نور السماء،

فأزاح عتمة الأرض، وأراح من الويل الأرواح.

من هنا أشرق شمس القلوب،

مع ألقِ المخلص، المتوهج بالرحمة فوق صليب الفداء.

وما الصليب؟

هو قائم القدوسية الرأسى يقاطعه قائم الرحمة.

فلنفتح لأفق الرحمة، ذراعينا، ونتصب بإزاء القدوسية.

فكنون صليبا يحمل صليبه،

ويتبع يسوع.

مضت بى الأيام فى أورشليم هادئة، حانية، رتيبة، حتى مرَّ شتاء العام الأربعين ومائة للشهداء، الموافق للسنة الرابعة وعشرين وأربعمائة للميلاد، وراحت المدينة تستعد لأعياد القيامة المجيدة وأسبوع الآلام. صرتُ أرى مزيداً من قوافل التجار العرب، تحطُّ فى الساحة الممتدة أمام الكنيسة. وكثرت ألوان البضائع على رفوف دكاكين المدينة، التى كانت من قبل خاوية. كان الناس فى ابتهاج، وكان قلبى يضطرب كلما اقترب أسبوع الآلام. ظلَّت أحلامى تتوالى قبل الفجر مخبرة عن قرب وقوع أمرٍ عظيم، فكنتُ أطرُد عنى تلك الخواطر. قبيل العيد، تزايد زوَّارى من المرضى الوافدين.. كثيرٌ منهم كانوا يعانون أمراض السفر، خاصة كبار السن منهم. كنت أعالجهم بمرطبات البدن، وبالأدوية التى يسميها الأطباء مفرحات القلب، من دون أن أخرج بالمرضى عن مألوفه من الطعام والشراب، إلا بقدر ما يعينه على استنهاض قوته.

من بين المواكب الكثيرة التي كانت تمرُّ بى فى طريقها لزيارة الكنيسة، كان لموكب مدينتى أنطاكية والمصيصة مهابة خاصة. عشرات من القسوس والرهبان والشمامسة يمشون فى زِيَّهم الكنسى المهيِّب على بساطٍ من وقارٍ، يتقدَّمهم حاملُ الصليب الأنيق المزخرفة حوافه بماء الذهب. ومن ورائه بسبع خطواتٍ، يسير على بساط الهيبة العلامةُ المفسِّرُ تيودور أسقفُ المصيصة^(١). ومن ورائهم جمعٌ غفيرٌ من المؤمنين والموعوظين، يرَدِّدون بلسانٍ واحدٍ: **أَوْصَنَّا لابن داود أَوْصَنَّا فى الأعلى.. مبارك الآتى باسم الرب.**

كنتُ أنطلع إليهم من شباك صومعتى مبهورًا، فأرى الموكب الداخل إلى الباب الكبير للكنيسة، كأنه جمعٌ من الملائكة نزل إلى الأرض من السماء. عددُ القسوس كان يزيد عن عشرين، والشمامسة قرابة المائة، والتابعون السائرون وراءهم يخرجون من كثرتهم عن الحصر. بدأ الأسقف تيودور متعبًا ومبتهِّجًا، تمنيتُ لو اخترقتُ الموكب، فوصلتُ إليه رأسًا، وقبَّلتُ يده فقبَّلَ رأسى، مثلما جرى مع الرجل ذى الملامح الكردية والزنى الدمشقى. لى تلك الصبوة، وليس لى ذاك الإقدام. كانت السماء تعلم ما فى نفسى، وبطرائقه السماوية الخفية يَسَّرَ لى الربُّ بعد يومين لقاءً مع الأسقف من حيث لم أتوقع.. ففى اليوم التالى، جاءنى أوان العصر قَسَّ أنطاكي واثنان من الشمامسة، وسألونى أن أصبحهم لمقر إقامة الأسقف بشرقى

(١) عند هذا الموضع، كُتب بقلم دقيق فى هامش الرُّقِّ، باللغة العربية: من العجائب التى جرت معى، أننى قبل يومين رأيتُ فى منامى قداسة الأسقف تيودور المفسِّر، يبارك رحلتى هذه إلى أورشليم، ويدعونى للإقامة فيها بقية عمرى!.. والأسقف واحدٌ من أجلاء آباء كنيستنا، وما نزال نقرأ فى أديرتنا، شروحاته على الأناجيل المقدسة وأعمال الرسل. وهى مكتوبة بلغتها اليونانية الأصلية، ولم تُترجم فيها نعلم لى لغة العرب (...). الذين صرنا اليوم نعيش بينهم، وتكلم لغتهم (...).

المدينة، للاطمئنان على صحته. هكذا قالوا. سألتهم بلطفٍ مستغريًا من أن وفدهم ليس فيه طبيب! فقال القَسَّ إن طبيب كنيستهم معهم، ثم أضاف بلطفٍ ونبرة هادئة:

- ولكن القَسَّ نسطور، يريد أن يطمئن أكثر على صحة الأسقف المبعجل تيودور.

كانت تلك هى المرة الأولى التى أسمع فيها اسم نسطور، وسيكون ذلك هو اليوم الأول الذى أراه فيه.. قمْتُ معهم بعدما ملأت جرابى بأعشابٍ مفرَّحة وأدويةً مقويَّة للقلب وبزورٍ مصلحة للمعدة. أغلقتُ باب صومعتى بإحكام، وسرنا معًا يتقدَّمنا القَسَّ الأنطاكي. مشينا قرابة نصف ساعة، كانت كفيلة بأن تُسقط من وجوهنا تحت شمس الظهيرة، حَبَّاتِ العَرَق. كنتُ فى زِيَّ رهبانٍ أورشليم، الذى كان الكاهن الطيب قد أهداه لى قبلها بشهر واحد، كعلامةٍ على قبولى بينهم. عند الباب استقبلنا قَسَّ من المصيصة، وسقانا ماء باردًا شكرتُ عليه الرب. أحسستُ فجأةً أننى مقبلٌ على أمرٍ عظيمٍ لما دخلتُ مقر إقامة الأسقف حيث يمتدُّ ممرٌ طويل، فى أقصى يمينه بابٌ أتانى منه صوتٌ وقورٌ هادئ:

- أيها الطبيب المبارك والأب الجليل، إن قداسة الأسقف تيودور يتحدث للضيوف. فهل تريد الدخول الآن، أم تنتظر هنا حتى يخرجوا؟

سألنى القَسَّ المصيصى بلطفٍ، فاستأذنتُ منه أن أدخل لأسمع، إن كان ذلك ممكنًا. هزَّ رأسه موافقًا، بوقارٍ، وبرفق فتح لى الباب. كانت الغرفة فسيحةً ظليَّة، مسقوفةً بالجريد وهوأها طيبٌ. فى وسطها حصيرٌ مرشوشٌ بالماء المطيب بروح الريحان، وعلى جوانبها الأربعة أرائك مصفوفة يجلس عليها، كلها، رجالٌ طيبون. رهبانٌ وكهنةٌ وشمامسة، قِابة

الأربعين رجلاً، تدل ملامحهم على أن أغلبهم من أهل الشمال. بشرتهم بيضاء من غير سوء، ولحاهم مشرقة بالبياض والصفرة. حتى أنني خجلت من سمرتى وشحوبى، ولحيتى الشعثة التى لاتدل على طبيب ماهر.

لم أكن أحرص أيامها على تهذيب لحيتى، مثلما فعلت مؤخرًا. جلست عند أقرب موضع من الباب، وفى منتصف الجهة المقابلة كان الأسقف تيودور جالسًا على كرسى خشبى عتيق ذى مسندين. لم ينتبه لدخولى الهادئ وجلس على الأريكة المواجهة لكرسيه من بعيد. جذبتنى كلماته، وانتبهت بكلى لمعانيه الدقيقة التى طالما استشعرتها فى نفسى. عباراته الرائقة نفذت بيسر إلى قلبى وعقلى. حفظت يومها كثيرًا من كلامه، وبعد عودتى لصومعتى فى المساء دونته.. كان يقول باليونانية، ما ترجمته:

فمن هذه الأرض المقدسة التى نشرف بالحج إليها، أيها الأحبة، بدأ زمان الإنسان الجديد. إن يسوع المسيح فاصل بين زمانين، وهو مفتتح العهد الثانى للإنسانية. الزمان الأول ابتدأ مع آدم، والثانى بدأه المسيح يسوع. ولكل زمان منهما طبيعة وأحكام كانت معلومة لآلهنا الرحيم منذ الأزل. الآب السماوى خلق آدم على صورته، ليكون خالداً. غير أن آدم انخدع بوسوسة إبليس، فعصى الرب القدوس، وأكل من الشجرة المنهى عنها، على أمل أن يصير إلهاً. خدعه عزازيل اللعين بوسوسته، فأخطأ آدم، وعوقب بالطرد من الجنة، بحكم قدوسية الرب الإله.

ولكن، لأن الرب برحمته يحب الإنسان، وقد خلقه فى الأصل بريئاً. لم يشأ أن يتركه موصوماً بالخطية الأولى إلى أبد الأبدى. وغلبت الرحمة على الرب، فأرسل ابنه الوحيد، يسوع المسيح، فى صورة بشرية كاملة، ليفدى الإنسان، ويخلص العالم من خطية آدم، ويفتح بتضحيتته الزمن الجديد للإنسانية، ويرسل من بعده التلاميذ الهادين لنا، المهددين إلينا الأناجيل.. وما معنى كلمة: الإنجيل؟ إنه كما قال يوحنا ذهبى الفم،

القدیس: الأخبار المفرحة. لأن الإنجيل بُشرى بالعفو عن العقوبة، وغفران للخطايا، هو تبرئة وتقديس، وميراث سماوى، صار معه عزازيل فى خيزى، وصرنا مطّوئين بفيض الرجاء.

كان صوت الأسقف تيودور يرن فى جنبات الغرفة الفسيحة، وقد خيم الخشوع على كل الجالسين، وتعلقت عيونهم بالأسقف مثلما تعلقت به عيناي. وددت ساعتها لو كنت قد بدأت دراستى اللاهوتية على يديه، واغترفت من ينبوع تعبيراته الرائقة التى تنفذ إلى القلب والعقل، فتتقد الروح من قلق الشكوك. ذهبت لحظة مع أفكارى، ثم عدت للانتباه لَمَّا أضاف أسقف المصيصة، تلك البلدة الطيبة التى بقلب الأناضول، وقد صار صوته أكثر عذوبةً ورنيناً فى جنبات المجلس المبارك:

انظروا أيها الأحياء إلى عِظَات يسوع المسيح، وأبشروا بكلماتها المفرحة التى حفظها لنا القديس متى الرسول فى إنجيله. يقول لنا فى كل زمان ومكان: طوبى للودعاء؛ فإنهم يرثون الأرض، طوبى للحرّان؛ فإنهم يُعزّون.. فهل جاءت قبل المسيح بشارّة كهذه؟ وإشارة بالغطّة مثل تلك؟ واعلموا أن المسيح أتى من أجلنا، فعلياً أن نعيش من أجله. إن تجشده وآلامه وموته وقيامته، انتصار على الشيطان، وتكفير عن ذنوب الإنسان الأول، المخدوع، الخاطئ. وإيماننا بالمسيح، هو خروج من زمن الخطية إلى أفق الخلاص الذى منحتنا إياه مشيئة الرب. فكونوا أيها الأحبة مسيحيين، وادعوا شعبكم إلى الإيمان ليكنوا، وتكونوا معهم، أبناء الله حقاً فى الزمان الإنسانى الجديد. اعبروا الجسر الممتد فوق آلام يسوع، لتكونوا كاملين مثل أبيكم السماوى الكامل. وعلامة عبورك، هو العماذ. العماذ ميلاد. هو قيامة للروح من موات الجسد، دخول فى النعمة وتوحد مع المسيح. العماذ خلاص وخلق جديد، فاعرفوا بقلوبكم سير المعمودية.

حين لفظ الأسقف كلمة المعمودية، أخذتني رجفة خفيفة لم يلحظها أحدٌ، إلا قسّ صبوح الوجه في حدود الأربعين من عمره، جالسٌ يمين الأسقف. عرفْتُ بعدها أنه كان سبب استدعائي. هو قسّ أنطاكيّ شهير، أصله من بلدة جرمانيقي (مرعش) اسمه الكنسيّ نسطور، وهو من أخلص تلاميذ الأسقف تيودور، ومن أشدّ المعجبين بتفسيراته للأناجيل.

مع مغيب الشمس، بدا الإعياء على أسقف المصيصة، فهدأت نبرته وخفت صوته وهو يختتم كلامه لسامعيه الذين غلبت على هيبتهم الغبطة الروحية، فكان حديثه رفعهم إلى السماوات العُلا.. كان آخرُ ما قاله لهم: ما كنّا إلا موتى، كتب علينا آدمُ الفناء حين ارتكب الخطية بعصيانهِ لخالفه، وبقي إبليس خالداً. ولما ظهر لنا الربُّ في المسيح، صارت لنا بالنعمة الإلهية، فرصةٌ للنجاة من الفناء والموت، بالتوبة.. وبالدخول إلى أفق الخلاص، من باب المعمودية.

تملّمل قسّ عربيّ الملامح، طاعنٌ في السن، فكأنما أراد أن يقول شيئاً. ولما نظر إليه الأسقف تيودور مشجعاً، سأله القسّ عن أمرٍ دقيق، قال: كيف ورثنا عن آدم خطيئة العصيان لأمر الله، وما هو ذنبنا نحن أبناء الذين لم نفعل هذه الخطية؟ ردّ عليه الأسقف، مبتسماً: نحن نفعل خطايا أخرى كثيرة، لا تتعلّق خطراً عن عصيان الأكل من الشجرة المحرّمة. نفعل ذلك، ونحن أبناء يسوع، ليس لأننا ورثنا عن آدم خطيئته، بل لأننا ورثنا عنه النزوع للخطية والاستعداد لها. وهذا حديثٌ طويلٌ أيها الأب المبارك، وقد نفيض فيه في جلسةٍ مقبلة..

نهض نسطور مؤذناً بانتهاء الدرس، فتهيأ الجميع للانصراف. حجّبا عنى رؤية الأسقف تيودور حين أقبلوا عليه للتبرُّك بتقبيل يده. وقفْتُ، فرأيتُ نسطور ينحني ليأخذ بيد الأسقف، ويفوت به من وسط الجمع

إلى غرفته.. حين مرّ من أمامي، نظر نحوي بمودةٍ صافية، كأنه يعرفني من زمنٍ طويل. نظرتُه أربكتني.

استدعوني بعد ساعةٍ طويلة أمضيتها في الغرفة الفسيحة مع بعض الرهبان والقسوس، قدّموا لي خلالها طبقاً مغطىً بمنديلٍ دمشقيّ مزركش الحواف، فيه خيراتٌ من الفواكه الطيبة التي تُثمر فوق أشجار الشمال.. لم يكن الأسقف تيودور يعاني من مرضٍ محدّد، وإنما كانت سنواته الأربع والسبعون، مع مشقة رحلة الحج، قد أجهدتاه. أدركتُ ذلك قبلها بيومين، حين مرّ أمامي في إهابه المهيّب وهو يتقدّم الموكب. غير أنّي لم أشأ التعجّل بإبلاغه بما عرفته من حاله، بل اقتربت منه مُظهرًا ما يليق به من اهتمام وتبجيل، وتناولت يده برفق فقبلتها، ثم رُحْتُ أجسّ نبضه. كان ضعيفاً بعض الشيء. أخرجتُ من زوّادتي بعض الأعشاب المقوية للنبض، المنشطة لجريان الدم من القلب. طلبتُ أن تُغلى على نارٍ هادئة ثم تُترك لتبرد، فيشربها فاترةً. أشار نسطور إلى أحد الشماسة الواقفين عند الباب، فأسرع في تنفيذ ما طلبتُ. وبقينا صامتين لحظةً، كان الأسقف تيودور ينظر خلالها نحوي، وكنتُ أنظر نحو أقدامي.. عندما دخل الخادم حاملاً القدح، تناول منه نسطور شربة قبل أن يقدّمه إلى الأسقف.

- كيف وجدت طعمه يا نسطور الحبيب؟

- طيبٌ يا نياقة الأسقف، وفيه حلاوةٌ وعطرية، وسيكون فيه الشفاء، بمشيئة الرب.

استبشر الأسقف، وبدت على وجهه علامات الارتياح. اعتدل في جلسته، وهَمَّ بارتشاف القدح وهو يقول:

- بوركِتُ يا نسطور، وبوركِتُ أيها الأب الطيب. ما اسمك؟

- هيبا، يا نياقة الأسقف.

- عجيبٌ. متى اتخذت يا مصريّ، هذا الاسم غير المصريّ.

- بعد خروجي من الإسكندرية يا أبتِ.

- ومن أين دخلت إليها؟

بلطف بالغ، تدخل نسطور في الحوار، راجياً الأسقف أن يرقد قليلاً ليرتاح. رَدّه الأسقف تيودور بابتسامةٍ عذبة، وداعبه بمودةٍ قائلاً:

- دَعْ عنك مشاعر الأوبة يا نسطور، فإن أبي مات منذ زمن طويل، وأنا في طريقى إليه.. فدعني أحادث الطبيب الراهب، فأنا مرتاحٌ للنظر إليه. فالاندهاشُ البرئ الساكن في عينيه، يذكّرني بالدهشة التي كنت أراها في عيني شقيق روحى، يوحنا فم الذهب، حين كنا صغاراً.

هَزَّ نسطور رأسه مستسلاً، وتهيئاً للترحُّل عن المجلس وهو يقول بصوتٍ خفيضٍ رقيقٍ:

- كما تحبُّ يا صاحب النياقة.. سأراك يا هيبا بالغرفة الكبيرة، بعد أن تفرغاً من حديثكما.

- لا يا نسطور، اجلس معنا. وأنت يا هيبا، قل لى أين وُلدت، ومتى دخلت الإسكندرية؟

أشار نسطور إلى الشماسة الثلاثة والخادمين الذين كانوا عند الباب، فانصرفوا جميعاً. لم ينقطع حديثنا، إلا حين دخل خادم الثُرُل حاملاً طعام العشاء على طاولة خشبية قديمة، وضعها إلى جهة اليمين من سرير الأسقف. اعتدل تيودور عن اتكائه، ودعانا للتحلق حول الطعام مداعباً نسطور بقوله، بالسريانية: قد تكون هذه اللقيمات، هى العشاء الأخير بالنسبة لى.

- فليمد لنا الربُّ الرحيمُ فى عمرك يا أبتِ، فنحن أبداً فى حاجة إليك.

أكلتُ معهما على استحياء.. كان الأكل طيباً شهياً، ولما امتدحتُ مذاقه، قال لى القسّ نسطور مماًزحاً: هو طعامٌ مباركٌ، مطهّرٌ بالمزامير، على نار التَّشبيحة الهادئة! ابتسمنا لدعابته، وعاد الأسقفُ للالتفات ناحيتى مشجّعاً على إكمال ما كنتُ أحكيه. كنتُ قبلها قد أخبرته بمولدى فى القرية التى بجنوب أسوان، ويدراستى فى نجع حمادى وأخميم. وبالطبع، لم أقصّ عليه ما وقع معى من فواجع عند طرف جزيرة الفنتين، وما جرى أمامى من أهوال فى الإسكندرية، ثم هجأجى منها يومَ الفزع العظيم. كان الأسقفُ مهتماً وهو يسمع لى بإصغاءٍ مهذبٍ، وكان مبتسماً، فلم أشأ أن أبَدَّ ابتسامته بحكاية الفواجع وذكّر صوادم الأيام.. سألتنى وهو يمزغ لقيمةً قدّمها له نسطور مغموسةً فى زيت الزيتون والسعتر الجبلّى:

- هل درست المنطق يا ولدى؟

- نعم يا نياقة الأسقف، درسته فى أخميم على يد رجلٍ غير مسيحى، أصله من ناحية أسيوط. كان ماهراً فى الفلسفيات القديمة، ومتبحراً..

- هذا منطقى يا ولدى. فمن هذه الناحية جاء أهتم فيلسوف. أتعرف يا هيبا، مَنْ أقصد؟

تردّدتُ قليلاً ثم قلت مُنصتّعاً الأدب، حسيماً يلى بمقام الأسقف:

- لا، يا نياقة الأسقف، لا أعرف!

- قُلْ له يا نسطور.

- نياقة الأسقف يقصد أفلوطين.

- نعم يا أبتِ نسطور، نعم.

ابتسم نسطور وهو ينظر إلى بطرف عينه، بما معناه أنه أدرك أننى أحجمتُ

عن الإجابة تأدباً مع الأسقف، فنظرتُ إلى أصابع قدمي خجلاً. لم يلحظ الأسقف تيودور شيئاً من ذلك، فقد كان يحلّق بنظره في سماء الغرفة.. بدا لي كأنه يحدث نفسه، أو يناجي رفيقه القديم يوحنا فم الذهب، قائلاً:

- إنني أفكر كثيراً في أفلوطين، وفي مصر. فأرى أن كثيراً من أصول الديانة أتت من هناك، لا من هنا! الراهب، حُب الاستشهاد، علامة الصليب، كلمة الإنجيل.. حتى الثالوث المقدس، هو فكرة ظهرت أولاً بنصوح عند أفلوطين، وقد قال في كتابه التاسوعات..

لا أعرف كيف اندفعت فجأة، فقلتُ بلا روية مقاطعاً تأملات الأسقف: لا يا أبت، ثالوث أفلوطين فلسفيّ؛ هو عنده: الواحد والعقل الأول والنفس الكلية، والثالوث في ديانتنا سماويّ ربانيّ: الآب والابن وروح القدس، وشتان بين الاثنين.

- مهلاً أيها الراهب، لا يجوز لك أن تقاطع نياقة الأسقف هكذا.

أوقفنتي عبارةً نسطور الحاسمة، عن اندفاعتي المبالغية التي ما كان لها معنى. لحظتها اعتراني خجلٌ لم يخفّف منه عطفُ الأسقف تيودور، الذي نظر نحوي بحنو بالغ، وعلى وجهه الابتسامة ذاتها. غير أنها صارت باهتةً بعض الشيء، ومُتعبة.

وضع الأسقف يده اليمنى على كتفي اليسرى، ودعا لي بالبركة وهو يرسم الصليب فوق جبهتي بإصبعه، ثم تزخّف نحو مخدّته.. وهكذا لم يبق أمامي إلا الانصراف، بعدما اعتذرتُ للأسقف متلعثماً. وقد وددتُ لو تبتلعني الأرض، لأخلص من خجلي.

- لا عليك يا هيبا. الشباب شعلّة متأجّجة، وقد كُنّا في مثل عمرك متأجّجين مثلك. يا نسطور الحبيب، اصحب الراهب الطيب إلى الخارج. وترقّق معه، فإنني أحبيته.

- لا تقلق عليه يا أبت. سأمشي معه إلى حدّ صومعته، عند بوابة كنيسة القيامة؛ فأنا ذاهبٌ إلى هناك لأداء صلوات الليل، وحضور القدّاس.

- باركك الربُّ يا نسطور.

لما خرجنا من التُّرل، سار من خلفنا اثنان من الشمامسة، ورجلٌ نحيلٌ في حدود الأربعين من عمره، أظنه كان من خُدّام أسقفية أنطاكية. مشوا خلفنا على مقربة، ومشينا صامتين. نسطور يسبح في خفوت، وأنا خجلان في صمت.. في منتصف الطريق، فأتحنى بالسؤال: هل قرأت يا هيبا كتاب أفلوطين المسمّى التاسوعات؟ فأجبتُه بحذر:

- نعم يا أبت، ودرسته عدة شهور في نجع حمادى.. ومعى نسخة منه، يزيد عمرها عن مائة عام.

- جيد، أحبُّ أن أراها.

طمأنتني إجابته، فطرحْتُ عني بعض حذري. وقد وددتُ أن يستمرّ بيننا الكلام، فقلتُ إن الكتاب في صومعتي، ثم أضفتُ متردداً:

- وعندي أيضاً كتابٌ آخر قد تحب أن تراه! قد تحب.. هو كتاب آريوس، الذي عنوانه: ثاليا.

- ثاليا! هذه القصيدة قرأناها منذ زمنٍ في أنطاكية، وكنتُ أظنُّ أن نسختنا هي الوحيدة التي نجت من الحرق. دعني على كل حال أرى نسختك، هل هي كاملة؟

- نعم يا أبت، ومكتوبة بالقبطية على ورق البردى.

- بالقبطية! عجيب.. بكم لغةٍ تقرأ يا هيبا؟

- أربع يا أبت: اليونانية والعبرية والقبطية والآرامية. وأحبُّها إلى قلبى الآرامية، لأنها اللغة التى تكلم بها يسوع المسيح.

- لم نعد نسميها الآرامية، بل نقول الشريانية، لىتميز زمانها المسيحى المبارك عن زمانها الأول، الوثنى واليهودى.

- أوافقك الرأى يا أبت، أوافقك تمامًا. فاللغة لاتنطق بذاتها، وإنما ينطق بها أهلها، فإن تغيروا تغيَّرت. وكلام يسوع المسيح غير اللغة مثلما غير أهلها، لقد صيَّرها لغة مقدَّسة.

- صحيح يا هيبا، صحيح يا ولدى..

كان كلامه معى مؤنسا، فطرحْتُ عنى المزيد من حذرى، وأحببتُ أن يمتدَّ حديثنا إلى آخر الليل. كانت خطانا الهادئة قد قادتنا من الشوارع الضيقة، إلى الطرق الرحبة.. لما اتسعت أماننا الساحة الفسيحة، بدت الكنيسة الكبيرة بقبابها العالية، كأنها حلمٌ يلتف بالسواد المزخرف بنجوم الليلة الربيعية الرائقة. كانت صومعتى قد ظهرت لنا من بعيد، حين قال نسطور بعد هنيهة من صمت:

- حفظك الربُّ يا هيبا.. بمناسبة كلام السيد المسيح، هل لديك نسخة من إنجيل توما؟

- نعم يا أبت، وعندى أيضًا نسخة قديمة من إنجيل المصريين، وإنجيل يهوذا، وسفر الأسرار.. فأنا أحبُّ اقتناء الكتب.

ابتسم المبعجل نسطور وهو يقول إننى أحتفظ بكل الكتب الممنوعة! فقلتُ إن الكتب المسموح بها، موجودة فى الكنيسة، وفى كل مكان! فأتسعت ابتسامته. اغتنمتُ الفرصة السانحة، فدعوته إلى صومعتى، من بعد أن نؤدى صلاة الليل فى كنيسة القيامة. أعجبتُه الفكرة فوافق، وسعدتُ بموافقته. لم أكن أعلم أن هذه الجلسة التى طالت بنا إلى حدود الفجر،

سوف تتحوَّل معها حياتى، وأتحوَّل بعدها من أورشليم إلى الشمال، حيث يستقر بى المقام اليوم فى هذا الدير المنفرد بذاته، النائى عن بلادى الأولى.. الموغل فى النأى.



عدنا من الكنيسة الكبيرة إلى صومعتى، مستبشرين بقاءٍ مفعم بالمحبة. شعرتُ ليلتها باطمئنانٍ غامرٍ فى رفقة نسطور. فتحتُ باب الصومعة، وأضأتُ السراج النحيل الذى كان معلقًا بالركن الأيمن، وأبديتُ لضيئى الكبير الترحاب. لما فتحتُ شباكى الوحيد، سرَّت فى الصومعة نسمة باردة أتت من السماء الصافية، فامتلاأت الأجواء بنسمات المحبة. نظر نسطور طويلاً فى صورة العذراء المعلقة فوق سريرى، ولم يقل شيئاً.. بعد حين، أجال عينيه فى أرجاء الغرفة، وقال:

- صومعتك نظيفة ومرتبّة يا هيبا، تدلُّ على شخصيتك. أين الكتب التى حدثتني عنها؟

- تحت السرير الذى تجلس عليه يا أبت.

- نادنى باسمى يا هيبا، فكلنا أخوة.. كلنا خرافٌ ضعافٌ فى حظيرة الرب.

- بل أنت يا أبت، أقرب إلى الراعى. حفظك الرب بعنايته الأزلية الأبدية.

ضحك نسطور بعدوبةٍ نورانيةٍ، وهو يقوم لىسبح لى الفرصة لطىّ الكليم الدمشقى المنسوج من وبر الجمال، الكليم المزركش الذى ما يزال إلى الآن مفروشًا تحتى، بل هو فرشتى الوحيدة منذ ذاك الزمان. رفعتُ ألواح السرير، فبدت الكتبُ ولفائفُ البردى. لما رفعتُ اللوحة

الأخرى وانكشف كنزى المخبوء كله، أطل تنسطور من شباكى، ونادى على التابعين الثلاثة، ولما اقتربوا منه أمرهم بالعودة إلى التزل.

- يبدو أنى سأبيت الليلة عندك، يا هيبا.

- يسعدنى ذلك يا أبت المبجل. سأنام أنا على هذه الأريكة.

- لا أظن أن أحدا منا سوف ينام الليلة!

طيلة الوقت الذى كان نسطور خلاله يقلب كنوزى بعناية، كنت ألتفت دوماً إلى ملامحه البهية المشرقة، بينما أعدد لكلينا مشروب النعنع الجبلى الفواح الدافئ، وطبقاً من البلح والتين المجفف.. فى هيئته وقارٌ وطيبة أصيلة، عيناه الواسعتان لونهما مشوبٌ بخضرة وعسلية، وفيهما شغفٌ وذكاء. فى وجهه الأبيض حمرة خفيفة، وفى لحيته الأنيقة اصفرارٌ لطيفٌ، وقليلٌ من الشعر الأبيض الذى يزيده بهاءً. فى سمته صفاءٌ ربانىٌ يفتقر إليه كثيرٌ من الرهبان، الكبار منهم والصغار.

بعدما قرّبت منه كوب النعنع، وزدّت من ضوء السراج. جلستُ على الأريكة المواجهة للسرير المخبأ، أتأملُ ابتسامته البهية. رأيتُه أنموذجاً سماوياً لما يجب أن يكون عليه رجل الدين. انتبهتُ إليه حين قال وهو يهزُّ رأسه اندهاشاً:

- تحطّب شيشرون! يالك من ماكر أيها الراهب المصرى، أنت تحبّ الفصاحة مثلنا.. وما هذا المجلد الكبير؟ مدينةٌ الله.

- نعم يا أبت الجليل، هو كتاب الأسقف أوغسطين. هذان الجزءان هما الأول والثانى منه، فهو لم يتمّ الكتاب بعد.

- أعرفُ يا هيبا، أعرفُ. لكننى أستغرب وصوله إليك هنا.

- يا أبت الجليل، الحجاج يأتون معهم بكل جديدٍ وقديمٍ، فيهدونى

الكتب أحياناً، وأحياناً أشتريها منهم. على أن هذا الكتاب ليس جديداً تماماً، فالجزء الأول منه مؤرّخ بالسنة الثالثة عشرة بعد الأربعمائة لميلاد مخلصنا المسيح.. مضى عليه أكثر من عشر سنوات.

سألنى إن كنت أعرف دلالة تاريخ تأليف الكتاب، فنفيتُ تأدياً، وطلبتُ منه التفضّل علىّ بإخبارى؛ فاستدار نحوى وقد ازدادت ابتسامته إشراقاً وزينةً ربانية. أخبرنى بوقائع كنتُ أعرفها، ولا أربط بينها؛ قائلاً ما ملخصه: أوغسطين رجلٌ مبارك، ولم يسبقه فى أسقفية أفريقية من هو مثله، وربما لم يسكن مدينة هيبو، من هو مثله فى الفضل والهمة العالية. لكنه التحق بخدمة الرب متأخراً، بعدما قضى معظم حياته جندياً، وخاض حروباً كثيرة. وفى العام العاشر بعد الأربعمائة للميلاد المجيد، جرت الحرب التى سقطت فيها روما سقوطها المدوّى، بأيدي القوط، وإن كانوا لم يخربوها، كما كان متوقعاً منهم. وروما كما تعلم، هى عاصمة العالم ومدينة الدنيا. وإذا سقطت الدنيا، تعالت السماء! وفى مقابل سقوط مدينة الإنسان، يكون المجد لمدينة الله.. لقد أراد الأسقف أوغسطين بعدما أمعن فكره لسنواتٍ ثلاثٍ تلت سقوط روما المؤقت؛ أن يعلن سقوطاً أبدياً. ويعلن بعنوان كتابه، أن مدينة الله لن تسقط أبداً، مثلما سقطت مدينة الإنسان التى هى فانية بالضرورة. وأراد أيضاً، أن يُبرئ المسيحية من اتهام الجهال لها بأنها سبب السقوط المروع لروما..

ثم سألنى عن بقية كنزى المخبوء، فأخرجتُ له الكيس الذى أحفظ فيه النصوص المصرية. راح يسألنى عن عناوين الكتب ولفائف البردى

القبطية، فأجيبه، أو أجيبه من قبل أن يسألنى .. بعدما نظر طويلاً فى الترجمة القبطية لميمر الرحلة المقدسة، الذى كتبه الأسقف ثيوفيلوس الإسكندريّ، اكتست ملامح نسطور بالأسى، وأخذ شروذ مفاجئ لم أدر له سبباً. قلت، كى أخرجه من شروده:

- ميمر الرحلة المقدسة، كتاب مشهور فى مصر. ألم تر أصله اليونانى يا أبت؟

- رأيته، لكنى يا هيبا أفكر فى جرأة هذا الأسقف. كيف له أن يحكى عن السيدة العذراء، مريم المبجلة، ويورد عنها الأوصاف والأقوال، غير مستند إلا لدعواه بأنه رآها فى منامه .. هه، ما علينا من ذلك. ما هذه اللقافة القبطية القديمة، وما هذه الصور الدقيقة المرسومة فيها؟

شكرت الرب فى نفسى، لأنه أدار دقة الحوار بعيداً عن سيرة الأسقف ثيوفيلوس وكتابه. فقد كنت، ومازلت، اضطرب قلقاً كلما طرّق سمعى، ذكر أساقفة الإسكندرية. أجبت بسرعة على سؤال نسطور الأخير:

- لا شئ يا أبت، إنه كتاب الخروج إلى النهار، الذى يحكى عن يوم البعث، وعما يجب أن يشهد به الموتى على أنفسهم فى حضرة الآلهة، بحسب المعتقد المصرى القديم.. وتلك صور الآلهة القديمة، القديمة جداً.

- صورٌ بدیعة. ومن هذا الرجل الممسك بعجلة الفخار؟

- يسمونه خنوم، يا أبت.. الإله خنوم، الذى كان القدماء يعتقدون أنه يصنع البشر من طين الصلصال، ثم ينفخ فيهم آمون، ليهبهم الحياة. عقيدة قديمة يا أبت.. عقيدة قديمة.

خنوم، اسم عجيب. هل يذكرك شئ يا هيبا؟

نعم، يذكرنى بأشياء.. ولكن كيف عرفت يا أبت المبجل؟
- من اضطراب قلبك، بل أرى عينيك تكادان تدمعان.



لم يكن البوح يوماً من صفاتى، ولا الاطمئنان لأحد. غير أنى رحلت ليلتها، أحكى لنسطور عن معبد الإله خنوم الذى يستقبل جريان النيل، عند الطرف الجنوبي من جزيرة إلفنتين الواقعة جنوب مصر، بالقرب من أسوان. حكيت له عن المهابة المعقّنة والقدسية الميثوثة فى أرجاء المعبد وأسواره منذ قرون، وحكى عن أبى الذى كان يحمل السمك كل يومين، للكهنة الحزانى المتحصّنين فى المعبد منذ سنين. الكهنة المحصورين، المتحصّرين على اندثار ديانتهم، مع انتشار عقيدة المسيح. كان أبى يصحبنى فى قاربه، كلما زار المعبد ليقدم للكهنة نصف ما علق فى شبابه من سمك، خلال اليومين. كنا نذهب للمعبد خفية، وقت الفجر.

لم أستطع منع ما انفلت من دموعى، حين وصفت له فزعى المبهول فى ذلك الفجر المروّع، يوم كنت فى التاسعة من عمري؛ فقد تربّص بنا عوامّ المسيحيين عند المرسى الجنوبي، القريب من بوابة المعبد. كانوا يخبثون خلف الصخور من قبل رسو القارب، ثم هرولوا نحونا كأشباح فرّت من قعر الجحيم. قبل أن نفيق من هول منظرهم، كانوا قد وصلوا إلينا من مكمنهم القريب.. سحبوا أبى من قاربه، وجزّوه على الصخور ليقتلوه طعناً بالسكاكين الصدئة التى كانوا يخبثونها تحت ملابسهم الرثة. كنت أزوم متحصّناً بانكماشى فى زاوية القارب، وكان أبى غير متحصّنين بشئ، يصرخ تحت طعناتهم مستغيثاً بالإله الذى كان يؤمن به. كهنة خنوم أفرعتهم الأصوات التى شقّت السكون، فاصطفوا بأعلى سور المعبد ينظرون إلى ما يجرى تحتهم بوجل واضطراب.. كانوا يرفعون أيديهم

مبتهلين لألهتهم ومستصرخين! ما كانوا يدركون أن الآلهة التي يعبدون، ماتت منذ زمن بعيد. وأن دعاءهم الفزع، لن يسمعه أحد.. ولن يجير أبى من أولئك السفاحين أحد.. ولن يدرك عمق عذاباتي من بعد ذاك الفجر أحد.

- يا مسكين. وهل اقترب الجهال يومها منك؟

- ليتهم قتلوني لأستريح للأبد.. لا يا أبت، لم يقتربوا كثيرًا. نظروا نحوى بعيون ذئابٍ قد ارتوت، وجاءوا للقارب، فخطفوا مشنّة السمك، وقذفوا بها فى وجه بوابة المعبد المغلقة بإحكام، ثم حملوا جثة أبى المهترئة، فألقوا بها فوقها. اختلط دمه ولحمه وأسمائه بتراب الأرض التى ما عادت مقدسة، ثم تملكتهم نشوة الظفر والارتواء، فتصايحوا وقد رفعوا أذرعهم الملطخة بدم أبى، وراحوا وبأيديهم السكاكين الصدئة المضرجة بالدم، يلوحون فى وجه الكهنة المذعورين فوق السور.. مضوا من بعد ذلك متهللين، مهللين بالترنيمة الشهيرة: المجد ليسوع المسيح، والموت لأعداء الرب.. المجد ليسوع المسيح، والموت لأعداء الرب.. المجد ليسوع..

أخذنى النشيج، فقام نسطور ليأخذنى فى عباءته، وقد انكمشت مثلما فعلت أول مرة. جلس جوارى وهو يربت على رأسى، ويرسم علامة الصليب مرارًا على جبهتى، وراح يردد: اهدأ يا ولدى.. ثم قال: يا ولدى، حياتنا مليئة بالآلام والآثام، أولئك الجهال أرادوا الخلاص من موروث القهر بالقهر، ومن ميراث الاضطهاد بالاضطهاد، وكنت أنت الضحية. أعرف أن الملك عظيم، أنا أشعر به؛ فليشم لنا الرب الرحيم بعطفه.. ثم يا ولدى لنصلى معًا صلاة الرحمة.

- بأى شيء ستفنع الصلاة يا أبت.. من مات مات، ولن يعود؟

- ستفنع الصلاة يا ولدى.. ستفنع.

أتانى صوت نسطور وقد تهدجت نبرته. ولما رفعت رأسى عن صدره الحانى، رأيت دموعًا تبلل لحيتي، ورأيت عينيه تحتقان بالاحمرار والأسى. كان الألم مبثوثًا فى قسماوات وجهه، ومنعكسًا على جبهته التى اكتست بأسف عميق.

- لقد آلمتك يا أبت.

- لا يا ولدى، لا عليك.. قم لنصلى.

بخشوع العذراء صلينا، وأطلنا فى الصلاة حتى جاء النور، فصبغ سواد السماء زرقًا عميقة. فى جلستنا الصامتة عقيب الصلاة، كانت تأتينا من بعيد أصدااء صياح الديكة، وزقزقة العصافير التى كانت نائمة على أغصان الأشجار العتيقة فى ساحة الكنيسة.. أخرجنا نسطور من صمتنا، بدعوته للخروج معه كي نمشى حول سور الكنيسة، فنستقبل كما قال: بعضًا من رحمة الرب، فى هذا الفجر المبارك!



فى الوقت الممتد من بزوغ الضياء، إلى ارتماء نور الصبح على الأرض من حولنا. دُرنا مرتين فى الفراغ الفسيح المحيط بأسوار الكنيسة، ثم سرنا إلى الجهة المقابلة حيث تترأص البيوت وتتلاحم لتطمئن. فى نور الصبح إنهاك لمن أرقوا ليلتهم، إنهاك عاينته وعانيته منه طويلاً، ومازلت أعانيه فى معظم الأيام.. على وقع خطواتنا الهادئة، حكى لى نسطور بعضًا من ذكريات طفولته فى بلدة مرعش، وشيئا من وقائع شبابه فى أنطاكية، وحكايات كانت بينه وبين أستاذه تيودور المصيصى، وغير ذلك مما جرى

معه خلال سنى حياته. كان نسطور فى ذاك اليوم الأورشليمى الذى جمعنا من دون تدبير، يبلغ من العمر واحدًا وأربعين عامًا. وبالطبع، لن أحكى الآن ما حكاه لى يومها عن نفسه، فهذا مما لا يصح تدوينه ولا يجوز. فأنا أعرف أنه ما حكى لى ما حكاه يومها، إلا ليسرى عني، مؤتمناً إياي على أسرارٍ لاتخصني، ومن المحال أن أبوح بها هنا.

بعد نهاية دورتنا الثانية حول الأسوار، وعندما اتخذنا طريقنا نحو البيوت. رأينا الناس من بعيد يبدأون حركة أيامهم المعتادة، ولمحنا ثلاثة من الشمامسة الأنطاكيين ينتظروننا أمام باب صومعتى المغلقة، كانوا يتلفتون حولهم بقلق. لما وصلنا إليهم، ودعنى نسطور، وذهب معهم فى اتجاه مقر إقامتهم بعدما قال لى وقد عاودته ابتسامته، مثقلة بأحمال ليلتنا الطويلة: يمكنك أن تنضم إلينا اليوم ساعة الغداء، فإن لم تقدر، فسوف ألقاك فى ساحة الكنيسة بعد صلاة الساعة التاسعة. يقصد أوان العصر، حيث نقيم الصلاة الأخيرة من صلوات النهار.

عدتُ إلى صومعتى وقد بلغ بى الإنهاك غايته، حتى أن الوسن أخذنى عند الباب.. وحين دخلتُ ارتميتُ على سريرى، ونمتُ نومًا رحيماً خلا من أى أحلام. أيقظنى ساعة الظهيرة صَحَبُ الزوار عند باب الكنيسة، فقمْتُ ببدنٍ مُثقل وروحٍ مجهدة. وبخطوات مترنحة، سرْتُ نحو جرة الماء. شربتُ سهواً، ثم غَسَلْتُ وجهى بقطرات صبيبها على باطن كَفِّى.. لما فتحتُ جزءاً من شبابكى، انهمر النور، فملاً جنبات روحى بإشراقٍ مفاجئ. كنتُ أعيد ترتيب الكنوز المعبوءة تحت سريرى، حين أخرجنى من السكون طرْقٌ خفيفٌ على الباب، ومناداةٌ اعتدتُ عليها أيامها: يا أبتَ الطبيب الراهب.

كان الطارق رجلاً عربياً يلبس زِيَّ التجار، جاءنى يشكو ماءً نزل بعينه اليسرى قبل سنين، وصار يغشى عينه اليمنى. ولأن الماء الذى بعينه، لم

يكن متجمّعاً فى موضع واحد بحيث يمكن سحبه بالأنبوب الدقيق، أعطيته مسحوقاً بتضمّد به، وطلبتُ منه أن يعود بعد شهرين.. بعد شهرين! تُرى، هل عاد الرجل بعد الشهرين، فلم يجدنى هناك؟

سألنى العربى يومها عن الأجر، فقلت عبارتى المعتادة: أجرى عند الرب. ويمكنك إن شئت أن تهب شيئاً على سبيل التبرع للكنيسة. تركنى الرجل بعدما أن شكرنى محاولاً تقبيل يدى، ولما أغلقتُ بابى وراءه عدتُ إلى عالمى الداخلى المليء بشجون المسجون، وبالإشراق المفاجئ الذى تملكنى من غير تمهيد. أكملتُ ترتيب كتبى ولفائفى، وأعدتها تحت سريرى مثلما كانت، وبعدما رُتبتُ ما فى الصومعة من متاع فقير، خرجتُ قبيل العصر إلى ساحة الكنيسة.

لم يكن الجو حاراً، غير أننى أويتُ إلى الركن الظليل. وعند موضعى المعتاد، بالجانب الأيمن من الساحة، بعد البوابة الكبيرة، أسندتُ مؤخرة رأسى إلى شجرتى الوارفة التى كانت أحبّ الشجرات هناك إلى قلبى.. غمرنى إجهادُ العائد من سفرٍ طويل، ورحتُ أتوهم بعدما أغمضتُ عيني، أننى صرتُ والشجرة كياناً واحداً. أحسستُ بروحى تنسحب من ضلوعى، فتتخلل جذعَ الشجرة، ثم تغوص فى جذورها العميقة، وتتوغل فى قلب فروعها العالية. كان كيانى يتمايل مع أوراقها، ويتساقط بعضى مع سقوط الأوراق من أغصانها. تذكّرت وقتها، ما قرأته فى أحميم من شذرات فيثاغورث حيث يقول إنه تذكّر فى لحظة إشراقٍ كثيراً من حيواته السابقة. منها حياةٌ كانت روحه فيها شجرة! تمنيّتُ ساعتها لو أصير شجرةً مثل هذه، للأبد، شجرةً وارفة الظلال وغير مثمرة، فلا ترمى بالحجارة، وإنما تهواها القلوب لظلّها. هذه البلاد قاحلة وجفافها شديد، فلو صرتُ هذه الشجرة سأحنو على الذين يستظلون بى، وسيكون ظلّى رحمةً لهم أمتحها بلا مقابل. سأكون مأوىً للمنهكين، لا مطمعاً لطالبي الثمار.. ابتلّعتُ يومها

بحرقة الغريب عن دياره وعن ذاته، وناديتُ ربى فى سِرِّى: يا إلهى الرحيم
خذنى الآن إليك، خلّصنى من جسدى الفانى.. هلاً ودعت روى وديعة
فى هذه الشجرة الحبيبة، فأزدد تَطَهَّرًا؛ إذ أحنو كل ظهيرة على زوار هذه
البقعة المقدسة من الحجيج المتطهرين بنورك من آثامهم. سأنتظر فى
الشتاء سقوط مطر محبتك للكون، وأستنشق كل صباح قطرات الندى
التي يهينى إياها برد الليل، ولن يشغلنى أمر عن تسييح تجديك السماوى..
الشجر أنقى من البشر، وأكثر حُباً للإله. لو صرّت هذه الشجرة، سأنشر
ظلمتى على المساكين..

- هل أنت نائم، يا هيبا؟

انتبهتُ وابتهجتُ، لما فوجئتُ بالقسّ نسطور جالساً بجوارى. اعتدلْتُ
فى جلستى وهزئتُ رأسى، بما يفيد أننى لم أكن نائماً. سألتنى برفق باللغة
السريانية، لا باليونانية التي هى لغته المعتادة، قاصداً مفاكحتى: فى أى بحرٍ
من الأفكار كنت غارقاً، أيها المصرى الطيب؟

- يا أبت، تنقادنى أحياناً أفكارٌ عجيبة. كنتُ الآن أتمنى لو كنت هذه
الشجرة التى نستظل بها!

- من أين ياولدى تأتيك هذه الأفكار؟

- من باطنى العميق، ومن الماضى البعيد. كان فيثاغورس يقول..

- فيثاغورس! هذا يا هيبا تراث وثنى قديم.

أربكنى اندفاعى الدائم فى حضرته، وخفّف هو من ارتباكى بلمسةٍ
حانية من يده. مَسَّ غطاء رأسى بأطراف أصابعه المباركة، وراح يتلو فى
خفوتٍ شيئاً من المزامير، ثم أغمض عينيه وهو يرسم علامة الصليب على
رأسى المغطى بالفلنسوة المليئة بالصلبان.. هدأت نفسى حين قال بصوتٍ
هامسٍ، وكأنه يناجى ملائكة السماء: مباركٌ أنت يا هيبا، بنور التّربّ.

- يا أبت، هل ترى أن الوثنية كلها شرّ؟

- الله لا يخلق الشر.. ولا يفعله.. ولا يرضى به، الله كله خيرٌ ومحبة.
لكن أرواح الناس كانت تخطئ الطريق فى الأزمنة القديمة، حين
يظنّون أن العقل كافٍ لمعرفة الحقيقة، من دون خلاصٍ يأتيهم من
السماء.

- عفواً يا أبت المبجل، ولكن فيثاغورس كان روحاً طيبة، مع أنه
عاش زمناً وثنياً.

- يجوز ذلك. فالزمانُ السابق على مجيئى بشارة المسيح، كان أيضاً
زمان الله، وشمسُ الله تُشرقُ على الأبرار والأشرار.. ومَنْ يدرى،
فلعل الله أراد بمشيئته النافذة، أن يهيئ الإنسانى لمجيئى بشارة
الخلاص، ببعض الإشارات الممهّدة للمسيح. وكلما اقترب زمانه،
كانت علاماتٌ مجيئه تتوالى وتكثر، حتى كانت العلامة الكبرى،
يوحنا المعمدان، الصوت الصارخ فى البرية.

أعجبني كلامه، ورأيتُ فيه إجابةً مقبولة لمشكلة طالما شغلتنى. أعنى
سِرَّ ارتباط يسوع المسيح بابن خالته يوحنا المعمدان! وكيف تسنّى ليوحنا
المعمدان وهو الإنسان، أن يعمّد المسيح الذى هو الإله، أو ابن الإله، أو
صورة الإله، أو مبعوث الإله، على اختلاف الأقوال فيه. سألتُ نسطور:

- ياسيدى، هل تعتقد أن يسوع هو الله، أم أنه رسولُ الإله؟

- المسيحُ يا هيبا مولودٌ من بشرٍ، والبشرُ لا يلد الآلهة.. كيف نقول
إن السيدة العذراء ولدت رباً، ونسجد لطفل عمره شهور، لأن
المجوس سجدوا له!.. المسيحُ معجزة ربانية، إنسانٌ ظهر لنا الله
من خلاله، وحلّ فيه، ليحمله بشارة الخلاص وعلامة العهد الجديد
للإنسانية. مثلما أوضح لنا الأسقف تيودور أمس، فى مجلسه الذى
...

رأيتك فيه أول مرة.. بالمناسبة، لماذا اضطربت روحك عندما أشار الأسقف إلى سر المعمودية؟

- إنك ثاقب النظر يا أبت.

- هذه ليست إجابة.

قال نسطور عبارته الأخيرة مازحاً، وكأنه أراد أن يرفع بيننا الكلفة، ويشجعني على الكلام. ومن ثم، لم أجد حرجاً في البوح له بواحد من أخطر أسرارى. وقد عجبني يومها، من أن سرى لم يدهشه. قلتُ ما معناه أن عندى شك في معموديتي، فأمرى كانت تؤكد أنها عمّدتني رضيعاً، وأبى كان ينفي. وأنا لا أذكر أنني دخلت كنيسة في طفولتي المبكرة، ولذلك أجدني أقرب إلى تصديق أبى.. لم أشأ يومها أن أخبره بأننى عمّدت نفسي، بعد خروجي من الإسكندرية! قلتُ ما معناه: *الظاهر يا أبت، أننى لم أعمّد فى صغرى!*.. وقد توقعت أن تدهشه عبارتي، لكنه أدهشنى بقوله الهادئ:

- لا عليك، لا بد أنك فعلت أو سوف تفعل بمشيئة الرب. ولكن، كيف صرت راهباً وأنت تشك في عمادك؟

- انتظمت سنين في كنيسة أخميم الكبيرة، ورأيت معلّمى القسّ الأخميمي لا تفقاً بالرهبانية، فرسمنى حين التمسّت منه ذلك. ولم أكن قد أخبرته بشكّى في العماد؛ لأننى كنت قد نسيّت وقائع طفولتي، أو تناسيتها حتى نسيها.

- لا بأس يا هيبا، كثيرون غيرك تأخّر عمادهم. ومنهم من صاروا مع الأيام أساقفة! أمبروزيوس أسقف ميلانو، ونكتاريوس أسقف القسطنطينية، لم يعمّدوا إلا يوم رُسموا أسقفين. قسطنطين نفسه، الإمبراطور، لم يعمّد إلا على فراش الموت، وهو الملقب بمحبوب الإله وحامى الإيمان ونصير يسوع!

لاحظت أنه ذكر الألقاب المسيحية للإمبراطور قسطنطين، بنبرة تمتاز فيها السخرية بالأسى. أردت أن أعرف منه أكثر مما باح به، فقلتُ متفاحراً بما أعرفه مستفهماً عن المزيد، إن هذا الإمبراطور أذى للمسيحية خدمات جليلة، نعيش اليوم في ظلّها. فقد كان أهل ديانتنا في زمانه قلة ضعيفة، لا يزيد عددهم عن عُشر سكان الإمبراطورية، فصاروا اليوم أغلبية السكان في الإمبراطورية شرقاً وغرباً، بعد مائة عام فقط على المجمع الكنسى العالمى (المسكونى) الذى رأسه هذا الإمبراطور.. أضفت: *أقصد يا أبت، مجمع نيقية الذى حُرم فيه آريوس لقوله إن المسيح إنسان لا إله، وإن الله واحد لا شريك له فى ألوهيته.*

- إنك حقاً مراوغ يا هيبا.. ماذا تريد أن تعرف منى، أيها الطبيب النابه، والراهب الذى يشك في عماده!

أدركت من مآزحته أنه لم ينزعج من كلامى، وأنه يؤدّ الإفصاح بسرّ هذا الأمر، الذى لا يحبّ رجال ديانتنا الخوض فيه. كنتُ أتحرق شوقاً لمعرفة رأيه في آريوس الذى اختلف فيه الناس، وكرهته كنيسة الإسكندرية بأكثر مما تكره الشيطان.. حاول نسطور أولاً إلهائى عن مرادى، بأن سألنى إن كنتُ مرتاحاً للإقامة في أورشليم. لكننى رجوته الإجابة الشافية عن حقيقة أمر آريوس وأفكاره، قلتُ مستعظفاً: *أخبرنى بالحقيقة يا أبت المبجل، كما تراها بثاقب نظرك، وقلبك المملوء بالورع، وبروح الطاهرة وعقلك النابه، فإن شغفى لمعرفة هذا الأمر عظيم، ومؤرق.*

- إذن. قم بنا لنمشي نحو مقر إقامتنا، فإننى أود الاطمئنان على الأسقف تيودور. ولسوف أحدثك عن آريوس وبدعته، ونحن في طريقنا.

لم نسلك الطريق المباشر إلى المنزل، وإنما خرجنا من بوابة الكنيسة فمشينا يميناً بحذاء سورها العالى، ثم عبرنا الأرض الواسعة الممتدة من

نهاية سور الكنيسة إلى بداية الحمام المنازل، عند الناحية الشرقية من سور المدينة. كان هذا المسار أهدأ وألطف، وأبعد عن صخب الناس. كنا نمشي بخطى رتيبة، ونتوقّف أحياناً إذا ما انهمك نسطور في بيان نقطة دقيقة. وهكذا وصلنا بعد ساعة أو أكثر، قال لى خلالها ما أنا متردّد الآن في تدوينه، خاصة في هذه الأيام الحوالك المدلّمة.

.. سأقوم لأنام.



النوم هبة إلهية، لولاها لاجتاح العالم الجنون. كل ما في الكون ينام، ويصحو وينام، إلا آثامنا وذكرياتنا التي لم تنم قط، ولن تهدأ أبداً.. صحوّت اليوم من نوم مليء بأحلام قوية، كأنها الواقع. أم تُرى واقعي هو الذي تهافت وبهت، حتى صار أحلاماً؟.. صرّت أشعرُ بأنفاس الموت قريبة مني، تكاد تلفحني. أتراني ساموت أثناء نومي، أم في الكنيسة وقت الصلاة؟ أظن أن خوفاً من الانتهاء، وليس إلحاح عزازيل، هو دافعي للكتابة. أو لعلّي أودّ أن يصل صوتي، لأبعد مما يُنهي موتي.. الشهر الماضي، مات أكبر رهبان هذا الدير سنّاً، أثناء زيارته بلدة حلب. مات في كنيسة أبرشيته، أثناء القدّاس، ودُفن هناك. مات على عتبة الرب، طاهراً من كل ذنوبه.. كيف ساموت أنا، وأين؟



الكتابة تُثير في القلب كوامن العواصف ومكامن الذكريات، وتُهيّج علينا فظائع الوقائع. في فترات بعيدة من حياتي، ومتباعدة، كان إيماني يؤنسني، ويملاً وجودي غبطة. واليوم تحيط بي الغيوم من كل جانب، وتهب في باطني الأعاصير حتى تكاد تقتلعني من الكون كله. كيف سيتهي الحال بنسطور، بعد كل ما جرى معه؟ وإلى أين تراني سأذهب، بعد انتهاء

هذا التدوين؟ وهل سأرى ثانيةً مرثا التي راحت، فظننتها أراحت، ثم عرفتُ بعد رحيلها لوعة القلق وعصف الاشتياق؟ ليتني منعته من الذهاب إلى حلب، وأعفيتُها من خطر الغناء الليلي وسط سكارى التّجّار وأراذل العرب، وأعفيتُ نفسي مما أعانيه الآن. عيناها الدامعتان لاتغيبان عني مُدّ رحلت، وقلقي عليها لم يهدأ.

- أنت السبب يا هيبا، أنت السبب؛ فهي توسّلت إليك أن تنقذها من ذلك، وتنقذ نفسك، لكنك خنعت.

- عزازيل!

- نعم يا هيبا، عزازيل الذي يأتيك منك وفيك.

ها هو ثالث عذابي قد اكتمل. قلقي على مصير نسطور، وشغفي بمصير مرثا، وطلّات عزازيل المفاجئة.. إلى متى سأتحمل هذا العذاب؟ ومتى سينزاح عني هذا الهمّ المثلث؟ يا إلهي، أدركني.. فإنني..

- يا هيبا، دُع عنك اللكاعة، وأكمل ما كنت تكتبه.

- وما الذي كنتُ أكتبه؟

- ما قاله لك نسطور عند سور أورشليم الشرقي. ولا تخش شيئاً، فلن

تزيد كتابتك الأمر سوءاً، ولا أظن أن أحداً سيقراً ما تكتبه قبل مرور

سنتين. فاكتمب الليلة كي تكون. وما يدريك يا مسكين، فربما تأتيك

بعد أيام اعتكافك الأربعين، أخبار نصرّة نسطور من بعد هزيمته!

وربما سترى مرثا ثانيةً في ثوبها الدمشقي الخلاب، وتأخذها معك

يوم رحيلك المنتظر، فتحنأ بها بقية عمرك، ويهدأ قلبك الملتهع.

عزازيل حججه قوية، وهو غالباً ما يغلبني.. أم تراني جرّأته علىّ لأنني،

سبباً يزعم، أجلبه نحوى بتردّد الدائم وقلقي المزمن. على كل حال،

فلا مدعاة للقلق. فقد صار الصبح قريباً، ولا خطر مما سأكتبه الآن. وقد أوشك هذا الرُّقُّ أن يمتلي، ولم يبق فيه غير هذه المساحة الصغيرة النقية من الممداد، ولسوف أكتب فيها خلاصة ما سمعته يومها من نسطور. سأكتبه بحروفي أنا، بالشريانية، فيكون ملزماً لي، لا حجة عليه.. قال لي المبجل نسطور في أورشليم يومها، بلفظه اليوناني البليغ، ما ترجمته: الحقيقة يا هيبا، أنَّ الأمر كله تلييس. فإبليس هو المحرك الرئيس لكل ما جرى قبل مائة عام في مجمع نيقية. أعني إبليس، شيطان السلطة الزمانية التي تغلب سكرتها الناس، فينازعون الرب في سلطانه، ويتمزعون فيما بينهم، فيفشلون وتذهب ريحهم بئدا. تغلبهم أهواؤهم، فيتحامقون ويخالفون روح الديانة، سعياً لا متلاك حطام الدنيا الفانية.. ماجرى يا هيبا في نيقية باطل من تحته باطل، ومن فوقه باطل. فالإمبراطور قسطنطين كان متعجلاً لإعلان ولايته على أهل الصليب، حتى أنه لم يصبر على دعوته المسكونية للمجمع، إلى حين اكتمال مدينته الجديدة القسطنطينية، فعقد المجمع في القرية المجاورة نيقية التي كانت، لسوء اختيار موضعها تسمى أيامها: مدينة العميان! وقبلها بعام واحد، كان هذا الإمبراطور يقضي حياته مشغولاً بأمير وحيد، هو تثبيت سلطانه بالحرب ضد قدامى رفاقه العسكريين. ولما انتهى من حروبه إلى الظفر بهم، أراد الظفر بالولاية الدينية على رعاياه، فدعا كل رؤوس الكنائس للمجمع المسكوني، وأدار جلساته وتدخّل في الحوار اللاهوتي، ثم أملى على الحاضرين من الأساقفة والقسوس القرارات. مع أنه، فيما أظن، لم يقرأ كتاباً واحداً في اللاهوت المسيحي! بل إنه لم يكن يعرف اللغة اليونانية التي كان يحتدم بها الحوار اللاهوتي بين الأساقفة في نيقية، ولم يكن يهتم أصلاً بالخلاف اللاهوتي بين القس آريوس وأسقف الإسكندرية في زمانه، إسكندر. يظهر ذلك من رسالة الإمبراطور إليهما، التي يصف فيها خلافهما حول طبيعة يسوع المسيح،

بأنه خلاف تافه وسوقي وأحمق ووضيع! ويؤكد عليهما أن يحتفظا بأرائيهما في باطنهما، ولا يشغلا بها الناس. الرسالة مشهورة، وفي الأسقفيات نسخ منها. ثم انتصر الإمبراطور للأسقف إسكندر ليضمن قمح مصر ومحصول العنب السنوي، وحزّم الراهب آريوس، وحزّم تعاليمه، وحكم بهرطقته كي يرضى الأغلبية من الرعية، ويصير بذلك نصير المسيحية.. لقد ضيع الإمبراطور قسطنطين قديماً، حكمة آريوس.. مثلما تضيع اليوم على يد الجهالة الذين يزعمون أنهم أتباعه، ويتخذونه مدخلاً للهرطقة وتقص الديانة. إن الآريوسيين الذين يملأون اليوم البلاد من حولنا، يجنون على آريوس مثلما جنى عليه الإمبراطور قسطنطين قبل مائة عام، وارتضى باغتياله في وضح النهار.

- كما أمر الإمبراطور يا أبت، بإحراق كتبه وإحراق كل الأناجيل التي بأيدي الناس، عدا الأربعة المشهورة.. ولكن ما الذي تقصده يا أبت، بحكمة آريوس.

كنا نسير ساعتها تحت ظل شجرة وارفة، عند نهاية سور الكنيسة، في البقعة الهادئة المطلة على سور المدينة. كان حديثنا قد أزال ما بيننا من أسوار، فوقف نسطور لحظة متألاً. ثم التفت نحوي، وكأنه سوف يلقي عليّ بحجر ثقيل، واستغرب بعدها عدم استغرابي مما قاله. لن أنسى ملامحه وهو يترقّق في كلامه، ليقول لي: إنني أدرك يا هيبا، معنى دراستك اللاهوت في الإسكندرية. وأعرف كل ما أعلموك إياه هناك، وكل ما أعلموك به من أمر آريوس وآرائه التي يُعدونها هرطقة. ولكنني أرى الأمر من زاوية أخرى، زاوية أنطاكية إن شئت وصفها بذلك. فأجد أن آريوس كان رجلاً مفعمًا بالمحبة والصدق والبركة. إن وقائع حياته وتبّله وزهده، كلها تؤكد ذلك. أما أقواله، فلست أرى فيها إلا محاولة لتخليص ديانتنا من اعتقادات المصريين القدماء في آلهتهم، فقد كان

أجدادك يعتقدون في ثالوث إلهي، زواياه إيزيس وابنها حورس وزوجها أوزير الذي أنجبت منه من دون مضاجعة. فهل تُعيد بعث الديانة القديمة؟ لا، ولا يصح أن يقال عن الله إنه ثالث ثلاثة. الله يا هيبا، واحد لا شريك له في ألوهيته. ولقد أراد آريوس أن تكون الديانة لله وحده، لكنه تَرَنَّم في زمانه بلحن غير معهودٍ من مثله. معترفًا بسرّ الظهور الإلهي في المسيح، وغير معترفٍ بالوهية يسوع. معترفًا بأن يسوع ابن مريم الموهوب للإنسان، وغير معترفٍ بشريكٍ لله الواحد.

- لكنه لم يخرج في ذلك يا أبت، عن العقائد المصرية القديمة التي قالت أخيرًا بوحدانية الله وعلوه فوق كل مقدّس. ومع ذلك، خرج آريوس عن إجماع أهل زمانه، فقال ما قال، واكتوى بنيران السماء.

- اكتوى بنيران الإسكندرية يا هيبا.. ولمّا دعاه الإمبراطور من منفاه الطويل بأرض القوط، ليوفّق، قسّرًا، بينه وبين أسقف الإسكندرية، كي يضمّن هدوء الحال ويَرْضَى المدينة العظمى؛ تَمَّ اغتياله بالشّم.

- مات مسمومًا!

صحّت بذلك. ثم انتهت، وتلقّت حولى. لم يكن يمرُّ بالقرب منا، غير امرأتين تلبسان السواد، وتسدلان على رأسيهما سِتْرًا من ذلك الذي تتحجّب به اليهوديات.. التفتت المرأتان ناحيتنا حين زعقت، إحداهما عقدت حاجبيها، والأخرى ابتسمت. لم ينزعج نسطور من عبارتي العالية المفاجئة، وأجابني بهدوءٍ ووقار:

- هذا هو الراجح عندي. ففي اليوم السابق على لقائه المرتقب مع الإمبراطور وأسقف الإسكندرية، كان آريوس يسير ساعة الظهر مع

جماعة، فدهمه مغصٌ مفاجئ لا مقدمات له، وانتحى عن الطريق ليلبي نداء الطبيعة، فنزل منه دمٌ كثير وقطع من لحم البطن وأجزاء الأمعاء.. ومات ميتةً مخجلة، إذ سقط فوق ما نزل من بطنه. كان ذلك في يوم سبتٍ من أيام العام السادس بعد الثلاثين وثلاثمائة للميلاد، قبيل الغروب.

- وما الذى حدث بعدها يا أبت؟

- لاشئ. ابتهج الأسقف إسكندر واعتكف للصلاة، وارتاح الإمبراطور قسطنطين لموت آريوس الذى تنصّل منه أتباعه وأصدقاؤه، وأدانه جميعُ الأساقفة، وخرجوا عن آرائه فى بيان رفعوه للإمبراطور. - ضاع الرجلُ.

- وكادت آراؤه تضع من بعده. خاصة بعدما اجتمع الأساقفة بعد وفاة آريوس بخمس سنين، فى أنطاكية، أيام مجمع التدشين^(١). وصاغوا بيانًا قالوا فيه بوضوح فاضح، إننا لم نكن يومًا من أتباع آريوس، إذ كيف يعقل ونحن أساقفة أن نسير وراء كلام قس!.. وهكذا انتصرت الإسكندرية. بمناسبة الإسكندرية، هل كنت حاضرًا بها يا هيبا، يوم مقتل الفيلسوفة هيباتيا؟

وقع سؤاله فى جوفى كسائل حارقٍ بدّد نسيمات الغروب التى كان هبوبها اللطيف قد ابتدأ، وطوّحنى سؤاله المفاجئ نحو ماضٍ كنتُ أظنه قد انطوى. يومها أخذنى الصمتُ، وأبهنتى تذكّرى المفاجئ للواقعة الفاجعة التى أخرجتنى من الإسكندرية لأهيم فى أرض الرّب. تماسكتُ ساعتها،

(١) هو المجمع الذى انعقد بأنطاكية سنة ٣٤٢ بمناسبة افتتاح الكنيسة الذهبية المثلثة. (المترجم).

وما أمسكتُ الدمعتين اللتين انحدرتا مني رغماً عني، حين طرقت روجي ذكرى هيباتيا وصرخاتها المستغيثة.. شعري نسطور وغشيتة شفقة ربانية، ولما أملاني برفق نحوه، بهزة لطيفة من يده اليمنى المباركة، الممسكة بكتفي اليسرى؛ عاودتني الرغبة في البكاء، غير أن الخجل منعي.

- هوّن عليك يا هيبا، إن روحك مجهدة. لقد تحدثنا اليوم كثيراً، وقد آنستني صحبتك. وها هو مقر إقامتنا قريب، فعد الآن إلى صومعتك الطيبة المباركة لتستريح الليلة، وغداً سأنتظرك في الصباح الباكر عند باب الكنيسة. سوف نصلي، ثم نفطر معاً، وتحكي لي، إن شئت، ما حدث بالإسكندرية يومها.. أراك بمشيئة الرب غداً.

أدركتُ يومها أن نسطور قسّ مبارك حقاً، وراهبٌ يستحق التبجيل.. بل ورأيتُ فيه أبي المخطوف مني، أبي المفقود؛ مع أنه لا يشبهه في ملامحه، ولا يقترب منه في هيئته. كما أن سنوات عمره لم تكن تكفي لأن تجعله أباً لمثلي، إلا بالمعنى الكنسي للكلمة.. في ذاك اليوم البعيد نسبياً في غمرة ارتباك، أن أخبره برغبتي في رؤية الأسقف تيودور والاطمئنان على صحته والتبرك بلاقائه.. خرجتُ من وقفنا المربكة، بأن قلت متلعثماً:

- سأكون هناك صباحاً، ساعة الصلاة الثالثة.. سأنتظرك يا أبت، وسأحكي لك كل شيء، لو شرفتنني بزيارة أخرى لصومعتي الفقيرة. سأقضُ عليك ما جرى، فقد كنتُ هناك يومها، وشاهدته من مكان قريب.

عدتُ مسرعاً لأتحصن بوحديتي.. في طريق عودتي رجوتُ الرب، ألا أجد ببائي أحداً من المرضى ينتظرنني، فاستجيب رجائي. أغلقتُ بابي، ولم أشعل السراج. صليتُ في خشوع بعدما جثوت على الأرض في الظلام، آملاً أن تهدأ روجي.. ولكن، عصف بي الأرق تلك الليلة،

مثلما يحدث معي كلما تذكرتُ الإسكندرية. امتلاً فراشي شوكة ملحياً. ولما توغل الليل البهيم، اختلطت دموعي الدافقة بدعائي الحار: يا إلهي، أغثنني بالطافك الخفية الرحيمة، فالأمل التي لا تنتهي ولا تُحتمل. خلصني بفضلك يا أبانا الذي في السماوات، تقدّس اسمك، من حرقه الذكريات العاصفات بقلبي.. هبني يا إلهي، ميلاً جديداً أعيش به من غير ذاكرة، أو ارحمني، فاقبضني إليك، وأبعدني عن هذا الكون.

دعوتُ ليلتها كثيراً لاستنزال الرحمة إلى قلبي من السماء، غير أن الرب لم يستجب لدعائي.. واجتاحني بحرُ الذكريات السكندرية.

سكرة نوم، لولا أن انتبهتُ لمجئ شاب في حدود العشرين، يتبعه قرْدٌ. كلاهما جاء يتقافز في مشيته، وكأن رَوْحًا واحدة توزَّعت بينهما. نظر الشاب نحوى مبتسمًا قبل أن يبدأ ماجاء من أجله، أعنى ارتقاء النخلة العالية القريبة التي كانت تنوء ببلح جفّ في موضعه، ولم يجمعه أحدٌ خلال شهور الشتاء، فتساقط بعضه، وبقي البعض في موضعه.

— هذا البلح ملئٌ بالشُّكر والرائحة الطيبة.

حدّثني الشاب بذلك، وكأنه يعرفني جيدًا. أو لعله أراد أن يعرفني بما جاء من أجله، كأنه يستأذني في الصعود للنخلة التي لا أملكها.. أم تراه كان يطلب البركة مني، لحسن ظنه بي أو برداء الرهبان الذي أرتديه. أشار عاليًا نحو رأس النخلة، بطول ذراعه، فسبقه القرْدُ. كلاهما صعد النخلة بلا مجهود كبير، وكأنه يمشى على الأرض. القرْدُ وصل أولاً، وراح يتقافز فرحًا بين السعف والعراجين اليابسة. راقب الفتى قرده لوهلة، بحذر، حتى إذا ما اطمأن إلى خلو رأس النخلة من الأفاعى والعقارب، تابع ارتقاءه إلى قلب النخلة العالى، وراح يهز أذرعها المتهدلة. بعد دقائق من المطر البلحى، نزلا بأسرع مما صعدا. التقط الشاب من البلح الذى لم يفسده الدود، حفنات في حجر جلبابه حائل اللون، وجاء فألقاها فى حجرى من دون أن يقول شيئًا. كانت ابتسامة الفتى غريبة! لم يصبر حتى يسمع منى كلمة شكر، أو دعاء بالبركة. أعطاني البلح، وأخذ قرده فوق كتفه، وغاب عني متوغلاً بين الزروع.. ظننت يومها أن الله أرسل هذا الشاب، كإشارة؟ أو أنه كان واحداً من ملائكة السماء الذين يملأون الأرض، ويسعون بين الناس من غير أن يعرفهم أحد.. ولم أسأل نفسى: كيف يصحبُ الملاكُ قرْدًا!

بعد العصر، رسا قاربٌ كان فى طريقه إلى بلدة كبيرة اسمها ليكوبوليس (أسيوط) تمتد بيوتها على حُدِّ النيل. هى على مسيرة يومين إلى جهة

الرَّقُّ الثالثُ

عَاصِمَةُ الْمِلْحِ وَالْقَسْوَةِ

أتذكّر جيدًا أننى فى شبابى الذى وُلِّى ولن يعود، خرجتُ من أحميم قاصداً الإسكندرية تحدونى الآمالُ الكبار. كان الأوان ظهراً، منتصف النهار تمامًا، فقد كانوا فى الكنيسة يستعدون لصلاة الساعة السادسة، التى تؤدى عند تمام الظهر. اتجهتُ من غير ظِلٍّ إلى ضفة النيل الشرقية، حيث الموضع الذى ترسو فيه القوارب النهرية والمراكب الشراعية. المسافة كانت قريبة، غير أن المرسى كان خاليًا والشمس محتدة.. ساعة العصر، اشتدت شمس شهر أبيب (تموز، يوليه) التى لاتعرف الرحمة. كان القدماء فى أزمنة مجدهم، يعتقدون أن الشمس مجلى لسطوة الإله رع الذى هو كبير آلهتهم.. آلهتهم التى اندثرت، ومات ذِكْرُها وذاكروها.

عند المرسى أويتُ إلى ظل شجرة وحيدة، نحيلة مثلى، تتمايل أوراقُ أغصانها على حافة ترعة هزيلة، تأخذ مياهها من النيل حين يعلو بفيضانه أيام الصيف. أخرجتُ من مخلاتى الأيقونة الصغيرة التى لاتفارقتنى. هى صورة مريم العذراء، الطاهرة. رُحْتُ أريح عينيَّ على صفحة وجهها الهادئ ملامح. أما كان للرب أن يهينى أُمًا نقيّة، كالعذراء؟.. كدتُ أذهب فـ

الشمال من أحميم. كان أهل القارب في عجلة من أمرهم، وقد بادروني بالسؤال إن كنت أودُّ الركوب معهم، فرأيتهما إشارة من الله تدعوني لزيارة الموضع المقدس بأسبوط، أعني ذلك المزار الذي في حوض الجبل المسمى قُسقَام حيث أقامت السيدة العذراء بطفلها يسوع المسيح، أيام جاءت به إلى مصر هاربة من بطش الرومان. أصحاب القارب أبحروا سريعاً، وكان أمر الريح موافقاً، وشرع المركب، فوصلتُ أسبوط ظهيرة اليوم التالي.

المدينة كبيرة جداً. أهلها مسيحيون في معظمهم، وبعضهم وثنيون. لكنهم على الجملة ناسٌ طيبون، ومساكنهم رحيمةً ومتجاورة. يومها ظننتها أكبر مدن الدنيا! لم أكن قد دخلت الإسكندرية، ولا أورشليم، ولا أنطاكية.. من أسبوط اتجهت غرباً، إلى حيث الجبل الموحش الذي احتضن، يوماً ما، العائلة المقدسة. لم أجد هناك الكثير، لكنني لم أندم على زيارة المكان.

ارتقيتُ إلى حوض الجبل، فوجدتُ كنيسة فقيرة، حولها بعض المباني المتهالكة التي شككتُ في أنها تعود لزمان السيدة العذراء. بعض الرهبان المتوحدين كانوا يعيشون في ذاك الموضع القفر الذي لم أشعر فيه بروحانية، حسبما كنتُ قبلها أودُّ وأتوقَّع. شعرتُ هناك بالوحشة. بعدما قضيتُ يومين هناك، عدتُ إلى أسبوط مع جماعة من زوّار المكان، كانوا في حدود العشرة. في منتصف طريق عودتنا، اقترب مني رجلٌ متأنقٌ في ملبسه، عليه رغم حرّ النهار عباءة سوداء من الصوف الرقيق الناعم، حوافها محلاة بخيوط من الحرير الأسود اللامع. استغربتُ هيئته ونظراته الماكرة، كان لا يعلّق في عنقه الطويل صليبا. لما التقت أعيننا ابتسم، فزادته هيئته مكرّاً، ولمعت عيناه ذكاءً. أخذني وجَلّ منه، فأبطأت خطاى.. أبطأ خطوه حتى اقترب مني، وتهيّا للكلام. نظرتُ نحوه رغماً عني، كان وجهه مليئاً

ببقع البهاق البيضاء، التي زادتها سميرته وضوحاً. باليونانية التي قلما يستعملها الناس في تلك البلاد، قال لي من غير تمهيد، ما معناه: كيف جاءت العذراء إلى هنا هاربة بوليدها، بعد سنوات من وفاة الحاكم الذي تزعمون أنه كان يقتل أطفال اليهود؟ ولماذا عادت به إلى البلاد القاحلة الصفراء، بعدما جاءت إلى وادي مصر الأخضر؟.. قال ذلك بهدوءٍ مكرر، ثم انحرف عن طريق الجماعة العائدة إلى أسبوط، فاتخذ سبيلاً إلى جهة الشمال الشرقي، وتوغل بين الحقول وأجمة الغاب المتناثرة، حتى غاب عن ناظري.. لماذا أحكى كل هذه التفاصيل!

بعدما قضيتُ بضعة أسابيع بين أديرتها وكنائسها، حائرًا، خرجتُ من أسبوط إلى الإسكندرية في مركب نهري يملكه تجارٌ فقراء أصلهم من عين شمس (هليوبوليس).. كانوا قومًا طيبين، لولا أنهم لا يكفون عن احتساء الخمر القوي، ولا يهدأون عند سُكرهم عن الغناء الهزلي الصاخب. كنتُ يوم ركبتُ قاربهم، أرتدى زيّ الرهبان المصريين، الذي صار اليوم ملزماً لكل الرهبان. توقيراً لردائي رَفَضَ أهل القارب، بعد أن وافقوا على سفري معهم، أن يأخذوا مني أجرًا.. قال أحدهم، وكان بالطبع مسيحيًا: يكفيني يا بانا أن تحلّ بقاربنا بركاتك! كانت المرة الأولى التي يدعوني فيها أحدهم بالأب.

خلال أيام الرحلة، كان أغلب أكلهم الجبن والبصل والسمك المملح الذي لم أكله أبدًا، عملاً بنصيحة عمّي الذي ربّاني بعد مصرع والدي. نذرتُ خلال الرحلة النهرية صومًا، فلم أتناول طيلة أيام الرحلة الثمانية، إلا البلح الجاف والماء ورحيق صلواتي.. يوم وصلنا إلى أقصى نقطة كانوا يقصدونها في شمال النيل، سألتني صاحب المركب عن وجهتي التالية، فلما أخبرته نصحتني: لا تدخل الإسكندرية في زيّ الرهبان، فأنت لاتعرف في هذا البلد الهائج، مَنْ سيلقاك أولاً! وأهداني ثوبًا من أثوابه.

أدركتُ في لحظة إشراقٍ أنه ينطق بالحقِّ، وأن الآب الذى فى السماء، أراد أن يوصل لى رسالةً على لسان هذا الرجل. بقلبٍ مُفعمٍ بالمحبة والامتنان دعوتُ لهم بالخير والبركة، ثم أخذت سبيلى نحو الشمال الغربى، بين حقول خضراء تمتد إلى نهاية النظر.. هالتي انبساط الأرض، واتساع الرؤية. لأجبال فى دلتا النيل لتوقف نظرة المتلقِّ، وإنما أرضٌ منبسطة، وزروعٌ كثيرة متصلة، وأناسٌ طيبون تخرج نساؤهم معهم إلى الحقول. بالقرب من بلدة اسمها تيمن حور (دمنهوور) وجدت جماعة من الفلاحين يقصدون الإسكندرية على حميرهم، فصحبتهم وقد ارتدبت ثوباً مما نلبسه فى جنوب الوادى، حيث الملابس أكثر اتساعاً عند الأكمام وعند فتحة الصدر. وطويت بعناية، زىَّ الرهبان وغطاء الرأس الذى يميزنا. ووضعتهما أسفل مخلاتى، تحت الكتب، وبينهما الصليب الخشبي العتيق.

الجماعة القاصدة إلى الإسكندرية، كانوا عشرة رجال وسبعة بغال وثلاثة خراف وامرأتين، إحداهما عجوزٌ. وكان دليلهم متفاصحاً لا يكفُ عن الكلام الغامز، وكانت إشاراته لا تخلو من فُحش الوثنيين. سألتني همساً عن سبب ذهابي للإسكندرية، وضحك لما قلت له ذاهبٌ لطلب العلم:

- فى الإسكندرية ماهو أحلى من العلم!

لم أكن قد استفسرتُ منه، لكنه تطوَّع بالشرح.. همس وقد اقترب من أذنى، حتى شممتُ من فيه رائحة البصل الكريهة:

- الإسكندرية مدينةُ العاهرات والذهب! هل تنوى الإقامة هناك أيها الجنوبيُّ؟

- حسبما يشاء الرَّبُّ.

- أى رَبِّ فيهم يا ابن العم؟ فى الإسكندرية أربابٌ كثيرة! المهم أن يكون لك قريبٌ هناك، وإلا ستعانى الكثير.

- حسبما يشاء الرب الذى مجده فى السماوات.

- آه، أنت مسيحيٌّ. أنت إذن تملك نصف المدينة، هنيئاً لكم يا أبناء الإله المعبَّد، المصلوب، ها ها ها.. لكم نصف العالم، ولاشئ لى أنا الفلاح الفصيح، بعدما شاخت آلهتى القديمة.. دنيا عجيبة! اشتدَّت حرارة الظهيرة. سرنا ساعات متطاولة، لم يكف خلالها الدليل المتفاح، السمح، عن الكلام.. سألتُ رجلاً فى وجهه طيبة، فقال لى بالقبطية البحرية ما معناه: لم يبق على وصولنا للإسكندرية إلا مسيرة ساعتين. كلما اقتربنا كان اللون الأخضر يتناقص، وتتباعد الحقول عن اتصالها مفسحة ما بينها للحجارة والرمال. كان ازديادُ اللون الأصفر من حولنا، مزعجاً لى.. الأصفر لونُ الموت، ولونُ الجذب، ولون معابد الآلهة المندثرة. لم أكن قبلها قد رأيتُ انبساط هذه الصفرة الكالحة على الأرض، إلى آخر امتداد الأفق. هاج انزعاجى مع زعيق الدليل، الفلاح الفصيح، وهو يصبح فينا مستعجلاً الوصول:

- إذا بلغنا الأبواب بعد الغروب، فلا تلوموا إلا أنفسكم!

حاولت تهدئته بلطفٍ من دون جدوى، أفهمته أن العجوز التى معهم مريضة، ويشقُّ عليها شقُّ الطريق بأسرع مما نفعل، فلم يقتنع. كانت الأرض المزروعة قد تبددت من حولنا تماماً، وتسيَّد اللونُ الأصفر.. لونُ الخريف والخطية. لما مالت الشمس نحو مغيبها، بدت لنا من بعيد كتلة خضراء، ظننتها أولاً مدينة الإسكندرية، وبحثُ بطلنى. الدليل المتفاح سخر منى، وهو يصيح فى متهمكماً: الإسكندرية خضراء.. هه، لا يستطيع لونٌ واحد أن يغلب على مدينة الألوان كلها.

عرفتُ بعد ساعة سير، أن الكتلة الخضراء هى مستنقعات وأحراش تحف المدينة من جهة الجنوب، حيث البحيرات الضحلة اللصيقة بها

والترعة الآتية إليها من فرع النيل الكانوبى. وعرفت أن علينا الدوران لمسافة طويلة، لندخل المدينة من الناحية الغربية، من بوابة لها يسمونها باب القمر! وهكذا عاد اللون الأصفر ليطغى على الأرض ثانية، بعدما اكتسى مع مغيب الشمس حمرة خفيفة.. بعد ساعة سير، بدت لنا الإسكندرية من بعيد كالحلم. قال لنا الفلاح الفصيح باستخفاف، وهو يلکز بطن حماره بكعبيه، وينطلق: سألحق الأبواب قبل الغروب، فإنى أبيت داخل المدينة!

كان كاهن الكنيسة الكبيرة فى أخميم قد حكى لى أن الإسكندرية من يوم إنشائها ولزمن طويل تال، لم تكن تسمح بمبيت أمثالنا نحن المصريين داخلها. ثم تغير الأمر مع مرور الأيام، فصارت المدينة بعد انتشار ديانتنا مفتوحة للجميع. مازلت أذكر هيئة الكاهن وهزة رأسه وهو يضيف يومها، بالقبطية الصعيدية، ما معناه: سيأتى اليوم الذى لن نسمح فيه للوثنيين، ولا لليهود، بالمبيت. لا فى الإسكندرية، ولا فى المدن الكبيرة كلها.. غداً سوف يسكنون جميعاً خارج كل الأسوار، وتكون المدن كلها لشعب الرب!

وكنْتُ أعرف أيضاً، أن خارج أسوار الإسكندرية مساكن يسكنون بيوتاً فقيرة منذ عشرات السنين. لكننى لما وصلتُ هناك، أدهشتنى كثرة الخيام التى تحتضن أحفاد المطرودين كل ليلة، ووفرة البيوت الحفيرة التى بناها الفلاحون المصريون غربى سور المدينة.. لما وصلنا عندهم تفرقت الجماعة من حولى، من دون أن يقول أحدٌ لأحد شيئاً. ووجدتُ نفسى تائهاً بين مئات المساكن من خراف الرب، المصطفيين حول قُدور تغلى طعام العشاء. بين مقارهم الفقيرة، أطفال تتصايح لرؤية الآباء المكشوفين العائدين من يوم عمل شاق؛ وبين الجموع يجوس حراس متأففون، ورهبان تتدلى لحاهم الشعثة على نحو لافت، ولا يبتسمون لأحد.

صاحبُ الخيمة الكبيرة القائمة على أعمدة من طوب ردى، زعق فى طالباً أجره المبيت، فأسرعتُ بدفع المطلوب. المبيت عند سور الإسكندرية مكلف للغرباء! فى بلادنا لا أحد يأخذ أجرًا، إذا استضاف أحدًا. لو أننى بقيتُ فى زىّ الرهبان، كنتُ سأبيتُ فى الكنيسة النظيفة التى مررتُ بها قبلها بقليل، ووصلنى من داخلها صوتُ خطيب يزعم باليونانية.. ولم أفكر بالطبع، ساعتها، فى تبديل ثيابى. كان ذلك سوف يثير الريبة، وقد يجلب على المشكلات. قلتُ فى نفسى: لا بأس، سأدخل المدينة فى صورتى الأصلية، إنسان تعيش من جنوب الوادى، كان أبوه يصطاد أسماك النيل، ويتجنب التماسيح وأفراس النهر. أنا من هؤلاء الذين يملأون المكان من حولى. ولن يحمينى إلا أن أندس بين خراف الرّب وألوز بهم.

انزويْتُ بطرف الخيمة الرحبية، منهكًا. تحسّست فى جوف مخلاتى، الرسالة التى بعثها معى القسّ الأخميمى، الذى رسمنى راهبًا، إلى صديقه القسّ يؤانس اللبى المقيم بالكنيسة الكبيرة المسماة كنيسة القمحة، يقال لها أيضًا: المرقسية، تيمناً بمرقس الرسول صاحب الإنجيل، الذى بشر بالمدينة وقتله حكامها.. لما لمسْتُ رسالة التوصية بأطراف أصابعى، اطمأنتُ نفسى قليلًا.

نويتُ أن أقضى أيامًا متجولاً فى المدينة قبل ذهابى للكنيسة، لأرى أولاً كل ما أوّد أن أراه. ثم أسلمهم نفسى، أرى ما يودّون هم أن أرى. ظننتُ أننى سوف أتعلّم الكثير فى الإسكندرية، كما أكّد لى كثيرون، فطمأنتى ظنّى.. تحسّستُ قلب مخلاتى، حتى أخرجتُ حفنة من البلح الجاف، ورحتُ أمضغ برفق مستشعرًا نعمة الرّب الذى منّ علينا بإحساس الشعب من بعد جوع.

ابتسم لى رجل كان يجاورنى، هيئته زنة وفى عينيه طيبة. مددتُ له

بعض البلحات فأخذها، ثم دسَّ يده فى مخلاته ليخرج لى قطعة من النجين. اعتذرتُ له، ولم أخبره بأننى كنتُ صائماً. سألتنى عن موطنى الأصلي، فقلتُ من دون أن أفكر: نجع حمادى، فاستبشر وقال:

- أنا أصلاً من أنصنا (سمالوط) ولدتُ هناك، ولكنى أعيشُ هنا منذ سنين طويلة.

تزخَّف الرجل نحوى، وراح يحكى لى عن بلدته الواقعة بقلب الصعيد، شرقى النيل. قال إنه نشأ بقرية قرب جبل هناك يسمونه جبل الطير؛ لأن طيوراً تأتي فى كل عام وتحط عنده فتملاً الأجواء، ثم ترحل فجأة بعدما يضخى طيرٌ منها بنفسه! بأن يُدخل رأسه فى كوة بسفح الجبل، فيتلقف رأسه من داخلها شئ مجهول، فلا يُفلته حتى يجف جسمه ويسقط ريشه. فتكون تلك إشارة لبقية الطير، كى يغطسوا فى النيل ويرحلوا فى الليل، ليعودوا العام التالى فى الموعد ذاته، ويعيدوا الكرة.

همس لى الرجل بأن فى بلدتهم مسوحاً كثيرة، يقصد التماثيل القديمة، منها تمثال عجيب لرجل يضاجع امرأة! وعلى رأس الجبل كنيسة يسكنها الرهبان، اسمها كنيسة الكف؛ لأن يسوع المسيح حين مرَّ هناك أثناء رحلة العائلة المقدسة إلى مصر، ترك بها أثر كفه على حجرٍ لأن له، لتكون معجزةً وعبرةً للآتين من بعده.. أضاف: كما ترك هناك عصاه التى كان يهشُّ بها على غنمه! قلت للرجل الذى ما عدتُ أتذكر اسمه:

- لكن يسوع المسيح لم يأت إلى مصر، إلا رضيعاً.

- ماهذا الكلام يا ابن العم، يسوع المسيح عاش حياته كلها، ومات، بمصر!

عرفتُ أن الرجل لا يعرف شيئاً، أو لعله هو يعرف شيئاً لا أعرفه، أو أن كلينا يتوهم ما يعتقد أنه يعرفه. لم تكن لدى رغبة فى مواصلة الكلام معه،

فاعتذرتُ إليه برغبتي فى النوم، ثم غطيتُ رأسى بقطعة القماش القديمة التى أعطانيها صاحب الخيمة، ونويتُ أن أنام جالساً مثلما هى عادتي فى الليلات الليلاء.. أغلب ليلاى ليلاء.

رحتُ قبل أن يدهمنى النوم، أفكر فى جبل الطير، وفى الكنيسة التى بأعلى الجبل. كان يجب علىَّ المرور بهذه البلدة فى طريقى، حتى أرى ما بها من عجائب. تفوتنا فى الطريق أشياء كثيرة. بلادُ مصر مليئةٌ بالعجائب وبالمعجزات، لأنها مليئةٌ بالمؤمنين. منعنى عن النوم، ليلتها، توالى المشاهد التى مررتُ بها فى رحلتى، وفى حياتى كلها: الفتى والقرود اللذان صعدا النخلة أمامى كأنهما يطيران إلى البلح.. الكنيسة الصغيرة كالغرفة، حيث أمضيتُ ليلةً على ضفاف النيل بأسىوط، بعدما قادنى إليها شماسٌ أصله من بلدة تسمى قوص.. ركوبى النهر فى قارب التجار الفقراء، وصخبهم الذى لا يهدأ.. عين الشَّماس القوصى الدامعة وهو يودعنى، بعد ثلاثة أيام قضيتها فى الغرفة الملحقة بالكنيسة الصغيرة التى يخدمها.. نظرة أُمى الفرعة، حين أخبرتها بعلمى بأنها وشت بأبى لدى أقاربها من جُهل أهل الصليب.. جريئ من أمامها، ولم تستطع اللحاق بى، ولم أرها بعد ذاك اليوم قط.. بكائى الحار، يوم علمت بزواجها من أحد أقاربها الذين قتلوا أبى.. صورة بيتنا الذى هربتُ منه، وهجرته أُمى بعد هروبي وزواجها.. يوم ارتميئ فى حضن عمى الذى جاء يبحث عني، فرأيتَه فى إهاب المخلص.. التحاقى بالمدرسة الكبيرة فى نجع حمادى حين كنت فى الحادية عشرة من عمري.. زوجة عمى، نوبية الأصل، ورائحة طبخها الشهى لنا قبيل الغروب..

كاد النوم يأخذنى، لولا أننى انتبهتُ لما دخل الخيمة فسَّ ضخم، أجشُّ الصوت. لم يتمهل حتى يصل لمتنصف الخيمة الواسعة، بدأ خطبته الزاعقة فور دخوله علينا: أبارككم يا أبناء الله، باسم يسوع المسيح الإله

الرب المختلص، أمنحكم البركة السماوية. يا خراف الرب، كونوا قريبين من يسوع المسيح، مثلما هو قريب منكم. الرب يحبكم، فأحبوه. صلوا إليه قبل نومكم وبعد صحوكم، فتناموا بين يدي رحمته. المحبة روح الله، فأحبوا إخوانكم وأقاربكم وأولادكم، وأحبوا أعداءكم..

بالقرب مني، همس فلاخ خبيث النظرات لمن حوله، بسخرية الخراف الضالة: وهل يحب سيده كييرلس، إخوانه اليهود؟ ضحك المحيطون به بتكثف، وأضاف أحدهم: طبعاً، كييرلس يحبهم إلى درجة موتهم وطردهم خارج الأسوار.. لم يلتفت القس أجش الصوت ناحيتهم، لعله لم يسمعهم، أو هو لا يسمع إلا ما يحفظه ويتلوه على الناس كل ليلة. أكمل خطبته الزاعقة التي انتزعتني من دفين ذكرياتي، بأن قال ما معناه: يا أبناء الله، بيت الرب مفتوح لكم. فتعالوا للكنيسة صبيحة الأحد، واحصلوا على البركة. أقبلوا حتى يُقبل عليكم ربكم، وتكونوا مع الرسل والقديسين والشهداء.

بعدما أفرغ فينا كل ما كان في فمه من كلام، خرج القس مزهوا وكأنه ألقى علينا عظة الجبل. تبعه الجندى السمين، الصامت، الذي دخل وراءه.. سرّت في أهل الخيمة همهمات وضحكات مكتومة، انهمكوا بعدها في أحاديث تافهة، يمررون بها لقيمات الخبز الخشن والعجين المالح والسمك المملح. امتلأت سماء الخيمة برائحة البصل. تمددت في موضعي بقرب باب الخيمة، حيث رائحة الزهومة أخف، وأسلمت روحي لفيضان الأحلام.

رأيت في تلك الليلة رؤى كثيرة، لم أطمئن إلى واحدة منها. وتقلقت في نومي حتى أيقظني عند الفجر صخب النائمين حولى، أقصد شخيرهم العالى. وصخب المحيطين بالخيمة.. وبكاء طفل رضيع، ونداء بائع اللبن الرايب، وصوت عصافير. وددت لو غفوت ثانية، فأمامي يوم طويل

مجهول البدء والمنتهى. أمامي عالم هائل، يحتجب عنى خلف بوابة المدينة العظمى.. غير أنني لم أستطع العودة للمنام، فاكثفت بإغماض عيني إلى أن تمتلئ الأرض بالنور، وتشرق شمس الله على الأبرار والأشرار، كما هو مكتوب.

خرجت من الخيمة باحثاً عن بعض الماء لأمسح وجهي، فلم أجد. كان الناس مشغولين ببداية يوم آخر، شاق، من أيامهم.. فى ساعة مبكرة من الصباح، يعرفونها، اتجهوا إلى بوابة المدينة. أدهشني أن البوابة لم تكن خلال الليل مغلقة! بل هى لا تغلق أبداً، ومصراعاها المفتوحان مطمور أسفلهما برمال متحجرة وصدأ ملحي، بما يدل على أنها لم تغلق منذ سنوات بعيدة.. فلماذا يبيت هؤلاء الناس خارج الأسوار؟

أخذني نهر الفقراء الدافق نحو البوابة. كانوا يسرون بخطى ثقيلة، لم يتدافعوا. مشيت معهم تاركاً نفسى لتيار النهر البائس المستسلم لمشية الرب. وجوه الداخلين شاحبة، ملابسهم قديمة ونظيفة، تتخللهم غبطة خفية لاتشى هيئتهم بها.. تحققت لوهلة خاطفة، بأن هؤلاء جميعاً، مسيحيين ووثنيين، هم أبناء الرب.

كان الحراس عند البوابة، يحذقون فى الداخلين بإمعان. لم يمنعوا أحداً، مع أن وقفهم المتحفرة كانت توحى بأنهم على وشك المنع. سور لمدينة عالٍ، لم أر قبله سوراً بمثل ذاك العلو. كان فوقه حراس آخرون، ينظرون إلى ناحيتنا بكسل. بوابة السور تكفى لدخول كثيرين دفعة. فى الباب المفتوح باب أصغر، يكفى لدخول شخص واحد. يدل صدأ حوافه على أنه أيضاً، لم يفتح منذ سنوات بعيدة.. لا أتذكر أنني رأيت ابتسامة واحدة، يوم دخولى من بوابة القمر.

الإسكندرية هائلة. عظمة الاتساع. امتصت شوارعها نهر الداخلين

بيسر، فكأنهم نملٌ يدلّف في شَقِّ صخرةٍ عظيمة. الطريقُ مبلّطةٌ بأحجارٍ صغيرة، رمادية، وعلى حوافِّ معظم الشوارع أُرصفةٌ. عرفت يومها معنى كلمة رصيف التي كان القسّ الدمياطي، معلّمى في نجع حمادى، يذكرها خلال كلامه. الشوارع نظيفةٌ، كأنها عروس تغتسل كل ليلة، فتصبغُ مستبشرةً. الكادحون، يغسلونها كل ليلة، ويبيتون خارج أسوارها. لم أر في ذاك الصباح الباكر، كثيرًا من سكان المدينة. في بلادى الأولى، كانوا يقولون لنا إن الإسكندرانيين ليسوا مثلنا، فهم يحبون السّهر بالليل، ولا يقومون من نومهم مبكرين.

لم تدهشني ضخامة بيوت الإسكندرية وكنائسها، فقد رأيتُ في مصر من المعابد القديمة ما هو أضخم كثيرًا من تلك البنايات. لكن الذى أدهشنى فى أنحاء المدينة، كان الدقة والتأقُّ: الطرقات، الجدران، واجهات المنازل، النوافذ، المداخل المزروعة، الشرفات المحفوفة بالورود ونباتات الزينة.. المدينة كلها دقيقة الصنع، ومتأنقة. غير أن هذا الجمال المنبث في كل مكان، لم يكن يشعرنى بأن الإسكندرية هى مدينة الله العظمى كما يسمونها.. رأيتها أقرب إلى: مدينة الإنسان!

- أيها الجنوبي، هذا طريقُ الأستاذ. فهل أنت قاصدٌ إليه، أم إلى حَيِّ المصريين؟

- لا يا خال، أنا ذاهبٌ إلى البحر.

- البحر في كل مكان! عُذ من حيث أتيت، ثم اتجه يسارًا واعبر الشارع الكانوبى، وواصل السير شمالاً، واجعل كنيسة بوكاليا على يسارك، وسرّ حتى تجد البحر.. البحر هو الذى سيجدك.

شكرتُ المرشد المتطوع، حارس المنزل، واتجهتُ كما وصف. لماذا لم يتركنى أهيمُ كما أشاء وكما شاء لى الربُّ، فأرى ما لستُ أتوقّع؟ كنيسة

بوكاليا التى ذكرها رأيتها بعد ذلك بشهور، يُقال إن رفات مرقس الرسول محفوظةٌ بها. أما يومها، فقد عبرتُ في طريقى جسرًا حجريًا صغيرًا، يعلو ترعةً عذبة تجرى من جنوبى المدينة إلى الشمال، حتى تصبّ في البحر. لم أتجه مع مسار الترعة، فضلتُ المضىّ شرقًا في الشارع الكانوبى.. هو شارعهم الكبير الذى يشق المدينة لنصفين، النصف الشمالى يسكنه الأغنياء، والفقراء يسكنون جنوبًا. فقراء الإسكندرية أغنى من أغنياء الناس في بلادى الأولى.

لما علت شمسُ النهار إلى كبد السماء، دبّت الحياةُ في الشوارع الفرعية. عدد الناس كان أكثر مما ظننتُ. مررتُ بجماعةٍ من رجال الكنيسة يتجهون شمالاً، وحولهم عمالٌ يحملون معاول. كان العمال يردّدون خلفهم: باسم يسوع الإله الحق، سنهدم بيوت الأوثان، ونبنى بيتًا جديدًا للرب. العبارات الثلاث منظومة الإيقاع في لفظها اليونانى، ووقعها مختلف عن نصّها السريانى هذا.. الإسكندرية لا تتكلم السريانية.

أسرعتُ خطاى مبتعدًا عنهم، حتى بدت لى الكنيسة الكبيرة جهة اليسار. لم أمض في طريقهم، وإنما سرّ شرقًا مع الشارع الكانوبى الكبير، الأنيق، الممتد بطول المدينة من بوابة القمر التى دخلتُ منها، إلى بوابة الشمس الواقعة شرقى المدينة، ومن خلفها تمتد بيوت اليهود التى مررت عليها يوم خروجى من الإسكندرية، بعد سنواتٍ ثلاث من دخولى إليها وانزوائى بها.

الشارعُ الكانوبى دنيا كاملة. مرصوفٌ كلُّه، والبيوت على جانبيه أنيقةٌ، كلها، وفيه تصبُّ شوارع أخرى أصغر منه تنسرب منه جنوبًا وشمالاً. كل ما حولى يومها كان بديعًا، إلا ذلك التمثال البائس الذى يتوسّط الطريق. عرفتُ بعدها بأسابيع، أنه تمثال لإله كانوا يسمونه سيرابيس، وقد استبقاه أسقف الإسكندرية السابق ثيوفيلوس من معبد السرابيون الكبير، بعدما

هدمه على رؤوس الوثنيين المعتمدين فيه. وقد أقام الأسقفُ التمثال البائس في وسط الطريق، ليفجع الوثنيين بمصير معبودهم، ويخلد انتصاره عليهم بإهانة آلهتهم إلى الأبد. جرى هدم المعبد الكبير في العام الذي وُلدت فيه، أعني سنة سبع عشرة ومائة للشهداء، الموافقة لسنة إحدى وتسعين وثلاثمائة للميلاد المجيد... وثلاثة وعشرين عامًا، ظل التمثال خيرَ شاهدٍ على بؤس الوثنية الغابرة! تأثرتُ ساعتها لرؤيته، كان يعلوه زبل طيور البحر، وتحوطه القمامة من كل النواحي، فيبدو مضحكًا وهو مغروسٌ بقدميه في بلاطات الشارع، من دون قاعدة تحمله.

لم أجد كثيرًا في التمثال كيلا ألفت أنظار المسيحيين، والوثنيين، المارين من حولي. لا يجب أن يلتفت إلى أحد، لا من أولئك، ولا من هؤلاء، ولا حتى من اليهود الذين يحظون في المدينة بكرامية الفريقتين! يكرههم الوثنيون لجشعهم، ويمقتهم المسيحيون لوشايتهم بالمخلص وتسليمه للرومان ليصلبوه.. ليصلبوه.. أترأه صلب حقًا؟

عند ميدان يتوسط الشارع الطويل، أخرجني من توالى الأفكار وانتظام خطاي، صوتُ المنادى الزاعق باليونانية من فوق بغلته: *الحاكم أورستيس يدعو العلماء والمتعلمين، إلى محاضرة أستاذة كل الأزمان، صباح يوم الأحد بالمسرح الكبير. تعجبُ لما تأكدتُ من أنه يقول: أستاذة كل الأزمان! هل للزمان أستاذة.. امرأة؟ شككتُ أولاً في صحة فهمي للعبارة، مع أن صيغتي المؤنث والمذكر في اليونانية لا يلتبسان، لوضوح الفرق بينهما. ثم شككتُ في صحة عقل المنادى، مع أنه بدا لي جادًا. والجدية، بحسب ما تعلمناه في أخميم هي نقيضُ الخبل.*

دفعتنى شكوكي للخروج من حرصى، فلحقتُ بالمنادى، وسألتُ تابعه الصغير، فنظر الولد في مندهشًا، ولم يجاوبني. كان المنادى قد أوقف البغلة بضمِّ ساقيه إلى صدرها، ومدَّ يده في مخلاته ليخرج قنينة

طويلة العنق من الفخار الأبيض ارتشف منها جرعة، فكانت لدى الفرصة لأسأله:

- يا خال، أين ستكون المحاضرة؟

- مالك أنت بالمحاضرات، يا فلاح، أم تراك تطمع في الحلوى التي يوزعها الحاكم هناك؟

- أنا لا أكل الحلوى. أريدُ فقط أن أعرف منك، من هي أستاذة كل الأزمان؟

- فلاح لا يأكل الحلوى، ويتكلم اليونانية الفصيحة، ولا يعرف هيباتيا.. هذا وحقُّ سيرابيس، عجيب!

تركنى المنادى، ومضى مستخفًا بي، وراح يصيح بالعبارة نفسها: *الحاكم أورستيس يدعو العلماء والمتعلمين.. غاب عني في شارع جانبي بعدما تركنى مبهوثًا، أفكر في المرأة التي يمكن أن تكون: أستاذة كل الأزمان!*

انتبهتُ بعد تيه ذهني إلى مقصدي الذي انحرفتُ عنه قبل ساعة، أعني الوصول إلى البحر. فأكملت مسيرتي شرقًا في الشارع الكانوبي حتى لقيتُ شارعًا كبيرًا إلى ناحية الشمال. كنتُ قد تجاوزتُ الموضع الذي وصفه لي المرشد المتطوع، حارس البيت، فأسرعتُ الخطى أملًا في الوصول إلى مبتغاي، أو إعادة المحاولة. كنتُ كلما سرتُ شمالًا، أحسُّ بالبحر أكثر فأكثر.. شيئًا فشيئًا، صارت أرضية الشوارع الفرعية رملية، وصارت البيوت متباعدة عن بعضها، وأحجارُ جدرانها متأكلة حائلة اللون. عرفتُ بعدها أنه فعلُ هواء البحر، الآتي من مكان قريب.

رائحة البحر قوية، وصوت أمواجه راح يلامس أذني، فإلفني شعورٌ غريب. لما ظهر لي البحرُ من بين البيوت، أسرعتُ خطاي حتى جرت إلى

المنطقة الرملية الواسعة، الممتدة خلف البيوت.. بيتٌ منها كبيرٌ كالقصر، كان آخر البيوت ذات الأسوار الأنيقة. عند بابه الكبير كان يجلس حارسٌ متقدّمٌ في السن، يرقد عند قدميه خرووفٌ نحيل. مررتُ بهما من دون التفات، الحارسُ أيضًا لم ينظر ناحيتي. كان الخرووفُ هو الذى نظر.

لما رأيتُ البحر محيطًا باللسان الرملى الممتد فيه، هممتُ الخطو حتى اقتربتُ من منطقة صخرية وسط اللسان، ثم سلكْتُ سُبُلًا رمليةً ممتدةً بين الصخور.. صخورُ الإسكندرية حادةُ الحواف، شعثةٌ وقاسية. هى لا تشبه البيض الصخرى الذى تدحرج مع النيل من السماء، فاستقر على ضفتيه فى بلادى الأولى. بدا لى البحرُ يومها، كأنه بلا ضفاف! مع أنه كان يظهر لنا صغيرًا فى رسوم كتاب الجغرافيا. مشيتُ مبتعدًا عن الصخور، حتى انبسطت من تحت قدمى الرمال، وأحاطنى البحر من الجهات الثلاث.. على مقربة من الموضع الذى يتلاشى فيه زبدُ الأمواج، ألقيتُ عنى مخلاتى التى ثقلت على من طول ما حملتها. وبحرص بالغ تقدّمتُ، حتى لمس ماء البحر أقدامى.. هالنى الامتداد.. كاد يُغمى على من هول اتساع الماء. مددتُ ذراعى كأننى أوشك أن أطير، وملأتُ صدرى بالهواء الآتى من فوق الموجات. أبهجنى مَسُّ البحر لكعبى، ورقّة ارتماء موجاته المنهكة تحت قدمى.

البحر.. إنه الماء الأعظم الذى بدأ منه الوجود. من وراء هذا البحر بلادٌ، من ورائها بحرٌ أعظم يحيط بالعالم. إذ أتذكر الآن هذه اللحظة التى عشتها قبل عشرين سنة، أكاد أشعر بالرداذ بمسّ وجهى، وبالروعة التى أوقفتنى ساعتها على ساحله شاخصًا كالمسلّات العتيقة.

كانت رائحة البحر غريبة علىّ، والماء مالح. ساعتها تاقت نفسى للعوام فى هذا اليم العميم، مثلما كنتُ أسبح فى النيل أيام الطفولة. كنتُ أعرف من الكتب، أنه لا توجد فى هذا البحر تماسيح، ولا أفراس نهر، ولا يعيش

عند ضفافه الورل^(١).. ولكننى كنتُ متوجّسًا، مما يمكن أن يجتبه لى هذا البحر العظيم من أخطار.

تلفّنتُ فى كل الجهات، فلم أر فى المدى أحدًا غيرى. ملتُ بكفى إلى البحر وغسلتُ وجهى بمائه المالح، فخفّ توجّسى. تقدّمتُ متردّدًا، حتى وصل الماء لركبتى. انتابنى شعورٌ آخر ما كنتُ أعرفه.. لا طين ولا لزوجة فى قاع البحر. الرملُ ممتدٌ، ومن فوقه يتتالى الموج. كانت الموجاتُ تهزّنى، وتدغدغ فى حواسنا منسية. أغمضتُ عيني، مستسلمًا لهزّات الموج اللطيفة، المثيرة. كادت موجةٌ توقّعتنى، فضحكْتُ بصوت عالٍ لم أسمعته منى قبلها بسنواتٍ، ولا بعدها بسنوات.. عدتُ مسرعًا إلى الشاطئ، فوضعتُ مخلاتى قرب صخرة نائثة وسط الرمال، وألقيتُ فوقها جلبابى التعيس، واندفعتُ إلى الماء.. يا إلهى، كان قلبى لحظتها يخفق بالغبطة.

العوامُ فى البحر سهلٌ، الماء يحملنى ولا يجذبنى تباره مثلما كان النيلُ يفعل بى أيام الطفولة. ماء النيل عذبٌ وطيبٌ القاع، وهذا البحرُ مالحٌ وكاشفٌ لقاعه الرملى. كنتُ أقف وسط مائه الذى يغطى صدرى ويمسّ كتفى، ومع ذلك أرى قدمى، وأرى الرمال وقطع الصخور النائمة على القاع. النيلُ إذا نزلناه، نأر طينٌ قاعه، وصار ماؤه عكرًا، وقد تُخفى العكرة التماسيح. أما البحر، فلا أخطارَ فيه تهدّد العائمين، وتبدّد فرحة رجوعهم المؤقت إلى الماء الأصلي الذى بدأ منه العالم.

لما حملتنى صفحة الماء بلا جهدٍ كبيرٍ منى، جال بصرى فى السماء وفى الأفق الممتد من حولى.. ناحية الغرب لمحتُ مراكبَ كبيرة، بعيدة.

(١) الورل: نوع من الزواحف، كأنه سحلية ضخمة، كان يعيش قديمًا عند حواف النيل، ويكاد اليوم ينقرض من هناك. (المترجم).

وإلى جهة الشرق كانت نوارسُ تطير على امتداد الشاطئ. النوارس كانت كثيرةً، وطيرانها مبهجٌ.. أتراها هي الطيور التي تزور كل عام، الجبل الذي حَدَّثني عنه الرجل في الخيمة؟

غمرتني السعادةُ فوق صفحة الماء، حتى وقع ماجرى معي، فجعلني لا أقرب البحر من بعد ذلك أبدًا.. فوق صفحة الماء الرقاق، كانت نبضاتُ الدفء الداخلي تزيح عني برودة قلبي وارتعاشة أطرافى. ولما حملني البحرُ، شعرتُ بأنني جنينٌ يخرجُ من رَحِمِ هائل. انتابتني الأحاسيسُ الغريبة، وأخذتني لهفةُ اللمس ودغدغةُ الشهوة. أنا الذي لم أعرف قبلها امرأةً في حياتي، ولم أكن أنوى أن أعرف. غير أنني ساعتها تفكرتُ في تلك اللذة، وجال ببالي أن البحرَ امرأةٌ لعبوب تمتع الرجال العائمين، من دون خطية تُحسب عليهم أو يحاسبون عليها.. البحرُ رحمةٌ من الله للمحرومين، لك المجد يا أرحم الراحمين.

تركْتُ نفسي للماء الصافي، بأن استلقيتُ على ظهري فوق صفحته، ومددتُ ذراعى بطولهما. كنتُ أفعل ذلك في صغرى، فوق صفحة ماء النيل، ثم صرتُ أفعله في صومعتي، حيثما أخلو.. وأصفو! أتمدّد على الأرض وأبسط ذراعى، وأجول في سماوات خيالى، غير أن المرة التي فعلت فيها ذلك في بحر الإسكندرية؛ كانت مختلفة. كان ماء البحر يحملني بأكثر مما كان النيل يفعل. كنتُ أخفّ، وكانت الشمسُ يتلألأ نورها بين جسمي الطافي وسطح الموجات، فتتعاكسُ الأضواء على أعضاء جسمي العارى، وتتقاطع فوق سمرة بشرتى، فتكسوها ألَقًا نادرًا.. كانت المرة الأولى، التي رأيتُ فيها أن جسمي جميلٌ وسُمرتى لطيفة! البحرُ يظهر مالا يظهره النهرُ من بدائع الصُّنع الإلهي في الكون، وفي أجسامنا.

فوق صفحة الماء تذكّرتُ، هائئًا، استلقائى على التلة التي يرتاح فوقها البيتُ الذي وُلدتُ فيه، حيث كان الحمامُ يحطُّ من حولى.. ولما مالت

الشمسُ عن وسط السماء إلى جهة الغروب، انتبهتُ لعصّات الجوع. بدا الشاطئُ بعيدًا عني، ولمحتُ قرب ثيابي شخصًا يلوح لى بطول ذراعيه، فانتابني قلقٌ مفاجئٌ وغاص في صدرى توجُّسٌ. رحْتُ أضربُ بساقيّ وذراعى بقوة، لأعود سريعًا إلى ملاسِى. بعد لحظات طوال كالدهر، عرفتُ أنني لا أتقدّم نحو الشاطئ.. زدتُ من سرعة ضرباتى فى الماء، غير أنني لم أقترّب من مقصدي. أنهكتُ فجأةً، وكادت ذراعى اليسرى تتصلّب. تركتُ جسمي ليطفو، لأستريح برهةً، غير أنني فزعتُ لما أدركتُ أن الماء يجرّنى إلى قلب البحر العميق. عاودتُ العوم منهكًا، ولكن جَذِبَ الماءُ كان أقوى من ضربات ذراعى المتلاحقة الفزعة.. وأدركتُ ساعتها أن البحر غادرُ.

الشخصُ الواقف على الشاطئ كفَّ عن التلويح لى، وغاب عن عيني لما حال بيننا الموجُ.. كنتُ قد أنهكتُ تمامًا، وكان البحرُ لا يرحم. لما تيقّنتُ من أنني أغرقُ صحتُ رَغَمًا عني، ثم كتمتُ صيحاتى لأستعين بما تبقى من قوتى على الرجوع. صار الألمُ مبرّحًا بذراعى اليسرى، لكنى واصلتُ التجديف بها. هتفتُ فى باطنى: يا يسوع المسيح كُنْ معي الآن، وسأندُر كل حياتى لك. ازدادتُ ضرباتى لسطح المياه، وعانيتُ طويلاً مما زَجَجْتُ نفسي وتورّطتُ فيه.. بعد معاناة طويلة فى مغالبة جذب الماء للوراء، وجدتنى أندفع مع ضربات ذراعى إلى ناحية الشاطئ. كان لهاثى متتابعًا، مثل زخّات بهجتى بالنجاة.. لما وصلتُ إلى النقطة التي يقرب الشاطئ، حيث تنقلب الأمواج وتهذر، لمسّتُ قدمى الأرض. وشكرتُ الربَّ بقلْبٍ مضطرب.

رحْتُ إلى مخلاتى مترنّحًا، وحين لم أجد أحدًا غيرى على الشاطئ الرملى الممتد، ظننتُ لو هلة أن الذى كان يلوح لى متبهاً من خطر الغرق، لم يكن من البشر. وإنما هو ملاكٌ أرسله الله من السماء، لينقذنى من التوغل

فى غواياتى.. قلت فى نفسى إن أبانا الذى فى السماوات رحيمٌ بنا، وإن أسرارهِ فى الوجود لا تنتهى، وإننى لن أقرب البحر من بعد ذلك أبداً.

جلجلت ضحكةً ناعمةً من ناحية الصخور القريبة، فنهضتُ من استلقائى على ظهرى. نظرتُ إلى جهة الصوت مذعوراً، فرأيتُ امرأةً بيضاءً فى ثوبٍ سكندريٍّ مكشوف الصدر والذراعين.. أقبلت المرأة متمائلةً، كأنها نجتُ ثوياً من الغرق فى بحر الميوعة:

- أنت سباحٌ ماهرٌ، ومحفوظٌ أيضاً.

- من أنت يا سيدتى؟

- سيدتى.. ها هأ، أنا أوكتافيا خادمة السيد الصقلي، تاجر الحرير.

نظرتُ إليها بعينٍ زائغة كأننى فى حلم، أو كأننى متٌ غرقاً وبُعثتُ فى زمنٍ آخر. نظرت حولى، فكانت النوارس ماتزال تطير، والبيوت البعيدة فى موضعها مثلما كانت. مستنى نسمةً باردة، فانتبهتُ.. ما الذى جاء بهذه الخادمة التى لا تبدو كالخادومات، إلى هنا؟ لم أجد عندى إجابة، فسألته متلعثماً، وردت هى بلا تردد:

- أرسلنى بوسيدون.. إله البحر الذى أنقذك، فأنا من حورياته.. ها هأ.

- أرجوك، لا تعبثى بى.

- لا تعبس أيتها الجنوبى.. سوف أخبرك بكل شئ.

قالت إن اسمها أوكتافيا، وإنها تأتى لهذا المكان معظم الأيام التى يكون فيها سيدها مسافراً مع تجارته، فيأخذ معه خدمه كلهم. فلا يبقى معها بالبيت، إلا الحارسُ الجالسُ على بابه.. هى، كما قالت، تفضل المجيئ إلى هنا لتحكى همومها إلى البحر، لأنه يحفظ الأسرار! أخبرتنى

وهى تنظر ناحية الموج، أن هذا الشاطئ لا يرتاده الناسُ لكثرة صخوره وخطورة دواماته القريبة من الشط.

- آه، عرفتُ الآن ما جرى معى.. ولكن كيف عرفتِ أنت أننى جنوبى.

- من لهجتك. وأعرف أيضاً أنك الآن جائعٌ، من طول بقائك فى البحر! فتعال لتأخذ شيئاً تأكله.

لم أعرف ساعتها كيف أردتُ عليها. كان الجوعُ يقتلنى، والخجلُ. أخرجتنى هى بلطفٍ من حرجى، حين قالت بحسم ممزوج بميوعةٍ لم أر مثلها: هات مخلاتك، وتعال.. مشتٌ نحو شقٍّ واسع بين الصخور، وبقيتُ فى موضعى مشدوهاً مُدللهاً، أرقب من قريبٍ مشيتها المتدلة. كانت فى سن الأربعين، أو الثلاثين، لم أعرف. جسمها يميل قليلاً إلى البدانة، ويميل كثيراً إلى اللدونة. كانت تتمايل فى مشيها، كأنها خيط بخور. فهل تراها كانت تتعمد يومها إغوائى، أم أنها طبيعة النساء فى الإسكندرية؟

سأكتفُ الآن عن الكتابة، فالذكرياتُ تحتشد بقلبى، وتثقلُ رأسى ويدي. سأكتفى بما دوّنته الليلة، وأعود للكتابة فجرًا، إن صحوت من نومي. وقد امتلأ هذا الرقُّ على كل حال، فلأبدأ غداً مع رقٍّ جديد أستسلم فيه لدوامه أخرى من دوامات الذكرى التى لا يتوقف دورانها.

.. هل ستظل واقفاً هكذا، للأبد. البس جلبابك ليدارى ما أنت فيه،
والحق بى بسرعة.. هى هى!

ارتبكْتُ حين انتبهتُ لانتصاب شيطاني من تحت سروالى المبلول بماء
البحر المالح. دُرْتُ بسرعة نحو مخلاتى، فالتقطتُ من فوقها الجلباب،
وألقيته فوقى. حملتُ مخلاتى، ومشيتُ إلى المغارة الصخرية القريبة
حيث غابت هى عن عينيَّ المشدوهتين. أردتُ أن أعتذر لها عن كل شئ،
وأشكرها، ثم استأذن منها، وأمضى بعيداً أجرُّ ذبول خيبتى وفُحشى.

وقفتُ أمامها، مرتبكاً، عند مدخل المغارة الصخرية الصغيرة التى
جلست هى فى وسطها.. كانت تُخرج أشياء من قفص أنيق من ذلك النوع
الذى يصنعه الفلاحون لآسيادهم من رقائق جريد النخيل. رأيتُ من مكانى
ومن جلستها انضمامة نهديها. كنتُ قد رأيتُ قبل ذاك اليوم نهود نساءٍ
يُرضعن أطفالهن، لكن ما رأيته يومها كان مختلفاً. خلق الله نهود النساء
كى يُرضعن بها، فلاى سببٍ آخر خلق هذين النهدين؟

كانت أوكتافيا مشغولةً عني بما تفعله.. فرشتُ على الأرض منديلاً
كبيراً، وبعنايةٍ ماهرةٍ وضعتُ على أطرافه الأربعة قطعاً من صوان البحر
المتناثر فى أرض المغارة، ثم أخذتُ تصفُّ على المنديل المأكولات:
بيضٌ مسلووق، أرغفةٌ الدقيق الأبيض، الجبنُ الأبيض، جُبنٌ آخر أشد
بياضاً، ماءٌ أو نبيذٌ فى قنينة خزفية بيضاء.. كل شئ على المنديل الأبيض
الكبير، كان أبيض. ثوبها الشفيفُ أيضاً، كان أبيض. نهدها المظل، أبيض.
بشرتها، كلها، بيضاء.. وكانت دهشتى بيضاء.

.. اجلس هنا.

جلستُ مستسلماً، مسحوراً. سلَّمتُ نفسى لها، وأسلمتني هى إلى
خَدْرِ لذيذ. فعلتُ ما لم يفعلهُ أحدٌ معي من قبل، ولا من بعد، حتى فى

الرَّقُّ الرَّابِعُ

غَوَايَاتُ أَوْكَتَافِيَا

لطالما أحببتُ الأشياء التى تتم، فقط، فى داخلى. يُريحني أن أنسج
الوقائع فى خيالى، وأحيا تفاصيلها حيناً من الدهر، ثم أنهيها وقتما أشاء.
تلك كانت طريقتى التى تعصمنى من ارتكاب الخطايا، فأظلُّ آمناً. غير
أن ما جرى على الشاطئ الرملى الصخرى، الواقع شرقى الإسكندرية،
كان مختلفاً.. كان فعلياً، ومؤرّقاً لى لزمنٍ طويلٍ تالٍ.

كان الهوائ قد صار بارداً، حين خرجتُ من البحر ناجيةً من الدَّوامة
الغادرة. وكنتُ وحيداً، جدّاً، مع المرأة التى اسمها أوكتافيا، فلم أستطع
تدبُّر الأمر. هى دبَّرتُ كل الأمور، لأنها وفق ما أخبرتني به فى اليوم الثالث،
كانت تنتظر وقوع نبوءةٍ أخبرتها بها عجوزٌ من كاهنات المعبد المهديم..
سرف أقصُ ما جرى بيننا:

حين تركتني أوكتافيا عند ملابسى، ومشتٌ بدلالٍ نحو الشَّقِّ الصخرى.
وقفتُ مشدوهاً، وقد تسمَّرت بها عيناي. قبل أن تتوارى بمؤخرتها العالية
الرشيقة بين الصخور، نظرتُ نحوى نظرةً ولهى. وأشارت بذراعها اليسرى
إلى أسفل بطنى، وهى تقول باسمّة:

زمن طفولتي. راحت تضع الطعام في فمي، وتبتسم لي حتى أبلع اللقمة السابقة، فتضع التالية. تمنّعت في البداية، ثم استحييت الأمر، وأكلت من يدها هائلاً كطفل رضيع.

شبعْتُ حتى ظننتُ أنني لن أجوع بعدها أبداً. لما زَمَمْتُ شفَتَي في وجه اللقمة الأخيرة، أعادتها لفمي حتى فتحته.. مَدَّتْ يدها اليمنى برفق نحو القنينة، ويدها اليسرى مَدَّتْها بحنو أسر نحو كتفي اليسرى، فأمالَتني برقةٍ إلى صدرها. ارتبكْتُ، وصحْتُ فِيهَا فرغاً:

- ماذا تفعلين؟

- سأسقيك أطيّب نبيذٍ سكندري، بطريقتي.

كانت طريقتها، أن أريح خدي الأيمن على نهديها الأيسر، حتى يلتصق شِقُّ وجهي بنعومة صدرها الممتلي. قاومتها قليلاً، ثم استسلمتُ. لم أشعر قربها بخطر الخطيئة، وإنما شعرتُ بأنني أغوصُ فيها، وأنسى ماعداها.. وحين أحاط باطنُ ذراعها اليسرى بكتفيّ، أحسستُ أنها احتوتني للأبد، وأن وجودي اضمحلّ حتى تلاشى بحضنها الدفي.. براحتي اليمنى راحتُ تقربُ القنينة من شفتي، فتداعب بفم القنينة فمي، ثم تسكب في روحي رشفات من نبيذها السماوي. لم أذُق مثل هذا النبيذ، ولم أشرب بعد أيامي هذه مع أوكتافيا أئى نبيذ.. لما ارتويتُ أغمضتُ عيني، فأحسستُ بخدرٍ يتخلل روحي، ويرتفع بي إلى آفاقٍ علوية. لم أفتح عيني، إلا حين قالت:

- اشرب المزيد، النبيذُ مفيدٌ يا حبيبتي.

- حبيبك.. كيف تقولين هذا؟

- لا تسأل.. ولا تجادل حوريات البحر. أغمضُ عينيك، حتى تشعر بي أكثر.

كانت الشمسُ تستعد لمغيبها، وكان السكونُ تاماً من حولنا، إلا من صوت الموج. أغمضتُ عيني رغماً عني، لم أستطع مدافعة حُضورها الإسكندراني الجارف. ظهر لي أنها محققةٌ، فحين أغمضت عيني على صدرها، ازداد شعوري بها.. وحين مرّت براحتي اليمنى الحانية على رقبتى، أخذتني سكرةٌ. راحت هي تتلمّس عظام كتفيّ، وتمر بأناملها على صدري الجاف النحيل.. شعرتُ بيدها اليسرى تعصرني، وبأنفاسها الفوّاحة بالتهنّيدات تلفحني. يدها اليمنى توغّلت تحت سروالي، المبلول بماء البحر والرغبة المحرّمة. كانت يدها تغوص فيّ، فتنتهك أَرْضِي المستسلمة كلها، من أصابع قدمي إلى سائر جسمي المتكوّم في حضنها. لما لمستُ بباطن كفّها ركبتى اليمنى، وضَمَّتني إليها بقوة، غبتُ تماماً. كنتُ آدم الذي يوشك أن يخرج من الجنة؛ لأنه يوشك أن يدخل الجنة فيأكل ثمانية من الشجرة.. وبهذا الاشتهاء المحرّم، المفعم بانجذابٍ سحري، كدتُ أقبلُ عليها من دون روية.

- يا حبيبتي، مهلاً. جسمك مبلولٌ بماء البحر.. جسمك يا حبيبتي، يابسُ كشجر الخريف. آه، كم أحبُّ بيوسة هذا الشجر.

أنا لم أكن ساعتها أنا.. شعرتُ كأن الكون الأعلى توقف عن دورانه، والنيلُ البعيدُ سكن جريانه، ولم يعد على وجه الأرض بشرٌ، واختفت الملائكة من السماء.. اندفق مائي في غفلةٍ مني، فضحكْتُ. وددتُ لو أحيطها بذراعيّ، فتمنّعتُ. رَدَّتْ بدلال يدي عن كتفها، وأخذتها نحو فمها. قَبَّلَتْ أطراف أصابعي، وأطالت القُبلة. ولما شعرت بلسانها يلمس أناملِي، غلبتني غيبوبة كادت تأخذني منها.

- الشمس غابت يا حبيبتي، ستبرد.. تعال للبيت. إنه قريبٌ، ولا أحد هناك إلا البوابُ الطيب.

اعتدلتُ في جلستى. وبحركة يدها الرشيقة، جمعتُ هـى كل ما نثرته من سَلْتها على الأرض: المفروش الأبيض، قتيحة النبيذ الفارغة، الأساور الفضية التي خلعتها وهى تطعمنى فى فمى.. لما وقفتُ كسنديانة وارفة، وقفتُ كنخلة يابسة. أفهمتنى همساً فى أذنى، من غير داعٍ للهمس ونحن وحدنا! أن أتبعها من قريب، حتى تصرف حارس البيت عن البوابة.

سرتُ وراءها غير بعيد، فرأيتها تكلم حارس البيت المسنّ بشئ، ثم توارى الرجل خلف البيوت الهادئة، وتبعه خروقه النحيل الذى كان ينظر نحوى كما تنظر الكلاب. تقدّمتُ نحو البيت الكبير، وكانت تنتظرنى باسمّة عند البوابة. غرفة الحارس لصيقة بسور المنزل من خارجه، ومن وراء السور حديقة كبيرة، يتوسطها بناءً أنيقٌ من طابقين يرتفعان على أعمدة رصينة القائمة. أغلقتُ خلفنا، بهدوء، بابَ الحديقة الأنيقة المليئة بشجر قصير ملوّن، وزهور اكست مع الغروب حمرةً زادت بها.. كنتُ أتلفّتُ حولى، مسائلاً نفسى: هل تكون الجنة، أجملُ من هذا المكان!

كنتُ كأنى فى حلمٍ بديع، لا أحبُّ أن أصحو منه.. فتحتُ أوكتافيا باب المنزل بمفتاح نحاسى أخرجه من القفص الجريدى الخفيف، وأشارت إلّى بالدخول. ياملكوت السماء. قلتُ لها هامساً: ما هذه الفخامة؟ فابتسمت وهى تأخذ ذراعى إلى صدرها.. أمسكتُ يدى بإحدى يديها، وبالأخرى حملتُ سراجاً منيراً لا يتصاعد منه دخانٌ. فى طريقنا من البهو الفسيح إلى الدور الأعلى، رأيتُ الجمال مبلّوثاً فى كل الأماكن. كلما سارت أوكتافيا بسراجها، وقعت عيناى على زاوية رخامية مزخرفة، أو تمثالٍ بديعٍ لآلهة الوثنيين الخلافة، أو مفارشٍ حريرية متقنة التطريز رهيبة الحواف.. السلم الواصل بين الطابقين، كله، كان من الرخام الأبيض. وفى درجاته كلها نقوشٌ متنوعة، وحليّاتٌ من الرخام الملوّن المبلّوث فى رخامه الأبيض. كان لكل درجة زخارفها، وصورها المختلفة عن

الدرجة الأخرى. بكم من المال والوقت والجهد والفن والإتقان، عمل هذا السلم! حتى بقايا المعابد البديعة الممتدة على طول وادى النيل، وقد بناها الأقدمون المعمّرون فى سنين طويلة^(١)، ليست بهذه الدقة ولا بهذا الإتقان. سألتُ نفسى ساعتها: هل ستعطى ديانتنا للأجيال التالية، جمالاً، كهذا الذى قدّمته لنا الأزمنة الوثنية؟ ما يزال هذا السؤال عالقاً برأسى بعد مرور كل هذه السنين، وما يزال بلا إجابة.. آه يا أوكتافيا وآه لذكرى غواياتك، وزمانك الذى كان.

أسرحتُ فتيلاً آخر، فشعّ نوره ونورها عند أعلى السلم. نظرتُ خلفى، فبدت لى فى أرضية البهو لوحةً مرسومة بالفسيفساء، لم أتبين تلك الليلة ملامحها. وعرفتُ صبيحة اليوم التالى أنها صورة كلب! استغربتُ الأمر، فشرحتُ لى أوكتافيا حقيقة الحال: هذا الكلب الحزين المرسوم داخل الدائرة الكبيرة بقطع الرخام الصغيرة، وبجواره إناء اللبى المسكوب، كان كلب السيد الصقلى الذى أراد أن يخلد كلبه الوفى فى مرض وفاته، تقصد وفاة الكلب؛ فكلف الفنانين المهرة برسمه فى بهو الدور الأرضى، أمام السلم، ليراه كل يوم عند نزوله من الطابق الأعلى!

فى الطابق الأعلى من المنزل، تقع غرفة النوم التى سألتُ أوكتافيا حين رأيتهما: إن كانت هذه غرفة نوم تاجرٍ، فكيف تكون غرفُ نوم الملوك؟ فردّت بما معناه أن سيدها فاحش الثراء، وأنى يمكننى المبيت فى سريره لو أردتُ.. وبطبيعة الحال، رفضتُ.

(١) ساد الاعتقاد قديماً، بأن المصريين القدماء كانت أعمارهم مديدة، ولذلك بنوا الأهرام والمعابد الضخمة! وتؤكد ذلك فى وُهم اليهود والمسيحيين الأوائل، بسبب ماذكرته التوراة من أن أعمار بنى آدم كانت تعدُّ بالآلاف، بل منهم من عاش قرابة الألف سنة.. والحقيقة، أن متوسط عمر الإنسان فى مصر القديمة، كان فى حدود ستة وثلاثين عاماً فقط.. (المترجم).

كان ذهني ساعته مشغولاً بهذا التاجر الصقلي الذي عرفتُ منها أنه ليس صقليًا تمامًا، وأن أباه هو الذي وفد في صغره مع أسرته، من صقلية إلى الإسكندرية. بدا لي أولاً أنه رجلٌ مختلٌ، وإن كان غنيًا ومحِبًّا للفنون ومخلصًا لكلبه الميت! غريبٌ أمر هذا الرجل، لم يفكر في تخليد زوجته المتوفاة قبل الكلب بسنوات، إلا بتمثالٍ وحيدٍ في غرفة نومه الفسيحة، بينما يخلدُ كلبه صاحب النظرة الحزينة، بهذه اللوحة البديعة.. في اليوم التالي، قالت لي أوكتافيا إن صاحب المنزل ظلت عيناه تدمعان عدة شهور، كلما مرَّ فوق كلبه المرسوم على الأرض.. عيناه كانتا تدمعان من أجل كلب! تعجبتُ من غرابة هذا العالم الجديد، وتذكرتُ ساعته بلادي الأولى، حيث الكلاب هناك بائسة.. والناس!

أمضيتُ مع أوكتافيا فوق سطح المنزل ثلاث ليالٍ سويًا، فلم يشعر بنا أحدٌ سوانا. أنا لم أقرر شيئًا، هي التي أخذتني منذ الليلة الأولى، من الطابق الأعلى للمنزل إلى مكان إقامتها بالغرف الأعلى من الطابق الأعلى. مضت بي إلى الأعلى واثقة الخطى. صعدنا من بعد السلم الكبير سلمًا آخر صغيرًا، أوصلنا إلى غرفتها الفسيحة اللطيفة المبنية بعناية على سطح المنزل، ومن حولها امتدت بلاطات السطح الرخامية التي يحيط بها سورٌ أنيقٌ يُؤطر حواف السطح بقوائم قصار على هيئة نساءٍ رشيقات عاريات، يحملن جميعهن طاولة رخامية طويلة، منحوتٌ فيها أنواع الفاكهة. ومن بين المسافات الممتدة بين تماثيل العاريات بالتساوي، يظهر البحر، وتظهر السماء النائمة فوق البحر. وددتُ لو اقتربتُ من السور أكثر، فأرى ذلك المنظر الخلاب عن قرب. غير أن أوكتافيا تنبّهتني إلى أنني لو فعلت، فقد يراني حارس البيت الغافل عن وجودي.

عند دخولنا غرفتها، أسرجتُ أوكتافيا قنديلاً معدنيًا شاع نورُه في جوانب الغرفة، وأثارَتْ هي روعي بقبلةٍ أبهتتني، وأشعلتُ اللهب بباطني، كنتُ

قبلها أعرف لفظ القُبلة من دون أن أدري ماهي.. أوكتافيا.. وهي تحتضنني قالت بلفظ لين، إنها تشمُّ في رائحة البحر التي تعشقها. ثم استمهلتنى، ومشّت متمائلةً إلى سور السطح. نادى الحارس وكلمته بكلام لم أنبئ به، وعادت مطمئنةً باسمه لتأخذني إلى غرفة الحمام المجاورة لغرفتها. هي غرفةٌ صغيرة، في وسطها حوضٌ رخامي شبيهٌ بتوابيت الجرانيت الرمادية التي تملأ المغارات في بلادي الأولى، غير أن هذا الحوض كان رخامه أبيض، وله قوائم قصيرة، ومنقوشٌ على جوانبه صور المصارعين.

ضاحكةً، أزاختني بصدرها إلى ناحية الحوض الرخامي، فتقدّمتُ إليه وجلاً. رفعتُ يديها جلبيبي، فلم أمنعها، ثم أجلسنني عاريًا في قلب الحوض، وراحت تصبُّ حول جسمي المرتجف الماء العذب. استسلمتُ لها، مسحورًا بكل ما حولي. سكبتُ في الحوض زيتًا عطريًا فواحًا، من قنينةٍ كانت موضوعة على رفٍ قريب، ثم تناولت بكفيها من الماء وفركت شعر رأسي، وتركتني لأكمل تغسيلي. لما انتهيتُ، خرجتُ من الحوض الرخامي حذرًا من الانزلاق، وغير حذرٍ من انهيارى إلى الهوة التي كنتُ مقبلًا عليها، مستسلمًا إليها.. ارتديتُ الرداء الواسع القصير، مطرز الحواف، الذي أعطته أوكتافيا لي عند دخولي.

عند خروجي وجدتها في رداءٍ آخر، غير الأبيض الذي كانت ترتديه. رداؤها الآخر بدا لي على ضوء القمر، أكثر بياضًا وعريًا. عند باب الحمام التصقتُ بي، احتضنتني طويلًا بحبٍّ طاهرٍ من أيِّ شهوة، وتنهدت، فمسَّ صدرى حرَّ صدرها.. ثم تركتني لتفرش على أرضية السطح الرخامية سجادةً، لا هي شرقية ولا غربية، ولا تشبه أي سجادة رأيتُ من قبل ولا من بعد. كانت أكثر زخرفةً من كل السجاد، وأكبر حجمًا، وأنعم ملمسًا، وأجمل تلويّنًا. فكانت أطرافها المزركشة، هي حدودُ عالمتا طيلة الليلة، حتى أخرجنا منها شعاعُ شمس الصباح.

أحضرت أوكتافيا من غرفتها كل شيء قد نريده. إبريق ماء، وطبقاً فضياً فيه فاكهة، ووسادتي رأس، ودثاراً من الصوف الناعم الملون.. لفّني عطرُها لما جلستُ ملتصقةً بى وهي تهمسُ بأهمية أن نخفض صوتنا، لكيلا يسمعنا حارسُ المنزل الطيب، السهران مع خروفه خارج السور. ثم تمددتُ على ظهرها هانئةً، وهي تبسم للقمر البعيد. كدتُ أخرجُ عن ترددي المعهود، وأمدُ يدي لألمس نهدِها، لكنها استمهلتنى وهي تقربُ منى الطبق الفضى الملىء بفاكهةٍ لم أعهد مثلها، ولم أذق أشدَّ حلاوة منها. سألتني هامسة عن فواكه بلادى، وضحكتُ بتكثُرٍ لما أجبتها بقولي:

الليمون والدوم والبلح!

دنوتُ منها من دون أن ألتصق، فاستلقتُ ثانيةً على ظهرها، ومددتنى بجوارها. النجومُ كانت شبيهةً بالنجوم فى بلادى الأولى، والسماء مثل التي كانت هناك، لكن الأرض كانت غير الأرض.. وكنتُ أنا غيرى.

أخذتُ تداعب بأصابعها الناعمة أطراف أصابعي. ولما نظرتُ ناحيتها، رأيتُ دمعاً تسيل من عينيها، ولما تصل بعدُ إلى أذنها. مسحْتُ دمعتها بأنامل كُفى اليسرى، وسألتها:

- لماذا بكائك الآن؟

أجابتُ باقتضاب بما معناه: هذه قصةٌ طويلة.. ثم أراحْتُ عن عينيها بقيةَ الدمع، ومالت بجسمها ناحيتي وقد وسدتُ رأسها بذراعها اليسرى، وأبقتني يدها اليمنى التي افترشت صدرى؛ مستلقياً. كانت، حسبما قالت، تريد أن تنظر فى طويلاً؛ لأنها انتظرتني طويلاً! لم أفهم ما تقصده.. ولما استفهمتُ قالت:

- سأحكى لك كل شيء صباح غدٍ. أما الآن، فدعنى أراك متألقاً كاللحم تحت ضوء القمر.

- أنا لا أفهم شيئاً.. ماذا تريد منى؟

- ليس مهمّاً الآن أن تفهم، المهم أن تحسّ! قلّ لى يا حبيبى: كم تبلغ من العمر؟

- ثلاثة وعشرون عاماً أو أربعة وعشرون.

- ظننتُ عمرنا واحداً. أنا إذن، أكبر منك بخمس سنين. لكنك على كل حالٍ أطول منى، وأجمل.. تعال إلّى.

بباطن يدها اليمنى التي كانت على صدرى، أدارتُ وجهي نحوها واقتربتُ بوجهها لتقبّلنى قبلّةً حريرية، كانت ساعتها وافيةً بمطلوبها وغير موفّيةً بمطلوبى. كان ثُورى قد فار، واشتعلت نار غواياتها الأسيرة بباطنى.. غالبتُ اشتهاى لها حتى انقلب، وأثرتُ الهدوء، وقد شعرتُ بشيء من القلق يتسلّل إلى باطنى. سألتني إن كنتُ أراها جميلة، فقلتُ مندفعاً أنها أجمل النساء.

- وهل عرفتُ نساءً كثيرات؟

- لا.. أنت أول امرأة تلمسنى، أقصد أنك أجمل امرأة رأيتها فى حياتي. صدّقينى.

- لن أصدّقك أبداً، أبداً.. هيّا، أخبرنى عن النساء فى بلادك الجنوبية البعيدة؟

- هُنَّ يابساتٌ مثلى، وحزينات. أنتِ مختلفةٌ جدّاً، أنتِ أحلى وأرقّ. أنتِ استثناءٌ بين النساء.

- هاه، أنتِ بليغٌ جدّاً.

شجّعتنى عبارتها، فاعتدلت قليلاً لأواجهها، وأخبرها بفخر باننى أحفظ أشعار هوميروس وبندار، وأننى قرأت كل أعمال إسخيلوس وسوفوكليس.

- ياه، أنت متعلّم.. هل جئت الإسكندرية تبحث عن عمل؟

- لا، جئت لأكمل دراسة الطب.

كان لكلمة الطب وَقْعٌ سحريٌّ عليها! رفعت حاجبيها، وأشرق وجهها ببسمةٍ بدت معها أسنانها الناصعة، وقد زادها نور القمر بياضًا وألْقًا. مالت بوجهها، بل بجسمها كله، ناحيتي. حتى أعادتني إلى استلقائي الأول، بارتماؤها المتوهّجة بالاشتياق. كنتُ أظن قبلها أن الرجل إذا خلا بالمرأة، فإنه يعتليها. لكن الذي جرى لحظتها، هو أنها اعتلتنى.. لن أستطيع تدوين بقية ما جرى بيننا في ليلتنا الأولى هذه.. ليلتنا.. كانت حافلة بالشهوات المحرّمة التي أهبطت آدم من الجنة.. تُرى، هل طرد الله آدم من الجنة لأنه عصى الأمر. أم لأنه حين عرف سرَّ أنوثة حواء، أدرك رجولته واختلافه عن الله، مع أنه خلقه على صورته!

في الصباح أزعجتنا الشمس، وأدخلتنا غرفتها. وفي الغرفة عرفتُ منها أنها أرملةٌ رجل مسكين، كان يعمل معها بهذا البيت الأنيق.. رفضتُ بقطع أن أسمّي بيتها قصرًا، قالت برفقٍ وأسى: أنت لم تَرَ القصور التي كانت في البرخيون! تقصد: الحَيّ الملكي بالإسكندرية. جمع لحظتها خيالي، فيما كانت عليه هذه القصور التي لم أراها أبدًا. كنتُ ساعتها جالسًا على سريرها الذي اعتلتنى عليه ثانيةً في الصباح، حين سألتني ثانيةً عن سنوات عمري، ولما قلتُ: ثلاثة وعشرون. ردّت بسرعة بأنها، وإن كانت أكبر مني بخمس سنين، إلا أن العبرة لا تكون بفارق السنين بيننا! وأكدت بحرارة أن النساء اللواتي أحبين رجالاً أصغر منهن سنًا، جعلن منهم أسعد الرجال، وأنها ستجعلني أسعد هؤلاء السعداء! قلتُ؛ بشخفٍ قاصدًا مشاغبته، إن كليوباترا السابعة حين أحبّت مارك أنطونيوس لم تجعل منه رجلًا سعيدًا! وإنما جعلته رجلًا متحرّجًا مهزومًا متبرّئًا من أهله وأصدقائه، ومطلقًا زوجته أم أطفاله. قلتُ وأنا أنظر في قلب عينيها

الذهشتين: كان اسم زوجته أوكتافيا مثل اسمك، وكانت أخت حاكم روما أوكتافيوس، صديقه القديم الذي انقلب عليه، فصار عدوًا له بعدما كانا كأخوين.. قاطعتني وقد احمرّت وجنتها حنقًا:

- دعك من هذه القصص القديمة، وصدّقني فيما أقول. سوف أجعلك أسعد رجلٍ في العالم.

- كيف.. أقصد: لماذا؟

- أنت كثير الأسئلة. سأتركك الآن برهةً، فابقِ هنا، وسوف أخبرك بكل شيء، حين أعود.

تركنتي غارقًا في حيرتي، وقد بدا لي أن كل شيء صار عجيبيًا. قبلها بيوم كادت الدّوامة تأخذني إلى قلب البحر الغادر، والآن تأخذني هذه المرأة الشبيهة إلى حيث لا أعرف.. لا أعرف كيف أخذني الوسن، ثم انتبهتُ مع مجيئها وفي يدها طعام عرفته من رائحته:

- يا أوكتافيا، أنا لا أكل السمك.

- طيب، سنأكل أيّ شيءٍ آخر. سأعطى السمك للحارس، وأحضّر لنا جُبنًا وعنبًا.

لم أرد، ولم تكن تنتظر ردًا. قامت مسرعةً، وعادت بعد قليل، وقد اكتسى وجهها بجديّة كانت مفقودةً بالأمس. راحتُ كما فعلتُ أول مرة، تضع بيدها الطعام بغمي. لم أكن جائعًا، ولم تأكل هي غير لقمتين.. أراححتُ أطباق الطعام من بيننا، وجلست بمودةٍ إلى جوارى بعدما ابستمت لدهشتي وترقّبي، ثم راحت تقصّ عليّ القصص.. مازلتُ أذكرُ جلستها وحركة يديها وهي تحكي! بل إنني مازلتُ أذكر كلماتها بحروفها: بعد موت زوجي أردتُ أن أهب نفسي للآلهة، وأخدم واحدًا من المعابد الباقية

فى المدينة. السيد الصقلى لم يوافق، هو يحبنى كابنته. هو الذى علمنى القراءة، حين كنت فى العاشرة من عمرى.

- ولماذا منعك عن خدمة المعبد؟

- قال إن الآلهة لا تحتاج اليوم من يخدمها، بل مَنْ يبكى عليها! ونصحنى قائلاً: احزننى قليلاً يا ابنتى، فالحزن شأن إنسانى. وسوف يتبدد حزنك مع الأيام، مثل كل شؤون الإنسان. ويوما ما، سوف تجدین زوجاً آخر.

عرفتُ منها أن سيدها الصقلى هذا، لا يؤمن بدين معين، وإنما يعتقد فى صحة كل الأديان وجميع الآلهة، مادام ذلك يرتقى بالإنسان! همستُ وهى تضع رأسها على كتفى بأن سيدها يؤكد دوماً، أن الله يظهر للإنسان فى كل موضع وكل زمان، بشكلٍ مختلف، وأن تلك هى طبيعة الألوهية! - رأيتُ عجيبٌ.

- ما علينا منه الآن، دعنى أكمل لك.

كان وجهها قد اكنسى بالجدية تماماً، ولكنها ظلت مع ذلك جميلةً. أسندتُ كتفها إلى الجدار الملاصق للسريـر، وراحت تحكى كيف مرّت عليها الأيام ثقلاً بعد رحيل زوجها، خاصةً أن السيد الصقلى الذى كان يملأ البيت بحضوره، سافر بعد وفاة زوجها بأيام إلى رحلة تجارته السنوية التى يغيب فيها شهوْراً. للسيد الصقلى رحلتان كل عام، الأولى قصيرة إلى أنطاكية، تستغرق شهراً، والثانية تطول لثلاثة أشهرٍ أو أربعة تمرُّ فيها مراكبه على المدن الخمس الغربية (ليبيا) ثم تبحر شمالاً، فترسو أسبوعاً فى القسطنطينية، ثم تُبحر إلى برجامة، وترسو بقبرص وصقلية قبل أن تعود للإسكندرية. هو فى الستين من عمره، يملك ثلاثة مراكب كبيرة، ولا أهل له ولا ذرية. وهو يردّد على مسامعها كلَّ مرة، أن هذه قد تكون

رحلته الأخيرة. وإذا مات فى البحر، فإنه يهب لها هذا البيت، شريطة ألا تطرد الحارس. وقد أودع لها مالاً فى مكانٍ سرى بالمنزل، لن يصل إليه غيرها. قالت إنها تتمنى دائماً عودته من رحلاته، ولا تتمنى أن تملك البيت والمال المخبوء... وهى تعتقد فى الآلهة القديمة، خاصةً إله البحر المسمى بوسيدون، وتحدث عنه بإجلال كبير.

كانت ظلالُ المساء قد امتدت، فقامتُ لتنير السراج، وتعود لتندسّ فى حضنى، وتُكمل حديثها: لما خُرب أتباع الأسقف المسيحى الذى كانوا يسمونه ثيوفيلوس، كلُّ ما بقى من المعبد الكبير الذى كان قائماً على الطرف الغربى من جزيرة فاروس التى تحتضن الميناء، هرب بقية كُهان المعبد وتفرّقوا فى الأرض. كاهنةٌ عجوز منهم لجأت إلى بيتنا؛ لأنها كانت تعرف إجلالى للإله بوسيدون، وتضرّعى الدائم إليه كى يحفظ مراكب سيدى الصقلى. أقامت الكاهنة معى، هنا على سطح البيت، الأسابيع الأخيرة من حياتها. كانت تقضى أغلب أوقاتها عند هذا السور، محدّقةً فى البحر... قبل وفاتها بأيام نادتنى إلى غرفتها، وبصوتها الممتلئ بصدق الكاهنات، قالت لى وهى نائمة على سرير موتها: يا أوكتافيا لاتحزننى، سوف يرسل الإله بوسيدون من البحر، رجلاً تحبينه ويحبك، يمسح عنك دمعك، ويملأ أيامك بالفرح، سيأتيك بعد علامتين!

لما سألتُ أوكتافيا عن العلامتين، أخبرتها الكاهنة أنهما علامتان فى مسيرة الزمن: يومان، أسبوعان، شهران، سنتان. ماتت الكاهنة ومرت الأيام على أوكتافيا بطيئةً حتى انقضت سنتان كاملتان، فكادتُ تشكّ فى النبوءة.. ولما رأتنى أغرق، ثم أنجو من الغرق، وأخرج إليها عارياً إلا من سروالٍ مبلول ومصير مجهول، تيقّنتُ من صدق النبوءة! أضافت وقد غمرتها بهجةٌ خفيةٌ مفاجئة، فأظهرت ابتسامتها لمعان أسنانها:

- طيلة العامين الماضيين، كنت أظن أن رجلى الآتى سيكون بحرًا
يأتى على أحد المراكب، لكننى وجدتك تأتينى محمولاً على أجنحة
الإله العظيم وأواجه.

- ألهذا السبب كنتِ تقولين: يا حبيبى، منذ رأيتنى؟

- نعم، لأننى أحببتك قبل أن أراك بعامين كاملين، وربما من قبل
ذلك!

لم أدرِ ساعتها كيف أردُّ عليها، فضممتها إلىَّ بإحاطةٍ كَسَلَى من ذراعى
اليسرى، فسكنتُ فى حضنى.. حتى نامت كطفلٍ رضيع، وتركتنى لعصف
الطنون والخواطر. ساءلُتُ نفسى: ماذا سأفعل بهذه المرأة البيضاء التى تنام
الآن على صدرى، ويُخايلنى، بل يُخبلنى فخذها العاريان؟ هل أتخلَّى
عما انتويته طيلة السنوات الماضية، لأبقى فى سريرها بقية عمرى؟ هل
تغنينى محبتها الوفيرة عن حلمى الكبير: النبوغ فى الطب واللاهوت؟
أيام مات زوجها كنتُ مراهقاً فى نجع حمادى أفكرُ فى الزواج بفتاةٍ من
النوبة مثلما فعل عمى الذى كنتُ أعيش فى بيته.. أهلُ النوبة لا يزوجون
بناتهم لغير رجالهم، إلا فيما ندر. جدى لأبى جاء إلى بلادهم من قلب
الوادى، فعاش معهم، ومات بينهم بعدما صار كواحدٍ منهم. أبى وعمى
وُلدا هناك. عمى تزوّج منهم، وأبى اختار زوجةً من قرى الدلتا صارت
من بعد ذلك أُمى.

فى الثامنة عشرة من عمرى، كان يثيرنى سفاذُ العصافير ونكاح الدواب.
فاتحُتُ عمى فى تزويجى بفتاةٍ من أهل النوبة، فهو محبوبٌ عندهم، وكان
يمكنه أن يُنجز لى الأمر لو تحمَّس. غير أنه لحكمةٍ غابت عنى، نصحتنى
بأن أكمل دراسة الطب واللاهوت.. عمى مسيحيٌّ طيبٌ، ومريضٌ جدًّا.
هو الذى ألحقنى بالكنيسة فى نجع حمادى، وبالمدرسة والكنيسة فى

أحميم. لابد أنه مات الآن. أترأه أراد أن يصيرنى راهبًا، ليمسح من قلبى
ذكرى ما فعله قتلة أبى؟.. اغتالوا أبى وتزوَّج أحد أجلافهم من أُمى؟
كيف تتمحى الذكريات.. أُمى.. كيف ارتضتُ الزواج بواحدٍ من القتلة.
أبى كان رجلاً طيبًا، لم أره ينهرها يومًا، ولم يضربنى قط. كان يأخذنى
ليلقى شبابه فى النيل من فوق الصخور البيضاء، التى يعتقد أنها بيضُ
سماوى مقدسٍ هبط مع ماء النيل، ليحمى الواقف عليه من التماسيح،
التي هى أيضًا مقدسة. كنتُ أفرح بالأسماك العالقة فى شبابه، وكان يفرح
لفرحى.. لماذا أمعنوا فى قتله، على هذا النحو؟.. يا يسوع المسيح.. إننى
أشعرُ بخُرقةٍ قلب العذراء ولوعتها عليك.. أحسُّ بعمق عذاباتها، يوم دُقوا
المسامير فى يديك وقدميك المشبوحين فوق الصليب. فأنا مشبوحٌ مثلك
فوق صليب الذكريات، وملتاغٌ مثلها بحرقه الفقدان..

- حبيبى، أنبكى.. آه، لقد أحزنتك بحكايتى.

- لا يا أوكتافيا. أكملى نومك، إننى أبكى لبؤس هذا العالم وهلع.

- لا عليك يا حبيبى، أرجوك لاتبك.. تعال فى حضن أوكتافيا التى
تحبك.

جمعنا حضنٌ واحد، فأخذنا فى غمرةٍ من النوم.. النوم رحمةٌ سماوية
لكل الكائنات. لم أحلم ليلتها بشئ. أفقتُ مبكرًا على حركتها الرشيقية فى
الغرفة، كانت تروح وتجيئ سعيدةً هانئةً. لما فتحتُ عيني، ألقتُ نفسها
نحوى بخفةٍ، فتمددتُ بجوارى على بطنها، وقد أشرق وجهها ببهجةٍ تمتدُّ
من وسط سريرها إلى آخر الكون.

انتبهتُ إلى أن سمرتى اكتست حمرةً خفيفةً، فصار جسمى فى لون
الأوانى النحاسية. ظننتُ أولاً أن السبب فى ذلك، هو ما فعلناه معًا من
فواحش! غير أن أوكتافيا أخبرتنى وهى تتمايل ضحكًا، بأن السر فى

ذلك هو شمسُ الأُمس، مع هواء البحر المالح؛ فأدركتُ السبب في أن بياض جسمها، مشوبٌ بالحمرة.. تمددت بجوارها هائنا بالعري، كانت تلك هي المرة الثانية، التي أحس فيها أن جسمي جميل.. المرة الثانية، الأخيرة، في عمري كله.

بعدها تحرّشت بي كثيرًا، وقبّلتني في فمي. دعنتني لحمام قالت إنها ملأته بماء ساخن، وأعشاب عطرية تأتيهم من بلاد الشرق. أخبرتني وهي تنزل من السرير، أنها ستأخذ ملابس من المخلاة لتغسلها، فصرختُ كالملسوع: لا، لا تفعل! أضفتُ مرتبكا: لا أحب أن يغسل ملابس أحد، أنا أفعل ذلك بنفسى منذ سنين.

- يا حبيبي، لم تكن أوكتافيا معك منذ سنين.

- أرجوك، لا تعارضيني فيما أقول.

لم تُعارضني. لفتني بحضنٍ عميم يسعني ويسع كل ذكرياتي، بكل ما فيها من آلام دفينّة وأفراح قليلة. كأنّ حضنها يسع العالم كله. همستُ في أذني بما معناه أنني لم أعد عليها بعد، وأنّ زماننا الآتي كليلٌ بذلك. كانت أنفاسها لحظتها، تدفئ صدري، وشفاتها المتوهجتان تمران على عنقي، فتلهبانه توقًا إليها.

لما نزعْتُ عني، ثانيةً، ثيابي في الحمام المجاور لغرفتها. لمحتُ في عينيها نظرة اشتياق، كنت أيضًا مشتاقًا لها ومضطربًا. تحسستُ الماء، فكان فاترًا ومشجعًا على الجلوس في الحوض الرخامي ذي الأرجل الأربعة المنقوشة، أرحتُ ذراعَيَّ على جانبيه، ومددت رجلي في مائه، وراحت هي تدلك أكتافي برفق وبشهوةٍ طاغية. أغمضتُ عيني محاولاً أن أتذكر شيئًا مما مرَّ بي، لأنشغل به، وأهدأ. غير أن الذكريات انفلتت كلها من رأسي، إذ كانت لمسات أوكتافيا تمسح عني كل ما رأيته قبلها.

بلطفها الأسر، أمانتني إلى الأمام كي تدلك ظهري، ملتُ مع كفيها وقد هدأ الجزع الذي تولّاني حين كادت تُفرغ مخلاتي. كان سيصدمها زِيُّ الرهبان والصليب الخشبي، لكنني أدركتها في لحظة حاسمة.. عاودتني الأفكارُ الرمادية، والتساؤلات: إلى متى سيدوم هذا الحالُ المخايل.. هذا النعيمُ المؤقت، والخداع؟ لستُ مخادعًا بطبعي، ولم أكذب طيلة عمري. فلماذا أضللّها وأضِلُّ معها منذ رأيتها؟ الرّبُّ يراني ويراه، ولن يغفر لي ما أنا فيه. لن يجبرني من عقابه إلا توبتي ورحمته. لو شاء عفا عني، ولو أراد فسوف ينكّل بي عقابًا على خطيئتي.. وقد نكّل بي قبلاً، دونما أقترفُ أيّ خطيئة! فلعلّ ذاك، جزاءُ هذا.. ماذا عن خطايا أوكتافيا؟ هل سيعاقبها الرّبُّ عليها، أم يتجاهلها لأنها وثنية لا تؤمن به؟ أتراه يعذب؛ فقط، المؤمنين.. أظنه سيعفو في النهاية عن الجميع، لأنه رحيم!

نويثُ فجأة أن أقوم من فوري، فأرتدي جلبابِي الأول، وأطلب منها أن نزور المغارة التي بين الصخور، وفي المكان الذي رأيته فيه أول مرة سأخبرها بكل شيء عني، فينتهي كل شيء من حيث بدأ، وأعودُ إلى ما جئت من أجله: الطّب واللاهوت.. ثم أرجعُ يومًا إلى قريتنا، فأفتح بيت أبي المغلق منذ سنين، وأعيش هناك حياة الرهبنة ومداواة الناس. ستجرى على يديّ المعجزات المؤكدة وجود الرب، وسينسى الناسُ هناك ما جرى مع أبي وما جرى من أمي، وسأختار لنفسى الاسم الكنسي الذي يعجبني وأرتاح إليه.. وسوف..

- فيم تفكر يا حبيبي؟ هل تفكر فيّ، وأنا معك!

- أود الخروج من هذا الإناء الكبير، وزيارة المغارة الصخرية التي عند البحر.

- سنذهب فيما بعد.. تعال يا حبيبي، سأشّف جسمك.

تساؤلأتى عاودت عصفها بى: لماذا تدللى هذه المرأة؟ وكيف تعطينى هذه المحبة الدافقة التى تُغرق الكون، مع أنها لاتعرفنى؟ وأنا لا أعرف عنها إلا ما أخبرتنى به.. لا بد أنها أخفت عنى أشياء، ولا بد أن أشياءها المخفية مخيفة! وهى على كل حال امرأة وثنية، وتعتقد فى خرافات الآلهة اليونان: الحمقاء. الآلهة الذين يخادعون بعضهم، ويحاربون البشر، ويتزوجون كثيرًا، ويخونون زوجاتهم! أئى خيال مريض أنجب آلهة اليونان. والأعجب أن هناك مَنْ يؤمن بهم! مثل أوكتافيا التى تعتقد أن إله البحر بوسيدون أرسلنى إليها. ليس للبحر إله، وأنا لم يرسلنى أحد.. ولكن، كيف لى أن أعرف بيقين أنها ضاللة وأنا مهتد؟ إن التوراة التى تؤمن بها، مليئة أيضًا بمخادعات وحروب وخيانات. وإنجيل المصريين الذى نقرأ فيه، مع أن ممنوع، فيه ما يخالف الأناجيل الأربعة المتداولة! فهل هذا وذاك خيال والله من وراء ذلك محتجب وراء كل الاعتقادات؟

-البس يا حبيبى هذا الثوب النظيف، حتى لاتبرد. سوف أغسل جلبابك من أثر ملوحة البحر.

أفقت من هيمان أفكارى. رفضت بحزم أن أرتدى ثوب السيد الصقلى النظيف، الذى مدته لى. كنت سأبدو غريبًا عنى لو ارتديت الثوب الحريرى الفضااض. النساء فقط يلبسن الحرير، غير أن رجال الإسكندرية لهم فى ملابسهم شأن عجيب، وتفانين لاتعرفها نحن المصريين.

التقطت جلبابى بسرعة، فألقيته على جسمى العارى خجلاً من نظراتها. سبقتها إلى الخروج من غرفة الحمام، وعند الباب، وبينما كنت أغطى عيني بكفى من قوة شمس الظهيرة، احتضنتنى من ورائى، وراحت تمسح بباطن كفيها على صدرى، وقد أراحت رأسها على ظهري.. وقفمت متسمرًا، ووقفمت مستمتعة. بعد لحظة صمت طويلة، التفث إليها وقلت لها متجهما إنها لم تعرف إلى الآن اسمى، وإنها لم تهتم حتى بالسؤال عنه.

-أنا يا حبيبى أعرف الاسم الذى سميتك به، ولن يحمله أحد سواك: ثيوزوروس بوسيدونيوس!

كانت أوكتافيا تدهشنى بجراتها ونزقها الجامح.. هل كانت تظن نفسها إلهة تهب الناس الأسماء؟ صحيح أنها اختارت لى اسمًا مميزًا، هو يعنى باليونانية: الهدية الإلهية من بوسيدون! غير أنني أظهرت لها الغضب. فأظهرت هى الدلال. قالت إن كان ذلك الاسم لا يعجبني، فسوف تعطينى اسمًا آخر بدلًا منه، هو ثيوفراستوس الذى يعنى حرفيًا: الكلام الإلهي.

-يا أوكتافيا كفى عن جنونك، فهذا أيضًا ليس اسمى. هذه كلها أسماء يونانية، وأنا لى اسم مصرى.

-دعك الآن من مصر واليونان. أنت المصدق لكلام الإله، فاسمك منذ الآن ثيوفراستوس.. أو ثيوزوروس بوسيدونيوس، اختر لك واحدًا منهما، وأخبرنى لأناديك به! وتعال الآن لأريك المنزل.

لم أعرف ساعتها كيف أردت عليها، ولم تتركنى هى فى ترددى. أخذتنى من يدي، وخرجت من غرفة الحمام، فأخرجتنى من التيه بصحراء حيرتى. كان جانبًا منى يريدتها، ويحب ذكاءها ومرحها ورائحة جسمها. نعم. كانت أوكتافيا ذكية، زكية، شبيهة. ولكننى ضيعتها وضيعتنى، مرتين.. آه.. من يؤقف بقلبي إعصار الأسى الفتاك.. سأتوقف الآن عن التدوين، وأهجع قليلًا، ثم أعود للكتابة إن أفقت من نومي.



ما الذى يريده عزازيل منى، ولماذا يدفعنى لكتابة ما كان وماهو كائن؟ لا بد أن له غرضًا شريًا، موافقًا لطبيعته. لقد احتال على حتى أغوانى بحكاية ما جرى مع أوكتافيا من فحش وخطية، فتدنست روى وتكدرت.

- وهل كانت روحك صافيةً، يا هيبا، قبل الكتابة؟

- عزازيل! جئت..

- يا هيبا، قلتُ لك مرارًا إنني لا أجيء ولا أذهب. أنت الذى تجيئ بى، حين تشاء. فأنا آت إليك منك، وبك، وفيك. إنني أنبعث حين تريدنى لأصوغ حلمك، أو أمدد بساط خيالك، أو أقلب لك ما تدفنه من الذكريات. أنا حامل أوزارك وأوهامك ومأسيك، أنا الذى لاغنى لك عنه، ولاغنى لغيرك. وأنا الذى..

- هل بدأت ترنمة التمجيد، لذاتك الإبلسية؟

- عفواً، سألتزم الصمت.

- وماذا تريد الآن؟

- أريدك أن تكتب يا هيبا. اكتب كأنك تعترف، وأكمل ما كنت تحكيه، كله.. اذكر ما جرى بينكما وأتما تنزلان الدرج.



الاعتراف طقسٌ بديع، يطهرنا من خطايانا كلها، ويغسل قلوبنا بماء الرحمة الربانية السارية فى الكون. سأعترف إلى هذه الرقوق، ولن أخفى سرًا، لعلنى من بعد ذلك أنجو:

السلم الواصل بين سطح البيت وطابقه الأعلى، كانت درجاته عشرة، كأنها على عدد العقول السماوية الواصلة بين الله والعالم، بحسب ما يقول أفلوطين الحزين. عند الدرجة العليا، التصقت بى أوكتافيا وأخذت شفتى السفلى بين شفتيها، ثم راحت تمرر لسانها على حافتها، حتى أوشكت مع ارتجافة اللذة أن يغمى على. أشرق وجهها وهى تقول لى إن تلك، كانت القبة الأولى من القبلات العشر التى ستغمرنى بها! بينما أهبط إلى الدرجة

التالية، دسّت كفّها اليسرى من فتحة جلبابى، فاعتصرت إبطى اليمنى، وأحكمت التصاقى بالجدار بالتصاقها بى. كانت تعلونى بدرجة، فمالت بعنقها نحو أذنى والتقمّت شحمتها، فكأنها رضيع يلتقم الحلمة عن غير جوع. لما تنفست فى أذنى، سرت بباطنى رعشة. ترنحت مع القبة التالية، وكدت أندحرج من فوق الدرج، فجلست وقد سرى فى الخدر، فتركها تفعل بى ما تشاء. ألقت عنها ثوبها، فألقيت عنى ثوبى وقد أخذنى الوهج.. القبلات التالية، لايجوز ذكرها.

عند نهاية الدرج كنا قد التحمنا تمامًا، فكأننا المادة الأولى التى بدأ منها الوجود. كانت تمور تحتى وفوقى، مثل قطعة بيرة تفرس وتفرس.. ولما هدا الكون الصاخب، قمنا مثقلين فالتقطنا ثوبينا، وأخذتني من يدي لترينى المنزل فى ضوء النهار الذى انبسط على المكان، وانتشر فى داخلنا. كانت أوكتافيا حنونًا وجريئة ومتهورة. سرّت وراءها وأفكارى تلاحقنى، والاحتمالات: قد أقع فى حبها، وأعتاد اجتياحها الممتع، لكننى لن أستسلم لها أبدًا.. يمكن أن أبقى معها بضعة أيام، فقط، ثم أذهب إلى ما جئت الإسكندرية من أجله، ولن أسمح لقلبي أن يتعلق بها، ولن أختار لنفسى اسمًا وثنيًا من لغة اليونان، مهما كان.. لن أسمح أبدًا بأن تسلمنى من اسمى ومن لغتى، أرملة سكندرية عرفتها قبل يومين، مهما كانت جميلة ومتوقدة بالرغبة الوثنية الجامحة.. لن أسمح لأوكتافيا أن تجرفنى.. آه.. كنت صغيرًا جدًا آنذاك.. ترى.. هل لو كنت استجبت لها، أيامها، كان مصيرنا المفجع سيتغير؟.. من يدرى؟ لا فائدة الآن من الأمانى، فما كان كان، وما كنا فيه زال ولن يعود.. سألتها ونحن نطل من الدور الأعلى، على صورة الكلب الحزين:

- لماذا أسموك أوكتافيا؟

- أبى تزوّج مرتين، وأنجب كثيرًا، وكنتُ الثامنة بين أبنائه وبناته العشرة.

- إذن سوف أسميك تيمًا شموئى، فهى تعنى بالمصرية الثامنة، مثلما تعنى أوكتافيا باليونانية.

ضحكتُ بعدويرة صافية، ولم تعلق على كلامى. دخلتُ بى غرفةً فسيحةً، أرضيتها وحوائطها من الرخام الأبيض الفاخر، فى وسطها حمامٌ أكبر مرتين من ذاك الذى بجوار غرفتها، وأكثر منه نقوشًا. أخبرتنى أن سيدها أحضر هذا الحمام البديع من روما. الحمام كان بديعًا فعلاً، وكذلك كل ما فى الغرفة والغرف الأخرى. غير أننى غمرتنى، فجأة، أحزانٌ خفيةٌ طفت من باطنى، وأخذتنى مما حولى، فما عدتُ مهتمًا بهذا الحطام الدينى الزائل لامحالة.

طوّفتُ بى أنحاء المنزل. كنتُ أسير معها غائبا عنها، حذرًا. أحسستُ أنها تغوينى، وتحسن لى البقاء معها، فاستعصمتُ منها بأن قلتُ فى نفسى: كيف سأرضى لذاتى أن أصير خادمًا عند تاجر صقلى، وزوجًا لخادمةٍ وثنيةٍ تكبرنى بخمسة أعوام، وتفجؤنى دومًا برغباتها الجامحة. ومن يدرينى، فقد يكون سيدها يضاجعها! وإلا، فمن الذى عوّدها هذا الفحش الذى أراه منها؟ لا بد أن سيدها فاحشٌ أصيلٌ، يلاحق رغباته، ويملا بيته بالفاجرات، فيقضّى لياليه السكندرية فى أحضانهن، ويضم أوكتافيا إليهن!... شعرتُ لحظتها بكراهيةٍ شديدةٍ لهذا الرجل، وبغضبٍ شديد من هذه المرأة التى توشك أن توقعنى فى حبها، وتنسينى كل الآمال.

- هذه يا حبيبى، غرفة الكتب.

انتبهتُ مع عبارتها ولمستها الرقيقة على كتفى. لما دخلنا الغرفة هالنى عددُ الكتب المصفوفة مجلداتها على أرففٍ بطول الحوائط، واللثائف منها

موضوعة فى ثقبوب الجدران. كنتُ دومًا أحب الكتب. لحظتها وددتُ الانفراد، وكاد يغلبنى البكاء من دون سبب؛ أو بسبب انهزامى الدائم.. طلبتُ أن أبقى قليلًا مع الكتب، فأسعدتها طلبى. قالت بعدما قبلتنى على خدّى، إنها ستذهب لإعداد طعام الغداء.

تركتنى أوكتافيا حائرًا، وسط الغرفة الفسيحة. جال بصرى بين جدرانها المليئة بتجاويف حفظ البردى، ورفوف صف الكتب. كنتُ أيامها أقرأ باليونانية والمصرية (القبطية) ولم أكن قد أتقنت العبرية والآرامية (السريانية) بعد. وقد وجدت هناك كتبًا بلغاتٍ أخرى، مثل اللغة الوليدة المسماة اللاتينية، وكتابات بلغاتٍ أخرى، شرقية، لم أكن رأيت مثلها قبل ذاك اليوم.. بكم لغة يقرأ هذا التاجر الفاحش، الذى لا يؤمن بأى إله؟ أم تراه يقتنى الكتب للتباهى، مثلما يفعل أغلب الأغنياء الأغبياء؟ لا، يبدو أنه لم يكن يتباهى.. فقد وجدتُ فوق مكتبه الأنيق الذى بزواوية الغرفة، كتبًا متناثرة ومجلدين مطبقين على أوراق بردى، مكتوبٌ عليها بقلم دقيق تعليقات باليونانية. لما تصفحتُ المجلدات التى كانت على مكتبه، وعلى الأرفف، وجدتُ حواشى وتعليقات مكتوبةً كلها بخط واحد، وممهورّة باسمه. هو إذن يقرأ باليونانية، وبغيرها. والغالب على قراءاته، بحسب ما يظهر من تعليقاته الذكية، التاريخ والأدب. كان الرجل يحتفظ بعدة نسخ قديمة من أمثال إيسوب، وقصائد هيراقليطس الفيلسوف. ولديه أيضًا رسالة لاهوتية بخط أوريجين (أوريانوس).. رحتُ أقلب صفحات الكتب، وأفتح المطوى من اللثائف، فكنتُ أرى على أطرافها مزيدًا من تعليقاته وحواشيه الموجزة.

- حبيبى، الأكل جاهز، هيّا.

- سأتبقى ساعةً أخرى، لسْتُ جائعًا الآن.

- هَيَّا، الطعام سيبرد. لاتعذبنى مثلما يفعل السيد الصقلى، واضح أنك مثله تحبُّ الكتب.

- هل يمكن أن تأتى بالطعام إلى هنا؟

- لا، لا يجوز ذلك. سنأكل فى غرفتي، والكتبُ لن تطير من هنا. هَيَّا، اترك هذا الكتاب، فإننى جائعةٌ جدًا، ومشتاقةٌ إليك جدًا.

وهى تعود بالكتاب الذى انتزعته من يدي، إلى موضعه على الرَّفِّ. فتحتُ غلافه الجلدى السميك، وقالت وهى تضحك: أرسطو، هل تريد أن تفوّت علينا غداءنا الشهى الساخن، من أجل هذا الرجل.. أفرغنى كلامها واستهتارها بالفيلسوف العظيم. قلتُ غاضبةً:

- ما هذا الذى تقولين؟ أرسطو معلمُ العالم القديم، وهو أول مَنْ أهدى البشرية أصول التفكير وعلم المنطق.

- هاها، وهل كانت البشرية قبله لاتعرف المنطق وأصول التفكير؟ أنا على كل حال لا أحبه، فهو يقول فى كتبه سخافات كثيرة، ويدّعى أن المرأة والعبد من طبيعة واحدة، تختلف عن طبيعة الرجل الحرّ. متخلف.

- يا أوكتافيا لايجوز ذلك، ولكننى أراك تعرفين علوم القدماء!

- هاها، أعرفُ بعض الأشياء. والسيد الصقلى يحبُّ أن يقرأ على النصوص القديمة. هو يهتم بتعليمى. جاز لنا من المسيحيين الأغبياء، رآه يومًا يقرأ لى حديقة البيت، فقال: الصقلى يسقى الأفعى سمًا.. جارنا الجديد، متخلف أيضًا، مثل صاحبك القديم.. هاها.

لم أدرِ بأى شيء أرد عليها، ولم تتركنى هى فى ترددى. سحبتنى برفق

من يدي إلى خارج الغرفة، وعند بابها أطالت احتضانى.. كانت أوكتافيا لاتهدأ! قالت مازحةً إن هذه القُبلة، من أجل فتح الشهية.

افترشنا أرضية غرفتها.. أثناء الأكل، على طريقتها المعتادة من وضع الطعام فى فمى، قالت إن السيد الصقلى سوف يحبنى، فهو يحب العلم والمتعلمين. أضافت أنه صديقٌ لحاكم المدينة، وله معارف كثيرة، ولسوف يساعدنى على دراسة الطب، وستحوظنى هى بمحبتها حتى أصير أشهر أطباء الإسكندرية، بل أشهر أطباء العالم.. أدهشتنى عبارتها حين قالت: - ستكون يا حبيبى أكثر شهرة من جالينوس ومن أبقرط، ومن كل أبناء الإله إسكليبيوس.

- أوكتافيا.. أنت تعرفين أشياء كثيرة.

- لا أريد أن أعرف إلا أنت. قل لى، هل أنت سعيد معى؟ لا، لاتجاوبنى الآن. اصبر، وسوف ترى. سوف يعود السيد الصقلى بعد شهر، وسأخبره بكل شيء عَنَّا، وسوف يرحّب بك بيننا..

السيد الصقلى! كنت أشعر بكرهية تجاهه، كراهية عميقة امتزجت بعدما رأيت تعليقاته وحواشيه، بشيء من التوقير والحسد الغبى.. وكنتُ لاحظتها مشوشًا، فانفلتت منى العبارة:

- هل يضاجعك سيدك الصقلى.

صفعها سؤالى، فطفرت من عينيها دمعات مفاجئة، وعلت وجهها حمرة الكدمة وعلامات غيظٍ كبير. أنا لم أكن أقصد، تمامًا، ما قلته لها يومها. كان قصدى أن أسألها عن طبيعة العلاقة بينهما، وهل يغازلها الرجل حين يكون بالبيت، خاصة أنها أرملةٌ وحيدةٌ ومفعمة بالربة، أو بعبارة أخرى: هل يطلب منها أن تدفئ فراشه أيام الشتاء، وتخفف وحدته وهو الحزين على كلبه.. أعنى: هل يحق له، وهو سيدها، أن يضاجعها؟

ظلت أوكتافيا مطرقةً، تنظر إلى طرف سجادتها من دون أن تقول أيَّ شيء. ولما حاولت أن أستر ضيها بضمةٍ إلى صدرى، انفلتت منى وأجهشت بالبكاء. ندمتُ على إيلا مى لها، وفكرت في النهوض فوراً من أمامها والرحيل عنها، لأطوى كُلَّ ما كنا فيه بحركةٍ واحدة. ويبدو أنها حين وقفتُ فجأةً، أدركتُ ما نويته، فأمسكتُ بطرف جلبابى. سكنتُ. شدتني للأرض وهى بَعْدُ مطرقةً، فجلستُ ثانيةً وعينى معلقةً بالباب الموارب.

ساد بيننا صمتٌ طويل أخرجتنا منه بقولها المتهدج، بعدما مسحت خديها: إننى لا أفهم شيئاً مما قلته لها، فالسيد الصقلى بمثابة الأب لها، بل هو بالنسبة إليها أقرب إلى الجد منه إلى الأب! هو الذى ربّاهَا بعد وفاة أمها وأبيها، وهو الذى رَفَقَ الحزنَ وطَهَّرَه. وهو حسبما قالت، يهب نصف ما يكسبه من التجارة كل عام لفقراء الإسكندرية..

- أعتذرُ إليك يا أوكتافيا، ولكنك جميلةٌ جداً.. أقصد أنك..

- كفى، لا تعتذر.. وسأعذك لأنك لم تعرف، بَعْدُ، الرجل الذى تتهمه.

الرَّقُّ الخامسُ

غَوَايَاتُ أوكْتَاْفِيَا

الحياةُ ظالمةٌ. فهى تمتدُّ بنا وتُلهينا، ثم تُذهلنا عنا وتغيّرنا، حتى نصير كأننا غيرنا. هل كنتُ أنا الذى كنتُ فى الإسكندرية قبل عشرين عاماً! كيف تحاسبنى الحياة الآن، على أخطاء وخطايا اقترفتها أيامها؟ ولماذا سيعود الرَّبُّ بنا يوم الدينونة، ليحاسبنا على ما فعلناه قبل أمدٍ بعيد، وكأننا عشنا حياةً واحدةً لم نتبدّل خلالها؟.. لم يمضِ علىّ وقتٌ طويلٌ، حتى عرفتُ أننى أخطأتُ فى حقِّ أوكتافيا وسيدها الصقلى، غير أننى حين عرفتُ كان الأوان قد فات، ومات مَنْ مات، وبقي الحى ميتاً.

ظَلَّتْ أوكتافيا صامتةً تلك الليلة، إلا من كلمات قليلة، فظَلَّ صمتها يُربكنى حتى خايلنى النعاسُ، فنمت على سريرها. كان آخر ما وعيتُ به قبل نومي، نظرتها الحزينة إلىّ وهى تشدُّ فوقى الغطاء.. أيقظتنى حركتها فى الصباح الباكر، وطمأنتنى ابتسامتها وجلستها على الأرض بجانب السرير. كان أمامها ما أعدته لنا من فطورٍ، مفروشاً على الأرض. عاودتُ فى الصباح الاعتذار عن كلام الليلة الماضية، فأوقفتُ كلماتى المتلعثمة بلمسةٍ من أناملها على فمى، وبدمعةٍ لاحت فى أعماق عينيها. غيّرَتْ مسار

الكلام بأن سألتني عن بلادي الأولى وحياتي الأولى، فأجبت بحسب ما سمح به الحال من غير أن أقول شيئاً خطيراً.. لكنها بقيت مهمة بكل كلمة قلتها.

- تعال، سأريك شيئاً.

شدتني برباط غير مرئي، فنزلنا إلى غرفة النوم الكبيرة التي فيها سرير السيد الصقلي. كنت قبلها قد رأيت الغرفة من عند بابها، لكنني تلك المرة دخلتها. فتحت أوكتافيا شباكها وشرفتها الواسعة المطلة بطولها على الشاطئ والبحر القريب، فملا النور المكان. لم أدخل الشرفة كيلا يراني حارس المنزل أو أحد المارين، مع أنني تمنيت لو جلست قليلاً على الكرسي الخشبي الكبير، المتقنة صنعه، متأملاً من هذه الزاوية البديعة، التقاء البحر والسماء.

- ها هو السيد الصقلي.

أشارت أوكتافيا إلى تابوت خشبي مستند بطوله إلى زاوية الغرفة اليمنى، التي في الجهة المقابلة للشرفة. التابوت مرسوم عليه بشكل دقيق، صورة رجل أشيب في زي يوناني من النوع الذي يلبسه الأغنياء. في نظرتة حزنٌ دفينٌ، وذكاء. كانت الصورة مرسومة بحسب ما جرت عليه عادة الأثرياء في مصر والإسكندرية، من رسم وجوههم على توابيت، ليُدفنوا فيها محنطين، عند وفاتهم. التحنيط عادة وثنية موروثة. كان القدماء من أهل مصر يحفظون أجسادهم بعد الموت، في توابيت من رخام الجرانيت، منقوش عليها صور الآلهة القديمة. ثم صارت التوابيت مؤخرًا من الخشب، وصاروا يرسمون على غطائها صورة المتوفي.. فهمت لما تأملت صورة الصقلي، أن أوكتافيا تقصد أن تعرفني بأنه طاعن في السن، هادئ الملامح، عليه سمات الفلاسفة! وقد أضافت مؤكدة ما توحى به

صورة الرجل: هو زاهد في الحياة، يحتفظ بتأبوتة في غرفة نومه، ويفكر دومًا في الموت. يجلس في معظم أيامه السكندرية بشرفته هذه، يحرق في البحر، أو يقرأ في الكتب.

- ولماذا يبدو حزينًا؟

- لأنه وحيدٌ. وهو أيضًا شاعر، هل تحب أن ترى أشعاره؟

أجبت بالإيجاب، فأخذتني إلى غرفة الكتب الفسيحة، وأخرجت أوراقًا من درج المكتب فيها أشعارٌ مكتوبة باليونانية، بالخط ذاته الذي رأيته على حواشي الكتب.. دون أن أطلب منها؛ تركتني أوكتافيا في غرفة الكتب، بعدما دسست نفسها في حضني لحظة، ظلت خلالها تردّد هامسة: أحبك! وكنت صامتًا. بعد قبلة طويلة عند منبت عنقي، تركت الأشعار بين يدي، وأخبرتني أنها ستذهب لتعد لنا وجبة غداء شهية.. أتت مرات لتطل عليّ باسمّة، وبقيت هائنًا بين الكتب.

أشعار السيد الصقلي كانت مثل صورته، هادئة وحزينة. وكان أغلبها تأملات ساخرة حول الحياة والبحر، على طريقة القدماء من الشعراء والمحدثين من الفلاسفة. بعض سطورهِ الشعرية أعجبتني، فطلبت من أوكتافيا في واحدة من طلائها عليّ، أن تأتيني بأوراق لأنسخها فأعطيني لفافة طويلة من البردي، وقطعتني رق من جلد الماعز المدبوغ بمهارة كبيرة. لم أنقل الأشعار اليونانية بنصّها، لوثنتها المفرطة، وإنما كتبت الكلمات رأسيةً، من الأسفل إلى الأعلى، على أعمدة متفرقة. فإذا قرئت السطور أفقيةً أو على وجه آخر غير الذي أعرفه، بدت مجرد كلمات مفردة لا معنى لها.. والكلمات المفردة لا إثم فيها ولا خطية، فالآثام والخطايا تكون فقط عند سبك العبارات.

بالطريقة ذاتها، نقلت بعضًا من تعليقات السيد الصقلي المكتوبة على

حواشي الترجمة اليونانية للتوراة، أعنى الترجمة المعروفة بالسبعينية، وتعليقاته على بعض الأناجيل. كانت تعليقاته تبدأ بعبارة: كيف للإنسان أن يؤمن بأن... ثم يورد ملخص الآيات، ويعقب عليها بأنه من المستحيل عقلاً قبول تلك المعاني!... كان الرجل فيما بدا لي، لا يدرك أن الديانة لاشأن لها بالعقل، وأن الإيمان لا يكون إيماناً، إلا إذا كان يناقض العقل والمنطق، وإلا فهو فكرٌ وفلسفة. ومع ذلك، فقد أشفقتُ يومها على هذا الرجل الحائر، مثلما صرْتُ اليوم مشفقاً على نفسي، لفرط حيرتي.

ساعة الظهر، عيقتُ الغرفةُ برائحة طبخ شهى، فأغلقت الباب، وفتحت الشباك بحذر، وعادوت نبش الكتب ونقل التعليقات. لم تكن لفافة البردي قد امتلأت بعد، حين دخلت على أوكتافيا بيهجتها المعتادة لتدعوني إلى الطعام، استمهلتها، فلم ثمهلني. كانت ترتدى ثوباً كحلياً شفافاً مكشوف الصدر والذراعين، وكان شعرها البني الكثيف ينهمر هائجاً حول وجهها البسام.. كانت أوكتافيا امرأة جميلة.

قمتُ معها، تاركاً على الأرض الكتب والدواة واللفافة، على أمل أن أعود إلى جلستي تلك، بعد الغداء، لكنني ما عدت قط. حتى اللفافة تركتها ورائي هناك، بعدما جرى ما سوف أحكيه.



طابت نفسي وابتهجتُ لما دخلنا غرفتها، فكان الطعام في أطباق مفروشة على الأرض. لم يبهجنى الطعام، وإنما الاهتمام الذي توليه أوكتافيا لي. فلم أكن قد اعتدت منذ مات أبي، أن يُعنى بي أحدٌ مثل ذاك الاعتناء الحنون الذي غمرتني به أوكتافيا أيامها. على الرغم من استعفافها، لم أستطع أن أكل كثيراً، مع أن الطعام كان شهياً. صار اشتهاى لها أشد من رغبتى في الطعام، وقد أدركتُ هي اشتياقي من طول نظرتي إليها، فلم

تمنعني عنها حين اقتربت منها، وضممتها. شعرتُ فجأة أنني أحبها، وأنها ربما كانت تستحق البقاء معها بقية العمر. قلتُ في نفسي لحظتها: لِمَ لا؟ سأدرس الطب، وأمارس العلاج في هذه المدينة الكبيرة، ولن أرتد عن الديانة، بل سأصرف النظر، فقط، عن الرهبة. وبلادى البعيدة ليس فيها ما يغرينى بالعودة إليها، ستكون أوكتافيا موطنى وموئل روحي. لِمَ لا؟ أنا ما رأيْتُ قبلها امرأةً أجمل، ولا أرق، ولا ألطف. أوليست وهى الوثنية، أنقى قلباً وأصفى روحاً من أغلب المسيحيات اللواتي عرفتُهن؟ أعنى: اللواتي رأيتهن من بعيد!... ولكن، ما يدرينى أنها لن تغدر بي يوماً، مثلما غدرت أُمى بأبى؟ إن أغضبته يوماً لأتّى سبب، فسوف تنقلب على مثلما تنقلب النساء دوماً على أزواجهن، والنساء طبعهنّ الثقل..

بلفظ رقيق سألتها وهى فى حضنى، إن كانت ستظل تحبني مهما جرى! مازالت إجابتها ترنّ فى باطنى، وتتردد بقلبي أصداؤها: مهما جرى يا حبيبى، وسوف أقضى عمري كله بجانبك، راعية لك، يا أُملى الوحيد! فقد انتظرتك طويلاً، وحلمت بك كثيراً.. ولن أجد لنفسي أفضل منك أبداً.

- إذن، لتكن مشيئة الرب.

- يا حبيبى، لا نتحدث هكذا مثل أهل الصليب، فأنا أكرههم.

- لماذا يا أوكتافيا؟

- لأنهم كالجراد، يأكلون كل ماهو بائع فى المدينة، ويملاؤن الحياة كآبة وقسوة.

كادت تُسرف فى الكلام المزرى بأهل ديانتنا، فغيّرتُ مجرى الكلام بأن سألتها عن أستاذة كل الأزمان هذه، التى كان يذكرها المنادى فى الشارع الكبير.. اعتدلت فى جلستها، وعاد وجهها لإشراقه، وهى تقول:

- هو يقصد هيباتيا ابنة العلامة ثيون، الأستاذ الفيشاغورى. هى امرأة

مشهورة، جميلة وذكية، تزورنا هنا مع أصدقاء السيد الصقلي، فى تلك الأمسيات التى تمتد الساعات... وهى لاتنادينى إلا بأختى الحبيبة أوكتافيا.

- وفى أى علم تلقى المحاضرات التى يدعو المنادى إليها؟

- فى الرياضيات والفلسفة، وليس فى الطب! فلا تظن أننى سأسمح لك بالاقتراب منها، وإلا فقد تحبها هى وتهجرنى، مع أنها أكبر منك سنًا بكثير... ها ها.

- لاتمزحى الآن، فأنا أريد حقًا معرفة المزيد عنها.

أخبرتني يومها بأشياء كثيرة عن هياتيا الموصوفة بأستاذة الزمان.. وقد حكّت لى عنها مستمتعةً بالحكى، ومهيجةً أشواقى لرؤيتها. قالت إنها تلقى دروسها بالمرسح الذى يلقب المدينة، أبوها ثيون كان يلقى دروسه فى المعبد الكبير السيرايون الذى كان يقف شامخًا عند الحى المصرى، جنوبيّ المدينة، لكنّ المسيحيين خرّبوه وهدموه على رؤوس من فيه، أيام ثيوفيلوس! تقصد الأسقف. لما سألتها عن أيام دروس هياتيا نظرت لى بطرف عيناها، نظرةً مائلةً امتزجت فيها الغيرة برغبتها فى المشاكسة، ولم تُجب. لما ألححتُ قالت إن محاضراتها تكون أيام الأحاد، لأنها تكون هادئةً فى الصباح، والمسيحيون يذهبون فيها لكنيسة القمححة لسماع خطبة رئيسهم الحالى، الذى خلف خاله ثيوفيلوس فى قيادة تلك الكنيسة التى أظلمت العالم! قلت فزعًا من كلامها، وقد هالنتى جرأتها:

- تقصدين الأسقف كيرولس؟

- هو، عجّلت الألهة بنهاية أيامه السوداء، لقد جعل المدينة، كثيئةً كالخرايب، منذ تولّى أمرهم... ولكن أمرك عجيبٌ، تعرف كيرولس ولا تعرف هياتيا!

- يا أوكتافيا، أنا لا أعرف شيئًا هنا. ولم أمض فى مدينتكم قبل أن أراك، إلا بمقدار ما مشيتُ من بوابة القمر إلى هذا الشاطئ الذى كدّ أغرق فيه أملك.

لن أنسى بهجتها المفاجئة، وهى تصبح فرحةً: صحيح يا حبيب قلبى، صحيح.. أنا الآن سعيدة، ومتأكدة من أن الإله أرسلك لى، حقًا وصديقًا.

- غدنا للخرافات!

- يا حبيبى أنت أجمل خرافةٍ عرفتتها، وسوف أظل مؤمنةً بها بقية عمري.

كانت أستاذ المساء قد انسدلت، وكنتُ أشعر بأننى تائهة تمامًا فى أنحاء أوكتافيا، وغارقٌ بالكلية فى نهرها الجارف.. كانت تحيط بوجودى من كل الجهات، مثلما يحيط البحرُ الأعظم بالعالم أجمع.. قلتُ فى نفسى: سأحزمُ أمري الليلة، وأفكر بروية ثم أقرر غدا، ساعة الفجر، كل ما سوف يكون من أمرنا معًا. نويتُ ذلك وأنا جاهلٌ بما سيقع، وغافل عما كان الزمان يُخبئه.

دعنى أوكتافيا إلى سريره. كان الكون قد هدأ من حولنا، وسكن فى داخلنا. أكّدت لى أنها تطلبُ غفوةً بريئة! لم يكن لى رغبةً فى النوم، فطلبتُ منها أن أعود إلى غرفة الكتب، فقالت برقة تفيض ميوعةً وتفوح بعطر الخطية: إذا بقيت معى، فسوف أعلمك أشياء لاتوجد فى أى كتاب.

تصنعتُ الجديدة، عساها تستجيب لمطلبى، فجرفتني بروحها المرحّة ولم أجد معها سبيلًا، إلا الاستسلام لجذبها لى نحو السرير.. ورأيتُ منها يومها، حقًا، ما لا يمكن أن يجده أحدٌ فى أى كتاب، فقد كانت

لأوكتافيا فنونٌ لم يسمع عنها مؤلفو الكتب! بقينا من بعد ذلك عارين،
حتى توغّل الليلُ وقرصتنا لسعاتُ البرد... شدّت فوقنا دثارًا، وأحاطت
صدرى بذراعها، وتهَيَّأت للنوم. غير أنها قامت فجأةً، وقد طفرت في
ذهنها الوهاج فكرةً جامحةً:

- يا حبيبي، تعال معي لأريك قبو النبيذ؟

- أريدُ أن أنام.

- تنام! هاها.. هل تعبتي في أول الليل، فماذا ستفعل في آخره؟ تعال
معي، سوف نأتي من القبو بأطيب نبيذ في العالم.

كانت أوكتافيا لاتهدأ أبدًا.

الرَّقُّ السَّادِسُ

النُّقْطَةُ الْفَاصِلَةُ

أتذكّر جيدًا أننا كى نصل إلى القبو، نزلنا السلّم الصاعد للسطح، ومن
بعده السلّم الكبير الواصل بين الطابقين، ثم سلّمًا آخر خلف الباب الخشبي
الذي بأقصى بهو الصالة الكبيرة المرسوم بأرضيتها صورة الكلب الحزين.
السلّم الأخير حَجَرِيّ، يتسع دَرَجُهُ كلما هبطنا القبو.

هواءُ القبو رطبٌ بارد، ورائحته قوية. الأرضية حجرية، وفوق بلاطها
صُفِّت ألواحٌ سميكّة من خشب البلوط. لم أكن أعرف أن الأقبية قد تكون
فسيحة، فالبيوت والمعابد في بلادى الأولى لا أقبية تحتها. فكنتُ أظنُّ
أن القبو، هو ممرٌ منخفضٌ تحت البيوت الكبيرة والقصور، يشبه الدهليز،
وأنه بالضرورة ضيقٌ ومحدود. لكنني رأيتُ مع أوكتافيا على ضوء سراجها
المعدني، طابقًا فسيحًا مرتفع الحوائط يقوم تحت الأرض على صفوفٍ
من أعمدة رخامية قوية، كل صَفٍّ منها موصولٌ بجدارٍ من الطوب، عليه
من الناحيتين أرففٌ ثلاثة، فوق كل رَفٍّ منها جِرَارٌ لاتكاد من كثرتها تقع
تحت الحصر. قالت بفخر:

- عندنا نبذ يكفينا لألف سنة. تعال إلى هذه الناحية، ففيها النبيذ المعتقد الذي عُصر في أجود السنوات.

- ولماذا تُعتقون كل هذا النبيذ؟ هل يظنُّ صاحب البيت أنه سوف يعيش إلى الأبد!

- رفقاً يا حبيبي، لقد كان أبوه يُعصر له نبيذٌ كثير، وكان هو يجلب بعض أنواعه من اليونان وقبرص. فقد كانوا يستقبلون هنا ضيوفاً كثيرة، ويقيمون الولائم الحافلة.. رأيت ذلك منذ كنتُ طفلةً صغيرة.

أخذتني إلى ممرٍ ممتدٍّ بين صفوف الجرار، وعند آخره مدَّت يدها خلف الجرة المجاورة للجدار، فأخرجت قنينةً من زجاج أخضر صافٍ.. عادت للوراء خطوتين حتى التصقت بي. وقالت وهي تحكُّ مؤخرتها بمقدمتي، إنه نبيذٌ ممتازٌ يناسب سهرتنا! أدارت وجهها نحوي باسممة، وهي توالى حركتها المثيرة، وتضيف: أدخرتها هنا من أجلنا منذ شهور، لما أعجبتني مذاقها.

نسيْتُ ذاتي ساعتها، وغازني أنها غالباً ما تبدأ الأمر، فدعنتي نفسي إلى البدء تلك المرة، حتى أشعرها بقوتي! كنتُ صغيراً، ومنذفعاً. أدرتها من كتفيها حتى وُكَّت وجهها نحو الجدار، ثم أزاحتها بضمغةٍ من كفيّ على جانبي ظهرها، فانزاحت مستسلمةً لي. نفختُ شعلة القنديل فانطفأت، ولقنا الظلام. كان صدرها إلى الجدار الرطب، وصدرى إلى ظهرها الدافئ. تحسّستُ في الظلام جسمها، فوجدتها مستسلمةً تماماً وقد أسندت يديها إلى الحائط، ومالت برأسها قليلاً إلى الإمام. رفعتُ عنى جلبابى، وأنزلتُ السروال، ورفعتُ عنها ثوبها، ولم يكن تحته شيءٌ لأنزله. صرنا عاريين تماماً.. علا صوتها، وهي تثنُّ طالبةً منى شقّها

لنصفين.. يا إلهي.. لا يصح هذا الذي أتذكره وأذكره بعد مرور هذه السنين الطوال!



ارتقبنا إلى غرفتها من القيو، مُترنحين. غلبنا النوم ليلتها ونحن جالسان على الوسائد المتناثرة بأرضية الغرفة، من دون أن نحسّ قنينة النبيذ كلها.. اليوم التالي صحوْتُ مبكراً، وكانت أوكتافيا نائمةً بجوارى كحلُم فاحش. بهدوءٍ نزلتُ إلى غرفة الكتب، وقد أخذتُ في يدي مخلاتى، خشيةً أن تنظر فيها حين تصحو. وبهدوءٍ فتحتُ الشباك، فانفرش الضوء بالمكان، وافترشت الأرض معاوداً جلستى بين الكتب. أكملتُ نقولى من حواشى الكتب المقدسة، أقصد تعليقات السيد الصقلي على الآيات التي استوقفتها. وبينما أُعيد نصَّ التوراة إلى موضعه فوق الرّف، وقعت عيني على مجلدٍ كبير، بغلافه الداخلى عنوانٌ واصفٌ لمحتواه: رسائل وشذرات لفلاسفة الإسكندرية القدماء.

كنتُ أعرف كثيراً من تلك النصوص، فأصحابها كانوا من المشهورين؛ غير أن بعض الرسائل والشذرات كانت غريبةً علىّ تماماً، ولم أسمع بأصحابها في مدارسنا بأخميم.. عدتُ بالمجلد الكبير إلى موضعي بأرضية الغرفة، وبدأتُ في قراءة ما استغربته من نصوص، خاصةً تلك الشذرات المنسوبة إلى فيلسوفٍ قديم لم أكن قد سمعتُ به، اسمه بحسب ما ورد في بداية شذراته، هو: هيغاسياس الداعى إلى الانتحار!.. ما كدتُ أشرع في اختيار بعض الشذرات لأنقلها إلى لفافتي، حتى دخلت علىّ أوكتافيا فزعاً وقد اصفرَّ لونُ وجهها. كانت خصلات شعرها البنى الوفير، تغطى كتفيها وصدرها الرُّبدي المرتجف بأنفاسها اللاهثة:

- أنت هنا، ظننتُ أنك.. لماذا أخذتُ مخلاتك معك؟

- ما هذا الفزع؟.. فى مخلاتى كتب رأيت هنا نسخاً أقدم منها وأصح، فأردت أن أصوب نُسخى.

- يا حبيبى. أرجوك، لا تفجعنى ثانيةً برحيل مفاجئ من جوارى.. لقد كاد خرفى عليك يقتلنى، هيا لنصعد إلى غرفتنا.. هيا يا حبيبى.

ألقْتُ بنفسها فى حضنى، كطفلة أتاها أبوها من بعد سفر طويل. لم أحسّ ساعتها بعريها، قدر ما شعرتُ بالتياغها. أخذتها فى حضنى بحنو أبوى برئٍ من تلك الخطيئة التى عصفت بنا الليلة الفائتة، فاطمأنتُ.. بينما أنسَم رائحة شعرها، كدتُ أوقن أنها حقاً تحببى، بأكثر مما أحببتنى أُمى.. هل كانت أُمى تكرهنى، مثلما كانت تكره أبى؟ وهل تراها أحبَّت، من بعدنا، زوجها الغشوم؟

أحسستُ بدموع أوكتافيا تسيلُ على صدرى المكشوف، فتغسل قلبى من أوجاع الصبا. زدْتُ من ضَمَّتْها إلَى، ومررتُ بكفى على كتفها وذراعها العارية، فسكنتُ.. هل كان يجب علىّ، أيامها، أن أثقُ بأوكتافيا، بأكثر مما فعلتُ؟.. مَنْ يدرى! وما الفائدة الآن؟.. على كل حال، هى مغامرة خطيرة أن نأمن، مثلما هى مغامرة كبرى أن نؤمن.

- لا تتركنى أبداً يا حُبِّى الوحيد!

مسحتُ أوكتافيا دموعها بباطن كَفِّها، واغتصبتُ لشفتيها ابتسامةً وهى تنظر فى بولع جارف. كانت عيناها العسليتان الدامعتان، قَبَّاضَتين بالحب والروعة.. بعدما راقَت ابتسامتها، وصَفَّت عيناها من غيوم الدمع الذى سال، أخذتني إلى سطح المنزل من دون أن نقول شيئاً، وكأننا اكتفينا لحظتها بما تبوح به عيناها لعينينا.

أوقفتنى خارج غرفتها، حتى عادت وقد ارتدت الثوب الأبيض الذى رأيته عليها أول مرة، وفى يدها ثوب السيد الصقلى المطرزة حوافه، الثوب

الذى رفضتُ قبلاً أن أرتديه. كانت عيناها ترجونى، فخلعت عنى جلبابى وارتديته صامتاً. هى ألبسته لى. كنتُ أودُّ أن أقف قليلاً عند السور المؤطر للسطح، غير أنها حذرتنى ثانيةً بلطفٍ، وأخذتني بعطفٍ إلى داخل غرفتها! فتحتُ شباكها، فامتلاّت الغرفة نوراً من ذاك الذى كان يفترش السطح.

على طرف سريرها جلست وهى تمدُّ ذراعيها نحوى، مثل ربةٍ مانحة.. ربةٍ حنون، وطيبة، ومرحة. لكن أفكارى ساعتها عاودتنى: مَنْ يدرى أن صفاتها هذه سوف تدوم إلى الأبد؟ لا شيء يدوم إلى الأبد... ماذا لو غدرت بى؟ والنساء بطبعهن غادرات.. قد تغضب منى يوماً لأى سبب، فتشئ بى عند رجال الكنيسة، وتفضح لهم سرى.. تقول إننى أغويتها، أو إننى كنتُ راهباً وفسقتُ معها.. كنيسة الإسكندرية بحسب المشهور من أخبارها، قوية وحاسمة، ورجالها الآن أغلبهم قساة.. فما الذى يمكن أن يفعلوه بى؟ هل سألقى، هنا، المصير الذى لقيه أبى هناك.. هل..

- مآلك شاردًا يا حبيبى؟ خُذْ هذه التفاحة.

- تُفّاح! لا أحبه، فهو الثمرة التى أخرجت آدم من الجنة..

- ما هذا السخف! مَنْ أخبرك بهذه الخرافات يا طفلى الصغير؟

مضطرباً، ومن دون أن أفكر، قلتُ لها بجدّة:

- هو مكتوبٌ فى شروح التوراة..

- ها، التوراة. إنها كتابٌ عجيب، يهزأ طول الوقت بالمصريين

القدماء، ويتهّم نساءهم. كان سيدى يقرؤه لى، وهو يبتسم ويهز رأسه تعجباً.

أثارنى كلامها وهجج باطنى، غاظنى أنها تُهين عهدَ الرَّبِّ القديم الذى آمنا به مئات السنين، وآمن به اليهود من قبلنا.. أثارنى كلامها، مع أن

الشكوك كانت تملأ نفسى تجاه ما ورد فى أسفار التوراة الخمسة. ولكن مهما كان، فلا يجوز لإنسان إهانة عقائد غيره من الناس، وإلا لِهانت كل الاعتقادات وأهينَتْ، ولم يصحَّ أى دين لأى إنسانٍ.. قُلْتُ فى نفسى لعل وقت المصارحة بيننا قد حان، فقلْتُ بحزم:

- أوكتافيا، لا يجوز لك أن تسخرى من عقائد الناس.

- لا تغضبْ هكذا يا حبيبى. لن أسخر بعد ذلك من عقيدة أحد أبداً، مادام ذلك يغضبُك.. فلا تُغضبْنى أنت، وخُذْ هذه التفاحة من يدي.

أخذتُ التفاحة متردداً، فرفعتُ أوكتافيا بها يدي نحو فمى. كنتُ لحظتها أفكرُ فى سفر التكوين. قُضِمْتُ من تفاحتها قطعة صغيرة، وقد اجتاحتني شعورٌ جارف بأننى آدم الذى أغوته امرأته، وخدعه عزازيل اللعين، فأورثنا من بعده خطية العصيان الأولى.. الخطية الأولى! طافت بذهنى الآيات التوراتية المشهورة، التى لا يمكن أن يصدقها غيرنا. وتوالت على قلبى الأسئلة: لماذا أمر الربُّ آدم بالابتعاد عن شجرتى المعرفة والخلود؟ ولماذا انزعج الربُّ لما أكل آدم من شجرة المعرفة؟ فقال فى نفسه، بحسب ما هو مكتوبُ فى سفر التكوين: هو ذا الإنسانُ قد صار كواحد منا، عارفاً الخير والشر. والآن لعله يمدُّ يده، ويأخذ من شجرة الحياة أيضاً، فيصير خالداً. فأخرجه الربُّ الإله من جنة عدن، ليحرث فى الأرض التى أخذ منها. طرد الربُّ الإله الإنسان، وأقام شرقى جنة عدن ملائكةً لهيب سيف متقلب، ليحرس طريق شجرة الحياة.. لماذا أراد الله أولاً، أن يبقى الإنسان جاهلاً؟ وهل المعرفة التى أدركها آدم، هى تمهيدٌ لإدراكه الخلود؟ ومن هم أولئك الذين قال الربُّ إنه واحدٌ منهم؟ وهل لو بقى آدم وحواء جاهلين، كانا سيخلدان فى الجنة؟ كيف يصح الخلود مع الجهل والغفلة عن الطبيعة؟ وما الذى عرفاه بالضبط حين أكلا من

الشجرة؟ أهو ذاك الذى عرفته مع أوكتافيا فى الأيام الماضية.. ما جرّتنى إليه هى، من غير تدبير منى ولا قصد.. أترانى أعيد فعلة آدم، فأغضبُ الربَّ، فيعيدُ الطرد؟.. من أين، وإلى أين سيطردنى، أنا الطريد منذ سنين.. ولا أين لى، ولا كيف!

اعتصرتنى الأفكار التى أحاطتنى بها هذه الربة الوثنية التى تُجلسنى على سريرها.. أكانت أوكتافيا ربةً، أم عبدةً لشهواتها.. ثرى، هل أرادت بتفاحتها تلك أن تُعيدنا إلى الخطية، فتعود بنا إلى بدء خلق جديد؟ لقد أسقطتنى معها فى بحر الخطايا، فكيف كنتُ سأنجو من الغرق؟ وهى تريدنى أن أمضى العمر معها.. كيف؟ وهى لاتعرف الإيمان القويم، ولا تعرف أننى من أهل الإيمان..

- فيم تفكر يا حبيبى؟

- فى الزواج، أقصد فى زوجك الميت.. هل كان مريضاً؟

- لا، كان يكبرنى بعشرين عاماً. كان بدينًا جدًّا وضعيفًا، لكنه لم يكن مريضًا.. مات فى المعبد الغربى!

غلب عليها الأسى وهى تقصُّ ما جرى مع زوجها، فى اليوم الذى وصفته بالمشؤوم.. فقد كان زوجها الوثنى، يُوصى دومًا سيده الصقلى أن يجلب له البخور من أسفاره، ويوصله للمعابد، ويعود فى المساء سعيدًا. كانت تخشى عليه، وكان يستهين بقلقها. لم يكن يعتدُّ بأن المعابد صارت أماكن خطيرة، وكان يردّد على مسامعها العبارات الجوفاء التى لا معنى لها: إلهنا سيراييس هو إله العالم، ولا بد من أن نُظهر احترامنا له رغم أنف كل المسيحيين، بمن فيهم الإمبراطور ثيودوسيوس الثانى نفسه.

فهمتُ من كلامها، أن رجلها الميت كان فيه شئٌ من الحمق والضلال.. أذابتُ قلبى جلستها الحزينة وهى تحكى، وقد خَفَّ شعرها بجانبى وجهها،

فكانها زهرةٌ آلت إلى الذبول. كان يجب على ساعته أن أحضنها، وأعدها بأننى سأكون لها خير زوج. قلتُ فى نفسى: هى على كل حالٍ لم تكن تحب زوجها الأول، وهى تقول إنها تحبني. فربما أخذ الربُّ زوجها، ليعطيها أفضل منه!.. كان عقلى غائبًا فى خَدَره، وكانت تكمل حكايتها، فتخبرنى أن زوجها خرج ذات صباح ليضع البخور فى المعبد الصغير الذى كان قائمًا بشرق الميناء، فحوصر هناك، تقصدُ حاصرَه أهلُ ديانتنا.. أجهشتُ وهى تقول: قتلَه المجرمون وقادتهم من الرهبان، وهم يدمرون المعبد.

- ما هذا الذى تقولين؟.. الرهبان لا يقتلون!

- رهبان الإسكندرية يفعلون.. باسم ربهم العجيب، وببركات الأسقف ثيوفيلوس المهبوس، وخليفته كيْرُلُس الأشد هوسًا.

- أرجوكِ يا أوكتافيا.

- طيب، ما علينا من هذا الكلام الآن. ولكن لماذا تبدو يا حبيبى متألِّمًا هكذا، ومنحازًا لهم؟ إنهم يطاردوننا فى كل مكان، ويطردون إخوانهم اليهود، ويهدمون المعابد على رؤوس الناس، ويصفوننا بالوثنيين الأنجاس. إنهم يتكاثرون حولنا كالجراد، ويملاؤن البلاد مثل لعنة حَلَّتْ بالعالم.

- أرجوكِ!

- وما شأنك أنت بهم.. لماذا تحمُرُّ عينك هكذا، وتوشك دموعك أن تنسال؟

- لأننى..

- لأنك ماذا؟

- أنا..

- أنت ماذا؟

- أنا.. راهبٌ مسيحيٌّ.



سادت لحظةٌ صمتٍ طويلة، ممزوجةٌ بالذهول.. وبعد إطراقةٍ مقلقة، نظرت أوكتافيا نحوى، وقد اكتسى وجهها بحمرة الحنق، واحتقنتُ عيناها بحزنٍ كظيم. فجأة، انتفضت واقفةً وقد صارت لها هيئةٌ كتلك التى تكسو التماثيل الضخمة القديمة. وبكل ما فيها من عنفوانٍ وثنىٍّ، ومن مرارةٍ موروثةٍ، مدَّت ذراعها اليمنى نحو الباب، وزعقتُ فى بصوتٍ هائلٍ، مثل هزيم رعدٍ سكندريٍّ، أو صرير ريحٍ وثنيةٍ عاتيةٍ:

- اخرج من بيتى يا حقير، اخرج يا سافل.

الآن.. آه يا أوكتافيا المسكينة.. لو كنت قد صبرتِ علىّ قليلاً.. ولو كنتُ
أعرف ما يخبئه لى الزمان.. أو.. الآن.. إن يدىّ ترتجفان.. أوكتافيا..
الحبيبة، المسكينة.. ماعدتُ قادراً على الكتابة..^(١)

الرَّقُّ السَّابِعُ الرَّقُّ النَّاقِصُ

ألقيتُ الجلباب الحريرى بقلب الغرفة، وانتقطتُ جلبابى الملقى عند
الباب، فارتدبته بينما أهبط الدَّرَج على عجل. كنتُ كَمَنْ يقع فى الفراغ،
وقد استلّثتُ منه روحه. دُشْتُ على صورة الكلب الحزين، فى طريقى
إلى باب المنزل. وقبل أن أفتحه، أتانى من أعلاى ومن خلفى، صوتُ
نجيب أوكتافيا وأنيها المرير.. بالكاد سمعتها، لحظة مررتُ من الباب
مسرّع الخطى، مخترقاً حديقة المنزل إلى بابها الذى كان موارباً. ضوءُ
الشمس الساطع على الرمال الممتدة أَلَم عيني، وآلمت قدمي الحافيتين،
سخونة الرمال.

ولَّيتُ وجهى نحو البحر، غير عابئ بنظرة الحارس المندهشة،
إذ رَأَيْتُ أخرج فجأة من باب الحديقة الموارب. لم ألتفت إليه،
ولم أنظر خلفى حين سار ورائى خروقه بضع خطوات.. لم
أشعر بمثل هذه المهانة فى حياتى قط.. إننى مَهِينٌ.. ومُهَانٌ.. وهينٌ
إلى آخر المدى.

هل وقع ذلك كله، حقاً، قبل عشرين عاماً؟ مالى أشعرُ به كأنه يحدث

(١) هذا هو كل المكتوب فى الرق السابِع. وبين السطور، شطِبْتُ كثير ودوائر متداخلة.
وعلى الحواف، وبيد مضطربة، رسم الراهب هيبا فى الفراغ المحيط بالكلمات،
صُلباناً كثيرة متفاوتة الحجم.. (المترجم).

مرة. فور دخولي المغارة، انزويْتُ في ركنٍ قصيٍّ، وألصقت كنفِي اليمنى وركبتيَّ بالجدار الرطب، عَلَنِي أحتِمِي من دوىٍ انهيارى.. كنتُ مُنهارًا تمامًا.. وبعد لحظةٍ من ذهولٍ تامٍّ، أجهشتُ فجأةً بدمع الندم.. هنا، كانت أوكتافيا تجلس على ركبتيها، وتُخرج من سَلَتِها الطعام الأبيض. وهنا، كنتُ أقف مأخوذًا بطلَّة صدرها. وهنا، مَسَّ وجهي جسمها، فغمرنى ضياؤها أول مرة.. هنا كانت اللحظة التي انطوت، وطوتني، وألقتني في جُبٍّ سحيقٍ.

لم يكن حولى إلا الفراغ وصوتُ البحر. سحبْتُ مخلاتي الثقيلة، التي زاد ضعفني من ثقلها، وألقيْتُ فوقها رأسِي المليء بالفراغ.. كان فراغِي موجعًا، ووحدني. أخذتني غفوةٌ كذلك التي غلبت تلاميذ يسوع ليلة العشاء الأخير، بعدما أخبرهم بقرب رحيله عنهم إلى الآب الذي في السماء.

تفرَّعتُ من نومتي التعسة مرَّاتٍ، وأفقتُ مرَّاتٍ على أحلامٍ مفعجة. المرة الأخيرة، كانت ساعة غروب اليوم التالي. أردتُ أن أعاود نومِي وغيبوتي، فتجافتُ عن أرضية المغارة وجدرانها. وددتُ لو أغفو، فلا أصحو، لكنني صحوْتُ، فلم أُنم حتى الفجر التالي. مرَّتُ بخاطري أوهامٌ كثيرة، واجتاحتنى المخاوف. كنتُ خائفًا مني، ومن أيامي الآتية، ومن انفرادي بين الصخور، ومن احتمال أن تكون المغارة مأوىً لوحوش! لم أكن يومها قد تأكَّدتُ بَعْدُ من أن الإسكندرية ليس فيها ضباعٌ أو ذئابٌ هائلة، ولا يخرج من بحرِها وَرَلٌ ولا تمساحٌ مثلما يخرج من النيل عند المساء.. في الإسكندرية، ما هو أشدُّ خطرًا من الوحوش السارية ليلاً، والهائمة فجرًا.

بعد قلبي طويل، عرفتُ أن الهيسيس الذي كنتُ أسمعُه، هو ديببٌ أرجل سرطانات البحر التي تبيثُ ليلاً بين شقوق الصخور. كان ضوء القمر يفرش مدخل المغارة، حيث تختلط الرمال بقطع الصخر المتناثر.. باستثناء البقعة

الرَّقُّ الثامنُ

الخلوةُ بينَ الصُّخُورِ

أُتِي ذكرى مؤلمة بالضرورة. حتى لو كانت من ذكريات اللحظات الهانئة، فتلك أيضًا مؤلمة لفواتها.. أوْدُ لو خرجتُ هذه اللحظة إلى حافة سور الدير، وصرختُ إلى جهة الشمال حيث حوصر نسطور، وإلى جهة الجنوب حيث غابت مرتا.. ولو صرختُ بكل ما في القلب من ألم، فهل يصل الصوتُ أم يصل الموتُ، أم يُصلينا الفوتُ الدائمُ والأحزانُ؟

ماذا أفعل مع هذه الشجون، وأنا المسجونُ في قلقي المحصورُ مع ذكرياتي؟.. هل أمزِّق الرقوق، وأسكبُ محبرتي؟ أم أشقُ ملابسِي مثلما كان يفعل يوحنا المعمدان وأصرخ في الصحارى؟.. أم أهيمُ في آفاق ما كان، وأعاود الكتابة لأُنهي ما بدأت، ثم أرحلُ عن موضعي هذا إلى غير رجعة؟

آه منك يا أوكتافيا.. يا أيتها الطاهرة.. أتذكَّرُ بنصوع أنها لما طردتني بقسوةٍ من جنَّتها، قادتنِي خُطاي من بحر الرمال المحيط ببيتها إلى المغارة التي بين الصخور. خُطاي أخذتني إلى هناك من دون تدبير، أو لعلني أردتُ ساعتها استغفار ربي وانتظار رحمته، في الموضع الذي عصيته فيه أول

المضياء بنور القمر، لم أكن أرى شيئاً واضحاً من حولي ولا من أمامي. رأيتُ أن أعطي ظهري لمدخل المغارة، وأولى وجهي إلى الحائط وأذوب في صلاة مخلصه وابتهاج حار، عسى أن يرحمني الرب، ويغفر ما كان مني ومن أوكتافيا.. حين دعوتُ لها بالرحمة، انهمرت دموعي من جديد.

وفيما كنتُ متوَعِّلاً بقلب صلواتي، خطر لي أن أظلّ بالمغارة بقية عمري؛ أفرغُ تماماً للعبادة، وأهجرُ الطبَّ. وكل ما كنتُ أرغبُ فيه، أرغب عنه. فأصيرُ إذا أخلصتُ النية، قديساً.. وراودتني أمان لا تليق بالرهبان: سوف يعرف الناس مع الأيام أنني أقيم هنا، وسيأتون للتبرُّك بي. سأضربُ في التَّقَشُّف المثلَّ الأروع؛ لن أكل في اليوم والليلة، إلا بلحّة واحدة. وإذا عطشتُ، سأضعُ النوى في فمي وأحرّكه، فأرتوي، مثلما كنا نفعل في القرية ونحن صغار. إذا طال عطشي سأبللُ شفتي بماء البحر، وأعود لخلوتي في المغارة. يُقال إن الإسكندرانيين لا يحترمون غيرهم، لكنهم سيرحبون بي حين يظهر لهم ورعي وتقواي وإمعاني في العبادة. ستحلّ على مغارتي بركات السماء، وسوف تجرى على يدي المعجزات. وقد تأتي أوكتافيا يوماً لزيارتي بين الجموع وقد اهتدت، فتراني محاطاً بأنوار القداسة.. لن أشغل نفسي بشيء من حطام هذه الدنيا، لن يشغلني إلا تسييح الرب، ومشاهدة حقائق الوجود المتجلية على باطني الذي سوف أجלוه فيصير كالمرآة.. سوف أصفر عن كدر هذا العالم.

أراحتني تلك الأفكار، وخففت من جزعي. ولكن مع نور الصباح، عضني الجوع، فشوّش عليّ أفكارى وأمنيّاتي الساذجة. أخرجتُ بلحّة من مخلاتي، ومضغتُها على مهل، فأثارَتْ فيّ العطش. لم ينفعني تحريك نواتها في فمي، فخرجتُ من المغارة متلفّناً كتعلب مُحاصر. في طريقي إلى البحر، لم أجد أحداً حولي على امتداد البصر. كل شيء عدا الهواء، ساكنٌ. بللتُ يدي، ومسستُ بالماء شفتيَّ ولساني، فأهاجتُ الملوحة عطشي.

عدتُ للمغارة أجزُّ قدمي، وتكوّمت في الركن مثل قطّ باتس يلحق جرحاً غائراً لا أمل في شفائه. رأيتُ أن النوم هو ملاذى الوحيد، فاستجلبتُ إلى عيني النعاس.. وبعد معاناة طويلة، نمتُ نومة غريق.

انتبهتُ من غيبوتي ظهراً على صوت طيور البحر، وعلى جوعي وعطشي. لم أعرف قبلها جوعاً وعطشاً بمثل تلك الشدة. وضعتُ بفيّ بلحّة أخرى، ورحتُ على مهل أمتصُّ رحيقها. بعد حين خرجتُ من بين الصخور، ورحتُ أتلفَّت حولي.. لم يكن هناك أحدٌ غيري.. لم تكن أوكتافيا واقفة في الموضع الذي رأيتها فيه، يوم أخذتني الدوامة.

عرفت ساعتها أنني لا أحبُّ البحر. النيل أحلى منه، وأرحم. النيلُ يجلبُ إلى ضفّتيه الحياة، والبحرُ يزيحُ عن شواطئه كل ما اخضرّ، فلا يجاوره إلا الصخور. الإسكندرية مدينة للبحر والصخر، مدينة للملح والقسوة. كان انفرادي يمزّعني، وتطحّني وطأة الغربة.. ساعة العصر، خطرت بذهني فكرة جامحة، رأيتُ أنها قد تؤكّد توبتي، وتقربني من جوهر الطهارة التي أهدرتها.. وسوف أتفرّد بها عن أهل زمانى، فأصيرُ مميزاً بينهم؛ فلن يقدر أحدٌ على فعل كهذا: أن أخصى نفسي!

نويتُ أن أخرج من فوري، فأبحث بين الرمال عن شعرة من ذيل حصان، وأغسلها جيداً في ماء البحر، وأعود بها للمغارة، فأربط خصيتي بالشعرة، وأحتمل الألم أياماً حتى تسقط خصيتاي وأستريح إلى الأبد. لن أقع بعدها في غوايات النساء! سأصير مثل الملائكة.. الإنجيل دعانا لذلك، لكننا لم نستجب لأننا ضعفاء. الآيات صريحة في إنجيل متى الرسول: يوجد خصيانٌ خصوا أنفسهم من أجل ملكوت السماوات، فمن استطاع أن يقبل، فليقبل.. ولسوف أقبل مختاراً، راضياً بالتضحية على مذبح الطهر. سأفعل ذلك بمشيئة الرب، صباح غدٍ.

ولكن مهلاً، فإن أوريجين قد فعل بالأمس البعيد، ما أنويه في غدى القريب، فاعتبره البعض قديساً، واعتبره آخرون مذنباً. أسقف الإسكندرية في زمانه، ديمتريوس الكرم، أدان فعلته، ووصفها بأنها شنعاء، وغضب عليه، وعزله عن رئاسة مدرسة اللاهوت، بل طرده من صفوف الكنيسة.. فكيف سينظرون اليوم إلى فعلتي التي إن أقدمتُ عليها، فلا مجال لتعويض ما سوف أفقده. ولن يكون أمامي مجال للانتظام في سلك الرهينة، إذ لا مجال لمقاومة رغبات النفس واشتهاءات البدن. سيحرمونني، ويطرودوني من الكنيسة مجللاً بالعار، ومصحوباً باللعنات المجلجلة.. فكرتني فاشلة.. لن أفكر في خصاء نفسي، أبداً!

قبيل الغروب، أشفقْتُ من المبيت ثانية في المغارة، فخرجتُ إلى الشاطئ، ومشيتُ غرباً. نظرتُ رغماً عني نحو بيت أوكثافيا مرات، وكدت أقع على وجهي مرات.. كانت الشمس تنوى المغيب، فيزيدُ احمرارها من زرقة البحر عن يميني. وعن يساري كانت البيوت تتزايد كلما سرتُ نحو قلب المدينة. كانت المنازل تكثُر وتعلو طوابقها، فتقترب هيئاتها من بهاء القصور. بعدها بقليل لمحتُ عند البحر حراساً، فلم أقترُب منهم. عرفتُ أنني أكاد أصل إلى موضع الحي الملكي، الذي لم يعد ملكياً بعدما صارت معظم قصوره، مثل بيوت الأشباح وموائل الكلاب. تفاديتُ المضى غرباً، واتجهتُ جنوباً لأجوس بين بيوت المدينة. لعلّي ألتمس هناك دفئاً لقلبي المرتجف، وماءً أو طعاماً. رأيتُ من بعيد، كنيسةً على رأسها صليبٌ كبير، فاتجهتُ نحوها وأنا أتحسّس بأطراف أصابعي، خطاباً التوصية الثمين، المندس في مخلاتي.

على باب الكنيسة، كان جمعٌ من أهل ديانتنا يتحدثون همساً. في وجوههم طيبةٌ، ومن أعناقهم تتدلى صلبانٌ من الخشب المصبوغ

وعظام البقر المنحوتة. لم يلتفتوا نحوي، ولم أتردد. قصدتُ ناحيتهم، وفاتحتهم:

- مساؤكم مبارك يا أخوتي. أنا غريبٌ من أهل الجنوب، أحمل رسالة للراهب يوانس الليبي.

لم يعرفوه، ولم يكثرثوا بي كثيراً. نصحتني أحدهم بأن أسأل عنه في كنيسة قيصر، ووصف لي الطريق إليها. فارقتهم إلى الاتجاه الموصوف، وقد منعتني الحياء من إخبارهم بأنني جائعٌ جداً، وعطشان. بين الشوارع المتقاطعة، سألتُ أحد البوابين أن يعطيني من عنده شربة ماء، ففعل. سألتني عن وجهتي، وامتنع لما أخبرته. مازلتُ أذكر نظرتَه المستريية لي، حين عرف أنني أبحثُ عن راهب يسكن كنيسة! شكرته متلعثماً، ومضيتُ من أمامه.. بعد حين صادفتُ أطلالَ بيتٍ قديم متهدم، فجلستُ برهةً لأريح قدمي وقد أسندت ظهري للحائط الساقط.

كان الليل قد ثقل على السماء، وبدت لي النجوم وكأنها تُجاهد كي ترفع ظلمته. بيوت الإسكندرية لا تكثُر للمساء، تطلُّ من نوافذها أنوارٌ كثيرة، وحرقةُ الناس هناك لا يمنعها هبوط الليل، فهم يحبّون السهر، وأظنهم لا ينامون كثيراً، لا ليلاً ولا نهاراً. هم أكثرُ بدانة من الناس في بلادى الأولى، وبشرتهم أكثرُ بياضاً ونضارةً. النبيذ الجيد يكسو الوجوه نضارةً، ويحسن ألوانها.

لم أطل استراحتي عند البيت المهجور، مع أنني فكرتُ في الدخول للمبيت فيه. لكنني عدلتُ عن فكرتي. سألتُ مرتين في طريقي، عن موضع كنيسة قيصر حتى وصلت إليها. هي تطل على الميناء الذي يسمونه هناك الشرقي؛ لأن ميناءً أكبر منه يقع إلى جهة الغرب. كنيسة قيصر

هذه كبيرة، وجدرانها العالية مليئة بخربشة وتكسير. عرفتُ فيما بعد أنها كانت معبدًا، ثم صارت كنيسةً، ثم ارتدت معبدًا بين الوثنيين.

على باب الكنيسة، استوقفني رجلٌ يلبس ثوبًا كنسيًا ضيقًا، يكاد ينفزر معه بدنه الضخم. كانت هيئته غريبة: بدنٌ مصارع مكسوٌ بثياب قس! فى عينيه حِدَّةٌ، وفى عبوس وجهه قسوةٌ سيافٍ لا وداعة قسوس. ولأن ملابسى كانت تدعوه لاحتقارى، فقد نظر إلى باستهانة وهو عاقد ذراعيه على صدره.. بلسانٍ مضطرب سألتُه إن كانت هذه هى كنيسة قيصرون، فأومأ برأسه ومطَّ شفته، وبدا كأنه سوف يعضُّنى من كتفى! سألتُه بلطفٍ عن القسِّ يؤانس، فهزَّ رأسه بعنفٍ، بما يعنى أنه لا يعرفه، ولا يريد مزيدًا من أسئلتي. ابتعدتُ عنه بخطى سريعة لم تتوقف، إلا عند تقاطع الشارع الآتى من البحر، مع الشارع الكانوبى الكبير.. كان يجب على ساعتي أن أعبّر الشارع الكانوبى، وأتجه يمينًا إلى الربع الجنوبي من المدينة، المعروف بحى المصريين، فأندسُ بينهم. غير أننى كنتُ أسير على غير هدى، ولم يكن لى علمٌ بمواضع المدينة ومواقع أحيائها.

فكَّرتُ فى الخروج للمبيت خارج السور، لأدخل المدينة فى الصباح كأننى أدخلها لأول مرة، فتنمحي الأيام الماضية بكل ما جرى فيها.. اتجهتُ إلى ناحية الأسوار وقد عقدتُ النية على الخروج، لكننى لما مررت فى طريقى بالحديقة الفسيحة المحيطة بالمسرح الكبير، ودخلتها، فوجدتها خالية، ومناسبة لمبيت أمثالى، صرفتُ عني نية الخروج. وتكوَّمتُ تحت شجرة كبيرة، تتدلَّى منها أغصانٌ ملتفةٌ كضفائر العذراوات. كان المبيتُ بذاك الموضع أكثر أمنًا من النوم فى المغارة الصخرية، وأدْفأ، فارتيمتُ على جوعى، وعلى رائحة النجيل الذى تفوح به الأرض.. كثيرًا ما عاودتنى تلك الرائحة بعدها، فى غير مواضع النجيل.

ليلتها امتلأ نومي بالأحلام، وامتلاأت أحلامي بأوكتافيا الحنون القاسية، الباكية الضاحكة، الوسنانة المرححة، النقية الوثنية، الغاضبة.. ساعة الفجر، فتحت عيني متنبهاً إلى أنه يوم الأحد، يعنى يوم المحاضرة. قلتُ فى نفسى، لا بأس لو بقيتُ يومًا آخر فى المدينة مرتديًا ثيابى الجنوبية! سوف أرى هيباتيا، ثم أخرج للمبيت وسط الفلاحين التعساء.. وغداً، أعودُ إلى هنا فى زىِّ الرهبان، وأتجه من فوري إلى الكنيسة الكبيرة المرقسية، حيث العالم الذى أنتمى إليه حقًا.

كانت الساعة الشمسية التى بمدخل القاعة، يكاد ظلُ عمودها يلامس علامة العاشرة صباحًا، الناسُ جاءوا مبكرين. بقيتُ بينهم ساعةً منظويًا على ذاتي، وكانوا منهمكين فى أحاديثهم الخافتة وضحكاتهم الرقيقة.. ملابسهم نظيفة، ووجوههم تكسوها آثار النعمة الدنيوية الزائلة. جلستُ قريبًا من الباب، على طرف الثالثة من الأرائك الخشبية المصنوفة. من غلبة حرجى وغربتى بين الحاضرين، كنتُ متصلبًا وهشًا كالخشب القديم.

قبل دخول هيباتيا بلحظات، التفت نحو رجلٍ بدينٍ كان يجلس على يميني بالصف الثانى. حيّانى بابتسامةٍ، فحيّته بابتسامةٍ وجلة؛ إذ لا ردّ على الابتسام، إلا بالابتسام! كاد الرجل البدين يفاتحنى الكلام، لولا أن الأبواق صاحتُ مخبرةً بمجئى حاكم المدينة أورستوس الذى توسّط الصف، وانتشرت حاشيته على جانبيه، فامتلا الصفُ الأول. دخلت هيباتيا الصالة الفسيحة، فوقف لها الجميع بمن فيهم الرجال! معنى وقوفهم المفاجئ من رؤيتها تدخل. لما حيّتهم وجلسوا، رأيتها ترتقى الدرجتين إلى المنصة، وتقف كالحلم أمام الجمهور الذى انتظم جلوسه على الأرائك.. تهَيَّأتُ هى للكلام، فسكن الجميع كأنهم تماثيل طريق الكباش الطويل.

من قبل أن تنطق الأستاذة بشئ، ظل قلبى يرتجف ويزداد خفقانه، حتى خشيتُ أن يسمع الجالسون حولي دقاته المضطربة.. هيباتيا امرأةٌ وقورٌ وجميلة، بل هى جميلة جدًا. أو لعلها أجمل امرأة فى الكون. كان عُمرها فى حدود الأربعين، وكان أنفها جميلًا جدًا وفمها، وصوتها، وشعرها، وعيناها.. كل ما فيها، كان أبهى من كل ما فيها. ولما تكلمت زاد بهاؤها ألقًا. عرفتُ بعدما رأيتها بشهور، أنها اشتغلت بالعلم من صغرها، على يد أبيها الرياضى الشهير ثيون، وعرفتُ أنها ساعدته، وهى بُعدُ مراهقة،

الرَّقُّ التَّاسِعُ

شَقِيقَةُ يَسُوعَ

أتذكّر جيدًا.. مشيتُ المتلصّصة نحو بوابة المسرح الكبير، وخجلتُ من ملابسى الرثة وسط المتأنقين. مع أن الرهينة تعلّمتنا عدم الاكتراث إلى الرث، أو غير الرث من الثياب! أشارلى حُرّاس البوابة إلى مكان المحاضرة، فدخلتُ مع الداخلين. كانت قاعة كبيرة كائنةً فى الجهة الغربية من المسرح، وليست جزءًا منه، وإنما تحوطها حديقةٌ واحدة. جمهورُ المحاضرة كبيرٌ، وفيه نساء! كانت المرّة الأولى، والوحيدة، التى أحضر فيها درسًا تلقيه امرأة، وتحضره النساء.. كل ما فى الإسكندرية عجيبٌ، ومختلفٌ.

الداخلون إلى القاعة كلهم يتكلمون اليونانية، وكلهم درسوا الفلسفة. ظهر لى ذلك من همهماتهم، ونقاشاتهم خفيضة الصوت، قبل بدء المحاضرة. كان كلامهم مليئًا بأسماء قدماء الفلاسفة، لم يجر على لسانهم أى اسم لواحدٍ من القديسين أو الشهداء. فكأنهم يعيشون فى عالم غير العالم. ظننتُ أولاً أننى سأسمع محاضرةً وثنيةً جدًا، ثم عرفتُ أن الرياضيات لا شأن لها بالوثنية، ولا بالإيمان.

فى شروحه التى دَوَّنَها على أعمال كلودىوس بطليموس صاحب كتاب الجغرافيا، والكتاب الكبير فى الفلك^(١).

هياتيا.. أكاد إذ أكتب اسمها الآن، أراها أمامى وقد وقفت على منصة الصالة الفسيحة، وكأنها كائنٌ سماوى هبط إلى الأرض من الخيال الإلهى، ليبشّر الناس بخير ربانى رحيم. كانت لهياتيا تلك الهيئة التى تخيلتها دومًا ليسوع المسيح، جامعةً بين الرقة والجلال.. فى عينيها زرقه خفيفة ورُمادية، وفيها شفافية. فى جبهتها اتساعٌ ونورٌ سماوى، وفى ثوبها الهفاهف ووقفتها، وقارٌ يماثل ما يحفّ بالآلهة من بهاء. من أى عنصر نورانى خلقت هذه المرأة؟.. كانت تختلف عن بقية الناس! فإن كان الإله خنوم هو الذى ينحت أجسام الناس، فمن أى صلصال طاهر نحتها، وبأى عطرٍ سماوى سبكها؟.. يا إلهى، إننى أجْدَف.



لم يطل صمْتُ هياتيا بعدما اعتلت المنصة، إلا ثوانٍ معدودات، رفعت بعدها عينيها نحو جمهورها الساكن، وراحت تقول ما ترجمته: أيها الأصدقاء، وصلتني الأيام الماضية من جزيرة رودس، رسائلٌ فيها ملاحظاتٌ كثيرة وتقريراتٌ، على ما ذكرته فى محاضراتى التى شرحتُ فيها كتاب الفاضل ديو فنتس فى حساب القيم العددية المجهولة. ونظرًا للتخصّص الشديد لهذا الموضوع، فسوف أُرْجِل المناقشة فيه إلى ما بعد هذه المحاضرة، حتى لا أثقل على غير الرياضيين من حضراتكم، مع أننى أؤمن بأن الفلسفة التى يؤدّ معظمكم أن نتحدّث فيها اليوم، لا يمكن أن

(١) فى هامش الرّق، كُتب بالعربية: هو يقصد كتاب المجسطى، وهو العمدة فى علم الفلك حتى يومنا هذا، رأيتُ منه نسخة يونانية قديمة، وعدة ترجمات عربية عليها حواشٍ كثيرة، فى كنيسةنا بالرها.

تستقيم إلا بالرياضيات. وتعلمون، أخواتى وإخوتى، أن أفلاطون العظيم كتب على باب مدرسته فى أثينا، الأكاديمية، عبارة تقول: لا يدخل علينا إلا من درّس الهندسة!.. ومع ذلك، فسوف أتحدّث أولاً فى الفلسفة، ثم أتلو محاضرتى بجلسة نقاش للمسائل الرياضية الواردة فى كتاب الفاضل ديو فنتس الإسكندراني، لمن أراد منكم متابعة الموضوع معى.

كنتُ أتابعها بنظرات لاهثة، وقد نظرتُ هى نحوى أثناء كلامها مرتين، فرَوَّعتنى عيناها. كنتُ قد درستُ الفلسفة سنين فى أخميم غير أنى لم أسمع من غيرها، مثل هذا الذى قالته. كانت تشرح لنا بلغة يونانية راقية، كيف يمكن للعقل الإنسانى أن يستشّف النظام الكامن فى الكون، وأن يصل بالفهم إلى معرفة جواهر الأشياء، وبالتالي يميّز أعراضها وصفاتها المتغيرة.. كان يجرى على لسانها عباراتٌ من مبادئ الفلسفة، عبارات طالما سمعتها من غيرها، لكنها نطقتُ بها وكأنها تفتح عقلى وتدسّها فيه. حتى المشهور من كلام الفيثاغوريين، مثل قولهم: العالم عددٌ ونغمٌ.. شعرتُ من عمق إحساسها بالعبارة، ومن رهاقة نطقها بها، أن الكائنات كلها إيقاعاتٌ منظومة واحدة.. وعلى هذا النسق، فهمتُ من عباراتها ما لم أفهمه قبلها من أهل الفلسفة.

قبل نهاية المحاضرة، خيلتنى فكرة أن أبقي تابعًا لهياتيا بقية عمرى، أو خادماً يسير وراءها. وفكرت فى أننى لو عدتُ إلى أوكتافيا، واعتذرتُ إليها عن خداعى لها طيلة الأيام الثلاثة، فقد تسامحتنى. سأتعلى لها بأننى خشيتُ أن أفقدها، فأثرتُ الصمت؛ لأننى ارتبكْتُ، ولسوف تسامحتنى أوكتافيا، وتقبلتنى ثانية، فأعيش معها، وأنسى الأوهام التى تملؤنى وتسير خطاى إلى حيث لا أعلم.. سأتعرفُ إلى السيد الصقلى حين يأتى من سفره، وأعرف هياتيا عن قرب، وأشتغل بالطب حتى أنبغ فيه، وقد أجد علاجًا لمرض العاع.. أخذتنى الأفكارُ، حتى شردت عن بقية المحاضرة.

ثم انتبهتُ إلى آخر ما قالته الأستاذة يومها، وما يزال عالماً بذهني. قالت:
والفهم أيها الأحبة، وإن كان فعلاً عقلياً، إلا أنه فعلٌ روحيٌّ أيضاً. فالحقائق
التي نصل إليها بالمنطق والرياضيات، إن لم نستشعرها بأرواحنا؛ فسوف
تظل حقائق باردة، أو نظل نحن قاصرين عن إدراك روعة إدراكنا لها... وقد
مرّت ساعتان وأنا أتحدث إليكم، وأعرف أنني أطلت جداً، وأرهقكم،
فتقبلوا اعتذاري، واقبلوا تقديري لحضوركم اليوم. ولسوف أعود بعد
نصف ساعة إلى هذه القاعة، للكلام عن رياضيات ديوفانتس. فمن أراد أن
يشرفني بمشاركته، فأهلاً به، شريطة أن يكون من المشتغلين بالرياضيات،
حتى لا يكرهها، ويكرهني معها.

ابتسم الجمهور وفهّقه بعضه، ونهّأوا جميعاً للخروج وراءها. وبقى
راسخاً في مكاني كأحجار الأهرام، كالصخور البيضاء التي على ضفاف
النيل في بلادى الأولى. كانت هيباتيا ستعود بعد نصف ساعة، فإلى أي
مكان آخر كان يمكنني أن أذهب؟

كادت الصفوف تخلو، إلا من بعض المتعلّمين الذين بقوا يللمون
أوراقهم، وينقلون بكتبهم إلى مقاعد الصف الأول. كان الحاكم والحاشية
والجمهور، يتحلّقون حول هيباتيا عند الطاولة الممتدة خارج الباب،
الطاولة المثقلة بألوان الحلوى. تلك إذن، ما كان يقصده المنادى المتبجّع
على، يوم دخولي الإسكندرية. أنا لا أحب الحلوى، ولم أكلها معهم
يومها مع أن الجوع كان يطحن باطني، حتى يكاد من شدته يُغمى عليّ،
لكنني لرجى اكتفيتُ بأخر بلحيتين كانتا في مخلاتي، من دون أن أرضى
لنفسى بالوقوف بين الأكلين المتأنقين، بملابسى الرثة.. بعد نصف الساعة
الطويلة، هدأت أصواتهم الآتية من خلف الباب، وانصرف الحاكم وأغلب
الجمهور، وعادت هيباتيا يحيط بها جماعة صغيرة العدد من العلماء
والمتعلّمين مختلفي الأعمار. ارتقت المنصة مثلما فعلت أول مرة،

وسكنت الصالة مثلما سكنت أول مرة.. لم يكن عددنا يزيد عن عشرين،
وكنْتُ مازلت في مكاني بالصف الثالث حين أشارت إليّ قائلة:

- يمكنك أن تأتي للصف الأول، إذا أحببت.

- لا، أنا يا سيدتي.. أنا مرتاح هنا، أنا شاكرٌ رحمتك.

- شاكرٌ رحمتي! ألفاظك غريبةٌ أيها الأخ الغريب.

- أنا قادمٌ من الجنوب يا سيدتي المبجلة.

- مرحباً بك في مدينتنا.

لم أفهم معظم ما قالته هيباتيا في محاضرتها الثانية، كنت شاخصاً إليها
فحسب، ونادماً على فراري في شبابي من دروس الرياضيات. أثناء كلامها
ملأني الحماس، فقررتُ في نفسي شيئاً لم أفعله قط: سأدرس الرياضيات
مع الطب ومع اللاهوت، سوف أطلب مبادئ الهندسة والحساب أولاً،
ثم أنخصّص فيهما وأبرز.. كنْتُ في تلك الأيام، كورقة شجرٍ جافةٍ تلعب
بها الرياح.. وأظنني مازلتُ كذلك!

بعد المحاضرة، تحلّق الحاضرون حولها ثانية.. لا أعرف كيف واتننى
الجرة، فاقتربتُ من هيباتيا غير متهيّب منها، ومن دون أن تسألني، أخبرتها
أنني أتيتُ للإسكندرية لدراسة الطب، وإنني أنوى البقاء في المدينة خمس
سنين حتى أنهل من معارفها، ثم أعود لأعالج المرضى في بلادى الأولى.
أضفتُ في غمرة اندفاعي أنني في مدة إقامتي في المدينة، سأحرصُ على
حضور كل جلساتها العلمية، حتى الرياضية منها. لم يفارقها الابتسام ولا
الاهتمام بما أقول، فتشجّعتُ على الإفازة في كلامي الذي لاداعى له،
إلا بقائى ناظراً إليها.. لما انتهيتُ من كلامي، تكلمتُ:

- إذن، سأراك هنا يوم الأحد القادم، أيها الصديق الجنوبي الطيب.

- يا سيدتي.. ألا تلقين دروسًا في الطب؟

- لا يا صديقي، للأسف الشديد.

وهي تُجيبني على سؤالى المفاجئ، ابتسمت بما يكفى لتبديد وحشتى وجوعى وغربتى.. أضافت وهى تشير إلى أحد الواقفين حولها، وكانوا خمسة رجال فى منتصف العمر وامرأة نحيلة: زميلى الوسيم هذا، سينييسيوس القورينائى، كان أيضًا يريد دراسة الطب فى بدايته، لكنه درس الفلسفة. أضافت، وهى تنظر إليه بطرف عينها: وهو الآن يريد أن يكفر بالفلسفة، ويؤمن بنقيضها!

ضحك الرجل المسمى سينييسيوس ضحكة عذبة، مال معها رأسه قليلاً إلى الخلف، ثم قال لى بمودة صافية وقد وضع كفّه اليمنى على كتفى اليسرى: لا تصدّق الأستاذة يا أختى، فهى خالفت الحقيقة فى كلامها مرتين، الأولى حين وصفتنى بالزميل، وما أنا منها إلا تلميذ، وهى منى بمنزلة الأستاذ.. والثانية أننى لو سلكت السبيل الكنسى، فهذا لا يعنى أننى سأكفر بالفلسفة وأؤمن بنقيضها! ضحكوا جميعًا لكلامه، إلا أنا، وتهيأوا للخروج من القاعة.. الرجل المسمى سينييسيوس القورينائى لم أراه من بعد ذلك اليوم، لكننى سمعتُ فيما بعد أنه صار واحدًا من كبار رجال الكنيسة فى المدن الخمس الغربية المعروفة بليبيا، بل أسقفًا لواحدة منها.. أظنها مدينة طلمثية (برقة).

خرجوا جميعًا، وتأخّرتُ برهةً وقد ثقلت ساقاى. لم أكن أعرف لى مقصدًا، بعد هذا الدرس الذى وددتُ لو كان قد طال إلى الأبد.. قبل أن تتوارى خلف الباب، نظرتُ هيبتايا باسمّة نحوى، وكأنها تثبّت ملامحى بذاكرتها، إلى أن ترانى فى المرّة المقبلة.. المرة التى ليبتها لم تقبل أبدًا.

رحلت هيبتايا كمثّل حلمٍ رائقٍ، أشعدّ فى لحظة قلبٍ محزونٍ، ثم انطوى عنه للأبد.

على بوابة المسرح، وقفتُ تائهاً أرقبها وهى تركب عربتها ذات الحصانين. كان ذيل ثوبها المطرزة حوافه، هو آخر ما رأيته منها. وآخر شئ جميل رأيته يومها، والأيام التالية.. لما غابت عنى عربتها، عدتُ لتوحدى وحيرتى. لم يكن لى مكانٌ لأذهب إليه، فبقيتُ لحظةً حائرًا وقد اختلّطت فى قلبى الأشياء بالأشياء. متناقل الخطو، درتُ حول الحديقة الكبيرة، ولما احتدت الشمس عدتُ لشجرتى التى بثّ الليلة الفائتة تحتها. تحتها، وحولها، كان أناسٌ كثيرون يستظلّون من شمس الظهيرة. وكان من بينهم، مالم أتوقع يومها رؤيته.. جماعةٌ من زملاء الدراسة فى نجع حمادى، كلهم فى اللباس الكنسى!

لحظة رأونى، أحاطوا بى متهلّلين بقدمى المفاجئ، مع أنهم كانوا المفاجئين لى! سألونى عما جاء بى إلى هذا الموضع، فقلتُ إننى تائه.. سألونى عن لباسى الكنسى، فقلتُ إنه مقطوعٌ ومتسخٌ، أحفظه فى مخلاتى لأحفظه إلى حين رتقه وغسله، فأحفظ نفسى من تهكم الوثنيين.. سألونى عن وجهتى، فقلتُ إن معنى رسالة للقسّ يوانّس الليبى. عرفوه، وساقونى إليه. وهكذا دخلتُ لأول مرة الكنيسة المرقسية الكبيرة بالإسكندرية، كنيسة القمحة، يحيط بى ثمانية من الرهبان.

حين انتهى يوانّس الليبى من قراءة رسالة التوصية التى كانت بمخلاتى، رفع وجهه نحوى ليسألنى بهدوءٍ، وباقتضابٍ، عن صحة صديقه الموصى وأحواله. طمأنته عليه. لم أخبره بما أعرفه من أنهما كانا يرفضان أفكار الأسقف السابق ثيوفيلوس وأعماله العنيفة، وأن بينهما رسائل متبادلة فى ذلك. مع أنهما كانا فى شبابهما من تلامذته، وكانا يعتقدان أنه يحارب الوثنية التى حاربت المسيحية طويلاً، ولما وجداه يطيل حربه إلى ما لا

نهاية، نفرا منه واجتنباه.. ولم أخبره بأن صديقه أرسلنى للإسكندرية بعد وفاة الأسقف المذكور، أملاً فى أن الأحوال سوف تهدأ.. لم ألمح إليه بأى شئ من ذلك، ولو من بعيد؛ وإنما ذكرتُ بعضاً مما كان يحكيه لى عنهما أيام كانا راهبين بدير الأنبا أنطونيوس، وأيام كانا فى جوار الأنبا شنودة، رئيس المتوحدين بأخميم؛ فبدت على وجهه علامات الارتياح. لما انتهيتُ دعانى لأرتاح من سفرى الطويل، ونادى على خادمه ليصحبني.

أخذنى الخادم أولاً، إلى قاعة الطعام هائلة الاتساع. أكل معي طعاماً ساخناً، ثم أوصلىنى إلى المضيفة ذات الغرف الكثيرة، بالغة الضيق. وأخبرنى أننى سأنتقل من مقرى المؤقت هذا، إلى صومعة ما، بعد أيام.. مَرَّ يومان وأنا سابعُ فى بحار الكنيسة، البحار التى لا شاطئ لها.. عشرات الكهنة والرهبان، ومئات الزوار والوافدين طيلة النهار للصلاة أو التبرك أو الاعتراف. الكنيسة لاتسكن أبداً، هى خلية نحل يسبح دوماً ملكوت السماء. حتى فى الليل العميق، حيث يضاء القنديل الهائل البديع، المعلق بالكنيسة.. بدالى أن هذا المكان، هو الكون الذى أنتمى إليه حقاً. وحدثتُ نفسى أيامها، مراراً، بأننى لستُ من أهل هذه الدنيا الفانية.. الرب اختارنى لأمرٍ خفى يعلمه، فلتكن مشيئة الرب.

استقر بى المقامُ فى غرفة صغيرة داخل الكنيسة، حولها غرف يسكنها كثيرون من أمثالى، خدام الرب. أغلبهم رهبان من المدن الخمس الغربية (ليبيا) وبلاد مصر العليا (الصعيد) وبعضهم كهنة وفدوا فى مهام قصيرة من نواح بعيدة، مثل بلاد الأحباش الذين يتكلمون اللغة الغريبة، لم يابه لى أحدٌ فى أيامى الأولى، غير راهب زائر أصله من قرية صغيرة بالقرب من دير المحرق الذى مررتُ به فى طريقى للإسكندرية. الدير النائى الذى بناه قبل سنوات، الأسقفُ السابقُ ثيوفيلوس، فى جبل قسقام المشرف على ليكوبوليس (أسيوط).. كان الراهب يقيم بالغرفة المجاورة، انتظاراً

لرحيله مع الأحباش ليقيم ببلادهم، ولا يعود من هناك أبداً.. ماعدتُ الآن أتذكر اسمه، ربما كان يشوى، لكننى لستُ متأكداً الآن. يشوى فى اللغة المصرية تعنى العالى، ولكن هذا الراهب كان قصيراً. جذبني إليه وقاره، وطيبته، وغربته. كان آنذاك فى حدود الثلاثين من عمره، وكان يتكلم المصرية (القبطية) الصعيدية، مثلى. كنا نتحدث سوياً بين الصلوات والقُداسات، وفى طريقنا لقاعة الطعام، ثم صرنا بعد أيام أخوة فى حظيرة الرب. لما أخبرته يوم السبت بنيتى الخروج غداً للذهاب لمحاضرة هيباتيا صاح فى: يا أخى، هذا لا يجوز أبداً.. وأخبرنى فزعاً، بأن هذا الفعل لو اقترُف، فهو مما لا يغتفر! ونصحنى ألا أذكر اسمها مرة ثانية. أضاف ما معناه: أنها خطيئة عظيمة، ألن تسمع خطبة الأحد من البابا كيрилوس، الأسقف الأعظم، من أجل الذهاب لرؤية شيطانة! لن يغفر لك هذا الذنب إذا اقترفته، أما من ناحيتي، فلا تخش شيئاً. سوف أُعِدُّ ما سمعته منك مزاحاً ثقيلاً، ولكن أحدث به أحداً أبداً.

أمضيتُ ليلةً ليلاء، تنازعتنى فيها كلُ متناقضات الأفكار: هل أنسى أننى رأيتُ الأستاذة، وأحضر هَمَّى فيما جئت من أجله، ثم أعود إلى بلادى الأولى سالماً غانماً؟ أم أهجر الكنيسة للأبد؟.. هل أخرج غداً صباحاً، ولا أعود قط؟.. لستُ على كل حال معتقلاً بين هذه الجدران. ما معنى بقائى هنا؟ لقد بدأ المسيح يسوع بشارته العظمى بين الناس، لا وسط الجدران والرهبان والقسوس. كانت حوله حياة حقيقية، فلماذا نموت نحن قبل أن نموت!.. ولكن، أنا آمنُ فى الكنيسة، بعدما كنتُ مشركاً. ورجال الديانة هم أهلى الحقيقين، ولا عائلة دنيوية لى، إلا عمى الذى أنهك العاغ كبده، ولا أظنه يبقى حياً إلى حين عودتى. لمن أعود إذا رجعت إلى بلادى الأولى؟.. وما بلادى الأولى؟ أهى قرية عمى الذى ينتظر الموت؟ أم قرية أبى التى لن يعرفنى فيها أحد؟ أم القرية التى استقرت فيها أمى؟ أمى التى

تمام كل ليلة، في حضن رجل آثمة يداه. إنني أكرهه وأكرهها. الكراهية ستقتلني، أنا الذي يجب عليه أن يحب أعداءه، ويحسن لمن أساء إليه، كي يكون مسيحيًا حقًا، ومحبًا حقًا.. لم أرَ المحبة الحققة، إلا في امرأة وثنية لقيتني صدفةً على شاطئ البحر، وأدخلتني جنتها ثلاث ليالٍ سويًا، وأربعة أيام لا تنسى.. لو عدت إلى أوكتافيا ثانية، هل ستقبلني، أم تصفني ثانيةً بالوضاعة والحقارة؟ إنها المرة الأولى التي يشتمني فيها إنسان، وسوف أحرص أن تكون الأخيرة. لن يجرؤ على شتمى أحد، مادمت راهبًا في الكنيسة العظمى. وربما ارتقيت سلم الأكليروس، حتى أصير يومًا أسقفًا لإحدى المدن الكبيرة.. ولكن، ماذا أريد من رتبة الأسقفية؟ هل ستغنييني عن حلمي بالنبوغ في الطب، وأملى في علاج العاع^(١)؟ هل سأترك الأمنيات الدنيوية تقودني، بعدما وعدت عمى الميت عن قريب، أن أهب حياتي ليسوع المخلص؟ لن يصح مني هذا، وسأفقد معه معنى وجودي.. ماذا لو عرضت على هيباتيا غداً، أن أعيش في بيتها لأخدمها، وأتعلم منها. ستوافق! وسوف تساعدني على دراسة الطب في الموسيون (المعهد العلمي) فأكون طبيبًا نابهاً خلال عامين فقط، فقد درست من الطب الكثير في أخميم، ولا ينقصني من بحره الواسع إلا علم التشريح، وأطباء الموسيون هم الذين يشرّحون منذ مئات السنين، وعندهم كل أسرار الطب.. كنت ليلتها أقول ذلك في نفسي، ولم أكن قد عرفت بعد أن الموسيون أغلق قبيلها بسنين!

لم تتوقّف برأسي ليلتها طاحونة الأفكار المتناقضات، بل كادت تطحن مع الأفكار قلبى وت تلف روحي. رحت أقول في نفسي: لو خرجت

(١) العاع المذكور في هذا الرُّق، مرتين، هو على الأرجح الاسم المصري القديم، للمرض الذي صرنا نعرفه في العصر الحديث باسم البلهارسيا.. (المترجم).

من الكنيسة، وخرجتُ عليها بعدما عرفوني، فسوف يعدّونني مارقًا، ويعصفون بي مثلما عصفوا بالذين ارتدوا عن الديانة أيام الإمبراطور جوليان. والمسيحية اليوم، هي الدين الرسمي للإمبراطورية كلها. لن أنجو من وشايات الجماعة الرهيبة المسماة محبى الآلام، وسوف ألقى بسببهم مصير أبى، ويسعدون هم مثلما سعدت أُمى.. ولكنى أتحرق شوقًا لرؤية هيباتيا غداً، وسوف أناقشها في المسائل الفلسفية، فيزداد تقديرها لى، وهى على كل حال تقدّر كل إنسان. إنها مصداقٌ لمعنى اسمها هيباتيا فى اللغة اليونانية: السامية.. هى تكبرنى بعشر سنوات فقط أو خمسة عشر عامًا، وهو فارقٌ ليس بالكبير! فلتتخذنى ابناً لها أو أختاً أصغر، أو يأتى يوم فتحبنى، ويكون الحال بيننا مثلما ذكرت أوكتافيا من أن النساء اللواتى أحبين رجالاً أصغر منهن سنًا، جعلن منهم أسعد السعداء.. ولكن، لاسعادة ولا غبطة فى هذا العالم.

أفقت من جَوْلان أفكارى على صوت الأجراس تدعو لخطبة الأسقف كيرُلس، فخرجتُ مع الخارجين من صوامعهم، وانحشرتُ مع مئات الداخلين إلى الكنيسة. الساحة الداخلية امتلأت، فلم تعد هناك أصلاً فرصة للخروج، ولا للحركة من الموضع الذى كنت محشورًا فيه، بين الرهبان والقسوس والشمامسة وقُرّاء الإنجيل والموعوظين الكبار والصغار، والمصارعين القدامى الذين صاروا مؤمنين، وأفراد جماعة محبى الآلام، وأبناءُ التائبين المنخرطين فى سلك الديانة، وأتباع الأخوة طوال القامة الحائرين، وجماعات من رهبان أديرة وادى النظرون.. كنتُ محاطًا من كل الجهات، بجيش الرب. هتافهم المزلزل الذى يملأ الساحة ويهزُّ الجدران، يُنبئ عن قُرب نبأ عظيم وحدث جلل.. لما بلغ الهتاف غايته القصوى، وكادت الحناجرُ تتشخّخ، أطلَّ علينا الأسقف كيرُلس من مقصورته.

هيئة الأسقف المهيبه أثارت استغرابى، وهيجت حيرتى. كانت المرة

الأولى التى أراه فيها، وقد ظللتُ بعدها أراه صباح كل يوم أحد، لمدة عامين أو ثلاثة من دون استثناء، ورأيتُه أيضًا يوم اللقاء الخاص الذى سوف أذكره إن جاءت مناسبة للكلام عنه.. لما رأيتُ الأسقف أول مرة، استغربتُ واحترتُ؛ لأنه أطلَّ علينا من مقصورةٍ مُذهَّبة الجدار بالكامل، هى شرفةٌ واحدةٌ، فوقها صليبٌ ضخَّم من الخشب، معلقٌ عليه تمثال يسوع المصنوع من الجصِّ الملَوَّن. من جبهة المسيح المصلوب ويديه وقدميه، تتساقط الدماءُ الملَوَّنة بالأحمر القانى.

نظرتُ إلى الثوب الممزَّق فى تمثال يسوع، ثم إلى الرداء الموشى للأسقف! ملابسُ يسوع أسماألٌ باليةٌ ممزقةٌ عن صدره ومعظم أعضائه، وملابسُ الأسقف محلاةٌ بخيوط ذهبية تُغطيه كله، وبالكاد تُظهر وجهه. يدُ يسوع فارغة من حطام دُنْيانا، وفى يد الأسقف صولجان أظنه، من شدَّة بريقه، مصنوعًا من الذهب الخالص. فوق رأس يسوع أشواكُ تاج الآلام، وعلى رأس الأسقف تاجُ الأسقفية الذهبى البراق.. بدا لى يسوع مستسلمًا وهو يقبل تضحيته بنفسه على صليب الفداء، وبدا لى كيرلُس مقبلاً على الإمساك بأطراف السماوات والأرض.

نظر الأسقفُ فى شعبه ورعاياه، وأجال عينيه فى الحشد الذى انحشر فى ساحة الكنيسة، فهدأوا. رفع صولجانه الذهبى، فصمتوا. ثم تكلم فقال: يا أبناء المسيح، باسم الإله الحى أباركُ يومكم هذا، وكل أيامكم. وأبدأ كلامى بالحق الذى تكلم به بولس الرسول فى رسالته الثانية إلى تيموثاوس، حيث يقول له، ولكل مسيحيٍّ فى كل زمان ومكان: احتمال المشقات كجندى صالح للمسيح يسوع، فالذى يتجنَّد لا ينشغل بهموم الحياة حتى يُرضى الذى جَنَّدَه، والمجنَّد لن ينال إكليل النصر حتى يُجاهد الجهاد الشرعى.

ظننتُ لوهلةٍ أن الأسقف يقصدنى بكلامه، وأن هذه واحدة من معجزاته

الخفية.. أضاف وقد علا صوته، حتى جلعجل فى جوانب الكنيسة المهيبة: أبدأ بهذا، لأذكركم بأننا نعيش زمن الفتن، ومن ثم فنحنُ فى زمن الجهاد. لقد انتشر نورُ المسيح حتى يكاد اليوم يغطى الأرض، ويُبدد ظلامها الذى طال زمانه.. غير أن الظلمات مازالت تعشش هنا وهناك، وتطلُّ على أرض الله بوجه الفتن والهزات التى تنخر فى قلوب الناس.. ولن يهدأ جهادنا لها، مادامنا أحياء.. لقد وهبنا أنفسنا لربنا يسوع المسيح، فلنكن جنود الحق الذين لا يرضون إلا بإكليل الثَّصرة السماوية، ولنكن المخلصين لذين المخلص، حتى نلحق بالشهداء والقديسين، الذين عبروا الدنيا ليلحقوا بالمجد السماوى والحياة الأبدية.

لمحتُ عيونًا كثيرة انهمر منها الدمعُ، ووجوهاً عديدة كاد الحماس يفجرها. كانت كل العيون شاخصةً إلى الأسقف كيرلُس الذى ملك بكلامه أطراف القلوب وملأ جنبات الصدور. كانت ألفاظه اليونانية قويةً بليغةً، فكانه ينطق بلسان الرسل وأئدة الآباء الأولين. تهتُّ بين أفكارى، وسرحتُ فى آفاق بعيدة، حتى انتهتُ ثانيةً إليه وهو يقول: فهؤلاء الذين يسمون أنفسهم بالأخوة طوال القامة، لن نعاود النظر فى أمرهم الذى انحسم، ولن نخوض فى جدلٍ هرطوقيٍّ جديد، من أجل البحث فى صحة معتقد صاحبهم أوريجين، بعدما أدانه البابا ثيوفيلوس أسقف هذه المدينة العظمى، من قبل انتقاله إلى الملكوت الأعلى بثلاثة عشر عامًا. لن أعيد عليكم قرارات المجمع المقدس لكنيسة الإسكندرية، الذى أدان أوريجين سنة خمس وثلاثين ومائة من تاريخ الشهداء، الموافقة لسنة تسع وتسعين وثلاثمائة لتجسّد المسيح. ولن أعيد عليكم قرارات المجامع التالية التى أكّدت إدانة أوريجين وطرده وحُزِّمه، فهى مجامعٌ كثيرةٌ انعقدت فى أورشليم، وقبرص، وروما. لن أعيد قراءة القرارات التى اتخذها الآباء الفضلاء فى تلك المجامع، فهى قراراتٌ مشهورةٌ متداولة. فليقرأها من

كان يقرأ، ومن لا يقرأ فليذهب لمكتبة الكنيسة، ويطلب من أحد الآباء أن يقرأها له. ولكنني أقول اليوم، إنني لن أسمح بمعاودة النظر في عقيدة فيلسوف مات منذ قرن ونصف من الزمان، فيلسوف اشتغل باللاهوت، فأخطأ وضلَّ وهرطق، فيلسوف لم تصحَّ رسامته قسًا. فليهدأ أتباعه طوال القامة^(١)، ويتواضعوا كما تواضع يسوع المسيح. وليكفوا بقاماتهم الطويلة المترنحة بالشكوك، عن التطواف بين البلاد وعن إثارة القلاقل والهواجس الهرطوقية المهددة للإيمان القويم.. الإيمان القويم الذي نذرنا حياتنا للدفاع عنه، كجنود صالحين للمسيح يسوع.

فجأة صاح أحد الواقفين، بصوت أجش، حتى كادت حنجرتة تنخلع مع زعيقه: مبارك أنت من السماء، أيها البابا، ومباركة كلماتك باسم الإله الحي.. وراح يردد العبارة نفسها، حتى ردها من خلفه سائر الحاضرين. كاد الحماس يذهب عقول الناس، وكان هتافهم للبابا كيرلس يرنج جدران الكنيسة.. رسم البابا في الهواء علامة الصليب، ورفع للجمهور صولجانه مرتين، فانفجر حماسهم الجنوني. بعضهم غشى عليه فسقط بين الجموع، وبعضهم راح يذنه يهتز مع هتافه، وبعضهم أغمض عينيه المنهمرتين بالدمع. استدار الأسقف أو البابا كما يسمونه في الإسكندرية، وغاب وراء باب مقصورته وسط جمع من كبار القسوس، الممسكين بصلبان لم أرَ قبلها أكبر منها.



(١) في طرف الرق، كُتب باللغة العربية: هم أربعة رهبان، أخوة، كانوا يتصرون لأوريجين ويعلمونه قديسًا. وكانت قامة الرهبان الأخوة الأربعة طويلة، فُعرفوا لذلك بالأخوة طوال القامة. وقد طافوا البلاد للدعوة لمذهبهم بعدما طردتهم الإسكندرية، فصار لهم أتباع بمجدون أوريجين ويقدمونه.

مضت على الأيام في الكنيسة المرقسية رتيبةً، باستثناء أيام الأحاد الصاخبة. أسلمت نفسي، شيئًا فشيئًا، إلى مشيئة الرب. وكان القس يوانس يرعاني من بعيد، ويوصيني دومًا بأن أتجنب الاندماج مع الرهبان الإسكندرانيين، خاصةً، الذين يسمون أنفسهم جماعة محبي الآلام.. كان منهم راهب طاعن في السن، يرهونه كثيرًا، عرفْتُ بعد شهرين سرًّا نفوري من نظرتة القاسية. الراهب المسنُّ أصله من الصعيد، ومع ذلك لم يكن يحب الوافدين إلى الإسكندرية من هناك! لقيني ذات يوم في ساحة الكنيسة، وكان قد مرَّ على وجودي هناك قرابة العام. دعاني إليه بإشارة من عصاه التي تتكئ عليها سنواته السبعون، ولما اقتربت منه قال لي هامسًا: عُدَّ سريعًا إلى بلدتك، فالإسكندرية ليست مكانك! كان صوته أقرب لفحيح الأفاعي، وكانت لهجته لازعة كلسع العقارب. لم أفهم إشارته، وقد نصحتني القس يوانس لما أخبرته بالأمر، بالابتعاد عنه. بعدها بأيام أخبرني خادم المضيضة بسرًّا دفين، قال بعدما تَلَفَّت حوله: هذا الراهب المسنُّ، محبُّ الآلام، هو أحد أبطال الكنيسة! فقد كان في شبابه واحدًا من الجماعة الذين فتكوا بأسقف الإسكندرية جورج الكبادوكي ومزقوه بالسواطير في شوارع الحي الشرقي.. أضاف الخادم هامسًا، بعدما تَلَفَّت ثانية: جرى ذلك قبل ثمان وأربعين سنة، في العام السابع والسبعين للشهداء! يقصد سنة إحدى وستين وثلاثمائة للميلاد.. سألته:

— ولماذا فعلوا ذلك بأسقف المدينة؟

— لأنه كان مفروضًا علينا من روما، وكان مارقًا يميل إلى آراء أريوس الملعون.



فى الأعوام الرتبة التى قضيتها بالإسكندرية، كنتُ أحضر دروس الطب واللاهوت بانتظام. واشتهرتُ بين أهل الكنيسة بكثرة الصلاة وقلة الكلام، فحسن اعتقادهم فى صلاحى وورعى... ومع كَرِّ الأيام والشهور، نسيْتُ ما كان من أمر أيامى الأولى بالمدينة، ولم أعد أسمع أخبارًا عن هيباتيا، ولا عن غيرها. حتى جاءت تلك الأيام العصية من شهور سنة خمس عشرة وأربعمائة للميلاد المجيد، إذ سَرَتْ أولاً بين رجال الكنيسة، همهماتٌ عن احتدام الخلاف بين البابا كيرلس وحاكم الإسكندرية أورستوس. ثم شاعت أخبارٌ كثيرةٌ عن اعتراض جماعة من شعب الكنيسة، المؤمنين، طريقَ الحاكم أورستوس، ورجمهم له بالحجارة. مع أنه فى الأصل رجلٌ مسيحيٌّ، ومعروفٌ أن عماده أيام شبابه، كان فى أنطاكية على يد يوحنا فم الذهب... ومع أن يسوع المسيح فى بدء بشارته، نهى اليهود عن رجم العاهرة، فى الواقعة المشهورة التى قال فيها: مَنْ كان منكم بلا خطية، فليرجمها بحجر.

غير أن هذا الخلاف الثائر بين الأسقف والحاكم، لم يكن أيامها يعينى فى شئ! ومن ثم، انشغلت عنه بهمومى اليومية وصلواتى ودروسى المملة، فلم أحرص على التقاط الهمهمات أو تتبع الأخبار... حتى بدأ اسم هيباتيا يجرى على الألسنة فى أكثر الجلسات. كنتُ أظن أنني نسيتهما تمامًا، ثم وجدتنى كلما سمعت اسمها، أضطربُ ويخفق قلبى لذكرها.

تاقت نفسى لمعرفة ما يدور وراء أسوار الكنيسة، فتتبعُ الحكايات ومحدثات الأمور. بدأتُ بسؤال القسِّ يوانس الذى نهرنى، وأمرنى بعدم الانشغال بغير ما جنت من أجله. بعد أيام عاودتُ سؤاله بلطفٍ، فنصحنى بالابتعاد عن الموضوع، والاهتمام بما أنا موجودٌ فى الكنيسة من أجله. سألتُ غيره، فلم أهدئ منهم إلى خبر يطمئن له قلبى... غير أنني تأكدت من همهمات الخدم الذين يترددون بين المدينة والكنيسة، أن كراهية البابا

لهيباتيا كانت قد بلغت المدى. كانوا يقولون إن الحاكم أورستوس طرد رجلاً مسيحيًا من مجلسه، فغضب البابا. ويقولون إن الحاكم يعارض ما يريده البابا من طرد اليهود بعيدًا عن الإسكندرية، بعدما طردهم الأسقف ثيوفيلوس إلى رُبُع اليهود الكائن بالجهة الشرقية، وراء الأسوار. ويقولون إن الحاكم كان يُفترض فيه أن يصير نصيرًا لأهل ديانتنا، إلا أن الشيطانة هيباتيا تدعوه إلى غير ذلك. ويقولون إنها تشتغل بالسحر، وتصنع الآلات الفلكية لأهل التنجيم والمشعوذين... قالوا أشياء كثيرة، لم يطمئن إليها قلبى.

مرت الأيام مترعةً بالتوتر، حتى كان يوم الأحد المشؤوم. المشؤوم بكلِّ ما فى الكلمة من معنى عميق... ففى صبيحة ذاك اليوم، خرج البابا كيرلس إلى مقصورته ليلقى على الجموع عظته الأسبوعية، وكان على هيئته الحزن. لم ينظر إلى مستمعيه فرحًا بشعبه كعادته، وإنما أطرق لحظةً طويلة، ثم أسند صولجانه الذهبى إلى جدار المقصورة، ورفع يديه إلى السماء حتى انسدت أكمامه الواسعة وبدت ذراعه النحيلتان. انشرفت أصابعه فى الهواء، فكانها أطراف المدرة... وبصوت جهير هادر، راح يقرأ الصلاة المذكورة فى إنجيل متى: *أبانا الذى فى السماوات، ليتقدس اسمك، ليأت ملكوتك، لتكن مشيكت فى السماء، وكذلك فى الأرض...*

أخذ الأسقف يعيد الصلاة، حتى أخذ الناس النشيج وهم يرددون الدعاء وراءه... ثم صار صوته ناريًا متأججًا وهو يقول لهم: *يا أبناء الله، يا أحبائى يسوع الحى، إن مدينتكم هذه، هى مدينة الربِّ العظمى. فيها استقر مُرقد الرسول، وعلى أرضها عاش الآباء، وسالت دماء الشهداء، وقامت دعائم الديانة. ولقد طهرناها من اليهود، المطرودين. أعاننا الربُّ على طردهم، وتطهير مدينته منهم. ولكن أذيان الوثنيين الأنجاس، مازالت تثير غبار الفتن فى ديارنا. إنهم يعيشون حولنا فسادًا وهرطقةً، يخوضون فى أسرار كنيستنا مستهزئين، ويسخرون مما لا يعرفون، ويلعبون فى*

مواطن الجد ليشوهوا إيمانكم القويم. يريدون إعادة بيت الأوثان الكبير الذى انهدم على رؤوسهم قبل سنين، ويودون تعمير مدرستهم المهجورة التى كانت تبث الضلال فى العقول، ويفكرون فى إعادة اليهود من الرّبع الذى سكنوه إلى داخل أسوار مدينتكم. لكن الرّب، يا جند الرّب، لن يرضى بذلك أبداً. ولسوف يحبط مساعيهم الدنيئة، وسوف يبذل أحلامهم المريضة، وسوف يرفع قُدر هذه المدينة العظمى، بأيديكم أنتم. مادمتم بحق، جنود الرب. مادمتم بحق، جنود الحق.. لقد صدق ربنا يسوع المسيح، حين نطق بلسان من نور، فقال: الحق يطهركم! فتطهروا يا أبناء الرب، وطهروا أرضكم من دنس أهل الأوثان. اقطعوا السنة الناطقين بالشّر. ألقوهم مع معاصيهم فى البحر، واغسلوا الآثام الجسيمة. اتبعوا كلمات المخلص، كلمات الحق، كلمات الرّب. واعلموا أن ربنا المسيح يسوع، كان يحدثنا نحن أبناءه فى كل زمان، لما قال: ماجئت لألقى فى الأرض سلاماً، بل سيفاً!

اهتزت الجموع مهتاجة، حتى كاد احتياجها يبلغ الغاية.. وراح كيؤلّس يكرّر بهديره الحماسى الأسر، قول يسوع المسيح: ماجئت لألقى فى الأرض سلاماً، بل سيفاً! فيزداد هياج الجموع، ويقارب بحدّته حدود الجنون. بدأ الناس يردّدون وراءه العبارة، ولم يكفوا إلا حين قطع الترداد بصرخة كالرعد، ذلك الضخم المعتاد على إنهاء خطب يوم الأحد النارية، أعنى بطرس قارئ الإنجيل بكنيسة قيصرون الذى انفجر من بين الجموع قائلاً: بعون السماء، سوف تطهر أرض الرب من أعوان الشيطان. سكت الأسقف، فسكن الناس إلا بطرس القارئ.. ثم أخذ بعضهم يعيد وراءه عبارته، وأضاف إليها أحدهم الترنيمة المربعة: بسم الإله الحى سنهدم بيت الأوثان، ونبنى بيتاً جديداً للرب.. بعون السماء سوف تطهر أرض الرب من أعوان الشيطان.. بسم الإله الحى سنهدم بيت الأوثان..

استدار الأسقف، فتناول صولجانه، ورفع فى الهواء ليرسم به علامة الصليب، فاجتاح الكنيسة هوس الجموع.. تداخلت الهتافات واصطخبت، غمّت العقول، وعمّت القلوب فوضى منذرة بحادث جسيم. كان بطرس القارئ أول من تحرّك نحو الباب، ثم تحرّك من خلفه الناس جماعات وهم يرددون عبارته الجديدة: بعون السماء سوف تطهر أرض الرّب.

كادت ساحة الكنيسة تخلو، وكانت أصوات الهاتفين وراء بطرس القارئ تأتى من خارج الأسوار. دخل الأسقف من شرفته ووراءه القسوس، ولم أدر ساعتها إلى أين أذهب؟ هل أعود لصومعتى وأغلق بابى على، مثلما أفعل دوماً؟ أم أظل فى ساحة الكنيسة، حتى يظهر ما سوف يظهر من مشيئة الرب؟ أم أخرج وراء الجموع؟.. ومن دون تدبير منى، أو بتدبير خفى عنى، خرجت مدفوعاً بتوجسى خلف الجموع، فلاحقت بهم. ولكننى بالطبع، لم أكن أردد وراءهم ما يقولون.

اتجه بطرس قائد الجموع إلى الشارع الكانوبى الكبير، ومن خلفه سار مئآت الهاتفين. كانت شمس الظهيرة متقددة، والرطوبة العالية تخنق الأنفاس. البيوت ارتجت مع حركة المؤمنين ومن علو الهتافات، كان بعضها مغلق النوافذ والأبواب، وبعضها يقف ساكنوه على سطحه يلوحون بالصلبان.. ثار غبار الطرقات، وهربت الملائكة الرحيمة من السماء، وحذّثنى قلبى بقرب وقوع حدّث مروع. كنت أسير مأخوذاً بما يجرى من حولى، وكأننى أعيش واحدة من رؤى سفر حبقوق المنذرة بفناء العالم وزوال الدنيا.

بعد حين، تناقص الهاتفون المهلّلون، وتفرّقا فى الطرقات مع طول الجولان فى أنحاء المدينة. صاروا عشرات مؤزعة فى الشوارع، وساروا

يرددون الهتافات ذاتها.. فى لحظة ما، اعتقدت أن غرض هذا الصخب،
تبيان أن المسيحيين هم الأظهر والأقوى بالمدينة. هى إذن، رسالة ضمنية
إلى الحاكم، وتنبيه صريح لكل السكان. ولكن الأمر انقلب إلى ما هو أعمق
من ذلك، وأبعد، وأبشع.

شمس الظهيرة حَمَّ شعاعها، وازدادت رطوبة الهواء حتى ثقلت على
أنفاسى اللاهثة وراء الجماعة الهاتفة الباقية وراء بطرس القارئ. كدتُ
أستدير راجعاً إلى أسوار الكنيسة، إلى حصنى الحصين، لولا أننى انتبهت
إلى ذلك الرجل النحيل، طويل الرأس، الذى جاء من أقصى الشارع
يجرى، وهو يصيح لبطرس والذين معه:

- الكافرة ركبت عربتها، ولا تحراس معها.

خفق قلبى بشدة، واعترانى فزع مفاجئ لما رأيت بطرس يجرى
وهو يصرخ، نحو الجهة التى أشار إليها الرجل ذو الرأس الطويل، وتبعه
الآخرون. جريت خلفهم، وليتنى ما فعلت.. عند الكنيسة الصغيرة التى فى
منتصف الشارع الواسع المؤدى من المسرح الكبير إلى الميناء الشرقى،
بدت من بعيد عربية هيباتيا ذات الحصانين، العربية ذاتها التى رأيتها تركبها،
وترحل بها عنى، قبلها بثلاثة أعوام.. العربى هى هى، والحصانان هما
هما، أنا وحدى الذى ما كنتُ أنا. بطرس القارئ انطلق يبدنه الضخم
ليلحق بالعربة وهو يصرخ، ويصرخ وراءه أتباعه بألفاظ غير مفهومة.
قبل أن يصل إليها، بأمطار، وقف فجأة وتلفت؛ فاندفع إلى ناحيته أحدهم
وهو يصيح صيحة هائلة ويُخرج من تحت رداءه الكنسى سكيناً طويلاً..
صديقاً.. أيضاً.. السكين..

✱ ✱ ✱

لن أكتب حرفاً واحداً.. لا..

✱ ✱ ✱

يارب. شلّ يدي.. خذنى إليك.. ارحمنى..

✱ ✱ ✱

سأمزق الرقوق، سأغسلها بالماء.. وسوف..

- اكتب يا هيبا، اكتب باسم الحق المختزن فيك.

- يا عزازيل.. لا أقدر.

- اكتب ولا تجبن، فالذى رأيته بعينك لن يكتبه أحدٌ غيرك، ولن يعرفه
أحدٌ لو أخفيته.

- حكيته لنسطور فى أورشليم، قبل سنين.

- ياهيبا، حكيّت يومها بعضاً منه؛ فكتبه اليوم كاملاً، اكتبه الآن كله.

✱ ✱ ✱

آه.. لما التقط بطرس السكين الطويلة الصدئة، رآه سائقُ عربية هيباتيا،
فقفز كالجرذان وجرى متوارياً بين جدران البيوت. كان بإمكان السائق أن
يُسرع بحصانته فى الشارع الكبير، وما كان لأحد أن يلحق بالعربة. لكنه
هرب، ولم يحاول أحدهم أن يلحق به! ظل الحصانان يسيران مُرتبكين، حتى
أوقفهما بطرس بذراعه الملوحة بالسكين.. أطلت هيباتيا برأسها الملكى من
شباك العربة، كانت عيناها فرعة مما تراه حولها. انعقد حاجباها، وكادت
تقول شيئاً، لولا أن بطرس زعق فيها: جئتُك يا عاهرة، يا عدوة الرب.

امتدت نحوها يدهُ الناهشة وأيدٍ أخرى، ناهشة أيضاً، حتى صارت كأنها
تقمى نحو السحاب فوق أذرعهم المشبعة. وبدأ ال عى فى. وضح النها.

الأيادي الممدودة كالتصال، منها ما فتح باب العربة، ومنها ما شدَّ ذيل الثوب الحريري، ومنها ما جذب هيباتيا من ذراعها فألقاها على الأرض. انفلت شعرها الطويل الذي كان ملفوفًا كالتاج فوق رأسها، فأُنشِب فيه بطرس أصابعه، ولوى الخصلات حول معصمه، فصرخت، فصاح: باسم الربّ، سوف نطهر أرض الربّ..

سحبها بطرس من شعرها إلى وسط الشارع، وحوله أتباعه من جُند الربّ يهلّلون. حاولت هيباتيا أن تقوم، فرفضها أحدهم في جنبها، فتكوّمت، ولم تقو على الصراخ. أعادها بطرس إلى تمُدُّها على الأرض، بجذبة قوية من يده الممسكة بشعرها الطويل. الجذبة القوية انتزعت خصلات من شعرها، فرماها، نفضها من يده، ودسَّ السكين في الزنَّار الملفوف حول وسطه، وأمسك شعرها بكلتا قبضتيه، وسحبها خلفه.. ومن خلفه أخذ جُنْدُ الربّ يهتفون هتافه، ويهلّلون له وهو يجرُّ ذبيحته.

كنتُ لحظتها واقفًا على رصيف الشارع، مثل مسمارٍ صديءٍ. لما وصلوا قبالي، نظر بطرس ناحيتي بوجه ضيع ضخّم، وتهلّل وهو يقول: أيها الراهب المبارك، اليوم نطهر أرض الربّ.. وبينما هي تتأرجح من ورائه على الأرض، تقلّبت هيباتيا، استدار وجهها نحو موضعي. نظرت إلى بعين مصعوقة، ووجه تكاد الدماء منه تنفجر. حدقت في لحظتها، فأدركت أنها عرفتني، مع أنني كنتُ في الزّرى الكنسى! مدّت ذراعها ناحيتي، وصاحت مستصرخةً بي: يا أخى.. تقدمتُ إلى منتصف الشارع خطوتين، حتى كادت أصابعي تلمس أطراف أصابعها الممدودة نحوي. كان بطرس القارئ يلهث منتشيًا، وهو يمضى ناحية البحر ساحبًا غنيمته. وكان البقية يتجمّعون حول فرستهم، مثلما تجتمع الذئاب حول غزالٍ رضيع.. لما أوشكت أصابع هيباتيا أن تعلق بيدي الممدودة إليها، امتدت يده نهشت كُم ثوبها، فتطوّحت كفها بعيدًا عني، وتمزّق الثوب في اليد

الناهشة، فرفعه الناهش ولوّح به، وهو يزق بعبارة بطرس: باسم الربّ، سوف نطهر.. العبارة التي صارت يومها أنشودة للمجد الرخيص. من بعيد، أقبلت امرأة حاسرة الرأس، كانت تصرخ وهي تُقبل نحونا مسرعة فزعة، قائلة:

- يا أختاه.. يا جنود الرومان.. أغثنا يا سيرايبس!

المرأة المسرعة نحونا كان ثوبها وشعرها يرقان وراءها، وكنا قد اقتربنا من ناحية البحر.. أقبلت المرأة تجرى نحو الجمع، حتى ارتمت فوق هيباتيا، ظانة أنها بذلك سوف تحميها. فكان ما كان متوقّعًا. اندست فيها الأذرع، فرفعتها عن هيباتيا، وألقته بقوة إلى جانب الطريق. اصطدم رأسها بالرصيف، وانسحج وجهها، فتلطّخ بالدم والتراب. حاولت المرأة أن تقوم، فضربها أحدهم على رأسها بخشبة عتية، بأطرافها مسامير، فترنّحت المرأة وسقطت من فورها على ظهرها، أمامي، والدم يتفجّر من أنفها وفمها، ويلطّخ ثوبها. عند سقوطها أمامي، صرخت من هول المفاجأة.. فقد عرفتها.. هي لم تعرفني، فقد كانت تنتفض وهي تلفظ آخر أنفاسها. وهكذا ماتت أوكتافيا، يوم الهول، تحت أقدامي، من دون أن تراني.

رجعتُ خطواتٍ حتى التصق ظهري بجدار بيتٍ قديم، لم أستطع انتزاع عيني عن جثة أوكتافيا التي أهاجت دماؤها الصخب، فاشتدت بجند الربّ تلك الحمى التي تتملك الذئاب حين تُوقع صيدًا. صارت عيونهم الجاحظة مثل عيون المسعورين، وهاجت بواطنهم طلبًا لمزيد من الدم والافتراس.. تجمعوا فوق هيباتيا، حين وقف بطرس ليلتقط أنفاسه. امتدت إلى يدها يد مازعة، ثم امتدت أيادٍ أخرى إلى صدر رداها الحريري الذي تهرأ، وأنسخ بالدماء والتراب.. أمسكوا بإطار الثوب المطرّز وشدّوا فلم ينخلع، وكاد بطرس يقع فوق هيباتيا من شدّة الشدّة المباعثة، لكنه سرعان ما عاد واستعاد توازنه، ومضى يجرُّ ذبيحته، ومن ورائه انحنى أتباعه

محاولين اقتناص رداء هيباتيا.. هيباتيا.. أسنادة الزمان.. النقية.. القديسة..
الربة التي عانت آلام الشهيد، وفاقت بعذابها كل عذاب.

على ناصية الطريق الممتد بحذاء البحر، صاحت عجوز شمطاء وهي
تلوّح بصليب: *اسحلوا العاهرة*.. وكأن العجوز نطقت بأمر إلهي! توقف
بطرس فجأة، وتوقف أتباعه لحظة، ثم تصايحوا بصرخات مججلة..
تركّث جثة أوكتافيا ورائي، ولحقّت بهم مبهوّة، أملًا أن تغلت هيباتيا
من أيديهم، أو يأتي جنود الحاكم فيخلّصوها منهم، أو تقع معجزة من
السماء.. أو.. كنتُ غير بعيد عنهم وغير قريب، فرأيتُ نتيجة ما أوحى
به المرأة الشمطاء.. رأيتُ.. انهالت الأيدي على ثوب هيباتيا فمزّعته..
الرداء الحريري تنازعه حتى انتزعوه عن جسمها، ومن بعده انتزعوا ما
تحتّه من ملابس كانت تحيط بجسمها بإحكام. كانوا يلتذّون بنهش القطع
الداخلية ويصرخون، وكانت العجوز تصرخ فيهم كالمهووس: *اسحلوها!*
وكانت هيباتيا تصرخ: *يا أهل الإسكندرية!* وكان البعيدون عن الوصول إلى
جسمها، يصرخون: *العاهرة، الساحرة!*.. وحدي، أنا، كنتُ صامتًا.

صارت هيباتيا عارية تمامًا، ومنتكّمة حول عريها تمامًا، وبائسة من
الخلاص تمامًا، ومهانة تمامًا.. لا أعرف من أين أتوا بالجل الخشن الذي
لفّوه حول معصمها، وأرخوه لمترين أو ثلاثة، ثم راحوا يجزّونها به وهي
معلّقة من معصمها.. وهكذا عرفتُ يومها معنى كلمة السحل التي أوحى
به المرأة إلى بطرس القارئ وأتباعه^(١).

(١) في طرف الرق، مكتوب بالقلم العربي الدقيق: بطرس القارئ هذا، ارتقى بعد
ذلك سلّم الأكليروس حتى صار أسقفًا، وقد اتخذ لنفسه الاسم الكنسي:
مونجوس. هذا هو كل المكتوب بالحاشية، ولم أستطع التأكد من صحة هذه
المعلومات.. (المترجم).

شوارع الإسكندرية تفتّرشها بلاطات حجرية متجاورة، تحمي الطرقات
أيام الشتاء من توخّل الأرض بسبب المطر. البلاطات متجاورة لكنها غير
متلاحمة، وحوافها حادة بفعل طبيعتها الصلبة، فإذا جُرّ عليها أيّ شيء
مزّقته، وإن كان ذا قشر قشّرتة، وإن كان إنسانًا كشطته.. وهكذا سحلوا
هيباتيا المعلّقة بجلبهم الخشن، الممددة على الأرض، حتى تسحّج جلدّها
وتقرّح لحمها.

وسط الصخور المتناثرة عند حافة الميناء الشرقي، خلف كنيسة
قيصرون التي كانت في السابق معبدًا، ثم صارت بيتًا للرب يقرأ فيه بطرس
الإنجيل كل يوم! كانت هناك كومة من أصداف البحر. لم أر أول من التقط
منها واحدة، وجاء بها نحو هيباتيا، فالذين رأيتهم كانوا كثيرين. كلهم
أمسكوا الصدف، وانهالوا على فريستهم.. قشّروا بالأصداف جلدّها عن
لحمها.. علا صراخها حتى تردّدت أصداءه في سماء العاصمة التعيسة،
عاصمة الله العظمى، عاصمة الملح والقسوة.

الذئاب انتزعوا الجبل من يد بطرس وهم يتصايحون، وجزّوا هيباتيا
بعد ما صارت قطعة، بل قطعة، من اللحم الأحمر المتهرّئ. عند بوابة
المعبد المهجور الذي بطرف الحي الملكي البرخيون ألّفوها فوق كومة
كبيرة من قطع الخشب، وبعدما صارت جثة هامدة.. ثم.. أشعلوا النار..
علا اللهب، وتنطّير الشرر.. وسكنت صرخات هيباتيا، بعدما بلغ نحيبها
من فرط الألم، عنان السماء. عنان السماء، حيث كان الله والملائكة
والشيطان يشاهدون ما يجري ولا يفعلان شيئًا.

- هيبا.. ما هذا الذي تكتبه؟

- اسكتّ يا عزازيل، اسكتّ يا ملعون.

الرَّقُّ العاشرُ

التَّيه

أتذكَّر جيدًا، وقفني المتهالكة المخزية، أمام بوابة المعبد المهجور. كانت الجموع تنفضُ، وألسنةُ اللهب تخبو عن الخشب المحيط بجثة هيباتيا وقد صار الباقي من جسدها، مثل بقية الأخشاب المحيطة بها، قطعةً من فحم أسود.

أفقتُ من ذهولي، على حيرتي في مقصدي: هل أعود للكنيسة المرقسية التي كانت موئلي وملاذئ في الأعوام الثلاثة السابقة، فأشارك الأخوة هناك احتفالهم بنشوة الظفر والانتصار على آخر رموز الوثنية الغابرة، وأعلن معهم الاحتجاج باستعلان الديانة واستيلائها التام على المدينة؟ أم ألقى بنفسي على الجمر الباقي حول جسد هيباتيا، فأحتضنه، علّني أدرك بقية من النار التي احترقت بها، فأموت معها متطهرًا من خنوعي الثاني؟.. يوم قُتل أبي خنعتُ، لأنني كنت صغيرًا ولا حيلة لي. فلماذا خنعتُ عن إغاثة هيباتيا وقد مدّت ذراعها نحوي؟ أوكتافيا حاولت حمايتها، واستجلبت عون إله الإسكندرية المدعو سيرابيس، فصارت جثة ملقاة على جانب الطريق، مكفّنة بدمائها الظاهرة. أبي لم يستغث بي، لكن هيباتيا فعلت..

المرأة الخاطئة لم تستغث بالمسيح يسوع، لكنه أغاثها من راجمها قساة القلوب.. وأنا، لم أغث شقيقة يسوع من أيدي إخوتي في الديانة.. لكنهم ليسوا إخوتي.. أنا لستُ منهم، ولستُ مني.

شعرتُ بقلبي يسيل كماء بين ضلوعي، ثم يصير هواءً. دارت برأسي السماء والبحر والبيوت والجمراتُ الباقية بمدخل المعبد المحترق، فسقطتُ مغشياً على.. ولما أفقتُ من إغماءتي ساعة الغروب، مذعورًا، أخذني بردٌ مرجفٌ لبدني. كان صدر ثوبي مبللاً بماءٍ أخبرني من حولي أنهم كانوا يرشونه عليّ، لإفاقتي. كان حولي ثلاثة: صبيٌ يافعٌ، وامرأة سوداء في أواسط العمر، وراهبٌ متقدمٌ في السن. تَلَفْتُ حولي، فوجدتني مُسَجًى أمام بيت صغير، في الشارع الممتد من كنيسة قيصرين إلى المعبد الذي احترق. لم أسأل كيف حملوني إلى هناك. قمتُ مترنحًا، فصدعتُ رأسي حين وقفتُ، أصداً صرخات هيباتيا التي كانت لم تزل تملأ سمائي وتختلط بأموال البحر القريب، البحر الذي اعتقدتُ يوماً أن الحياة ابتدأت منه، ثم عرفتُ أنه منتهى الأشياء كلها.. وسوف يأتي زمانٌ، يغطي فيه البحرُ المِلْحَى العالم كله، فيموت اللون الأخضر وتختفي الحياة.

حاول الراهبُ والصبيُّ أن يسندانِي، فأبعدتُ عني ذراعيهما. بعد كبوتين، اجتهدتُ حتى وقفتُ منتصبًا. بيدي اليسرى أمسكتُ الصليب المعلق فوق صدرِي وانتزعته، فانقطع الخيط الذي كان يلفّه حول عنقي. ارتاع الراهبُ والصبيُّ، وأجهشتُ المرأة. أحسستُ براحة مفاجئة حين انتزعْتُ الصليب عن عنقي، وتركته يسقط على الأرض وسط ذهول الثلاثة. الراهبُ انحنى فالتقطه، والصبي تراجع خطوتين نحو الجدار، والمرأة انتحبت.. ومضيتُ مبتعدًا عنهم، فأرًا منهم، ومن كل شيء.

قادتني خطاى إلى الشارع الكانوبي، فقطعته بطوله متجهًا ناحية الشرق، من دون أن أدري سببًا لسيرى في ذاك الاتجاه. كنتُ هائمًا بلا تدبير،

وبلا تدبّر لمسعاى. لم ألتفت لشيء فى طريقى، حتى خرجتُ من بوابة الشمس ساعة المغيب.. فور خروجى من البوابة، شققتُ رداء الرهبان عن صدرى، فتهدّل على جانبيّ. مررت من رُبع اليهود الممتدة بيوته عند السور الشرقى. كانت كلابهم تنبح خلفى، وتكاد تأخذ بردائى المتهدّل ورائى، وكان الليل ثقيل السواد.

لم أجد أحدًا فى طريقى، لا من اليهود ولا من غيرهم، فكأن الكون قد خلا تمامًا عن الحسيس والأنيس، عن الإنس والجن والملائكة والشياطين. وكان الربُّ غائبًا عني، أو كان يستريح من خلق جديد، صنعه فى ستة أيام أخرى. كنتُ وحدى أجوس بين الطين، والرمال، وأطراف البحر والبحيرات، والأرض السبخة.. مبتعدًا عن الإسكندرية.

فى منتصف الليل وصلت قرية كانوب، ولم أدخلها كيلا أرى أحدًا، أو يرانى أحد. فى الصباح الباكر عبرت الفرع الكانوبى من النيل، فى عبّارة خشبية متهاكّة الأركان، بمجدافين، كان حولى فلاحون وماعز وزكائب فيها غلال. لم يسألنى صاحب القارب العابر بين الضفتين عن أجر، وواصلت السير شرقًا.. لا أتذكرُ ما مررت بأطرافه من قرى وحقول، غير مشاهد تخايلنى الآن كالحلم، وصور لبحيرات مررتُ بها.. بحيرات نبت فيها البوص، فصار كأشواك كبيرة تبدو كأنها تؤدّ لو تصل إلى السماء بوخزات أطرافها.. كان صدى الآيات الأولى من سفر حبقوق يتردّد فى باطنى: إلى متى ياربُّ أستغيث بك، فلا تسمع؟ إلى متى أصرخ إليك من الجور، فلا تخلص؟ لماذا تُرينى الإثم، وكيف تطيقُ النظر إلى البؤس؟ الاغتصاب والعنف يتصران أمام عيني، والخصائم والنزاع يسودان كل مكان.

كنتُ كمثّل اليهود فى سنوات التيه العظيم، بصحراء سيناء التى كنتُ أسير نحوها.. لماذا أخذتني خطاى نحو سيناء؟ هل كان ذلك تدبيرًا إلهيًا

لم أظن إليه؟ أم هى الأيام تعبتُ بى، وتقلّبت كل مُقلب، لأرى فى البلاد من أفعال العباد، مالم يكن يخطر لى ببال؟.. حين أتأقّل اليوم تدابير الأقدار، أسأئل نفسى: لماذا كان خروجى من الإسكندرية عبر بوابتها الشرقية؟ ألم تكن البوابة الغربية هى الأقرب! أم ترانى أردتُ، من دون قصد، أن تكون سنواتى بالإسكندرية عابرة؟ دخلتها من بوابة وخرجت من التى تقابلها، فكأنها حالة مرورٍ عابرٍ بمكانٍ وددتُ لو أننى ما مررتُ به.. هل كان الأوفق أن أتجه يومها غربًا، فأقضى بقية عمرى فى واحدة من المدن الخمس الغربية، الهادئة، المتناثرة على امتداد شاطئ البحر فى الصحراء الليبية؟ أليست مُدنا قصية، تناسب روحى الثكلى؟.. أم ترانى نفرتُ منها واتجهت الناحية المقابلة، لأن هذه المدن المسماة بالخمس الغربية، تابعة للإسكندرية!.. لو كنتُ ذهبتُ إلى هناك أيامها، ما التقيتُ نسطور فى أورشليم، ولا رأيت مرتا هنا، ولا كان الزمان قد عبث بى، ورشّ الملح فوق جراحي!.. حين لا أجد اليوم إجابة على تساؤلاتى، لا أجد أبدًا من القول إنها كانت مشيئة الرب.. الربُّ المحتجب خلف سرادق حكمته الخفية، أو خلف عجزنا الدائم عن فهم أحوالنا، وذواتنا.

- لا فائدة الآن من هذا الكلام، يا هيبا. فارجعْ إلى ما كنتَ تحكيه، وأكمله، فقد صار وقتك ضيقًا، ولسوف ترحل بعد عشرين يومًا عن هذا الدير.

- عزازيل، ألا تنام؟

- كيف أنام وأنت مستيقظ!



تابعتُ سيرى شرقًا، مسلوبَ الروح. كنتُ مسرعًا نحو غايةٍ لا أعرفها، فى لحظةٍ ما أدركتُ أننى لا أعرفنى! وأن ما مضى من عمرى لم يعد

موجودًا. كانت الأفكارُ والصورُ تمر على خاطري ولا تثبت، تمامًا كما تمرُّ قدماي على الأرض، فلا تقف. شعرتُ أن كل ما جرى معي، وكل ما بدا أمامي في أيامي وسنواتي الماضية، لا يخصني.. أنا آخرُ، غير هذا الذي كان، ثم بان!

وصلتُ إلى منطقةٍ رحيّةٍ بأعلى دلتا النيل، حيث تلتقي الأرض بالبحر عند نقائع شاسعة، ماؤها مزيجٌ بين المالح والعذب. ولا يكاد عمق الماء فيها يزيد عن ارتفاع ركبتى، وارتفاع كثبان الرمال السوداء التي امتدت يومها أمام عيني إلى المدى.. هناك رميتُ على صفحة الماء رداي الكنسي المشقوق وغطاء رأسي، وبقي عليّ جلبابى الداخلى المصنوع من الكتان.

لما رميتُ الرداء، انزاح بعضُ الثقل عن روحي. كانت نسماثُ الضحى، تماوج الماء الذى أخوض فيه، فأشعر مع تموجاته بأننى لا أسير وإنما أطير إلى أفق مجهول. لم يكن حولي شيءٌ، على امتداد النظر فى النواحي الأربع. وحده، الماءُ الضحلُّ، يمتد فى كل الجهات. قلتُ لنفسى بصوت مسموع، باللغة القبطية: هنا تمتزج الأرض والماء بالسماء، ومن هنا سأبدأ من جديد! طرقتنى الفكرة، واستولت فجأة على خاطري. خلعتُ ما ألبسه، وكوّمته فوق ربوة من تلك القباب الرملية المتناثرة بين الماء والماء، ثم خضتُ حتى غاصت قدماي.. اتجهت ناحية الشمال، فاستقبلت الريح بصدري العارى، وفتحت ذراعيَّ بطولهما، ورحتُ أتلو صلاة لم أكن قد قرأتها من قبل فى كتاب، ولا سمعتها فى قُدّاس:

باسمك أيها المتعالى عن الاسم،

المتقدّس عن الرسم والقيد والوسم.

أُخلى ذاتى لذاتك، كى يُشرق بهاؤك الأزلى على مرأتك،

وتتجلى بكلّ نورك وسناك ورونقك.

باسمك أُخلى ذاتى لذاتك، لأولد ثانية من رحمٍ قدرتك،
مؤيّدًا برحمتك.

رحتُ أعيد هذه الصلاة وقد أغمضت عيني. وفى كل مرةٍ تالية، يعلو بها صوتي. حتى صار بعد عشرات المرات، صراخًا يملأ الفراغ المحيط بى. الفراغ الأول، الذى ابتدأت منه الأشياء.. لما توسّطت الشمسُ كبد السماء، ولم يعد ظلّى يمتد على أى جانب، انحنيتُ، فغرفتُ بكفّى من الماء الطاهر، ووقفتُ فألقيته فوق رأسي، ليغسلنى من كل الذى كان. لحظتها، عمّدت نفسى بنفسى، وأعطيْتُ لنفسى فى لحظة الإشراف المفاجئ هذه، اسمًا جديدًا. هو الاسم الذى أعرف به إلى الآن.. هيبا.. وما هو، إلا النصفُ الأول من اسمها.

❖ ❖ ❖

التقطتُ بعد العماد ملابسي، وشعرتُ حين ارتديتها بأننى صرتُ الإنسان الآخر الذى كان كامنًا فيّ. أنا الآن هيبا الراهب، ولستُ ذاك الصبى الذى وشت أمه بأبيه، فقتلوه أمام ناظريه. لستُ اليافع الذى ربّاه عمّه فى نجع حمادى، ولا الشاب الذى كان يومًا يدرس فى أحميم.. أنا الآخر المؤيّد بالملكوت الخفى، وأنا المولود مرتين.

امتد ظلّى أمامي لما مالت الشمس نحو المغيب، فمضيتُ وراء ظلّى الذى قادنى إلى جهة الشرق. سألتُ نفسى من دون انتظار إجابة: هل أتابع المسير إلى أورشليم؛ لألمس هناك أصل الديانة، أم أتابع حتى أصل إلى شرق العالم ومبتداه، أم أغوص فى نفسى، فأعرف مشرقها وأدرك الإله؟.. لم أنتظر جوابًا ما؛ لأن كل الإجابات واحدة، الكثيرة المتعدّدة هى الأسئلة!

قبل الغروب، وصلتُ إلى حيث تتضح الحدود بين الأرض والبحر والسماء. رأيت أمامي ثنائية الشجر والناس، وأدركتُ لأول مرة أن الناس شجرٌ، وأن الشجر مثل الناس، غير أن عمر الإنسان قصير.. على حدود قرية يسكنها صيادون، قضيتُ ليلتي بأن أسندتُ ظهري لجدار قديم متهاك يريد أن يرتاح من وقفته، نمتُ جالسًا، وفي الصباح دخلتُ قرية الصيادين. لم يكن في بيوتها القليلة كثيرٌ من الناس. سألتُ رجلًا يابسًا مثلي، يصنع الشباك، إن كان يحتاج مساعدتي، فساعدني على جوعى بطبقٍ من حساء السمك، فيه قطع من لحمه الأبيض. الأسماك في تلك النواحي، غير التي عرفتها في بلادى الأولى سمك البحر أكبر، وأطيب طعمًا، وأنسب لأجسام الناس. لم أكن قبلها أكل السمك، ولكنني أقبلت يومها عليه، وكان الذى كان لا يأكله من قبل، شخصٌ غريب!

أمضيتُ أيامًا أصنع مع الرجل شباكه، وأقنات معه من الطعام الذى كانت امرأته العجوز توافينا به كل يوم مرتين. ثم استأذنته فى استكمال مسيرتى، شرقًا، فوصلتُ بعد أيام إلى بلدة اسمها دمياط، يسكنها صيادون وصُنَّاع مراكب وبعض الثَّجَّار. قضيتُ فى هذه البلدة ثلاثة أشهر، أو أكثر من ذلك بقليل من الأيام. كنتُ أعمل نهارًا فى نجارة المراكب، ومساءً فى صنْع الشباك، ولا أنام فى الليل إلا سويغات. كان رَبُّ العمل هو رئيس الصيادين هناك، وكان لديه قرابة العشرين من العاملين المبتدئين، من أمثالى، ومثلهم من الصيادين والصنَّاع المهرة. كان الرجل مسيحيًا، على اعتبار أن الرجل الطيب لا بد أن يكون له دين. وقد كان طيبًا بالفعل، مع أنه ثرى.. لماذا قال يسوع المسيح إن دخول الأغنياء ملكوت السماء أصعب من المرور فى ثقب الإبرة؟ قلتُ يومًا للرجل الدمياطى إن عمله الجامع بين الصيد ونجارة المراكب، هو خير الأعمال التى يمكن أن يمارسها إنسانٌ مسيحي، لأن بطرس الرسول، وهو الصخرة التى قامت

عليها الكنيسة، كان يعمل صيادًا فى هذا البحر. وكان يوسف (النجار) هو الذى ربَّى يسوع المسيح. ابتسم الرجل وهو يقول: أعرفُ ذلك، لكننى ما اخترتُ الصيد ولا النجارة، فأبى وجَدَى من قبله اختارالى. ولو كان الأمر بيدي، لفَضَّلْتُ أن أكون مزارعًا، فلا يفجعنى البحر كل حين بالتهام أحد رجالى! هَرَّ رأسه أسيً، ومضى يتفقد أعمال النجارين والصيادين.

بعد أسابيع من إقامتى بدمياط، رحْتُ أصف للمرضى الأدوية، فيشفون. كاد ذلك يشهرنى هناك كطبيب، لكننى أسرعتُ بالرحيل عنهم. خاصة بعدما اعتذرتُ عن قبول ما عرضه علىَّ رئيسهم، من الإقامة الدائمة بينهم والزواج بامرأة منهم! خرجتُ من دمياط بعدما ودَّعتهم، وأودع رئيسهم فى كُفَى بعض المال، وأعطاني مخلاة فيها رداءً من صوف الغنم، ودثارًا مسافرين، وطعامًا جاف. كان الزمان شتاءً، وكان أوَّان خروجى فجراً، وكانت أورشليم وِجْهَتى.

بعد أيام من مسيرتى شرقًا، تناقصت الحقول الخضراء، واختفت آفاق البحر والبحيرات الزرقاء وراء بعض التلال، وساد اللون الأصفر. كنتُ على أبواب سيناء حيث الصحراوات المتوالية بكل ما فيها من قَفَر وقَفَر وجَدَب. على أطراف الصحراء، كان يقوم ديرًا متواضع البناء، منفردٌ وسط الرمال، فى هيئته توحد. لمحته من بعيد ولم أقرب منه، ولم أسأل نفسى عما سأقنات به فى صحراء سيناء، فلا أعشاب خضراء هناك لألفظها وأدسها فى جوفى، مثلما كنت أفعل فى أيام خروجى الأولى.. رهبى من التيه الذى اخترته، دعتنى إلى المبيت تحت شجرة حنون ترى الدير من بعيد. ساعة الفجر، رآنى راهبٌ من الدير القريب، كان قد خرج مبكرًا يرفع أغنامهم. أقبل نحوى وفى إحدى يديه رغيف، وفى الأخرى عصاه التى يهش بها على غنمه. لم أكن قبلها بيومين قد تكلمت مع أى إنسان، غير أنى لم أجد بُدًا من الكلام معه، وقد مدَّ لى الرغيف بمحبة.

- يومك مبارك يا أخى، قلبى يخبرنى بأنك جائع.
- شكرًا لك.

- هل تنوى عبور الصحراء بهذا الثوب، ومن غير دابة!

هكذا بدأ كلامنا الذى انتهى إلى مالم أكن أتوقعه، فقد وجدت فى هذا الراهب النحيل، شيئًا لم أجده عند غيره من الرهبان الذين قابلتهم قبله، هو: القلق!.. أخبرنى أن أصله من البلدة التى اسمها دمياط، وأنه أحب فتاة هناك وهام بها، لكنهم أجبروها، فتزوَّجت غيره؛ فاختر لنفسه حياة الرهبنة.. جرى ذلك معه، حين كان فى العشرين من عمره، وكان قد بلغ الثلاثين. وخلال سنوات رهبنته العشر، كان يسأل نفسه كل يوم، إذا ما كان قد أخطأ فى قراره، أم أصاب.. صدَّقُه وقع فى قلبى موقعًا حسنًا، فأنستُ إليه، وأفضتُ فى الكلام معه مثلما أفاض، فحدثته عما أخرجنى من الإسكندرية هائمًا على وجهى. فاستهان به! لم يكن يعرف هياتيا، ولم يسمع بمقتلها. استهان بما أخبرته به، لأنه كان مستهينًا بكل شئ جرى، أو سيجرى فى مقلب الأيام! أثارت استهانته بكل شئ استغرابى، وأثار عندى مزيدًا من الاستغراب، تلك السهولة التى قال بها إنه لو عادت إليه محبوبته اليوم، فسوف يرجع عن حياة الرهبنة! أو يصير كاهنًا فى كنيسة، أو يعود للتجارة مع أبيه.. لكنه حسبما قال، يعرف أنها لن تعود إليه، وبالتالي سيقضى عمره راهبًا.

- أنت إذن، لم تودَّع الحياة.. يوم رُسمت راهبًا.

- يا أخى. الرهبنة ذاتها موقفٌ دائمٌ من الحياة، فكيف أزعمُ أننى ودَّعتها!

قال لى ذلك من غير انفعال، وهو يقوم من أمامى ليجمع غنمه التى استظلت بالشجرة من حولنا.. قبل أن يمضى، قال بلهجته البحرية

الطريفة، إننى لا يجب أن أدخل سيناء قبل أن أمرَّ على كبير الرهبان، بهذا الدير القريب. لازلت أذكر عبارته التى ترجمتها: هو إنسانٌ لا بد أن يُرى، فلن تقابل مَنْ هو مثله قط!

لم أجد بأسًا فى المرور بالدير قبل دخول صحراء سيناء.. لقيتُ هناك، فى كنيسة الصغيرة، كبير الرهبان الذى كان طاعنًا فى السن حتى أننى صدَّقْتُ ما قاله لى أهل الدير، من أن عمره تجاوز المائة بكثير. تجاعيدٌ وجهه كانت تؤكِّد ذلك، ولمعانٌ عينيه يكذِّبه! فى عينيه بريقٌ وألقٌ لافتٌ، وفى كلماته القليلة حكمةٌ صافية.. كان يحدثنى وهو ينظر نحو الصليب الذى بأعلى المذبح، التفت نحوى مرةً واحدة ليقول لى بعد جلسة امتدت ساعتين: إن كنت تبحث عن أصل الديانة كما تقول، فاذهب إلى مغارات البحر الميت، وقابل الأسينيين، فهم اليهود حقًا.. واليهودية هى الأصل.. وإذا ذهبت إلى هناك، فاحرص على لقاء الراهب خريطون، فهو أكثر أهل الأرض صدقًا وتوحدًا.

قضيتُ فى الدير النائي ثلاثة أيام، خرجتُ بعدها إلى سيناء.. عند رحيلى عنهم، أعطانى الرهبان ثوبًا، وكِسْرًا من العيش المخبوز بدقيق الحلبة وعسل القصب، وقربة ماءٍ من جلد الماعز.. كانت تلك عدتى لعبور سيناء أكثر أماكن العالم وحشةً. على باب الدير لقينى سقَّاء نحيل أعرج، كان يحمل على ظهره قربة ماءٍ لا يقل طولها عن طوله، لما عرف أننى متجة إلى سيناء، أوصانى: لاتدع البحر يغيب عن عينك، ولا تدخل جوف سيناء لأى سببٍ، وإلا فلن تخرج منه أبدًا.. وابتحث عن حمار تركبه، فهذه الصحراء لا يمكن عبورها مشيًا.

كنت أعرف جغرافية سيناء، مما ورد فى كتاب كلوديوس بطليموس الحكيم القديم الذى عاش فى الإسكندرية، يوم كان نهاء الدنيا يعيشون فيها. ومن ثم؛ فقد أدركتُ مراد السقَّاء الأعرج، وفهمتُ إشارته. لم أبتعد

كثيراً عن الساحل الشمالى للصحراء. وقائع كثيرة مرت بى فى الشهرين اللذين عبرت فيهما سيناء، وكان بعضها مما لا يمكن نسيانه.. من ذلك أننى مررتُ بجماعة من البدو الرُّحَّل، وعالجتُ شاباً منهم كان كتفه قد انخلعت؛ إذ وقع من فوق جدار قديم، كانوا ينصبون بإزائه خيمة. انخلع كتفه صبيحة يوم مروى بهم، وبعد ساعتين من معاناة آلام الكتف المخلوعة، أدركتُ الشاب بما كنت أعرفه من فنون جبر الكسور وعلاجات الوُثى والخلع، فهذا ألمه. ثم أعطاه أهله نوعاً من الأعشاب المخدرة، فمضغها قليلاً، ثم نام عميقاً. أكرمنى البدو فى الليلة التى قضيتها معهم، وفى اليوم التالى أهدونى حملاً هراً؛ لأستعين على عبور الصحراء بركوب ظهره اليابس الذى تقرح منه باطن فخذى.. واشترت منهم دثاراً، ولحمًا مقدّداً، وعليقة جافة للحمار. ودفعت لهم مقابل ما اشتريته، نصف ما أعطانى الثرى الدمياطى.

ومن الوقائع التى لاتنسى، أننى أدركتُ ساعة الغروب قافلة حجيج، كانت قبلها بشهرين قد خرجت من قورينة إحدى المدن الخمس الغربية، قاصدةً أورشليم.. فرحتُ كثيراً حين رأيتُ القافلة، مع أننى كنتُ أظننى سعيدياً بوحديتى. سرّتُ معهم شهراً كاملاً، حتى نزلنا أرض فلسطين، فأكملوا طريقهم شمالاً، ومنفرداً عنهم أكملتُ مسيرتى شرقاً، قاصداً البحر الميت للبحث عن أصل الديانة. كنتُ أيامها أعتقدُ أن الديانة الحقّة واحدة، ولها أصلٌ واحد!

الواقعة الثالثة فاجعة، ففى جوف الصحراء الواصلة إلى البحر الميت هاجمتنى قبيل الفجر ذئابٌ صحراوية. دارت أولاً حولى من بعيد، فاضطربت خطى الحمار، وما عاد يستجيب لى.. لماذا خرجتُ يومها مبكراً، ولم أنتظر بزوغ الشمس؟.. تنادت الذئابُ واقتربت، وكان عواؤها دالاً على شدة جوعها واشتداد شرستها. لم يكن معى ما أدفعهم به

عنى، إلا عصاى وحمارى الذى ألقانى من فوقه وانطلق فرعاً، فانطلقت خلفه الذئابُ.. تَبَضَّ قلبُ السكون بحسرة الحمار وصخب الذئاب الناهشة التى انشغلت به عنى. مضيتُ فى طريقى وقد ملأتنى فكرةً أشرقت فجأةً بباطنى: لقد أرسل الإله الحمار إلى هنا، ليكون وجبة شهيةً دافئة، لحيوانات خلقها وجعل قوتها افتراساً. الإله المحتجب خلف أستار العزّة؛ يفعل ما يريد بمن يريد!



ها قد امتلأ الرّق، وما انتهت الذكريات التى صيرتها الكتابة حاضراً يُعاش مرتين، غير أننى أراها على نحو جديد كلما مضت السنون، وكلما استرجعتنى من الماضى البعيد.. وهما هو عقْد التذكّر ينفرط منى، ويكاد خيط التدبّر ينقطع؛ فلأرجع فى الرّق التالى إلى حكاية ما جرى مع نسطور أيام لقيته أول مرة عند كنيسة القيامة.

جلسنا متقابلين، صامتين. هو جالس على سريري يحدّق فيّ بعين ملؤها القلق والشفقة، وأنا مطرّق على الأريكة، وما زالت صرخاتُ هيباتيا يتردّد صداها في أنحاء روحى. كانت سنواتٌ عشر قد مرّت على مقتلها، وكأنّها ما مرّت. بعدما امتدت بنا دقائق من صمّ فادح، دعاني للخروج كي نلحق بالصلاة في الكنيسة، أو نطوف حول أسوارها. نظرت نحوه بعين زائغة، ولم أرّد، فقام وهو يقول:

– هيا، المشى مفيدٌ لك.

– كما تحبّ يا أبتِ المبارك.

أغلقتُ باب صومعتى، وصرف نسطور الشماسة الذين كانوا ينتظرونه بالخارج.. سرّت بجواره صامتاً، أو كنتُ غير قادر على الكلام. ارتحتُ لأنه لم يدخل من باب الكنيسة، كان القدّاس الطويل سيكون مُملّاً. مال نسطور من عند السور، ومضى بى يساراً إلى ناحية الأشجار النحيلة المجاورة لأسوار المدينة من خلف الكنيسة، حيث الموضع الهادئ الذى أحبه كثيراً، وكثيراً ما أنزوى تحت أشجاره. حاول أن يلتقطنى من غيابى، فأخبرنى بأن صحة الأسقف تيودور تحسّنت، وأنه يشكرنى ويرغب فى رؤيتى ثانية، بل يفكر فى اصطحابى معه إلى المصيبة لأعيش هناك! لما انتهى من كلامه الهادئ، كنا قد وصلنا إلى موضع الشجيرات النحيلة. سألتنى إن كنت أريد الجلوس، فوافقتُ من فورى، لأنى كنتُ أشعرُ بضعفٍ فى ساقى وضعفٍ عن المسير. أخرج من جيبه إنجيلاً صغيراً دقيق الكلمات، قدّمه لى وهو يقول:

– هذه هديةٌ إليك.. من الأسقف تيودور، ومنى.

فتحتُ الكتاب، فوجدته رسالةً طبية لا إنجيلاً. هى رسالة جالينوس إلى أغلوقن تلميذه، فى التأتى لشفاء الأمراض. شكرته، فابتسم مشجّعاً

الرّق الحادى عشر

بَقِيَّةُ مَا جَرَى فِي أُورُشَلِيمَ

أتذكّر جيّداً هذا الصباح الأورشليمى البعيد، وهواءه الثقيل. كانت الذكريات التى أثارها سؤال نسطور عن مقتل هيباتيا قد هدّت أركانى طيلة ليلتى السابقة، وأعادتنى إلى الزمن السكندري الذى أفرّ دوماً من ذكراه. لما أشرقت الشمس لم أشعر بها، ولم أخرج يومها لصلوات الصباح.. بقيتُ جالساً على الأريكة كالمبهوت، بل إننى ذهلتُ عن موعدى مع نسطور حتى فوجئتُ به يدق بابى، ولما فتحته أطلّ وجهه الصبوح، ومن خلفه ضوء النهار:

– صباحك مبارك يا ولدى.. ماذا جرى لك؟ ووجهك شاحب، وعيناك زائغتان.

– لاشئ يا أبتِ، تفضّل.. تفضّل.

– سريّك باردٌ ومرتبّ، هل نمت على الأرض!

– تفضل يا أبتِ.. تفضل.

– سوف أفتح هذا الشباك.. ماذا ألمّ بك يا هيبا؟

لى على الخروج مما أعانيه. قال ما معناه: إن كانت ذكرياتك السكندرية تؤلمك هكذا، فعليك بنسيانها. وإننى أعتذر إليك، إن كان سؤالى عن هيباتيا قد أزعجك.

كان نسطور رقيق المشاعر، مع أن ظاهره لا يفصح عن ذلك. تصنعتُ ابتسامةً، وأخبرته أن هيباتيا ليست ذكراى الوحيدة المؤلمة، فلا داعى لاعتذاره، ثم قلتُ مطيِّبًا خاطره: سوف أحكى لك، حتى يشاركنى فاضلٌ مثلك، الهَمُّ الذى أحمله.

- قُلْ يا ولدى، ما تريد.

حكيتُ لنسطور كيف سحل الأستاذة بطرسُ القارئ، ومن كانوا معه، ثم جرّوها وقد تقشّر جلدها عن لحمها وتسلّت أعضاؤها، إلى حيث أضرموا فيها النار عند أطلال المدرسة العلمية المهجورة التى كانت معروفة باسم الموسيون.. عند هذا الحد توقفتُ عن الحكاية، لما رأيته على وجهه من علامات الألم.

لم أقصّ على نسطور كل القصص، ولم أخبره بأننى وقفتُ أحدّق فى النار المشتعلة إلى أن خمدت، بعدما التهمت جسم هيباتيا، وبقايا الموسيون الذى كنتُ أحلم يومها بدراسة الطب فيه. ولكننى أخبرته بأننى خرجتُ هائما يومها من الإسكندرية إلى غير رجعة، ومذهولا سرّت وحدى فى الشارع الكانوبى، وكأن المدينة صارت موطنًا للأشباح.

- الرحمة يا إلهى!

زفر نسطور بالعبرة، فانتبهتُ إليه، وهالنى احتقانُ قَسَمات وجهه بالمرارة. أدركتُ أنى أصبتُ؛ إذ أوجزت الواقعة وأخبرته بمجمل الأمر، لا تفصيلاته.. لم يُدهشنى ما قاله متحسّرًا، من أن القضاة الذين أرسلهم الإمبراطور للتحقيق فيما جرى لهيباتيا لم يصلوا لشيء، ولم تتم إدانة واحدٍ من قاتليها، وأن الواقعة مرّت كأنها لم تكن!

- نعم يا أبت، عرفت هذا. سمعته من الحجاج الذى قدموا إلى هنا من مصر والإسكندرية.

- وهل أخبرك الحجاج يا هيبا، بأن كيرئُلس دفع لهذه اللجنة القضائية رشاوى كثيرة، وبذل لهم الهدايا النفيسة حتى ينطمس الأمر؟

- نعم يا أبت، قالوا ذلك. وقالوا أيضًا إن الإمبراطور ثيودوسيوس الثانى اكتفى كى يطوى الصفحة الدامية، بإرسال تنبيهٍ إلى الرهبان السكندريين بعدم اختلاطهم بالناس فى الأماكن العامة بالمدينة!

رَدَّ نسطور بسخرية تقطر مرارة:

- عقابٌ شديد.. وليتهم التزموا به!

كانت شمسُ النهار قد اشتدت من فوقنا. ولما رأيتُ حبات العَرَق قد راحت تنحدر على جبهة نسطور، أشفقتُ عليه وعلى نفسه، فدعوته إلى صومعتى. قال: بل نذهب للكنيسة أولاً لنصلّى، ومن بعد ذلك نشرب فى صومعتك التمتع الجبلى.

عند باب الكنيسة، كان كبيرُ الكهنة يودّع بعض الزوار. لما رآنا تهلّل وجهه، وأقبل على نسطور مرحبًا به، ومشددًا عليه أن ينضم إليه ساعة الغداء. شكره نسطور بلطفٍ، واعتذر بأنه سيتناول غداء مع الأسقف تيودور، ودعاه إلى أن ينضم هو إليهما، ممازحًا إياه بقوله:

- إذا أكلت معنا اليوم ما يعدّه الرهبان من طعام طيب، ستفكر جدّيًا فى الانضمام إلى بيعتنا، والعودة معنا بعد انتهاء أيام الحج!

- يانسطور المبارك، وكيف سأترك امرأتى وعيالى المساكين؟ ثم إننى فقدتُ الشهية للطعام من زمنٍ طويل.

....

– أما أسرتك، فسوف تقيم معك فى أنطاكية أو المصيصة، وأما شهيتك فسوف يعيدها الراهب هيبا إليك، ببعض من أعشابه المقوية للمعدة والمشهية للطعام الطيب!

ضحك الكاهن وهو يقول لى: إذن، سوف تعالجنى مثلما عالجتك أول مرة! ولما استفسر منه نسطور عما قاله، حكى له كاهن الكنيسة قصة وصولى إلى أورشليم، وكيف أسقطنى الإعياء على باب كنيسة القيامة، فحملونى إليه. نظر نسطور نحوى بعطف وهو يقول: الإنسان، مهما كان ضعيف، نحن ضعاف ولا قوة لنا إلا بالمحبة. هز الكاهن رأسه موافقاً، ثم انتبه لأمر، فقال لنسطور وقد تملكه حماس مفاجئ: على ذكر المحبة، ألا تحب أن نعد لك اليوم مجلساً، تحدثنا فيه عن أنواع المحبات، سيكون حديثك فى هذا الموضوع شيقاً، فقد سمعتك تتحدث فيه لإخوانك أيام زرتكم فى أنطاكية.

– الكاهن المبارك لا ينسى! لقد كان ذلك منذ زمن طويل، أما اليوم، فلن أعقد مجالس مادام الأسقف تيودور معنا. يكفيننا أن نسمع منه، وننهل من علمه.

– بارك الله فيك، وفيه. والآن اسمحوا لى، فأعمال الكنيسة لا تنتهى.

– فى أمان الرب أيها المبارك.. هيا إلى الصلاة يا هيبا.

للصلاة فعلٌ كالسحر. فهى مراحٌ للأرواح، ومستراحٌ للقلب المحزون، وكذلك القداسات التى تغسلنا من همومنا كلها، بأن تلقيها عن كاهلنا إلى بساط الرحمة الربانية، فنرتاح إلى حين. ثم يعاودنا إليها الحنين مادامنا مؤمنين بالرب، فإن خرجنا عن حظيرة الإيمان انفردنا، وصرنا فريسةً تمرقها مخالف القلق وأنياب الأفكار.. ما علينا من هذا الكلام الآن! بعد الصلاة خرجنا من باب الكنيسة وقد أشرق وجه نسطور بالمحبة، فعاوده

حاله المعتاد. اقترح أن نذهب أولاً للغداء مع الأسقف تيودور، ونعود بعد ذلك لصومعتى، فلم أمانع.

فى الطريق إلى مقر إقامتهم، جرى بنا خيلُ الكلام فى كل مضمار. حدّثنى عن روعة أنطاكية، وعن العلوم الوفيرة فى مدارسها، وعن مكتبة الأسقفية العامرة، وعن البسطاء الذين يندون من القرى المجاورة، وعن الإمبراطور ثيودوسيوس الثانى، وتردّده فى معظم الأمور، وعن أسقف أنطاكية وكمال أخلاقه.. وحدّثته عن أيامى فى أخميم، ووصفتُ له تلك البلدة العامرة الواقعة على حواف مجرى النيل، ومعبدتها الكبير الذى تقف على بوابته تماثيل الفراعين الهائلة، يصل ارتفاع بعضها إلى ثلاثين متراً! وعن تمثال المرأة الجميلة القائم هناك، يقولون إنها كانت ابنة الفرعون الكبير الذى بنى المعبد.. قال:

– سمعتُ أن البقية من أساتذة الإسكندرية، هجروها إلى أخميم وقيمون هناك منذ سنين.

– نعم يا أبت. ولكن بأخميم أيضاً كنائس كثيرة، ونصف أهلها مسيحيون، وطيبون.

– فليحفظهم الرب من عواصف كيروّس.

– من العسير يا أبت أن يجرى فى أخميم ما جرى فى الإسكندرية من أهوال، فأهلها مختلفون.

– أنت يا هيبا منحاز لأهلك المصريين.

– يجوز هذا يا أبت.. يجوز.

لما دخلنا على الأسقف تيودور، تهلّل لمجيئنا وابتهج. وشعرت يومها بعمق المحبة التى تجمعهما، وتمنيتُ أن يكون ما بينى وبين نسطور مثل

الذى بينه وبين الأسقف.. طابت نفسى بالمجلس، وكان طعام الغداء طيباً حقاً، وفيه ألوانٌ غير معروفة في أورشليم ونواحيها. كان الأسقف يتودّد إلىّ بتعريفى بأنواع الطعام، ويمتدح بعضها لجودة هضمه. كان كتاب جالينوس لا يزال في يدي، شكرته عليه، وعلى الدعوة للغداء في هذا الجمع المبارك من القسوس، فابتسم وهو يقول لى: سوف أرسل لك كتباً طبية أخرى بعد عودتى، وسوف أطلب من كتبة الأسقفية أن ينسخوا لك أعمال أبقراط، وغيره من مشاهير الأطباء.

- هذا كرمٌ كبيرٌ منك يا نيافة الأسقف.

- سيكون ذلك نافعاً لك وللناس، بمشيئة الرب. فالناس تحتاج الطب، وقد تدهورت صناعته مؤخراً، فليحفظ الربّ بكم هذا العلم المفيد.

تدخل نسطور بلطف في الحوار، فذكر للأسقف أننى أكتب الشعر، فالتفت إليه الأسقف مؤكداً أن صديقه القديم، الأسقف يوحنا ذهبى الفم كان في بداياته يكتب الشعر. أضاف: ألم أخبرك يا نسطور الحبيب، أنهما متشابهان! ثم راح الأسقف يحكى للجمع المبارك عديداً من ذكرياته مع يوحنا فم الذهب.. كان يلتذُّ بذكر الذكريات، كأنه يستعيد جزءاً من جوهر ذاته كان قد انطوى.

صمّ مجلسنا راهباً متقدماً في السن لا ينطق أبداً، واثنين من القسوس. وما كاد الأسقف تيودور ينتهى من حكاية ذكرياته، حتى طفر من أحد القسوس سؤال: كيف تجرّأ الإسكندرانيون على إدانة يوحنا فم الذهب، وهو القديس!.. بدد السؤال المفاجئ الأجواء الطيبة التى كانت تحف المجلس. نظر نسطور للقس السائل باستنكارٍ أشعره بالحرج، ولذنا جميعاً بالصمت.. قلب الأسقف تيودور كفه اليمنى في الهواء مرتين، وقال

ممتعضاً وقد عقد حاجبيه: للإسكندرية سخافاتٌ كثيرة، ولأسقفها السابق والحالى، أفعالٌ وأحوالٌ عنيفة. وأنا لا أحب الكلام عنهما وعن أفعالهما، التى هى أبعد ما يكون عن تعاليم المسيح والرسل، وأقرب ما يكون لأفعال طلاب الدنيا. فليشمل الرب الجميع برحمته، وليعف عن الجميع.

توقعت أن يكون كلام الأسقف تيودور هو ختامٌ للمجلس وإيدانٌ بانتهائه. غير أننى فوجئت بالراهب الصموت الذى لم أسمع له صوتاً منذ رأيتة، وهو ينطق بلسان يونانى ذى لهجة شرقية، قائلاً بحدّة وهو مستندٌ بكتفه على عصاه: وليغفر الربّ للإسكندرانيين ما فعلوه، وما يفعلونه الآن، وما سوف يفعلونه غداً! فكنيسة الإسكندرية لن تكف أبداً حتى تنهار، أو تنهار هذه الديانة كلها.

أطبق الصمت على الجميع، ولم ينظر أحدٌ لأحد.. حدّقت فيهم جميعاً، مستغرباً وقع كلام الراهب الغريب، وصمتهم كلهم من بعده.. هو بالقطع ذو مكانة عندهم، وإلا ما كان ليتكلّم بتلك القوة، فبرك الجميع، مع أن هيئته لم تكن تدل على أى أهمية. أدركت لحظتها أن للرب في هذا العالم رجالاً متوغّلين في أسرار المحبة، لا يعرف أقدارهم إلا الكاملون. كان هذا الراهب فيما بدا لى، من هؤلاء المتوغّلين في المحبة. هو شديد الشبه بالقديس خريطون الذى رأيتة في المغارة التى بقرب البحر الميت، فكلاهما ذو لهجة شرقية وقوام شديد النحول وسنّ متقدّم. وكلاهما يهتزُّ بدنه حين يتكلّم، وتهتزُّ الناس حين تسمع كلامه.. فهل كان هذا الراهب الغامض، أخاً للراهب خريطون؟ أم تراهما شخصاً واحداً، يظهر في أماكن مختلفة بملامح مختلفة. ليكون هؤلاء القديسون آية للناس، شاهدة على معجائب الرب في العالم.. كان ذلك يجرى بخاطري لحظتها، مع كثير من أفكارٍ إيمانية عجيبة، ما عدت أنعم اليوم بها، مثلما كان حالى في ذلك الزمان البعيد!

انتبهتُ من جَوْلان أفكارى، مع وقفة القَسْ نسطور وهو ينفض رداءه بـكلتا يديه، وكأنه ينفض الصمت الذى ساد المجلس.. قال للأسقف تيودور ما معناه أننا سوف نتركه ليرتاح، وأنه يستأذن منه فى الذهاب معى إلى صومعتى للتباحث فى بعض الأمور، وأنه سيعود بُعيد الغروب. وهكذا انفض المجلس الذى رأيتُ فيه الأسقف تيودور المفسّر لآخر مرة.

فى الطريق إلى صومعتى، لم أستطع منع نفسى من سؤال نسطور عن الراهب الصموت الزاعق، الذى أنهى كلامه المجلس. فأجابتُ بأنه واحدٌ من أشهر الرهبان المتنسكين فى أقدم أديرة بلدة كبادوكيا المباركة، التى قدمت للديانة آباء الكنيسة الثلاثة الكبار المشهورين، المعروفين بالآباء الكبادوكيين. أضاف أن هذا الراهب الصموت، مشهورٌ هناك بحياة الزهد والتقشُّف. وأن الناس تروى عنه عجائب ومعجزات، يصرُّ هو على إنكارها. وهو معروفٌ بطول صمته وندرة كلامه، ورجال الكنائس يجلُّونه جدًّا، والأسقف تيودور يعدُّه من أساتذته الروحيين؛ فهو أكبر منه سنًا بأعوام كثيرة، فقد تعدَّى الثمانين من عمره.

- إنه يشبه الراهب خريطون.

- وكيف عرفت يا هيبا.. هل رأيتَ القديس خريطون؟

- نعم يا أبت، زرتُه فى مغارته قبل أعوام.

كان نسطور يودُّ أن يعرف المزيد عن لقائى بالراهب خريطون، وكنتُ أود معرفة المزيد عما قاله الراهب الكبادوكى الصموت، وهكذا كان لدينا يومها الكثير لتتكلَّم فيه. جلسنا ساعات طوال، لم يقطع فيها حديثنا إلا مجيئُ رجل مسكين، يطلب دواءً لألم شديد تمكَّن من أحشائه بعدما التهم طعامًا فاسدًا. ولم يكن للرجل علاجٌ إلا الترياق الجامع المسمى مثروديوس، وكان بصومعتى بعضٌ منه، فأعطيته، واعتذرت عن الأجر

بـعبارتى الدائمة: يمكنك لو أردت، أن تضع شيئًا بصندوق الهبات بالكنيسة.. انصرف الرجل، فعدت لجلستى مع نسطور الذى أعجبه أننى أعالج المرضى احتسابًا. قال: كل هذا مدخرك عند الرَّبِّ، يا هيبا المبارك.

- يا أبت. لقد تعلَّمت الطب من دون أن أدفع شيئًا، فكيف آخذ؟ وكما قال مخلصنا يسوع للرسول: مجانًا أخذتم، فمجانًا أعطوا.

عدنا إلى جلستنا الراقية، فأكملتُ لنسطور حكاية ما كان من تطوافى ومشاهداتى بنواحى البحر الميت، ولقائى بالراهب خريطون بعد ثلاثة أيام بئُ فيها أمام باب مغارته، منتظرًا خروجه إشفاقًا من الدخول عليه وقطع خلوته. كان جماعة من القرويين يضعون كل أسبوع أمام مغارة خريطون ضُرَّة، فيها كسْرٌ من الخبز وقطْع من الجبن الجاف، وقُرْبَة ماءٍ لا تكفى أى إنسان لأكثر من يومين، فكان يتقوَّت بذلك طيلة الأسبوع. القرويون هم الذين دلَّونى على مغارته، بعدما نصحونى بعدم الدخول عليه إلا إذا نادانى. بعد ليلتين من عكوفى أمام المغارة، شككتُ فى أنه ما يزال موجودًا بها. خطر ببالى أنه ربما مات منذ سنين، ولم يشعر أحدٌ بذلك. وأن ما يضعه له أهل القرى، يأخذه بعض الصعاليك! غير أننى لما غفوت ساعة الظهيرة، رأيتُ خريطون يخبرنى فى منامى بأن الموعد لم يحن بعد، وبأنه سيطلبنى حين يأتى الأوان. بعد الليلة الثالثة، كانت زوَّادتى قد نفذ منها الطعام، ولم يبق بحوزتى غير الكتب والرقوق والأخبار. كنتُ مستسلمًا تمامًا فى انتظار الإشارة، غير مستبطئٍ لها، ولا متفكِّر فى الرحيل عند باب المغارة. يومها عند الظهر، سمعته ينادى من جوف خلوته بصوت عميق ذى أصداء: /إن كان أحدٌ بالخارج، فليدخل!

لما دخلتُ عليه هالئى منظره، فهو لا يكاد يظهر منه إلا عينان تبرقان بالقداسة، وسط وجه يحيط به شعرٌ منفوش، فوق جسم بالغ النحول تغطيه

أسمال سوداء كاللحة. كانت المغارة على هيئة السرداب، تتخلل حيطانها شقوق كثيرة. وكانت أرضيتها باردة رطبة، فاسترحت عند دخولها من لفحات الهواء الساخن، التي أذابتنى طيلة الأيام الثلاثة التي قضيتها وحيداً تحت الشمس الساطعة بقوة فوق تلك النواحي القاحلة. ترفقت في دخولي خلوته المفعمة بالنور والرغبة، وابتدرنى هو بالكلام:

- ماذا تريد منى؟

- أنا يا أبت عاكف على بابك منذ أيام، أنتظر رؤيتك لتحلّ على البركات، ولأسألك عن أشياء.

- وما أدراك أن عندي الإجابة؟

- هذا ما أظنه يا أبت وأرجوه، فسؤالنى تعذبنى.

- اجلس.

جلست أمامه على بساط الأدب، وحذثته بالشكوك التي كانت تملؤنى، وتدفعنى للنظر في أصول الديانة، وأخبرته برحلتى إلى كهوف البحر الميت أملاً في أن أجد عند الأسينيين أجوبة، فوجدت كهوفهم خالية من الحياة وقد انقطع ذكرهم، فكأنهم ذكرى غابرة!.. وأفضيت إليه بفزعى من أنهار العنف التي تتدفق في أرض الله، ورعبى من القتل المروع الذى يجرى باسم المسيح.. وصرحت له باحتياجى إلى اليقين، وافتقارى إليه.

صمت الراهب خريطون طويلاً، حتى انتهيت، ثم اهتز بدنه النحيل وبرزت عظام صدره وكتفيه وهو يكلمنى قائلاً إن اليقين لن يكون إلا بإخماد الشكوك، ولن يخدم الشك إلا بتفويض الأمر إلى الرب، وتفويض الأمر إليه لن يكون إلا بمعرفة معجزاته فى الكون، ومعرفة المعجزات لن تكون إلا بالإقرار بتجسّد الله وظهوره فى المسيح.. ثم نصحنى بالحج إلى اورشليم، وأكد علىّ ألا أدخلها مباشرة، وإنما أدور حولها، فأمرنى فى

دورانى على البقاع التي لمستها قدّم يسوع المسيح. ثم أقترب شيئاً فشيئاً، من المركز الذى هو موطن قيامته، فلا أدخله إلا بإشارة تأتيني من يسوع المسيح.

- ومن هناك جئت إلى هنا يا هيبا؟

- نعم يا أبت، من هناك.

أسند نسطور ظهره إلى الحائط، ومدّ رجله على السرير. أخذته لحظة تفكر عميق، علت وجهه خلالها علامات الإبحار فى التأمل. بعد برهة أغمض عينيه قليلاً، ثم نظر إلىّ وهو يقول هذه العبارة التي حفظتها عنه، ودونها فى أوراقى عند المساء.. قال ما نصّه: خريطون رجل مبارك من غير شك، لكن طريقه يختلف عن طريقنا فى أنطاكية. هو يهجر العالم فيرتاح، ويغوص فى ذاته فينجو بها، ويزهد فى الأشياء فتسعى إليه. ولكن طريقنا يا هيبا مختلف، فنحن نؤمن بقلوبنا ونقرّ بالمعجزة الربانية، ثم نعمل عقولنا لنرتقى بالإنسان إلى حيث أراد الرب. نحن نؤمن بأن المعجزة لا تكون معجزة، إلا لو وقعت على سبيل الندرة، وإلا فإن تكرارها وتواليها سوف يخرجها من باب المعجزات. لقد تجسّد الرب مرّة فى يسوع المسيح، ليرسم الطريق للإنسانية من بعد ذلك للأبد. فلا ينبغى لنا العيش فى المعجزة ذاتها، وإنما فى الطريق الذى رسمته، وإلا فقدت معناها.. لقد أراح الراهب خريطون قلبك بأن أزاح عن عقلك ما يؤرّقه، أملاً فى إذهاب قلق العقل، وإبقاء القلب منارة للإدراك. والقلب يا هيبا فيه نور الإيمان، ولكن ليس لديه القدرة على البحث والإدراك وحلّ المتناقضات.

أشار نسطور بيده نحو شباك صومعتى، حيث تظهر قبة كنيسة القديسة هيلانة، وأضاف إلى كلامه: انظر إلى عظمة هذه الكنيسة بقلبك فيمتلئ بالإيمان، ثم اعرف أن القديسة التي قامت ببنائها، وهى هيلانة أم

الإمبراطور قسطنطين، كانت فى ابتداء أمرها ساقيةً فى مواخير الثرأ.. كيف لنا أن نفهم ذلك التحول فى سيرة الإمبراطور وأمه، إلا بالقياس على معجزة يسوع المسيح، والمعجزة يا هيبا، تحدث على سبيل النادرة، ونحن نؤمن بوقوعها النادر، ثم نعمل العقل والقياس فى الظواهر، حتى نفهمها ونحل تناقضاتها. وهكذا الحال مع بقية الأمور: نؤمن، ثم نتعقل، فيتأكد إيماننا.. هذا هو طريقنا.

- سوف تبقى ياسيدى تناقضات، لن يستطيع العقل حلها.

- قد لا يستطيع ذلك عقلك أنت، ثم يأتى من بعدك من يقدر على ذلك.

- أو تسقط التناقضات من تلقاء نفسها، وتُسى، فلا تشغل أذهان الناس!

- صحيح يا هيبا، وهناك أمثلة كثيرة على ذلك.

شعرتُ بأن الوقت قد صار مناسباً لسؤاله عن كلام الراهب الكبادوكى الذى أسكت الجميع كلامه، غير أننى ترددت قليلاً إشفافاً من إزعاجه. والظاهر أنه لمح بثاقب بصيرته، ما يعتمل فى نفسى من تردّد، فنظر نحوى بعين باسمة ووجه صبح مبشّر، وسألنى، بينما يصبّ لنفسه كوباً من إبريق النعنع الدافئ، عما أخفيه وأتردد فيه. قلتُ: إنك يا أبت ترى ما فى باطنى، وتشعر به.. ولسوف أضحك بأن كلام الراهب الكبادوكى أثارنى، وهيج فى فكرى التناقضات الواقعة بين ديانتنا القائمة على الفداء والمحبة، وتلك الأفعال التى تجرى باسم المسيح فى الإسكندرية.

- يا هيبا، مايجرى فى الإسكندرية لاشأن للديانة به.. إن أول دم أريق فى هذه المدينة، بعد انتهاء زمن الاضطهاد الوثنى لأهل ديانتنا، كان دمًا مسيحيًا أراقته أيادٍ مسيحية! فقد قتل الإسكندرانىون قبل

خمسین سنة أسقف مدينتهم جورجیوس، لأنه كان يوافق على بعض آراء آريوس السكندرى. وقتل الناس باسم الدين، لا يجعله دينًا. إنها الدنيا التى ورثها ثيوفيلوس، وأورثها من بعده ابن اخته كيرلس. فلا تخلط الأمور ببعضها ياولدى، فهؤلاء أهل سلطان لا أصحاب إيمان.. أهل قسوة دنيوية، لا محبة دينية.

- لقد رأيت فى كنيسة الإسكندرية، ياسيدى، واحدًا من الرهبان الذين قتلوا الأسقف جورجیوس الكبادوكى!

اندهش نسطور مما قلته، ثم أدهشتنى العبارة التى قالها؛ لأنها ذكرتنى بما كنتُ أعتقد وأقوله دومًا لنفسى.. بصوت حزين قال: الذى رأيته هناك ليس براهب، فالرهبان لا يقتلون، وإنما يمشون على الأرض هونًا متبعين نخطى الرسل والقديسين والشهداء!

- لماذا لا تأتي معنا إلى أنطاكية، أو تلحق بنا مع أول قافلة تأتي؟
- أنطاكية، يا أبت، مدينة كبيرة وصاخبة. وماعدتُ قادراً على العيش
في مثلها، ولم تعد لي غاية إلا قضاء أيامي الباقية في سلام.
- ماهذا الكلام، وأنت ابن ثلاثين سنة!
- أهى ثلاثين؟ إننى أظنها ثلاثمائة.

ضحك نسطور، لدعابتي، فازداد وجهه الصبوح إشراقاً. أبدى اهتماماً
وهو يسألنى إن كنت أنوى استكمال حياتي راهباً متوحداً، أم طبيباً ممارساً
للعلاج. أضاف مُداعباً: أو تصير في بلادنا كاهناً.. ولو أردت يوماً، أن
تنخلى عن طريق الرهبنة، فسوف أجد لك زوجة مؤمنة طيبة، تنجب لك
شعباً من المصريين في بلادنا.

- ياسيدي، أقول لك إننى أريد العيش في سلام، فتقترح علىّ
الزواج!

ضحك نسطور فبدت أسنانه المصفوفة البيضاء، كأنها قطع من نور.
عدّل غطاء رأسه وهو يسألنى إن كنتُ مرتاحاً للإقامة في أورشليم؟
فبسطت كَفِّي بما يفيد أنه لاشئ آخر بيدي. قال إننى مادمُ أريد العيش
في سلام، فعلى أن أفكر في الإقامة بأحد الأديرة. أضاف مُلاطفاً: ولن
أصف لك سلام الحياة في الدير، فأنتم المصريين ابتدعتم الرهبنة والديرة،
إحياء لتقاليد كانت عندكم منذ القدم.

أخبرنى نسطور يومها بأن ديراً تابعاً لكنيستهم الأنطاكية، يقع في منطقة
خضراء إلى الشمال من حلب، هي من أهدأ مناطق الأرض وأجملها،
وسألنى إن كنت أحب الاستقرار هناك، فقلتُ من دون أن أفكر: نعم يا
أبت أحب ذلك، فقد ضقتُ بالإقامة هنا، ولا شئ سيعزّينى في أورشليم،
بعد رحيلكم عنها.

الرَّقُّ الثاني عشر

الارتحال إلى الدير

كانت أيامي بأورشليم متشابهة، إلى أن جاء نسطور مع الحجاج في
تلك السنة المذكورة، فصارت أوقاتي بمجيئه طيبة هائلة، وتبددت غربتي
هناك. بقينا أيامها نلتقي في أغلب الأوقات، في الكنيسة، وفي صومعتي،
وفي مقر إقامتهم. فأشرقْتُ بحضوره شموُسُ باطنى، وانزاحت عني
الهموم، حتى كدتُ أنساها وتنساني.. لكنه أخبرنى بعد انقضاء عشرين
يوماً، بأنهم يستعدون للعودة إلى بلادهم، بعدما تأكدوا من أن الطرق إلى
أنطاكية والمصيصة صارت آمنة. تولّانى الهمُّ طيلة ليلتي، وصحوْتُ يوم
رحيلهم مبكراً، فكنْتُ عند مقر إقامتهم مع أول شعاع للشمس. كانت
الدواب تملأ الساحة، وكان الوفد منهمكاً في الاستعداد للسفر.. كان الكلُّ
مشغولاً بأمر الرحيل، وكنْتُ منشغلاً بأيامى التى ستجذب من بعدهم.

من بعيدٍ، رَأَى نسطور وهو يتحرّك بين الجماعة بنشاطٍ وهمّةٍ عالية،
يقول شيئاً لهذا ويعطى أمراً لذلك، والكلُّ طائعٌ له. كان له في نفوسهم مكانةٌ
كبيرة. رَأَى، فأقبل بوجهه المشرق، حتى انتحى بى عند حائط المضيئة
الكبيرة، وعينه تلاحق المستعدين للرحيل.. التفت نحوى، وقال:

طلب نسطور دواةً وقلماً، ومدَّ يده في جيبه، فأخرج رَقاً صغيراً من الجلد المغسول، خطَّ فيه على الوجهين، وهو يخبرني أنها رسالةٌ إلى رئيس الدير، وأنه سوف يُحسن استقبالى. وَصَفَ لى موضع الدير، وحدثني عن طيب هوائه، وقرب موقعه من أنطاكية. بل هو منها على مسيرة يوم واحد، يمكننى زيارتهم فى أسقفيتهم وقتما أحب، وقد يُمْرُ علىّ هو فى طريق أسفاره بين المدن والأديرة الكثيرة فى تلك النواحي. قال: *الدير أكثر راحةً وأماناً من أورشليم المحاطة بالجذب من كل النواحي، البعيدة عن عاصمة الإمبراطورية.. تفكّر قليلاً قبل أن يضيف: وقد أنتقل أنا قريباً إلى القسطنطينية، فأسقفها مريض، وهم يكلموننى فى تولّى كرسى الأسقفية من بعده. وكما تعلم فإن أسقفية العاصمة، لاتقل أهمية عن الكرسى البابوى فى روما، فعسى وجودى هناك يكون نافعا لأهل الديانة.*

- سيكون نافعا بمشيئة الربّ يا أبتى، ومباركاً.

- ليفعل الله بنا ما يريد... والآن، سأودّعك يا هيبا على أملٍ باللقاء، فلا تتأخّر فى الارتحال إلى الدير.

تحركت قافلته، فحركت كوا من الشجن فى نفسى. مشيت وراءهم حتى خرجوا من بوابة أورشليم الجنوبية، التى يسمونها هنا بوابة صهيون، ثم انحدروا غرباً ليعرجوا إلى أنطاكية من الطريق الساحلى المحاذى للبحر الكبير.. لما غابت القافلة عن ناظرى، أحاط بى الوجد وعصرتنى يدا الوحشة والغربة.. عدتُ مُسرّعاً إلى صومعتى، وقد عقدتُ النية على الخروج إلى الدير الشمالى، فى أقرب وقت.

أمضيت أسبوعين أرتّب أمر رحلى، وأسبوعاً ثالثاً أنتظر قيام قافلة التجارة المارة بقرب حلب. رأيتُ أن رحلتى معهم ستكون أقلّ عناءً، وأكثر أماناً من كل أسفارى السابقة وارتحالاتى. أغلّب تجار القافلة كانوا من

هؤلاء العرب الذين لامعرفة لى بدقائق لغتهم، ولا عندى نية فى تعلّمها. فهى لغة، وإن كانت قريبة من السريانية، إلا أنها بلا آداب مكتوبة تثير حماسى لتعلّمها، وأهلها قومٌ بلا دين مخصوص، فيهم يهودٌ ومسيحيون ووثنيون، ولهم فى قلب جزيرتهم الجذباء بيوتٌ أو ثان، يطوفون بها وهم عراة. يُقال إنهم أبناء إسماعيل المذكورون فى التوراة، وأنا لا أصدّق ذلك. الذين على دين المسيح منهم، لهم أسقفيةٌ فى بادية جزيرتهم، تعرف باسم العربية.. وهم أهل تجارةٍ ومكرٍ وحرب.

كانت رحلتى مع القافلة، مثلما قدّرت، مريحةً. مررنا فى طريقنا ببلدة كبيرة حولها بساتين، تسمى دمشق. يشرف عليها جبلٌ عالٍ، تنبسط الأرض من بعده، ويمتد السهل شمالاً حتى يصل إلى حلب والقرى المتناثرة حولها.. وصلنا حلب بعد أسبوعين، ساعة الغروب، فلم أتّين ملامح البلدة إلا صباح اليوم التالى. هى مدينةٌ لطيفة يسكنها كثيرٌ من العربّ والسريان واليونان، وبعض اللاجئيين إليها قديماً من تدمر التى حُرّبت واندثرت قبل قرنٍ ونصفٍ من الزمان، ولذلك فهى عربية الطابع والسكان.

العجيبُ فى حلب أنه لا سور لها! وإنما تتناثر بيوتها حول تلال صغار، تتوسطها تلةٌ كبيرة هائلة، بأعلاها أطلالُ قلعةٍ قديمةٍ مهدّمة الأبواب، ماتزال أسوارها الباقية عاليةً. ويظهر من قدّم المدينة، أنها كانت ذات أهمية فى القرون الماضية، ثم انطوت أهميتها مع الأيام، فسكنها التجار. أمضيت ليلتى فى المضيفة الملحقة بأبرشية حلب، وفى الصباح الباكر صحبني إلى الدير خادمٌ يعمل فى الأبرشية. خرج معى مزوداً ببعض المؤن المرسلّة إلى الرهبان المقيمين فى أديرة صغيرة، متناثرة على الطرق الممتدة بين حلب وأنطاكية، ذلك ما قاله لى الخادم لما رآنى مستغرباً الأغراض الكثيرة المحمولة على الحمارين اللذين كانا معه. وكانت الكتب التى معى، كثيرة،

كان يحملها جملٌ منذ خرجنا من أورشليم، ثم حملتها من حلب إلى الدير البعلتان الباستان اللتان قطعنا الطريق على ظهريهما.

المسافة بين حلب والدير الشمالى قريبة، لاتزيد عن مسيرة نصف يوم. والسهول بينهما رحيّة، فيها المروج الخضراء بالزرع والتلال الصفراء بالرمال.. أشار خادم الأبرشية إلى أولى التلال التى بدت لنا بعد خروجنا من حلب، وقال إن خلف هذه التلة تقع مقابر المدينة، وإن أمه وأباه مدفونان هناك. أضاف أنه يزورهما كل أسبوع، ليأخذ من عند قبرهما العبرة، ويسترجع زمانًا لن يعود.. سألته إن كان يؤدّ المرور عليهما، فأجاب متردّدًا بما معناه أنه لا يريد أن يعوّقنى أو يضايقنى بذلك، ولكنه يتمنى المرور على القبور، لأنه سيوصلنى إلى الدير، ويكمل طريقه إلى أنطاكية؛ ليزور أخته المتزوجة هناك، وسوف يبقى عندها شهرًا! فلم يكن بيدى إلا العروج معه إلى المقابر، والبقاء هناك لنصف ساعة حتى ينتهى من تلاوة صلواته.

للناس هنا طريقة غريبة فى دفن موتاهم، فهم لا يوارونهم التراب، ويجعلون عليهم شاهدًا مثلما نفعل فى مصر، وإنما يضعون الأموات فى فتحات كالثقوب الطوال، بعضها فوق بعض، ثم يسدّون عليهم بعجين لزج من تراب الأرض، ويرسمون فوق الفتحات علامة الصليب.

بينما الرجل يقرأ صلواته، كنتُ أفكر فى موتائى.. إننى لا أعرف قبرًا لأبى، ولا أظنه دُفن أصلاً! ربما رمى كهنة المعبد بقاياها فى النيل، بعدما اطمأنوا إلى رحيل قاتليه، فأكلتها التماسيح.. فهل رمى الإسكندرانيون أوكتافيا فى البحر، لتأكلها الأسماك، أم دفنوها فى تلك المقابر القريبة من أطلال الحي الملكى؟.. هيباتيا لم تُدفن بالطبع، لم يبق منها شيء يُدفن. ولم يأكل دود الموتى شيئًا من جسمها، فقد انتهت مثل شجرة أحرقت فصارت فحمًا. الفحم يُشعل النار، والجسم المدفون فى الأرض

يعيش فيه الدود! فهل كان الأليق بهيباتيا أن تُحرق بعد موتها، كيلا يصير جسدها الكافورى مرتعًا للديدان؟.. من أين يأتى الدود ليأكل الموتى؟ الأطباء القدامى الكبار، الذين شرّحوا الأجسام الحيّة والميتة، لم يذكروا فى كتبهم وجود دود فى الأحياء، فمن أين يأتى الدود بعد الموت؟ هل هو كامنٌ فينا، بحيث لا يظهر إلا بعد موتنا؟ أهو كامنٌ أيضًا فى الفواكه الرطبة، وفى الجبن القديم، وفى الأجسام الحية! ينتظر موت الكائن وفساد جسمه، كي يحيا على الموت، ثم يموت. يُقال إن هذا الدود لا يأكل رفات القديسين والشهداء! فهل هى معجزة لهم، أم هى معجزة للدود الذى يفرّق بين الأجسام، المقدسة منها وغير المقدسة؟.. على أن الدود فيما أظن لا يفرّق، ولا يعرف أجساد القديسين من غيرهم، وإلا فهو لا يتطرّق أيضًا لأجسام المومياوات المحفوظة ببلادنا فى التوابيت العتيقة.. لماذا حفظ المصريون القدماء أجسام موتاهم بسحر أو علم، يمنع عنها الدود؟ أم ترى أن أجسادهم كانت هى الأخرى مقدسة!

- تفضل يا أبت.. باركك الرب.

انتبهت من غيبتى مع أفكارى، على دعوة خادم الأبرشية للعودة للطريق.. على ظهر البغلة، عاودتنى الأفكار والتساؤلات التى لا آخر لها ولا إجابة عليها: أترانى يومًا سادفن، فيكون لى قبرٌ كتقب فى جدار، مثل هذا الذى قرأ عنده الخادم الصلوات، مستنزلًا الرحمة على أمه وأبيه بعدما صارا ترابًا؟.. وإن صار لى مثل هذا القبر، فمن عساه يأتى كى يستنزل الرحمت بالصلوات على قبرى، وأنا لا أهل ولا ذرية لى!.. أترانى سأصير يومًا مرتعًا لهذا الدود الأبيض الذى يأكل الموتى، مع أنه لا أسنان له! أم تراه ابتدأ بالفعل يأكلنى، من دون أن أظن له.. أشفقْتُ على نفسى إذ تذكرت منظره، يوم رأيت فى طفولتى بطة ميتة ملقاة بين الصخور، وكان الدود يصطخب بباطنها. فى باطن الأرض إذا حفرناها، نرى الدود! فهل

ماتت الأرض، والدود ينخر في باطنها من دون أن ندري؟ حتى يضمحل هذا العالم، ويصير إلى العدم، ونحن غافلون..



على الطريق الترابي الواسع المتجه شمالاً من حلب إلى الدير، مررنا بأرض واسعة ترابها مائل إلى الحمرة، ونباتها جيد. يعتقدون هناك حسبما أخبرني خادم الأبرشية، أن تربة هذه السهول كانت في الأصل صفراء رملية، ثم احمرّت لما سالت عليها دماء الشهداء أيام الاضطهاد، وبقيت التربة حمراء لتذكر أهل ديارنا بزم الظلم! هذا ما قاله لي الرجل المسكين، ولم أر داعياً لمراجعته ونقض أفكاره، التي ألفتها هائلاً بها، مرتاحاً إليها.. التقطت في طريقي بعض الأعشاب، لأنظر في خواصها ومنافعها عندما استقر في الدير. لكل ما تخرجه الأرض منافع وفوائد، قد نعرفها، وقد نغفل عنها.

استراحت نفسي لمشاهد الطريق. وكان خادم الكنيسة الذي صحبني طبيب الرفقة، لا يتأخر عن خدمتي والعناية بي. في أوان العصر، كنا نسير على تلك التلال الشبيهة بالأمواج الكبار التي يعلو بعضها فوق بعض، وكنت غارقاً في تأملاتي التي انتبهت منها، وخفق قلبي بشدة، حين أشار الخادم بطول ذراعه إلى رأس أعلى التلال المحيطة، وقال مبتهجاً:

- ها هو الدير.. وصلنا!

الرَّقُّ الثالثُ عَشَرُ

الدَّيْرُ السَّمَاوِيُّ

يوم رأيْتُ هذا الدير أول مرة، بدا لي كأنه يقع عند التقاء الأرض بالسما. كان الأوانُ آنذاك شتاءً، وكانت نسماتُ آخر النهار الباردة تمسح عني تعب الرحلة، وتسكبُ على العالم بهجة خفية.. صعدنا التلة إلى الدير بجهدٍ زائدٍ من البغلتي، وبأملٍ يراودني في أن هذه محطتي الأخيرة. كنتُ قد تعبْتُ من الترحال الدائم، وأن أن أجِد لي ملاذاً بقية عمري، فأهناً بسكنتي حيناً، ثم أموت ميتةً هادئة تنسلُ فيها روعي من صخب هذا العالم واضطرابه إلى صفاء السماوات. بدا الدير محطةً أخيرةً لارتحالي المتتالي، لهجرتي المتوالية التي امتدت حتى تبددت من عندي ألفة كل الأماكن. ظننتُ أن مشيئة الرب قادتني أخيراً إلى هنا، ثم عرفتُ مؤخراً أنها كانت ظنون ذاتٍ منهكة.

الديرُ أطلالُ مبنى قديم، لعله يعود إلى زمن ما قبل الرومان، بل هو يعود بالقطع إلى زمن سحيق. بعض الرهبان هنا، يرجحون أنه كان في البدء قلعةً بائدة، أو منزلَ قائدٍ غابر. ولكنني لأنني خبرتُ المعابد في بلادى الأولى، ما هو قائمٌ منها وما هو أطلالٌ لما اندثرت منذ قرون، متيقنٌ من أن

مبنى الدير كان معبدًا في الزمن الغابر، بل كان معبدًا هائلًا. هذا ما تدلُّ عليه أحجاره المتناثرة، كما يدلُّ عليه هذا المذبح الرخامي البديع الذي بنوا حوله الكنيسة الكبيرة للدير.. لبقايا المعابد حضورٌ خاصٌّ، لا يمكن لمصريٍّ مثلي أن يخطئه.

لم أخبر أحدًا هنا بما أعتقده من أصل المكان، وهم هنا على أية حال لا يكثرثون كثيرًا بالأصول، ولا يهتمون إلا بالحاضر المائل أمام أعينهم. ولعلمهم في ذلك معذورون! أو هم بذلك محظوظون.. أما أنا، فكثيرًا ما كنتُ أفكر في خلواتي، في الأزمنة الغابرة التي امتلأ فيها هذا المكان بالمؤمنين بالإله القديم! كنتُ أفكر فيهم وفيه، وأشقى بأفكاري.. الكلُّ إلى زوال! كلُّ شيء قائم على وجه الأرض يندثر، إلا أهرامات مصر الكبيرة. فهي عصية على الاندثار، وإن اختفت قاعدة الهرم عن أعيننا تحت الرمال.. نرى قمة هرم تطلُّ من تحت الرمال، فنوقن أن الهرم موجودٌ مهما كان مطمورًا.. فماذا عن الآلهة التي بنوا لها الأهرامات، وماذا عن الإله القديم الذي ظلَّ يُعبد بموضع هذا الدير مئات السنين السحيقة السحيق؟ أين ذاك الإله الآن، بعد كلِّ ما كان؟

أدركتُ بعد طول تدبُّر أن الآلهة على اختلافها، لا تكون في المعابد والهيكل والأبنية الهائلة، وإنما تحيا في قلوب الناس المؤمنين بها. ومادام هؤلاء يعيشون، فالهتهم تعيش فيهم، فإن اندثر أولئك انطمر هؤلاء.. مثلما مات الإله خنوم بعد موت أبي، والبقية الباقية من الكهنة الذين كانوا محصورين، في معبده الكبير جنوبي جزيرة ألفتين. لا بُدَّ أنهم اليوم جميعًا ميتون، ولا بد أن معبدهم قد انهدم، أو صار كنيسةً لإله جديد. المسيح يسوع قال لليهود في أورشليم: *اهدموا الهيكل*، وسوف *أبنيه في ثلاثة أيام*. فكذبوه وقدموه للرومان ليصلبوه، لأنهم لم يفهموا أن الهيكل هو ذات يسوع المسيح الذي هدم هيكلهم بالفعل، ثم أعاد

بناءه حين قام من موته بعد ثلاثة أيام. نحن أيضًا لم نفهم قول يسوع حين أشار إلى بطرس الرسول وقال: *على هذه الصخرة، أبني كنيستي*. لأننا لم ندرك أن كل كنيسة بُنيت أو سوف تبنى، فهي لا بد أن تقوم على رسولية بطرس وإيمانه الذي لا يعرف الشك، وإن كان يعرف الضعف! فكما هو مكتوب، أنكر بطرس يسوع المسيح ثلاث مرات في ليلة واحدة، وقد أنبأه يسوع بما سيكون منه، من دون أن ينكر عليه ما سوف يفعله من إنكار له وخنوع عن نصرته. لم يكن يسوع يريد نصرة، بل فداءً وتضحية، فبأى شيء كانت النصرة ستفيد، وأى ضرر كان من الإنكار؟ أنا أنكرتُ هياتيا أمام قاتليها، وأنكرتُ نفسي ثلاثة أيام أمام أوكنافيا، لأنني كنتُ خائفًا. الخوف صار طبعًا عندي، من يوم قتلوا أبي أمامي.. واليوم، لماذا أخاف الموت؟ خليقٌ بي أن أخاف من الحياة أكثر، فهي الأكثر إيلامًا! ولماذا تتفرَّق سُحُب الإيمان من سمائي كلَّ حين. إيماني مثل سحابات الصيف رقيق، ولا ظلُّ له. أنا لن أبني كنيسة أبدًا، ولن تقوم فوقى كنيسة أبدًا؛ لأنني لستُ صخرة مثل بطرس الرسول، ولأن إيماني مشوبٌ بشكوك كثيرة.

ما الذي يأخذني إلى هذا الكلام؟ وما الذي كنتُ أقوله أصلًا.. آه.. هذا الدير السامق إلى السماء، وأيامي الأولى فيه. كنتُ أصفُ المكان وما فيه، فعلى أن أعود إلى ما كنتُ أحكيه.



يقع الديرُ على رأس تلة مرتفعة، تحيط بها تلال متفرقة وسهول. بوابته فتحة في جدار قديم لا يحيط بإحكام، بالساحة المتناثر فيها أعمدة رومانية قديمة، بعضها قائم عالٍ، والبعض الآخر متهدم متناثر القطع. مدخلُ الدير من الناحية الجنوبية، حيث المرتقى الصعب للتلة العالية، أما النواحي الثلاث الأخرى، فلا مرتقى لها أصلًا ولا انحدار، فهي انحدارٌ

حاذٍ يبدو معه الدير، كممثل شرفةٍ عاليةٍ تطلُّ على آفاقٍ لا يحدها البصر شمالاً وشرقاً وغرباً. تحت الدير من ناحية الجنوب، قريةٌ صغيرةٌ، بيوتها متناثرة على غير نظام، قرابة الثلاثين منزلاً، تنام جميعاً تحت التلة. عند سفح المرتقى الصاعد إلى البوابة، من الناحية اليمنى، عُرفٌ من تلك التى يسكنها الجند. عرفتُ فى اليوم التالى لوصولى، أنها معسكرٌ لحاميةٍ رومانيةٍ عددها عشرة من جنود الرومان، يقيمون تحت الدير منذ سنين لحمايته، بعدما تعرض كثيرًا لهجمات اللصوص وقطّاع الطرق... أئى أسرار أولئك الذين كانوا يهاجمون ديرًا، ويسلبون رهبانًا مسلوبين من متاع الدنيا!

وعند سفح المرتقى من الناحية اليسرى، حيث التلة أقل انحدارًا، مساحات خضراء على هيئة مصاطب عريضة من الأرض، بقلبيها كوَّجٌ مهجور. تدلُّ الأشجار الجافة المحيطة به، وشجيرات العشب اليابس المتناثرة حوله وأعلى، على أن هذه الأرض كانت تُزرع فى الماضى، على النسق البابلى القديم المعروف باسم: الحدائق المعلقة. ولكن، من أين كانوا يأتون بالماء اللازم لرى الزروع، أم تراهم كانوا يعتمدون فقط على الأمطار؟ سألتُ نفسى عن ذلك، أثناء صعودنا التلة؛ ثم عرفتُ حين الإجابة بعد.

لم يوقفنا أحدٌ عند صعودنا للدير، ولا عند مدخله. الساحة الفسيحة للمدخل، يحدها من الناحية الغربية بناءٌ قديم مستطيل، من الحجر الأبيض، يبدو للداخل كأنه منفصلٌ عن الدير. هو المبنى الذى سأصيره بعد استقرارى هنا، مكتبةً.. على يسار الداخل، من الناحية الشرقية، تقوم عدة مباني متجاورة: الكنيسة الكبيرة، ثم مخزنٌ كبير، ثم مبنى من طابقين ظاهرٌ من هيئته أنه صوامعُ الرهبان تحتها، فى الطابق الأول، مضيقةٌ ومطبخٌ صغير وقاعةٌ كبيرة للطعام. فى الجهة المقابلة لهذه المباني، حظيرةٌ دواجن

بجوارها اصطبلٌ مسقوفٌ بجريد النخيل، فيه ثلاثة حمير وكثير من الماعز وخراف الضأن. وعلى يسار العابر للساحة، مساحةٌ خالية تتناثر فيها أحجارٌ قديمةٌ، ورؤوسُ أعمدةٍ متكسرةٍ، وينمو نباتُ العوسج ذى الشوك الوحّاذ. فى هذه الناحية الشمالية من الدير، تقوم الكنيسة الصغيرة. بجوارها غرفةٌ منفردةٌ واسعة، عرفتُ للوهلة الأولى أنها صومعة رئيس الدير.

فى أقصى الساحة من الناحية الشرقية مبنى كالصندوق المغلق، كبيرٌ وغامضٌ، يسمونه هنا الحصن. المبنى يرتفع بمقدار ثلاثة طوابق، غير أنه يخلو تمامًا من النوافذ والأبواب. فهو جدارٌ أملس ليس فيه إلا كوةٌ صغيرةٌ بأعلى، بالكاد تكفى لدخول شخص واحدٍ، منحنيًا، إذا صعد إليها مرتقيًا درجات السلم المتدلى من الكوة العالية. السلم مصنوعٌ من الحبال المجدولة والدرجات الخشبية، بحيث يمكن طيّه عند اللزوم. سقفُ المبنى على هيئة قبةٍ عريضةٍ حادة الانحدار من كل الجوانب، وملساءٌ بحيث لا يمكن الوقوف عليها والاستقرار فوقها. قد أعود للكلام عن هذا المبنى، لاحقًا.

لما دخلنا بوابة الدير التى بلا أبواب، أنزل الخادم متاعى فى وسط الساحة، واستمهلنى لحين إبلاغ أهل الدير بقدومى. وبينما كنتُ أرنو إلى السهل الممتد تحت حوافّ الدير الغربية، حيث يبدو من بعيد الطريقُ المرسوف المتجه إلى أنطاكية؛ جاء واحدٌ من الرهبان، فرحّب بى وأخبرنى أن رئيس الدير سيلقانى بعد قليل فى قاعة الطعام.. القاعة بناءٌ عتيقٌ متהלلك، مسقوفٌ بجذوع النخل وجريده. أحجار جدرانها رصينةٌ الرصف، وفى أنحاء حوائطه شقوق. لا بد أن زلزالاً وقع فى هذه النواحي منذ أميد بعيد، فأوقع البناء الذى كان قائمًا هنا، وبقيت منه هذه الأطلال التى صارت ديرًا.

دخل رئيس الدير إلى القاعة، ومعه اثنان من الرهبان، من الملاح -

الأنطاكية السمحة. وجوهم هنا صبوحة، ليست كوجوه الرهبان المصريين اليابسة الشاحبة من كثرة الصوم، ومن غلبة لون الطمى الذى يحمله فيضان النيل إلينا كل صيف. رئيس الدير شيخ لم يطعن فى السن بعد، هادئ الصوت والحركات، وقور. انبسطت ملامح وجهه حين قرأ رسالة القس نسطور، ورَّحِب من فوره بانضمامى إليهم.

بعد العشاء قام معى راهب شاب، فأوصلنى إلى صومعتى التى وصفتها فى أول تدوينى هذا. جلس الراهب معى ساعة هادئة، عرَّفنى خلالها نظام الحياة فى الدير. نظامهم هنا ليس مختلفًا، كثيرًا، عن المعمول به فى معظم الأديرة. أعمال قليلة فى النهار، وصلوات كثيرة وتساويح فى معظم الأوقات. ودَدْتُ لو أسأل الراهب المرشد، عن المبنى الغامض الذى بآخر أرض الدير، ثم أثرت التريث.

كانت أيامى الأولى فى الدير هادئة، هانئة. أمضيت أوقاتي فى القراءة والعبادة، فسكنت روحى. كان المبجل نسطور محققًا، فهذا الدير مناسب لى بوجوه خفية أستشعرها ولا أتعلّلها. كان الأمر الوحيد المؤرّق لى، هو ذلك البناء المصمت الصامت ذو السقف المقبّب والحضور الغامض، القائم منفردًا بأقصى الطرف الشرقى من الدير.. مع مرور الأيام عرفت عنه أشياء، وغابت عني أشياء أكثر. قالوا إنهم يسمونه الحصن؛ لأنه كان فى الماضى ملاذًا للرهبان من غارات اللصوص الدائمة. فكانوا يبيتون فيه، ويحفظون أغراضهم وأرواحهم بين جدرانه، ويستعملون السلم المعلق بالفتحة العليا لدخول هذا الرحم الأمن والخروج منه. وهو ليس مصمتًا، وإنما فيه غرف بيّتها ممرات. وفى قاعه مدفنٌ لرهبان الدير الذين تتيحوا (ماتوا) فى المائة عام الأخيرة، التى هى عمر الدير. قيل لى أيضًا إنهم أقاموا هذا البناء الحامى فوق المقبرة، قبل سبعين سنة، لتحل عليهم بركات المدفونين! وإن المبنى مؤلف من أربعة طوابق خفية، لا ثلاثة، ويقوم فى

وسطه سلمٌ حجرى أفعوانى الالتفاف، يصل ما بين أرضه وسقفه، ويمرّ على حوائط طوابقه الأربعة. للسلم فتحة واحدة بأعلاه، تُغلق من داخله بكتلة من النحاس السميك.

قالوا همسًا إنه قبل قرابة خمسين عامًا، ظلَّ الرهبان داخل المبنى المظلم شهرًا كاملاً. كان اللصوص خلاله يحاصرونهم، ويعسكرون فى الكنيسة الكبيرة من دون أن يجدوا سبيلًا لاقتحام مأوى الرهبان. معجزات كثيرة مبهرة، وقعت خلال هذا الشهر. كان أولها وأبهرها، ظهور وجه المسيح ثلاث ليال متتالية فى قمر المساء المكتمل. وكان آخر المعجزات، أن اللصوص هُتُّوا من نومهم فزعين فى ليلتهم الأخيرة، فاستلوا سيوفهم، وتطاعنوا وقد انتابهم هوسٌ مروّع. تناخنوا حتى قتل بعضهم بعضًا. فى الصباح، كانت أبدانهم الميتة متناثرة فى الساحة التى أمام الكنيسة الكبيرة. كلهم ماتوا فى ساعة واحدة، وكان عددهم فوق العشرين.. هذه الرواية يؤكدها الجميع هنا، ويجزمون بأن رئيس الدير عاينها بنفسه، أيام صباه المبكر.

أثار المبنى وحكاياته حيرتى. تخيلته من الداخل على هيئة دهاليز ملتفة حول بعضها، مثل بيوت النمل، غير أنها مبنية فوق الأرض، ومشرفة من الجهات الجنوبية والغربية والشمالية، على هوةٍ سحيقة لا يمكن ارتقاؤها من السهول التى تطلُّ عليها ربوة الدير العالية.. كان يتابنى هاجسُ الدخول إلى المبنى، لكنى لم أحدث أحدًا بذلك. ولم أر أحدًا يدخله قط، طيلة السنوات الماضية.. يؤكدون هنا أنه منذ جاءت الحامية الرومانية قبل عشرين سنة، كَفَّت الغارات، وكَفَّت الحامية الرهبان مؤونة الاختباء الدائم والخوف المقيم. ولم يعد أحدٌ يدخل المبنى، إلا عند موت أحد الرهبان، لدفنه فى المقبرة التى بالقاع.. لم يمت أحدهم هنا، طيلة السنوات الخمس الماضية، فلم تسنح فرصة لدخولى معهم أو حتى

رؤيتهم يدخلون. قيل لى سِرًا وتلويحًا، إن رئيس الدير يحفظ فى غرفة سرية بالمبنى، المسامير التى دُقَّت فى كَفَى يسوع المسيح وقدميه، يوم صُلب فى أورشليم.. وإن هذه المسامير تنوِّج بالليل، إن الرهبان كانوا أيام اختبائهم بالمبنى، يستضيئون بها فى الظلام! هذا ما قالوه لى همسًا، بعد عامين من استقرارى بالدير.

بعد أسابيع من وصولى، طلب منى رئيس الدير أن أقضى فترة من النهار، فى المبنى الذى على يسار الداخل من البوابة المهذمة. المبنى قاعة واحدة كبيرة، تقع من الدير فى الجهة الغربية. قال إنه سيخصّصها لعلاج المرضى الذين قد يفدون من البيوت والقرى القريبة. أضاف أنه يمكننى أن أجعلها مكتبةً أضفّ فيها كتبى، وبعض الكتب الأخرى التى كانت مكدسة فى صناديق بالغرفة المجاورة لمطعم الدير. أسعدتنى الفكرة، وأمضيتُ فى البداية أيامًا طوالاً لم يأت فيها مريض، فوجدت الفرصة لمعاودة النظر فى كتبى، وتصفّح الكتب التى أخرجتها من الصناديق. كان أغلبها أناجيل، وكتب أدعية وصلوات. صففتُ الكتب على الأرفف الخشبية التى أنقن نجارُ القرية صنعها، وجعلها كما طلبتُ منه، بطول الحائط الغربى المقابل للجهة المظلة بشباكها، على ساحة الدير الداخلية المستوية. ربّبتُ الكتب بحسب موضوعاتها، الطبّ والصيدلة أولاً، ثم التاريخ والأدب، وقبلها جميعاً كتب الديانة. فى وسط القاعة، أصلح النجار الطاولة والكراسى، فأجاد.. وهكذا صارت لى المكتبة التى طالما حلمتُ بها، وكنْتُ مستريحًا إليها؛ لأنها أبعد موضع، عن المبنى المهيب الغامض، الجاثم فى أقصى الطرف الآخر.

قبل أن ينتهى عمل النجار، بيومين، كُنّا على باب الكنيسة الكبيرة بعد انتهاء قداس يوم الأحد، وكان فتىً بدينٌ فى حدود الخامسة عشرة من عمره، يجلس على حجرٍ فى زاوية الساحة الممتدة من مبانى الدير إلى

المبنى الغربى المخصص لى. ناداه رئيس الدير فأقبل مهرولاً، وسعيداً من دون سبب. قال رئيس الدير لى، أننى يمكننى الاستعانة به فى أمور المكتبة وعلاج المرضى. وألمح إلى أنه يتمنى لو يتعلم الفتى منى، أشياء نافعة، فأومأت برأسى مرحبًا. أضاف رئيس الدير، بعدما دعا لنا بالبركة: سيكون معينا لك، فهو ولد طيب، اسمه الشّمس.

ابتسمتُ لما سمعتُ اسم الفتى، الشّمس. كانت هيئته وسنوات عمره، لاتدل على أنه شماسٌ. فهل سُمى بذلك، تيمناً بأنه سيكون يوماً ما شماساً؟ سألتُ الفتى عند حظيرة الماعز، فأخبرنى أن رئيس الدير أعطاه هذا الاسم، من يوم كان رضيعاً. استغربتُ الأمر، وبدأ الفتى غير ممانع فى أن يخبرنى بالمزيد.. جلستُ عند حافة السور المشرف على السهول الغربية، وسمعتُ من الفتى ما ملخصه أنهم وجدوه رضيعاً عند باب الكنيسة الكبيرة، صبيحة يوم أحد. كان عمره يومين، ولم يكن قادراً من شدة ضعفه على البكاء.. عرض رئيس الدير يومها على نساء المؤمنين، أن تأخذه واحدة منهم، فلم يرحبن. غير أن امرأة فقيرة من الموعوظين، تطوّعت بإرضاعه كل يوم مرتين. فتطوّعت امرأة كاهن القرية، بأن تؤويه فى بيتها.. وهكذا تعاونوا فى أمره، وأعطاه رئيس الدير اسم: الشّمس!

- تركتنى أمى التى لم أعرفها قط، لأنها كانت خائفة..

تعجّبتُ من البساطة التى قصّ بها الفتى حكايته، من دون أى أسفٍ أو خجل؛ كأنه يقصّ واقعة عادية، من شأنها أن تحدث لأى شخص.. كان ذلك هو الدرس الأول الذى تعلمته فى هذا الدير، وأفادنى كثيراً على نحوٍ خفىّ. لا ينبغي أن نخجل من أمرٍ فرض علينا، مهما كان، مادامنا لم نقترفه. ساعدنى ذلك، كثيراً، على نسيان ما فعلته بى أمى زمن طفولتى، وعلى تناسى ما فعلته، ومالم أفعله، بسبب خوفى وقلة استطاعتى.

صار الفتى البدين، الشَّماس، معيَّنًا لى فى كل الأعمال. واكتشفتُ مع الأيام، أنه ولدٌ طيبٌ حقًا، وروحه طاهرة. وساعدنى مع الراهب الفريسي، باجتهادًا، فى تنظيم الكتب وفى تنظيفها؛ حتى صار المكان جديرًا باسم المكتبة.

بعد شهر من إقامتى هنا، هدأت نفسى حتى شعرت بأن هذا الدير هو محطة ترحالى الأخيرة. كان عمري آنذاك، فى حدود الخامسة والثلاثين. كنت لم أزل فتىًا، وكانت همتى عالية.. اعتدتُ أيامها أن أبدا صلواتى فى قلب الليل، ثم أنضمم لبقية الرهبان فى القداس. وحين يمضى كلُّ منهم إلى أشغاله، أمضى إلى المكتبة، فلا أخرج منها، إلا لأداء الصلوات.

فى بدء إقامتى هنا، كان الرهبان يلحُّون علىَّ فى الانضمام معهم للغداء، وكنت أعتذر بأننى أكتفى بوجبة واحدة فى اليوم والليلة. علمتنى حياة التقشف التى عشتها، الاقتصاد على أقل قدر من الطعام. كان رئيس الدير أيضًا، لا يأكل غير وجبة واحدة فى يومه وليلته.. هو رجلٌ طاهرٌ، بشوشٌ وحازمٌ، يقضى معظم أوقاته فى الصلاة والوعظ، ولا يهجع إلا قليلًا. وهو يكلم زوار الدير من القرويين، بلسان طيب مفعم بالمحبة. الناس فى القرية النائية تحت الدير، والقرى المجاورة، يعرفون قدره، وتميل قلوبهم إليه.

أول مريض أتانى طالبًا العلاج، كان من أقارب رئيس الدير. رقيقٌ له من زمن صباه، يصغره ببضعة أعوام، كان قد اختار حياة المزارعين، وأصلح فى شبابه مع أبيه أرضًا واسعة فى السهول الممتدة شمال الدير، ثم سكن بأسرته فى قلبها الأخضر. كان الرجل قد تعدى الستين من عمره، وكان يشكو التهؤُّع الدائم والنزوع المستمر للقي، حتى نحل بدنه وسقطت قوته. جسستُ نبضه فكان ضعيفًا، وتفحصتُ ما يخرج منه، فعرفتُ أنه يعانى من ضعف المعدة وسوء الهضم. عالجتُه علاجًا لطيفًا بالأدوية

المصلحة للأمعاء والمعدة، ومنعته من الأغذية رديئة الهضم، من دون أن أخرج به كثيرًا، عن مألوفه المعتاد فى المأكَل والمشرب. بعدما اعتدل هضمه، أعطيته مسحوق الجيوب المرة التى تنبت فى مصر، مخلوطًا بالزور الدابغة للمعدة، المقوية لها بإزالة بلتها. لم أراع فى علاجه القاعدة الطبية التى يردها الناس فى زماننا، وينسبونها إلى جالينوس أعنى القاعدة القائلة: ينبغي أن يُعالج كل مريض نبات أرضه! فهى مما لا أعتقد بصحته، ولم أر تأكيدًا له فى كتاب. بعد أسابيع أربعة، برأ الرجل تمامًا واسترد عافيته. جاء بعد شفائه إلى الدير، حاملاً هدايا كثيرة من خيرات أرضه؛ فارتفع رأسى بين الرهبان، وسعد رئيس الدير بالأمر.

بعد أربعة أشهر من إقامتى هنا، وصلت الدير ثلاثة صناديق كبيرة فيها الكتب التى كان أسقف المصيصة تيودور قد وعدنى فى أورشليم بنسخها. فرحتُ بالكتب كثيرًا، ورحتُ مبتهجةً أصفها على المواضع الخالية من الرفوف، وقضيتُ زمنا جميلًا فى قراءتها. كنتُ أمضى وقتًا طويلًا بين الكتب، ويأتى الليل، فأنام بالمكتبة جالسًا. حفظتُ فى صومعتى، الكتب المنهى عنها والمحرمة على العوام، كانت فى حدود المائة كتاب ولقافة. أما التى بالمكتبة، فكانت تزيد عن الألف.. كان ضمن هدية الأسقف تيودور نسخة كاملة من تفسيره للأناجيل وأعمال الرسل، ومجموعة كتب أبقراط الاثنا عشر، كاملة، وأربعة عشر كتابًا من الستة عشر المعروفة بمنتخبات الإسكندرانيين، لأن قدامى أطباء الإسكندرية استخرجوها من رسائل جالينوس وشذراته المتفرقة.

عرفنى الناس مع توالى الشهور والأيام، وصار المرضى يتوافدون على الدير من النواحي المحيطة، طلبًا لطبى ومعالجاتى. أكثرهم شفى برحمة الربِّ وحسن الطبِّ، فاشتهر أمرى فى القرى المجاورة والمدن، وطلب أطباؤهم فى بعض الأحيان مشورتي. أقصد المبتدئين من أطباؤهم. كان

رئيس الدير حين يزورنى، كثيرًا ما يداعبنى بقوله: يا هيبيا المبارك، أتيت هذا الدير راهبًا طبييًا، فأصبحت الطبيب الراهب. قال لى ذلك مرات كثيرة مازحًا، مازحًا قوله ببسمته الرائقة.. بعدما أنست إليه، قلت له يومًا إننى أيضًا شاعرٌ، فضحك وهو يقول ما معناه: كُنْ طبييًا جيدًا، ثم كُنْ من بعد ذلك ما تريد أن تكون! ويبدو أنه استشعر حرجى من عبارته، فخفّف عنى، بإصراره أن أقرأ عليه بعضًا من شعرى. وقد أدهشنى حين أخبرنى أنه يحبُّ الأدب، ويقرأ خطب شيشرون، ويحفظ منها أجزاءً طوالاً! قلتُ مندفعًا: شيشرون وثنى يا أبت!

- نعم. لكنه بليغٌ جدًا، وموهوبٌ من الربِّ. كان القديس كليمان، وهو أحد أجلاء الآباء الأوائل، يحب قراءة أعماله.

- لكنه يا أبت، كان يلوم نفسه على ذلك. وحكى أنه رأى فى المنام هاتفاً يقول له مؤثبًا: أنت يا كليمان شيشرونى، لا مسيحى.

- هذه يا هيبيا منازعاتُ النفس، وقلقُها الدائم الذى يثور ثم يهدأ.. ماعلينا من ذلك الآن، ألن تسمعنى أشعارك.

- غداً يا أبت المبجل، أقرأ لك بعضًا منها.

- إذن، إلى الغد بمشيئة الرب.

رئيس الدير يتكلم عادةً باليونانية، لكنه يجيد السريانية تمامًا، ويتحدّث بها أحيانًا. معظم أهل هذه النواحي يعرفون اللغتين، لكن رئيس الدير يعرف أسرارهما، وهو يتبسّط فى الكلام مع عامة المؤمنين. مع أنه فى خطبه وتعبيراته، بليغٌ رشيقٌ اللفظ. وهو يقول عادةً بنظراته وحركة يديه، مالا ينطق به لسانه. ويتعامل دومًا مع رهبانه الذين ييجلونّه، بالنظر والإشارة.. دخلتُ صومعته مرات فى بدء استقرارى هنا، فلم أَر فيها كتبًا. وحين تناقشتُ معه، وجدته يستحضر الأقوال والنقول من ذاكرته، من غير

مراجعة ولا نظر فى الكتب. لا أعنى الأناجيل وأعمال الرسل، فهو بالطبع يحفظها. وإنما الغريب فيه، أنه يحفظ صفحات كثيرة من مدونات الآباء الأولين، ويتلو من ذاكرته القرارات التى انتهت إليها المجامع المقدسة، بل يحفظ خطب شيشرون! هو رجلٌ مبارك حقًا، ومحيرٌ. متى قرأ كل ذلك؟ ولماذا لا يقرأ الآن؟ وهل كان فعلاً ضمن الرهبان الذين استعصموا بالمبنى شهرًا كاملاً، قبل خمسين عامًا؟ ولم لا، فهو فى حدود السبعين من عمره، وإذا صحَّ زمن الواقعة، فقد جرت حين كان فى العشرين. غداً أسأله، بعد قراءة أشعارى له.. هذا ما نويته يومها، غير أن الزمان كان يخبئ لنا شيئًا آخر. ففى صباح اليوم التالى، وبينما كنتُ جالسًا وحدى بقاعة الكتب، ارتبَّ أوراقى الشعرية، وأختار منها ما سوف أتلوّه، سمعتُ صوت أقدام آتية من خلف باب القاعة. كان صوت الحصى يدل على أن القادمين أربعة أو خمسة، فظننت أن رهبانًا جاءوا ليسمعوا شعرى، مع رئيس الدير.. لكنه لم يكن رئيس الدير.

كانت فرحة غير متوقعة. فقد انفتح بابُ القاعة، ودخل منه متهللاً الأبُّ الطيب، الروحُ اليسوعى الخالص، القسّ المبجل، نسطور:

- صباحك مبارك يا هيبيا، جئتُ خصيصًا لأراك.

- مرحبًا بك يا أبت الجليل، هذا عيدُ مباركٍ وحقُّ السَّتِّ العذراء.

دخل وراءه جماعةٌ، يرفلون فى أرديتهم الكنسية الوقورة. كلهم، فيما يبدو من ملابسهم، أنطاكيون. دخل رئيسُ الدير معهم، من وراءه ثلاثة من أكبر رهبان الدير سنًا. جلسنا جميعًا على الاثنى عشر كرسيًا، الملتفة حول الطاولة. كان جمعًا مباركًا، وقد طابت نفسى لما قال رئيس الدير:

- المبجلُ نسطور فى طريقه إلى حلب، لتجديد أبرشيته. وقد سألتنى عنك فور دخوله من بوابة الدير، ولم يجلس إلا عندك.

- هذا تشريفٌ كبيرٌ منه، ومنك يا أبتِ المبجل.

ساعة الظهر، دخل علينا راهبان يحملان أطباقًا. كانت المرة الأولى التي يأكل فيها غيري بهذه الصالة الفسيحة، منذ صيرتها مكتبة. طافت بنا سفنُ الكلام في كل البحار، وشاركنا الحديث القسوس والرهبان، حتى صرفهم نسطور ليستريحوا من سفر اليوم، ويستعدوا لرحلة الغد. لما بقينا ثلاثتنا، هو ورئيس الدير وأنا، أخبرني أنه ابتهج لما عرف باشتهار أمرى في الطب عند أهل النواحي.. وأضاف: البعض في أنطاكية يذكرونك بكل الخير والمحبة والثناء على مهارتك، مع أنك لم تمض هنا إلا عامًا واحدًا. وقد طلب مني الأخوة هناك أن أعرض عليك الانتقال لأنطاكية، إذا شئت، فقلت لهم إنني سأعود العرض عليه، مع أنه رفضه يوم كنا في بيت الرب بأورشليم.

- أنا شاكرٌ لكم فضلكم يا نيافة الأسقف المبجل، ولكنني مرتاح هنا.

- ليكن.. ولكن لماذا لم تزرع بزورك وأعشابك الطبية، مادمت تنوى الاستقرار؟ أم أن رئيس الدير، الطيب، يمنعك.

- لا يا أبتِ، أبدًا، أنا لم أبحث معه الأمر بعد.

نظر نسطور لرئيس الدير نظرة مليئة بالمحبة، ثم صمت لحظة قبل أن يقول وهو يعدل غطاء رأسه، إن علينا الشروع في إنبات الأرض بلا تأخير، ففي زراعة العشب الطبي خيرٌ كثير للمرضى من المؤمنين.. ثم ذكر رئيس الدير بالبئر القديمة المعطلة، التي بقلب الساحة الممتدة بين مباني الدير والمكتبة، مشيرًا إلى ضرورة الاستفادة بمائها في سقى الزرع أيام الصيف. نظر نسطور نحوي وهو يقول: هذا الدير المبارك مرتفع، وعلى جانبي الممر الصاعد إليه قطع متدرج من الأرض الصالحة للزراعة،

يمكنك أن تزرع في أسفلها نباتات البلاد الحارة، وفي أعلاها نباتات البلاد الباردة.. ابتسم رئيس الدير وهو يقول: إيه يا نسطور المبارك، إنك خبيرٌ أيضًا بأمور الزراعة.

- هذه أيها الأب الجليل، معارف أولية. ولكنني أفكر في شيء كبير، كأن نبني بهذا الدير مشفى وكنيسة كبيرة.

استحسن رئيس الدير الفكرة وباركها، ولكنني أشفقتُ منها. كنتُ لازلتُ أخاف صخب الناس من حولي، وأشعر بالغربة بينهم. وقد ارتحت هنا، من اضطراب عالمهم. فإذا تم الأمر الذي يريده نسطور، فسوف أشارك في إتمامه إكرامًا له، ثم أرتحل للسكنى في أي دير قريب، لأنها بابتعادي عن الناس. ذلك ما كنتُ أفكر فيه لحظتها، ثم كان ما كان.

بعد الغروب دخل علينا خدام الدير بطاولة كبيرة، عليها قطع من الجبن، وبيض مشوي، وخبز، وخبز معجون بالسكر، وإبريق من اللبن، وبعض الفاكهة. لم تكن أيام صوم. تناول رئيس الدير حبة خوخ واحدة، مضغها على مهل كعادته، ثم ودعنا وهو يقول: هذه سوف تكفيني للغد، كلوا أنتم هنيئًا فممازلتهم شبابًا، وأكملوا جلستكم المباركة. ولست سوف أسعد برؤياك يا نسطور المبارك، في الصباح الباكر، قبل رحيلك. هيبا يعرف المضيفة، وسوف يأخذك إليها وقتما تشاء. أترككما في عناية الرب.

لم نأكل إلا لقيمات معدودة، ارتشفنا معها بعض الحليب، ثم خرجنا من قاعة الكتب إلى ساحة الدير الفسيحة. كان الأوان خريفًا، والليل يليق السكون.. في الأجواء بردٌ لطيف، وفي السماء نصوحٌ نادر التكرار. قلت لنسطور إنني أشعر هنا بقربى من السماء، وإنني ما عدتُ أحنُّ إلى بلادى الأولى، وما عادت شكوكى تعاودنى.. أضفت: منذ جئت إلى هنا، أشعر بأن العالم صار آمنًا! فابتسم وقلب كفيه في الهواء وهو يقول بأسى: إن

العالم لم يزل فى اضطراب، لكننى ابتعدت عنه.. أضاف: أطراف الدولة أنهكتها غارات البرابرة وقبائل الشمال، والأكراد فى الشرق لا يهدأون، وكذلك القوط فى غالة. وأما مدن المسيح الكبرى، فهى مترعة بالدسائس والفتن الخفية وأسودات الظنون. وأخبرنى بأمور أخرى كثيرة، تصطبخب فى العالم الذى انزويْتُ عنه؛ منها أن تيودور الأسقف ساءت صحته، وثقلت عليه سنواته السبع والسبعون، وأنه سوف يشعر بالوحدة من بعده. وأن الإمبراطور ثيودوسيوس الثانى كاتبه فى أمر كرسى الأسقفية بالقسطنطينية، وسوف ير حل قريباً إلى هناك لرسمته أسقفًا للعاصمة. لم يكن مبتهجًا! قال إن عليه إنهاء أمور كثيرة فى أسقفية أنطاكية وما حولها من أبرشيات، وإن عليه إتمام أعمال بدأها، ولا يدري إلام سيؤول مصيرها بعد انتقاله إلى القسطنطينية.. كان مهمومًا، فأردت أن أسرى عنه، فقلت ممازحًا:

- يا أبت، أن تكون أسقفًا للعاصمة الإمبراطورية، فى السابعة والأربعين من عمرك، هو شأن كبير وخير كثير؛ فلا تأس.
- كُفّ عن هذا يا هيبيا، فقلبى ليس مرتاحًا للقسطنطينية، ولا لمجاورة رؤساء هذا الزمان؛ فإن فيهم ما فيهم.
- سيرعاك الرب ياسيدى، ويحفظك.

أدار نسطور وجهة الكلام إلى ناحية أخرى، بأن امتدح هواء الليلة الرائقة وصفاءها وبردها اللطيف المنعش، وأخبرنى بأنه أحضر لى كتبًا وأعشابًا طبية من أنطاكية، فشكرته على اهتمامه بالدير بقية عمري، فأكدت ذلك.. قضيتا النصف الأول من الليل نتحدث فى أمور كثيرة، حتى كدتُ أتشجّع وأحادثه فى أمر المبنى القصي الغامض الذى بطرف الدير الشرقى، على أجد عنه خبرًا عنده. غير أننى لحظة أشرت للمبنى

تمهيدًا للسؤال تشاءب، فلم يكن أمامى إلا دعوته ليرتاح بغرفته.. صحبته إلى باب المضيفة، وصعدتُ لأبيت فى صومعتى هذه، وقد امتلأت بالأنس وتملكتنى غبطة سماوية لا يشوبها إلا إحساسى بفوات فرصة سؤاله عن حقيقة المبنى الغامض.

فى الصباح الباكر، كنتُ أنتظر نسطور عند باب المضيفة، كان معى اثنان أو ثلاثة من الرهبان. خرج مشرقًا كعادته، وصلينا جميعًا فى الكنيسة، ثم صحبته إلى مائدة الفطور، وبعدها نزلتُ معه حتى سفح التلة.. مضى هو ومن معه إلى حلب، صعدتُ إلى الدير، فوقفتُ عند بوابته أرقبُ قافلتهم الصغيرة، وهى تغيب عن ناظرى بين موجات التلال التى تعلو السهول.



ثم دخلت علينا السنة الثامنة والعشرون بعد الأربعمئة للميلاد، وفيها جرت وقائع كثيرة. انتقل الأسقف تيودور إلى الملكوت الأعلى، وانتقل نسطور فى فصل الربيع إلى القسطنطينية حيث رُسم هناك أسقفًا للعاصمة الإمبراطورية، واستقرت أمورى فى الدير، وازداد تردد المرضى طلبًا لمعالجاتى. مضت بى أيام هذه السنة، والسنة التالية عليها، هادئة هائلة. حتى دخل العام الثلاثون بعد الأربعمئة لميلاد المسيح، وفيه كان ماكان من وقائع مزلة لى لكل ما استقر من أمورى. خاصة ماجرى من تلك الوقائع أواخر السنة، فى بدايات فصل الشتاء. ففى تلك الأيام احتدم الخلاف بين الكبار، وفيها أطلت شمس مرتا فى سماء وجودى، أعنى شمسها اللافحة.

الرُّقُّ الرابعُ عَشَرُ

شُمُوسُ الْبَاطِنِ

قبل أن تهب علينا العواصفُ العاتيةُ الحاليةُ، وتدهمنا الدواهي، كانت أوقاتي في الدير موزعةً بين المبيت في صومعتي أو قاعة الكتب، والصلاة مع الرهبان في الصباح، ولقاء المرضى ما بين الظهر والعصر، والقراءة وكتابة الأشعار حتى يغلبني الوسنُ. كان نومي قليلاً، وكانت رؤاى هادئة. وكثيراً ما سمعتُ الأشعار في منامي، فانتبهتُ لأكتبها. ولذلك صرتُ، أضع رقوقي ومحبرتي، بجوار مخدتي. وتعمّقتُ أيامها في أسرار اللغة السريانية، وعشقتُ آدابها المكتوبة. خاصةً قصة الحكيم أحيقار التي درستُها أول مرة على يد شيخ أحميمي، اسمه ويصا، كان يدرّس لنا اللغات القديمة، ومن بينها الآرامية أو السريانية كما يحب نسطور أن يسميها.. وقد رأيتُ هنا نسخاً أخرى من قصة أحيقار، بينها اختلافات، وكنتُ أنوى مقابلة هذه النسخ الكثيرة، لاستخراج نصٍّ دقيق، محرّر، لهذه القصة المليئة بالعبر^(١). أما أجمل أوقاتي في هذا الزمان الذي يبدو الآن

(١) هي قصة آرامية (سريانية قديمة) تحكي وقائع حياة الحكيم أحيقار وزير الملك سنحريب وغُدر الزمان به، ثم صفوه، ونصائحه لابن أخيه. وهي تطابق على نحوٍ لافت، ما نعرفه اليوم من قصة لقمان الحكيم، ونصائحه لولده. (المترجم).

بعيداً، فكانت جلستي ساعة الشروق على الأحجار المتناثرة عند حافة سور الدير. السور المتهدّم عند الزاوية الشمالية الغربية، المطلة على السهول الواسعة الممتدة حتى ساحل البحر البعيد، ومدينة أنطاكية. تمنيتُ أيامها لو احتدّ بصري، فاستطعتُ من موقعي العالئ عند سور الدير، أن أرى المدن البعيدة: أنطاكية والقسطنطينية والمصيصة! ستكون معجزةً لن أحدث بها أحداً، لو حدثت، أعني لو وهبني الرب إياها. الرب لا يحبّ إظهار معجزاته التي يجريها على أيدي القديسين، إلا نادراً. لكنني، لستُ قديساً، أنا طبيبٌ وشاعرٌ يلبس لباس الرهبان، ويمتلي قلبه بالمحبة للكون، ويتنظر أن ينهي سنوات حياته الآتية بلا آثام، فيرتقي بخفّة الروح الطاهرة إلى السماوات، حيث تتلأل أنوارُ المجدِ الإلهي.. كانت تلك، هي حدود حياتي آنذاك، أعني قبل سنةٍ واحدة فقط.

وكان رئيسُ الدير قد صار قريباً مني، بل كنتُ في هذا الوقت أقربَ سُكّانِ الدير إليه، وأكثرهم جلوساً معه، خاصةً بعد رحيل راهبين: الضحوك والفريسي. ولطالما ناداني رئيسُ الدير إلى غرفته الواسعة ذات الشبائيك الثلاثة، أو أتانى في المكتبة قبيل الظهر، ومكث معي إلى وقت الغداء. الغداء وجبته الوحيدة، ولكنه يحرص على الحضور لصالة الطعام وقت الإفطار والعشاء ليقرا على الرهبان المزامير، ويتكلّم معهم بكلمات قليلة. كان يسألني دوماً عن مرضاي، وعما أكون قد كتبتُه من شعر، ويسعد حين أقرأ له شيئاً جديداً. بل صار يحفظ بعض أشعاري، وينظر إليّ حين أتلوها عليه، بالحنوّ الذي عرفته قديماً في نظرة أبي.. الأبوة روحٌ ربانيةٌ سارية في الكون، تنزل بالرحمة السماوية إلى الصغار عبر آبائهم.

أنا لن أكون أباً أبداً، ولن تكون لي يوماً زوجةٌ وأبناء. لن أعطي هذا العالم أطفالاً ليعذبهم مثلما تعذّبتُ، فلا طاقة لي لاحتمال عذاب طفل.. إذا سمعتُ بكاءً وليدٍ تحمله أمه إليّ لعلاج، أسرع إلى لقائهما عند باب

المكتبة، فأحمله عنها، وأهمُّ به إلى الداخل حيث أحتفظ بين الأدوية، بعلاجات كثيرة لأوجاع الأطفال. الرُّضْعُ منهم يعانون دومًا من انتفاخ البطن، ومن سوء عناية الأمهات ورداءة لبن بعضهن. أصفُ للأم أغذية تحسِّن لبن رضاعها وتجوِّده، وأخفِّفُ القمَاط عن جسم الرضيع وأمسحه بدهانٍ عطريٍّ ابتكرته واختبرته مرَّات، فألفيته نافعًا. كثيرًا ما كان الأولاد الرضيع يبولون تجاهي، لحظة أفكُ القمَاط. كنتُ أضحك، وكنتُ أسعدُ بفرحة الأمهات اللواتي يأتين بأطفالهن الصارخين ألماً وتوجُّعًا، ثم يخرجن من عندي وقد هدأ أطفالهن وناموا على أكتافهن. لا يوجد في العالم أسمى من دفع الآلام، عن إنسانٍ لا يستطيع التعبير عن ألمه. وهل كان مجيئُ يسوع المسيح، إلا لتخليص الإنسان التائه، الغافل عن خطاياه الكثيرة؟ احتمل يسوع الألم ليدفع عنا الإثم.. كانت تلك العبارة بدايةً واحدة من قصائدي السريانية التي أحباها رئيس الدير، وكان يحفظها. هل أذكرها هنا؟.. ولم لا.. تقول قصيدتي:

باحتماله الآلام دفع عنا الإثم،

وبالتضحية افتدانا.

بالمحبة نزل، وبالمحبة علا، وبالمحبة رسم الطريق،

فهدى الناس إلى السلام، وأهدى المؤمنين المسيرة.

اكتوى بنار الأرض، لينزل لنا نيرَ السماء.

أتاح روحه أضحيةً على الصليب،

ليكفِّر عن كفرنا، ونخلص إلى خلاصنا.

القصيدة طويلة، وهي إحدى قصائدي التي ستغنيها مرَّات من بعد ذلك، فتشيع في حروفها الروح، وتبثُّ الشجن في السامعين. أسأل غناؤها د:

مرات، لما غتَّتها وهي تنظر نحوى في إحدى الجلسات التي جمعتنا. لجلساتي مع مرَّات حديثٌ آخر لن أحكيه الآن، فالآن أتذكر أيام الصفاء التي هدأت فيها روحي بين أحضان هذا الدير، وأشرقت شمسُ باطني من أفق الرحمة، حتى أننى نسيبتُ أيامها عذاباتي الأولى وشكوكي وحيرتي الملازمة.. صرتُ كأننى أعيش بين السحاب، وأكاد أحسُّ من حولي بحفيف أجنحة الملائكة التي تملأ السماء. وعرفتُ أيامها لأول مرة، سرًّا الرهبة ونعمة التوحد وصفاء الخلاص من صخب العالم. وتيقنْتُ من أن الدنيا لا قيمة لها، ومن أننى لما تركتها خلفي، اشتريتُ أفق الروح الغالي بمتاع البدن الرخيص.

لم يكن لدىَّ في تلك الأيام ما يكدر صفوى، إلا تلك الأحلام التي قد تفجؤني أحيانًا على غير موعد، لتذكّرني بميراثي الثقيل، وما أخبَّته في باطني. كنتُ في بعض الليالي أصحو باكياً ومرتجفًا، حين أرى أمي في منامي وهي تنظر ساخرة لأبي، كان أبي مسكينًا حتى في أحلامي. هو لم يحدثني بشيء في رؤاي، فقط، ينظر نحوى بأسى بالغ وهو يجذِّف بقاربه، أو يخرج شباكه خالية من السمك. كانت أمي هي التي تحدثني كثيرًا في تلك الأحلام، وكثيرًا ما كانت تضحك بصوتٍ مجلجل، فتوقظني قَرَعًا.. ومع أن هذه الرؤى كانت تأتيني في ليالٍ متباعدة، إلا أنها قد تأتي مرتين أو أكثر في ليلة واحدة.

في ليلةٍ رأيتُ هيباتيا في ثوبها الحريري الأبيض ذى الحواف المحلاة بالخيوط الذهبية. كانت تشع إشراقًا ومحبة، وكنتُ في حلمي شابًا لم أتعُدَّ العشرين، وكان عمرها هو الذى عرفتها فيه. رأيتها تقرأ لى كتابًا في علم الكيمياء، مع أنها لم تشتغل في حياتها بهذا العلم. كنتُ أحفظ عنها ما في الكتاب، فور قراءتها للسطور وهي تمرُّ عليها بإصبعها. إصبعها رشيقٌ، ظفرها ناصعٌ بياضه، وناعمةٌ حركته المارة على الكلمات. كانت تلتفت

إِلَى بِاسْمَةِ وَهِيَ تَقْرَأُ، وَحِينَ تَمْنِيْتُ أَنْ تَضْمَنْتِي لَصَدْرَهَا، ضَمَّتْنِي. لَمَّا احْتَضَتْهَا، وَجَدْتُهَا قَدْ صَارَتْ أَوْكَتَافِيَا مُضْرَّجَةً بِدُمَائِهَا، فَانْتَبَهْتُ فَرَعًا.

وَرَأَيْتُ مَرَاتٍ رُؤْيَا غَرِيبَةً: الْبَحْرُ الْمَالِحُ تَمُورُ مِيَاهِهِ بِدَوَامَاتٍ كَثِيرَةٍ، تَحَاوُلُ أُمَى الْخُرُوجِ مِنْهَا، بَيْنَمَا أَرْقُبُهَا خَائِفًا وَأَنَا أَقْفُ عَارِيًّا عَلَى الشَّاطِئِ، كَانَتْ تَنَادِينِي بِالْأَسْمِ الَّذِي اخْتَارْتَهُ لِي أَوْكَتَافِيَا، وَلَمْ يَعْرِفْهُ غَيْرُنَا: ثُبُورُوسُ بُوْسِيدُونِيُوسُ! ثَمَّ يَنْقَلِبُ نَدَاؤُهَا اسْتِغَاثَةً لَا تَلْبِثُ أَنْ تُصِيرَ صَرَخًا يَتَرَدَّدُ صَدَاهُ فِي الْكُونِ، فَيُوقِظُنِي مِنْ نَوْمِي مِنْهَكَا، وَيُثَبِّتُنِي مُسْهَدًا بِقِيَّةِ لَيْلَتِي.

الْعَامُ الْمَاضِي تَحَدَّثْتُ مَعَ رَئِيسِ الدَّيْرِ فِي أَمْرِ الْمَبْنَى الْغَامِضِ، مَرَّتَيْنِ. فِي الْمَرَّةِ الْأُولَى لِأَذٍ بِالْصَّمْتِ وَلَمْ يَجَاوِبْنِي، وَفِي الْمَرَّةِ الْآخَرَى كُنَا جَالِسَيْنِ صَبَاحًا، وَالشَّمْسُ تَكَادُ تَطْلُعُ عَلَيْنَا مِنْ خَلْفِ الْمَبْنَى، قُلْتُ لَهُ مَا مَعْنَاهُ إِنَّنِي لَنْ أَسْأَلَهُ فِي ذَلِكَ ثَانِيَةً، مَا دَامَ لَا يَرِيدُ أَنْ يُخْبِرَنِي. كَانَ الصَّبَاحُ رَائِقًا، وَالْأَوَانُ صَيْفًا. أَطْرَقَ رَئِيسُ الدَّيْرِ لِحِظَةً، ثَمَّ حَكَى لِي مَا فَحَوَاهُ أَنْ هَذَا الدَّيْرُ كَانَ فِي الزَّمَنِ السَّحِيقِ، مَعْبَدًا لِلَّهِ الْخَصْبِ وَالْمَرَاعَى وَلِرَبِّهِ الْحَقُولِ. اعْتَقَدَ النَّاسُ قَدِيمًا أَنَّهُمَا التَّقِيَا فَوْقَ هَذِهِ التَّلَّةِ، وَتَحَابَا! وَلَمَثَاتِ السَّنِينَ، كَانَ الْمُتَعَبِّدُونَ يَأْتُونَ إِلَى هُنَا مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ، فَيَعْمُرُونَ الْمَعْبَدَ، وَيَرْفَعُونَ مَعَ الزَّمَانِ أَعْمَدَتَهُ، حَتَّى صَارَ وَاحِدًا مِنْ أَكْبَرِ الْمَعَابِدِ فِي الزَّمَنِ الْقَدِيمِ. وَفِي زَمَانِ الْمَلِكِ سَلِيمَانَ بْنِ دَاوُدَ النَّبِيِّ، أَرَادَ الْيَهُودُ أَنْ يَجْعَلُوا مِنَ الْمَعْبَدِ بَيْتًا لِلرَّبِّ، فَأَرْسَلُوا سِرًّا سَرِيَّةً عَسْكَرِيَّةً لِهَدْمِهِ، فَاسْتَعَصَى ذَلِكَ عَلَيْهِمْ لُصْخَامَةُ الْبِنَاءِ، وَكَثَرَةُ الْكَهَنَةِ الْمُقِيمِينَ فِيهِ، وَالزُّوَارِ. وَيُقَالُ إِنَّ السَّرِيَّةَ الْيَهُودِيَّةَ أُيِّدَتْ بِكَامِلِهَا فِي ظُرُوفٍ غَامِضَةٍ، فَغَضِبَ سَلِيمَانُ وَأَرْسَلَ لِهَدْمِ الْمَعْبَدِ جَمَاعَةً مِنْ جُنْدِهِ، فَلَمْ يَقْدِرُوا بِسَبَبِ الطَّلَسْمَاتِ الرَّهِيْبَةِ الْمَدْفُونَةِ تَحْتَهُ، وَالرَّصْدِ الَّذِي عَمِلَهُ الْكُهَّانُ الْقَدَمَاءُ، وَلَمْ يَسْتَطِعْ أَحَدٌ فَكَّ رَمُوزِهِ وَإِبْطَالَ سِحْرِهِ.. وَظَلَّ الْمَعْبَدُ قَائِمًا إِلَى أَيَّامِ السَّيِّدِ الْمَسِيحِ، غَيْرَ أَنَّهُ اضْمَحَلَّ مَعَ كَرِّ السَّنِينَ عَلَيْهِ. وَلَمَّا هَجَرَهُ النَّاسُ، سَكَنَهُ عَزَازِيلُ وَأَبْنَاؤُهُ مِنَ الشَّيَاطِينِ

وَالْأَبَالِسَةُ، وَعَاشُوا بَيْنَ جَنَابَتِهِ مَعَ أَتْبَاعِهِمْ مِنَ الْبَشَرِ الَّذِينَ كَانُوا آنَذَاكَ يَعْبُدُونَ الشَّيْطَانَ! وَبَعْدَمَا عَجَزَ عَزَازِيلُ عَنْ غَوَايَةِ الْمَسِيحِ كَمَا هُوَ مَكْتُوبٌ، وَانْتَصَرَتْ كَلِمَةُ الرَّبِّ، حَدَثَ زَلْزَالٌ هَائِلٌ انْهَدَمَ مَعَهُ الْمَعْبَدُ، فَلَمْ تَبْقَ مِنْهُ إِلَّا هَذِهِ الْحِجَارَةُ الْمُتَنَاقِثَةُ وَالْأَعْمَدَةُ الْمُنْكَسِرَةُ.. ثَمَّ حَدَثَ أَنْ جَمَاعَةٌ مِنَ الْآبَاءِ الْأَوَّلِينَ كَانُوا يَبْشُرُونَ فِي هَذِهِ النُّوَاحِي، فَقَتَلَهُمُ الرُّومَانُ، وَدَفَنَهُمْ تَلَامِذَتُهُمْ فِي هَذَا الْجُزْءِ الشَّرْقِيِّ مِنَ الْمَعْبَدِ. ثَمَّ صَارَ الْمَوْضِعُ مَزَارًا بَعْدَمَا انْتَشَرَتْ دِيَانَتُنَا، وَشَاعَتْ فِي هَذِهِ النُّوَاحِي. وَأَقِيمَ هَذَا الْبِنَاءُ فَوْقَ قُبُورِ الْآبَاءِ الشُّهَدَاءِ، خَشِيَّةً أَنْ يَنْبَشِهَا الْوُثْنِيُّونَ الَّذِينَ كَانُوا يَحْقِدُونَ عَلَى أَتْبَاعِ الْمَسِيحِ، وَيَتَمَنُّونَ أَنْ يَعُودَ مَعْبَدُهُمُ الْقَدِيمُ إِلَى مَا كَانَ عَلَيْهِ. وَرَفَعَ أَهْلُ الصَّلِيبِ هَذَا الْبِنَاءَ لِيَحِيطَ بِمَرْقَدِ الْآبَاءِ، وَكَانَ حَائِطُهُ مِنْ جِهَةِ السَّاحَةِ ثَلَاثَةً جِدْرَانِ مُتَلَاصِقَةٍ، لَا يُمْكِنُ نَقْبُهَا أَبَدًا لِصَلَابَةِ أَحْجَارِهَا وَسَمَكِ الْجِدْرَانِ الثَّلَاثَةِ. أَمَّا الْجِهَاتُ الثَّلَاثُ الْآخَرَى، فَهِيَ حَصِينَةٌ بِطَبْعِهَا لِإِشْرَافِهَا عَلَى الْجُرْفِ، وَلَا رَتْفَاعِهَا. ثَمَّ صَارَ الْبِنَاءُ مَعَ الْأَيَّامِ مَلَاذًا لِلرُّهْبَانِ، وَحَصْنًا.. صَمَتَ رَئِيسُ الدَّيْرِ قَلِيلًا، ثَمَّ قَالَ: فِي الْخَامِسَةِ عَشْرَةِ مِنْ عَمْرِي، كُنْتُ هُنَا يَوْمَ حَاصِرِنَا اللَّصُوصُ. وَبَقِينَا خَمْسَةَ أَيَّامٍ كَامِلَةً بِالْمَبْنَى، لَا شَهْرًا كَمَا يُقَالُ. وَكَادَ أَغْلِبُنَا يَهْلِكُ مِنْ شِدَّةِ الْجُوعِ وَالْعَطَشِ! وَلَمَّا عَجَزَ اللَّصُوصُ عَنْ نَقْبِ الْجِدَارِ، رَحَلُوا يَائِسِينَ. وَمَا عَرَفُوا أَنَّ الْمَبْنَى، لَيْسَ فِيهِ أَصْلًا شَيْءٌ يُسَلِّبُ.. أَضَافَ رَئِيسُ الدَّيْرِ بَعْدَمَا صَمَّتْ بَرَهَةٌ: وَلَا صَحَّةَ لِمَا يُقَالُ عَنْ وَجُودِ الْمَسَامِيرِ الَّتِي دُقَّتْ فِي جَسَدِ يَسُوعَ، وَتَضَعُ بِاللَّيْلِ.. هَذَا يَا هَبِيَا، كُلُّ مَا يُمْكِنُ أَنْ أَقُولَهُ لَكَ عَنْ هَذَا الْبِنَاءِ، فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْهُ ثَانِيَةً بَعْدَ الْيَوْمِ.

انْتَهَى رَئِيسُ الدَّيْرِ مِنْ كَلَامِهِ، فَابْتَدَأَتْ حَيْرَتِي، وَتَدَاخَلَتْ أَفْكَارِي. لَمْ أَفْهَمْ كَثِيرًا مِمَّا قَالَهُ. كَانَ يَتَحَدَّثُ إِلَيَّ وَكَأَنَّهُ يَتَلَوُّ عَلَيَّ نَصًّا يَحْفَظُهُ، حَتَّى أَنْ وَجْهَهُ لَمْ يَظْهَرْ عَلَيْهِ أَيُّ تَعْبِيرٍ وَهُوَ يَتَكَلَّمُ. تَرَدَّدْتُ لِحِظَةً، ثَمَّ انْفَلَتَ مِنْهُ السُّؤَالُ:

- لكننى يا أبتِ كنتُ أسمع أصواتًا تأتي خفيفةً من داخل البناء، إذا
أصقُتُ أذنى بالجدار. حدث ذلك معى مرارًا!

- يا هيبا، هى أصواتُ تأتي من داخلك، لا من داخله! وقد يكون فى
المبنى فئرانٌ كبيرة أو أفاعٍ وحشرات، فهو لم يُفتح منذ أعوام
طوال.

- لكنك يا أبتِ سوف تفتحه، إذا مات أحد الرهبان.

- لا، ما عُدنا ندفنُ فيه أحدًا، ولن نفتحه أبدًا!

الرَّقُّ الخامس عشر

فَرِيسَى الْأَقْنُوم

الرهبانُ فى هذا الدير، وفى النواحي المحيطة، يختلفون عن إخوانهم
فى مصر والإسكندرية. أولئك وهؤلاء، فيهم تُقى ومحبةٌ للرب وتوغلٌ فى
التأله. غير أن طريقنا نحن الرهبان المصريين، أشدُّ خشونةً وأكثر توغلًا فى
ضروب العبادات الشاقة. ولا عجب، فنحن -المصريين- ابتدعنا الرهبنة،
وأهديناها لأنحاء العالم المسكونة بالمؤمنين.

كان الرهبان هنا يتعجبون من تقشُّفى ومجاهداتى الروحية، ويعجبون
من صبرى على النظر فى الكتب، وانكبابى الدائم على الكتابة. كانوا أيضًا
وما يزالون، يستغربون نومى جالسًا فى أغلب الليلات، وبقائى متوحدًا فى
المكتبة معظم الأيام، حتى أنهم صاروا من بعد مجيئى بشهور، يلقَّبوننى
هيبا الغريب!.. شيئًا فشيئًا، تبدد تعجبهم وإعجابهم واستغرابهم، مع
الاعتiad على والتقرب منى. ومع ذلك ظلوا ينادوننى بالغريب، وأحيانًا
بالطبيب. وهم هنا أقل شغفًا بأخبار الإسكندرية من إخوانهم فى أورشليم،
وبالتالى كان إزعاجهم لى أقل، بل الحق أقول إنهم غير مزعجين أصلاً.
غير أنهم كانوا فى البدء، تواقين لمعرفة سِرِّ الصلة التى تجمعنى بالأسقف

نسطور. فلما أخبرتهم بحقيقة ماكان من لقائنا الأورشليمي، استراحوا. ولما عرفوا في المهارة في الطب وأمور العلاج، تقربوا. ولما لاحظوني شهوياً فلم يلحظوا في سيرتي ما يؤرق، اطمأنوا.. صاروا يمرّون على المكتبة، ويجالسونني في الساحة العليا بعد القداسات الطويلة.

كنت في بداية الأمر قليل الكلام والمؤانسة، وكانوا يحترمون صمتي ووحشتي.. يوماً من بعد يوم، صرتُ كأنني واحدٌ منهم. بل غدوتُ ميلاً إلى مجالستهم، ومبتهجاً ببشاشتهم الدائمة المحبة التي تملأ قلوبهم. كان أقربهم مني، اثنان من أصدق الرهبان. الأول هو الراهب الذي سميت: الضحوك الوقور! لأنه كان يجمع بين الصفتين اللتين قلما تجتمعان. وقد ارتحل مؤخراً إلى أنطاكية، واستقر في ضواحيها، بدير هناك يسمونه يوبريوس^(١)، بعد عامين قضيناهما معاً هنا. كان خلالهما يسكب البهجة في قلوب من حوله، ويملاً أرواحهم محبةً وصفاءً. كانت ملامح وجهه، خاصةً شفته العليا المقببة الكاشفة عن أسنانه، توحى بأنه دوماً يبتسم! وقد كان بالفعل كثير التبسم، فكان الربّ خصّه ببشارات بددت عنه كل الهموم.. كان طيب العينين، يضحك لأهون الدواعي. وحين يضحك، يضع كالعذارى باطن كفه على فمه. ومع ذلك، فقد كانت دمعته قريبة، سريعة الانحدار. حضر مرةً معالجتى لطفل مسكين يشكو التهاباً في رقبته، من ذلك النوع الذي نسميه النار الفارسية؛ فسأل دمه، وانصرف غير قادر على احتمال بكاء الطفل. وصار من بعد ذلك يغادر المكتبة فور دخول أيّ مريض.. لم أملك دمعى حين ودّعته عند بوابة الدير، يوم رحيله المفاجئ، ولم أره من بعد ذلك، قط، مع أنني كثيراً ما اشتقتُ لرؤيته واقتقدتُ مؤانسته.

(١) تشير المصادر التاريخية، إلى أن نسطور بدأ سلك الرهبنة في هذا الدير.. ومن الغريب، أن الراهب هيبا لم يُشر إلى ذلك هنا! (المترجم).

الراهب الآخر، هو الآن أقربُ الرهبان إلى قلبي. أمضى هنا عشرين سنة من حياته، وهو أكثر الرهبان شبهاً برئيس الدير، إلا أنه أصغرُ منه بعشرين عاماً، وأكثرُ بدانةً وأكثرُ لحيّةً. هو قصيرٌ على نحوٍ لافت وبطنه كبير، حتى يكادُ يبدو في مشيته المتعجّلة دوماً، كأنه كرةٌ تندرج. قدماء ويداه صغيرتان كما لو كانتا لصبي صغير، وله أيضاً ابتسامةٌ طفلٍ أو صبيٍّ يافع. غير أن الذي يعطيه هيئة الرجال، هو صلته ولحيته السوداء الكثّة، وخداه المنتفخان تحت عينيه المتحلّقتين بكُمدةٍ من أثر السهر، أو سوء الهضم. عيناه واسعتان، وفيهما ذكاءٌ وشغف. وفي قلبه طيبةٌ تغيب عن عين الغريب، ويعرفها الذي يقترب منه.

رأيتُه أولاً مرات في الكنيسة، ثم تأخينا مع الأيام. خاصةً بعدما ساعدني بهمة عالية، في إعداد المكتبة التي كانت من قبل بناءً مهجوراً. كان ينظر في الكتب وهو يصفّحها معي فوق الرفوف، نظرةً الشغوف بالنصوص، غير أنني نادراً ما رأيته يقرأ. الرهبان هنا ينادونه بلقب غريب: فرّيسي الأقنوم! وقد صرتُ مثلهم أناذيه بذلك اللقب الذي لا ينزعج منه، ولا يفرح به.

في ابتداء تعارفنا، حكى لي يوماً ونحن جالسان عند بوابة الدير، أنه من أصول عربية، وأنه يعرف اللغتين اللتين يتكلم بهما عربُ الشمال وعربُ اليمن. لم أكن وقتها أعرف أن للعربية لغتين، شمالية وجنوبية. وأخبرني بأنه نشأ يتيمًا من جهة أبيه الذي كان ثريًا يشتغل بالتجارة، وكان يسكن بيتًا كبيرًا في قلب بلدة حلب. ولما تزوج عمّه بأُمّه ليحفظا ميراث أبيه، هجر دنياهما، والتحق بالأبرشية هناك خادماً، ثم شماسًا. وصار راهبًا في الخامسة والعشرين من عمره، وتوحد ثلاثة أعوام، ثم جاء إلى هنا، فاستقر بالدير.. بعدما عمّقت معرفتي به، أخبرني بأسراره التي منها، أنه عصى الربّ مع النساء مرات في شبابه المبكر، واستحلّ فروجًا بغير حقّ، ثم تألم من خطاياہ وثاب، واعترف لرئيس الدير بكل ما اقترفه. فعرف

سِرَّ الاغتراف من رحمة الرب بالاعتراف، وأقلع عن الدنس الذى كان يقلقه ويبهجه ويؤرقه.. غير أنه صار بعد خدمته الربانية، يكره النساء. بل هو لا يطبق أى مؤنث، حتى لو كان من غير الناطق من الحيوان! قلت له يوماً، وقد أفاض كعادته فى الحط من الأنوثة:

- مهلاً يا فَرِّيسى، فإن الأرض أنثى، والرب جاء من العذراء.

- لا يا هيبا، لا.. الأنوثة والنساء سبب كل بلاء، والأرض والسماء والماء والهواء والزروع، ليست إناثاً ولا رجالاً، هى عطايا الرب لأدم الذى أغوته امرأته حواء، فكان ماكان. والعذراء مريم استثناءً وحيداً، جعلها الآب طاهرة؛ لينبت منها ربنا يسوع المسيح. كى يعرفنا أن أجل الأمور، قد يأتى من أقل الأشياء، وأن الذر يتشكل فى الأصداف. وإلا، فما العذراء لولا ولادتها المسيح.

- استغربتُ قوله: لينبت منها. غير أننى لم أشأ أن أجادله، فهو لم يدرس اللاهوت فى مصر، ليعرف أن الانبثاق لفظ فلسفى لا يجوز استخدامه للتعبير عن التجسد، وأن المسيح أخذ من جسد العذراء بشرته، ومن ثمَّ نصفه الإنسانى، حسبما كانوا يقولون هناك.. يومها، كان قد سكَّت لحظةً نظر فيها إلى بعيد، وفجأةً قال وكأنه اكتشف شيئاً خطيراً:

- انظرْ إلى هذا الدير، وإلى كل الأديرة والكنائس. لماذا يسودها السلام؟.. لأنها خالية من النساء، وما يسببه من ويلات وخيانات.

- وهل كل النساء خائنات؟

- نعم، بالقطع. الرجل الوحيد الذى جاز له أن يأمن خيانة امرأته، هو أبونا آدم. لأن امرأته لم تجد رجلاً غيره، تخونه معه فى فرشتها أو فى خيالها. ومع ذلك خانتته مع عزازيل اللعين، وتحالفاً ضده.

كان الفَرِّيسى يحبُّ الإفاضة فى الكلام. وهو يهز رأسه إذا انهك فى الحكى، ويمدُّ ذراعيه فى الهواء، ويرسم الكلمات بكفَّيه وأصابعه، كما لو كان يحدث شخصاً يسمع بعينه. وهو لا يحبُّ أن يُقاطع كلامه، ولا ينظر أبداً فى وجه مَنْ يحدثه! فكانه إذا استرسل فى الكلام، يكلمُ قومًا آخرين.. أردتُ أن أشاغبه بمحية، فقلت له: وماذا عن أديرة النساء؟ فاندفع كشلالٍ منهمر، وهو يقول:

- آه، هذه بدعةٌ ابتدعوها على غير أساس. الرهبنة طهَّرُ وصفاءٌ وهجرانٌ للدنيا الفانية، ومن أهم علاماتها العزوفُ عن النساء. فكيف يمكن ذلك للمرأة؟ ألم تر قول متى الرسول فى إنجيله، عن يسوع المسيح: مَنْ استطاع أن يحتمل عدم الزواج، فليحتمل! وقول بولس الرسول فى رسالته الأولى إلى أهل كورنثة: حَسَنٌ للرجل أن لايمس امرأة..

- لكن بولس الرسول، قال فى الرسالة ذاتها: مَنْ تزوّج، فحسناً فعل.

- ثم قال بعدها: وَمَنْ لايتزوّج، يفعل أحسن!

كان الفَرِّيسى أيامها شديد المجادلة، لكنه لم يعد الآن كذلك. وهو يحفظ الكتب القانونية كلها والأنجيل الأربعة ورسائل الآباء. ولا يطبق الهرطقات والنصوص المحرّمة، يستريب من الأسفار غير القانونية التى صرنا مؤخراً نسميها الأبوكريفا. وهو يلومنى دوماً، لاحتفاظى بنسخ من الأنجيل المحرّمة، فى صومعتى. لكنه لم يخبر أحداً، قط، بهذا السِّرِّ الذى أفصحْتُ له عنه، بعد عام من استقرارى هنا.. والفلسفة تغيطه جدًّا مع أنه قريبٌ من التفلسف، القريب بطبعه من اللاهوت. وهو معنئ

بقرارات المجامع المحلية، والمجمع الكبير الذي انعقد قبل مائة عام في نيقية، بحضور الأساقفة الذين صاغوا لنا قانون الإيمان الشهير. وشغوفٌ بشروحات هذا القانون، وبالتعليقات التي على الشروحات. وله بالطبع عنايةٌ بشروح وتفسيرات الأناجيل، وله اهتمامٌ، بل هيامٌ عظيم بكل ما يتعلق بالأقنوم. وهو لا يكف عن الكلام عنه والتفكير فيه والتشدد بصدده؛ ومن هنا جاء لقبه الفريسي، الذي يناديه به المقرَّبون منه: فريسي الأقنوم^(١).

كان الرهبان يحثُّون مشاغبتهم بالسؤال عن طبيعة يسوع المسيح وجوهره وحقيقته الذاتية، وغير ذلك من المعاني والألفاظ الكثيرة المرادفة لكلمة أقنوم المحيِّرة، خاصةً في هذه النواحي التي تتكلم اليونانية والسريانية والعربية، ولغات أخرى أقل أهمية. كان الفريسي يعرف كل مقابلات الكلمة في هذه اللغات، وقد سألتني أول ما لقينى عن معنى كلمة أقنوم عند المصريين والإسكندرانيين، فقلت إنها تعنى الشخص أو الكيان الذاتى، وإنما نادرًا ما نستعمل الكلمة في كلامنا، فقال: حسنًا تفعلون!.. وإذا استجاب لمشغبة الرهبان، وكان غالبًا ما يستجيب، يخوض في بيان الأقانيم الثلاثة المقدسة: الآب والابن وروح القدس. ويشرح بتفصيل التفصيل، كل الأقوال والمذاهب والبدع، منتصرًا إلى القول بوحدة الله والمسيح، الآب والابن، في أقنوم واحد أو طبيعة واحدة. وكثيرًا ما كان الرهبان يترحلون عن مجلسه، بينما هو منهمكٌ في الشرح، حتى يرحل عنه آخرٌ مستمع فيهم، أو يدخل وقت الصلوات، فيضطر عند باب الكنيسة، إلى قطع شُرْحه الذي لا ينتهى. وكان يردّد دائمًا، إنه سوف يؤلّف رسالة

(١) الفريسي، وصفٌ يُطلق على المتشدّد في ظاهر الديانة، وهو وصفٌ مشتقٌّ من اسم الجماعة اليهودية (الفريسيين) الذين تعلّقوا بظاهر الشريعة اليهودية، وجادلوا السيد المسيح.. ثم صارت الكلمة في الزمن المسيحى، وما تزال، تعنى عمومًا: المتشدّد. (المترجم).

في بيان الأقانيم الثلاثة.. قبل بضعة شهور من الآن، نهاء رئيس الدير نهائيًا قاطعًا عن الخوض في تلك الأمور الأقنومية، وعنّف بقية الرهبان على إثارتها معه، فانصاعوا. ومع ذلك، التصق وصف فريسي الأقنوم به، حتى بعدما حُظر الكلام حول الأقانيم.

سألتُ رئيس الدير يومًا، في جلسة راقية، عن سبب منعه الرهبان من الخوض في أمر الأقنوم، فأجاب بقطع وحسم بأن هذا الجدل السقيم، من شأنه أن يصير بابًا من أبواب الفتنة وظهور الهرطقات، حتى وإن نوقش الأمر على هون بغرض الدرس اللاهوتى، أو بقصد شغل الأوقات بالمسامرات.. الرهينة أَجَلٌ من ذلك كله! هكذا قال رئيس الدير وقد تكذّرت روحه، فوافقتة مثلما وافق الجميع، ولم يعد أحدنا يتباحث في هذا الأمر.

قبل أربعة شهور، استدعوا الفريسي إلى أنطاكية على عجل، فذهب إلى هناك وغاب شهرًا، افتقدته فيه كثيرًا. ثم عاد فجأة، مثلما ذهب، وقد تغيّرت أحواله قليلًا، وغابت عن وجهه الابتسامة الراقية التي كانت تُزيّنه معظم الأوقات.. لما سألتُه عما جرى خلال هذا الشهر الأنطاكي، لاذ بالصمت.



أواخر العام التاسع والعشرين والأربعمئة للميلاد، تجمعت بعض الغيوم المنذرة بالعواصف، إذ كانت تأتينا من القسطنطينية أخبارًا غير مريحة، وغير مفهومه أحيانًا بالنسبة لى. من ذلك أن الأسقف نسطور، عقّد هناك مجمعًا محليًا، جرّد فيه بعض القسوس من رتبهم الكنسية وحكّم عليهم بالطرد، لأنهم لم يوافقوه على رأيه القائل إن العذراء مريم، هى أمّ المسيح، خريستوتوكوس! وأصرّوا مجتمعين على ما يعتقدونه ويعتقده

عوام الناس، من أن العذراء هي ثيوتوكوس، يعنى أُمُّ الإله.. كما وصلنا أن الأسقف نسطور، هدم كنيسة للآريوسيين في القسطنطينية، واستصدر قرارًا من الإمبراطور بمطاردة أتباع آريوس.. وأن الأسقف نسطور، أعلن الحرب على أتباع كنيسة الأَطْهَار^(١)، وحكم عليهم بالهرطقة، والخروج عن حظيرة الإيمان القويم!

لم أكن أفهم ما يجرى في عاصمة الإمبراطورية، ولم أهتم بالتحقق من صحة هذه الأخبار المشوَّشة. وبالطبع لم أنهم الأسقف نسطور بشئ فى نفسى، ولا أتَّهمه الرهبان هنا بشئ أمامى، لما يعلمونه من محبتي له.. وأنا أحبه حقًا، ومازلتُ إلى اليوم مقيمًا على محبته حافظًا لها، على الرغم من تقلُّبات الأيام.

وفى غمرة تلك الأيام الغائمة، لمحتُ مرتًا أول مرة. ولم يخطر ببالي يوم رأيتهَا، أننى سوف أحترقُ بنارها اللاهبة.



فى الأسبوع الأخير من السنة المذكورة، أعنى التاسعة والعشرين بعد الأربعمئة، مرَّت بنا قافلةٌ من الرهبان. كُنَّا ليلتها مبهجين بذكرى الميلاد المجيد، نستدفي بهجة العيد من برودة ذلك الشتاء الذى جاء بزمهرير مريـر، كاد يُسقط منا أطراف الأصابع. كان المطر الغزير يهطل بلا انقطاع على غير العادة، فعرجتُ إلى الدير قافلةً فيها كاهنٌ وثلاثة رهبان وخادمان، كانوا فى طريقهم من أنطاكية إلى بلاد الأكراد الواقعة وراء هذه الصحراء الشرقية..

(١) هم أتباع الأسقف الرومانى نوفاتىوس، الذين توافقوا مع الدونانيين فى أفريقيا والمليتيين فى مصر، منذ أواخر القرن الرابع الميلادى، فى قولهم جميعًا برفض الثاليتين العائدين إلى المسيحية، بعد انتهاء عصر الاضطهاد.. وقد عُرفوا آنذاك باسم: كنيسة الأَطْهَار. (المترجم).

قالوا إنهم سوف يبشرون (يكرِّزون) هناك فى بلدة اسمها بارس، وإنهم ينوون بناء كنيسة كبيرة فى تلك البلدة، على أمل أن تصير يومًا أسقفية.. ولطول هطول الأمطار وانقطاع الطريق، قضى المسافرون معنا ليلتين، ثم انطلقوا صبيحة اليوم الثالث لاستكمال رحلتهم.. ودَّعَتهِم بعدما أوصلتهم مع بعض رهبان الدير، حتى سفع التلة. أثناء عودتى، كنتُ أفكرُ فى الصحراء الشرقية، التى يتعين عبورها للوصول إلى بلاد الأكراد. قالوا لى عنها إنها قاحلةٌ جدًّا، وملحيةُ التربة، وفيها ذبابٌ وحشراتٌ تلتصق بالوجوه أيام الصيف والحرِّ الشديد، سعيًا لامتنصاص رطوبة الأبدان، وربما مات البعض من شدة التصاق الذباب بوجهه. أردتُ يومها أن أمرَّ على رئيس الدير فى صومعته، لأستوثق منه ما سمعته من أخبار هذه الصحراء، فكان بابه مغلقًا.. وألغيتُ لدى الباب امرأتين تنتظران، يلعبُ بأطراف ثوبيهما هواء الشتاء. لما اقتربتُ، نظرتُ إحداهما نحوى بعين حاملة، فاضطربتُ، وانصرفتُ من فوري إلى صومعتى. وقد جمَّدتُ أطرافى برودة الهواء، وألهبتُ باطنى نظرة المرأة التى أتتني من خلف سترها الحريرى الشفاف، فلم أتبين يومها ملامحها.. من شرفة الطابق الأعلى لمبنى الرهبان، لمحتُ كاهن الكنيسة آتيا نحوهما. لم أعنَ يومها باستجلاء الأمر، وإنما أغلقتُ باب صومعتى ورائى، وبقيتُ مستدفئًا فى أمان الرَّبِّ.

فى تلك الأيام، صارت حوائط المكتبة خزائن خشبية. ذلك لأننى عند هطول زخَّات المطر، كنتُ أخشى أن يتسرَّب الماء إلى الأرفف الخشبية الموضوعة عليها الكتب والرقوق واللفائف. ومع أن المكتبة مسقوفةٌ بشكل جيد، إلا أننى خشيتُ وصول الماء عبر شقوق الجدران، فلاشئ أخطر على الكتب من الماء! فهو يعطِّن الرقوق الجليدية ولفائف البردى، ويُلصقها للأبد ببعضها، كما أن الحبر يميغُ عند البلل، فيمحو السطور بالكلية. كلَّمتُ رئيس الدير فى الأمر، فسارع إلى استدعاء نجار

القرية، وساعدناه في تغطية الرفوف بـصُلفٍ خشبية فصارت الكتب فيما يشبه الخزائن، وصار حالها آمنًا.. غير أنني افقدت بعدها، ما كنتُ أنعم به دومًا من النظر إلى صفوف الكتب التي على الرفوف. وكنتُ كلما دخلتُ المكتبة، أبادر إلى فتح الصُلف كلها، ولا أغلقها إلا عند خروجي.

بعد أسابيع تناولت فيها الليالي، وطالت أبداننا أمراض الشتاء؛ هداً البرد قليلاً وراقت السماء. وفي ليلة انزاح فيها الغيم عن قبة الفلك الناصع بالاسوداد وبألقي النجوم، كنا نتهياً للخروج إلى الكنيسة الكبيرة لأداء الصلوات الأخيرة، بعد جلسة العشاء التي اجتمعنا لها في صالة الطعام والتهامس بالكلام.. ليلتها استوقفني رئيس الدير بإشارة لطيفة من يده، فتمهلْتُ حتى انصرف بقية الرهبان. بدا مبتهجا وفخورا وهو يهمس إلي بصوته الهادئ الذي رفقته السنون والمحن، وهذته كثرة المجاهدات والصلوات: الأسقف نسطور يريدك في أمرٍ مهم، سيلتقك في أنطاكية غداً، بعد الغروب.

غداً بعد الغروب! لا بد إذن أن أرحل مع أول شعاع للشمس، فالرحلة إلى أنطاكية قد تستغرق النهار بطوله، وقد تطيلها آثار الأمطار التي انهمرت طيلة الأسابيع السابقة. كنتُ مشتاقاً إلى رؤية نسطور والحديث معه، حتى أنني فكرت مرات أن أزور القسطنطينية لرؤيته. وهاهو يذكرني، ويطلب لقائى على عجل في أنطاكية! على عجل.. ما الذي جرى؟ وأى داع جعله يستعجل اللقاء؟.. لعله لن يبقى طويلاً في أنطاكية، أو هي أيام قليلة يزور فيها إخوانه، ثم يُبحر عائداً إلى القسطنطينية لحضور أعياد القيامة هناك، فأراد قبل رحيله أن يرانى.. أم تراه أرادنى لأمرٍ آخر؟ ليكن، فإن أى أمر يدعو نسطور لرؤيتي، سيكون بالقطع أمراً خيراً، فالخير لا يأتي منه إلا الخير.. أو لعله يريدنى للذهاب معه إلى مقر أسقفية؟ أو يدعونى ثانية

للبقاء في أنطاكية؟ أو هو يريد البدء في توسعة هذا الدير، وبناء مستشفى، التي حدثنا عنها من قبل ..

ـ مبالك يا ولدى، ما كل هذا الشرود؟

أخرجنى سؤالُ رئيس الدير من متاهة الاحتمالات التي طوّحتني بعيداً، فانتبهتُ إليه، وصختُ سمعى لنصائحه التي كانت ليلتها من نوع: لا تتأخر يا ولدى في الخروج فجرًا، تُخذ طعاماً ليومك وعليقة للحمار، لا تكشف رأسك على الطريق، فالهواء باردٌ، ولا تتوقف عند القرى التي ستقابلك كيلا يهبط عليك المساء في الطريق. سأعطيك رسالةً للأسقف نسطور، فضعها بين يديه ولا تدع أحداً يقرؤها قبله. إن عرض عليك أمراً فاقبله، فإنه رجلٌ مباركٌ من السماء، فاترك نفسك خارج باب، وكن بين يديه كالتميت بين يدي الغاسل. سوف يغسلك لقاءه بالنور والبركة، فتَهَيَّأ للغبطة. أطلع إشاراته، وكن حيث أراد لك، وأسلم ذاتك لمشية الرب.

الرَّقُّ السادس عشر

وَثْبَةُ المَاضِي

بعد القُدَّاس، لم أنم طيلة ليلتي إلا وسنات خاطفة، فقد تولَّاني أرقُّ لم أذر له سببًا. قبل شروق الشمس بنصف ساعة، انضمتُ للرهبان في الكنيسة الصغيرة لأداء الصلاة الأولى، متحيِّنًا تلَوْن السماء بالنور.. لما صار لونُ الأفق أقرب للزُّرْقَة من الاسوداد، تهيَّأتُ للخروج إلى أنطاكية. كانت ساحةُ الدير ساكنةً، والهواءُ. بدا الحمار المربوط بوتدٍ قرب بوابة الحظيرة، كأنه ينتظرني في مربطه وقد أدرك أن أمامنا طريقًا طويلًا لنقطعه. أو لعله عرف ذلك، لما رآني أدخل عليه بمخلاة العليقة.. خرجتُ على ظهره من بوابة الدير، مع أول شعاع أرسلته الشمس لينير العالم بالبهجة.

عند البوابة، رأيْتُ واحدًا من جنود الحامية الرومانية، متدثِّرًا في غطاء من الصوف الثقيل المتخذ من وبر الجمال. كان يفتَرشُ الأرض بجوار الجدار المتهدم، ويغطُّ في نوم لامثيل لشخيرهِ العالى. قلتُ في نفسي: هاهو حارسُ الدير نائمٌ في أمان حارس الكون الذى لاينام! فلماذا لايتعلَّم منه القسوس والأساقفة والرهبان، ويلقون إلى الله نواصى

الأمور، ويكفُّون عن المنازعة فيما بينهم؟ اليوم أسألُ الأسقف نسطور حين تسنح الفرصة، عن صحة الأخبار التى يتناقلها الرهبان حول بطشه بمن يرى أنهم مهرطقون.. ولسوف أسأله عما قاله فى خطبة رسامته أسقفًا، موجَّهًا كلامه للإمبراطور: ساعدنى فى حربى ضد الكفر، أساعدك فى حربك ضد الفرس. أعطنى الأرض خالية من الهرطقة، أعطك مفاتيح السماء ونعيمها المقيم! إن صَحَّ عنه مثل هذا القول العجيب، صَحَّ عندى أنه تغيَّر عن الحال الذى عرفته عليه، وصار يطلب الأرض لا السماء.. وذلك مما لا أحبه له.

لم ينتبه الحارسُ لخروجى. حتى كلبه المستلقى بجواره فى سلام، لم يهتم لمروى. رفع الكلبُ رأسه فرآنى، وضرب بذيله الأرض ضربتين خفيفتين، ثم عاد إلى استلقائه الأول.. على المنحدر الهابط من ثَلَّةِ الدَّيرِ إلى السهول الممتدة فى الأفق، ملتُ للوراء لأحفظ اتزانى على ظهر الحمار. كان رأسى على الرغم من تنبيهات رئيس الدير، مكشوفًا، فتخلَّلت شعرى النسماتُ الباقية من آخر الليل، وملأتني برودتها بهجةً. حُطى الحمار دلت على أنه مبتهِّجٌ مثلى. فهو يحبُّ نزول التلة. كل الكائنات تحبُّ النزول، وتبتهِّجُ له، إلا الإنسان الذى يخدعه وهُمُّه وتحدوه أحلامه، فيبهجه الصعودُ والترقى. ربما كان ذلك فطريًا فى الإنسان وطبيعى، فهو امتدادٌ للإله العلى. ولذلك تُفرحه مراقبه الصاعدة به إلى أصله العلوى، حيث الأب الذى فى السماوات.. الأب المحتجب، خلف أستار السماوات.

مع انبساط النور على الأرض، كنتُ أسير بحمارى فوق الأرض السهلة وقد أضحى الدَّيرُ العالى خلفنا، والعالم يمتد غربًا أمامنا. بعد سويعة وصلنا إلى الطريق الطويل المتجه إلى أنطاكية، وهو طريقٌ يبدو من طول امتداده، كأنه لاينتهى! الرومان رَصَفُوا هذا الطريق بالحجارة قبل قرون، فلماذا لم يرصفوا الطرق فى وادى النيل؟ الرومان لم يهتموا يومًا بمصر،

إلا بمقدار نهبهم القمح، ونبذ العنب منها... أو لعل الفيضان السنوي للنيل، هو السبب المانع من تعبيد الطرق بمصر. فهو خليق بزراعة الأحجار، إلا أحجار المعابد القديمة والبرابي، فهي من الضخامة والرسوخ بحيث لا ينال منها فيضان النيل. وإن كانت ضخامتها ورسوخها لم يمنعا عنها أهل ديارتنا! رأيت عوام المسيحيين في بلدة إسنا وهم يخربون الصور المرسومة على المعبد الكبير، بخربشة الجدران، ويجتهدون في طمس الرسومات التي بأعلى الأعمدة، ويطحن السقف العالي، بقذف الطين نحوها. لما استعصى عليهم طمسها لعلو السقف، اهتموا إلى فكرة عجيبة! كانوا يأتون بالبوص الأخضر ونبات الحلفا والخرق البالية، فيحرقونها في وسط البهو الكبير للمعبد، وفي الغرف الفسيحة، فيتصاعد منها دخان أسود كثيف، كفيّل بتغطية الرسوم بطبقة فحمية اللون. فعلوا ذلك زمنا طويلا، حتى استطاعوا ملأ سقوف المعبد القديم بالسواد، فانظمت رسومه، ثم جعلوه من بعد ذلك ديرا كبيرا يضم خمس كنائس.

الطريق إلى أنطاكية طويل. لما اشتدت الشمس فوقنا، وانتظمت خطى الحمار؛ عاودتني خطفات الوسن المليئة بالرؤى. أحب هذه اللحظات الواصلة بين انتباهات الصحو وخلسات النوم. أظن أن الله قرر أن يخلق العالم، في لحظة كهذه. الله لا ينام، هو فقط يتعب ويستريح. راحته هي مثل نومنا، نحن أبناءه من البشر. النوم راحة مفعمة بالأحلام والرؤى.. ترى، هل يحلم الرب؟ من يدرى، فقد يكون هذا الكون بكل ما فيه، هو حلم واحد من أحلامه.

لما علت الشمس، وانسبط الطريق تحت دقات حوافر الحمار؛ كثرت وشناتي الخاطفة وأحلامي. رأيت يومها رؤى كثيرة: الصخور البيضاء الناعمة، ترك موضعها وتطفو فوق ماء النيل، فيحملها التيار إلى البحر الكبير.. الجبل الشرقي للوادي في بلادى الأولى، تكتسى

أحجاره القاحلة خضرة وعشبا وأشجارا، فيصير بهيا بعدما كان مهيبا.. وجوه كثيرة تضحك.. أوكتافيا نائمة في ثوبها الحريري الشفاف.. طيور النورس ترفرف فوق أمواج البحر.. أسوار أورشليم وقد صارت بيضاء ناصعة! كنت كلما غبت، أرى مشهدا جديدا.

صارت الشمس متعامدة والحمار متعبا، فاسترخنا تحت ظل شجيرات رحمة عند حواف بلدة صغيرة نائمة على خد الطريق، اسمها سرمدة. فضلت أن نرتاح قليلا، على مبعدة من بيوت البلدة وأهلها. بدت لى البيوت من بعيد، ساكنة تحت شمس الظهيرة. كان الحمار سعيدا وهو يمضغ العليقة المحلاة بالذرة، ولم أكن سعيدا مثله بالقضبات التي أخذتها على مهل من رغيفي. لحظتها اشتهيته، على غير العادة، بيضا مسلوقا! لكنها كانت أيام صوم، ولا مجال لتلبية داعي الشهوات.. هل ستظل اشتهاى تعذبني طيلة عمري؟ لماذا لم يذهب من عندي اشتها الأشياء، بعد كل هذه الصلوات والقّداسات والتزهدات وفنون التقشف؟ أما أن لى الارتقاء عن أحوال الأطفال، والكف عن وهم التلذذ بتوافه الأمور؟ لابد أن أخذ نفسى بالعزم والحسم، وإلا صرت كهذا الحمار ألتذ بالعليقة.. هل يعرف هذا الحمار أن للكون ربّا؟

أخذتني سنة من النوم، وكان ظل الأشجار حين انتبهت يميل قليلا جهة الشرق. ركب الحمار، ومررت أمام البلدة، من دون أن أكرث لبيوتها المتناثرة ولو بالتفاتة واحدة، لم تكن سرمدة آنذاك تعنى لى شيئا. ومن أين كنت سأعرف ساعتها، أن هذه البيوت الفقيرة المتلاحمة، ضمت يوما ما، مرات التي ستعصف بكيانى.. عرفت ذلك منها، بعد أسابيع من عبورى غير المكثرت بالبلدة.

وصلت أنطاكية قبل الغروب. المدينة بابها كبير وصخبها كثير، مثل كل المدن العظيمة. لم أجد صعوبة فى الوصول إلى كنيسة الأم، حيث

يقيم الأسقف نسطور في بيت الضيافة الملحق بها، حسبما قال لى رئيس الدير الليلة الفائتة. تطوَّع شابٌ صبوَّح الوجه، فأوصلنى من باب المدينة إلى باب بيت الضيافة. أنطاكية أكبر من أورشليم وأصغر من الإسكندرية. أهلها حسبما يبدو من ملامحهم، طيبون. وجوههم أكثر إشراقاً ومودة من وجوه الإسكندرانيين، وأقل حزنًا ويبوسةً من وجوه أهل مصر. لما اقتربت من الكنيسة الكبرى، رأيتُ مزيداً من رجال الكنيسة فى ملابسهم الكهنوتية الموشاة، كانوا يتحرَّكون حول الكنيسة كأنهم أسرابٌ نحل تدور حول الخلية بهمةً عالية. الكنيسة بهيئة البناء وعالية الجدران، مثل كل معاقل الديانة.

عند الحديقة الصغيرة التى بمدخل بيت الضيافة، أخبرتُ الحارس أننى جئتُ مُلياً دعوة الأسقف نسطور، فرحَّب وأدخلنى من فوره، بعدما سكب على ألفاظ الترحيب. أخبرنى وهو يأخذ مقود حمارى، أن الأسقف يحضر التسبحة فى الكنيسة الكبيرة. أضاف: لو أردتُ أن تلحق بهم، سأصحبك إلى هناك، وإنى أنصحك بذلك! ففى هذه التسبحة المباركة ثلاثة أساقفة كبار، فلا تفوت هذه الفرصة النادرة أيها الراهب الطيب.

طالت التسبحة وصلوات الليل حتى انعقد قُدَّاس الفجر وقد امتلأت الكنيسة. كان القُدَّاس مهيباً. مئات الرهبان والقسوس وأهل الإيمان، ومالا حصر له من الشموع والفتائل المنيرة التى يترافق لهبها المضى، فتتماوج الأنوار، وتحلُّق الملائكة فى سماء الكنيسة. بهرتنى الترانيم والنغمات الشجية، وترجيع الشمامسة الصغار لعبارة: مبارك أنت أيها الإنسان، بنعمة السماء.. روحانية المكان غسلت قلبى بالنور، وأزالت عنى تعب الرحلة، وألهبت شوقى للسماء. تقدَّمت نحو المذبح للمناولة القدسية، ولما وضع الكاهن فى فمى قطعة الخبز، ثم ارتشفت بعدها النبيذ المخفَّف بالماء، شعرتُ لو هلةً أنهما حقاً لحم يسوع ودمه، يتخللان جوفى وكيانى كله.

المناولة طقسٌ بديع، لو اكتمل عندنا الإيمان برمزيته.. عند دورانى من أمام المذبح، شعرتُ بالدوار اللذيذ الذى يهدد الأرواح أثناء القُدَّاس، ولمحتُ نسطور فى زِيَّه البطريكى، فأشرقت روحى، وغمرتنى تلك البهجة التى تأتينا أحياناً من خارج الكون.

استغرق القُدَّاس بالناس ساعتين حتى أطلت الشمس، ودخل نورها من نوافذ الكنيسة. خرجتُ مع مئات الخارجين المفعمين بالبركات، فأسرعتُ إلى ساحة بيت الضيافة؛ لأكون فى استقبال المبعجل نسطور. وصل بعد دقائق وحوله جماعة من القسوس، وبجانيه أسقفان عرفتُ بعدها بقليل أنهما يوحنا أسقف أنطاكية، وريولا الشاعر أسقف مدينة الرُّها.. لما رآنى نسطور المبعجل أقبل نحوى مرحباً، فلمحتُ فى عيون من حوله نظرات الإجلال لى. لا أحد منهم يعرفنى، لكنهم يعرفون أن نسطور إن اهتم براهبٍ، فهو لا محالة ذو شأن.. أنا لا شأن لى، وإنما هى تدابير الرُّب.

عند باب بيت الضيافة، همس لى نسطور بأنه ستركنى الآن لأرتاح، وسوف يرانى بعد صلاة الساعة السادسة.. صحبنى خادمٌ شابٌ إلى غرفة بالطابق الأعلى، لأرتاح قليلاً. الغرفة مربعة، مرتبة، نظيفة. بزوايتها اليمنى سريرٌ صغير، تحت نافذة على هيئة صليب كبير، وعلى الحائط المقابل صليبٌ خشبى وأيقونة ناصعة الألوان للعدراء مريم تحمل على صدرها وليدها.. جلستُ على طرف السرير، مشدوداً إلى صورة العدراء يرسمونها هنا بملامح أخرى، غير التى نعرفها بمصر، لكن روحها واحدة فى كل الصور، وسيرُ رأسها واحد فى كل الأيقونات.

العدراء.. أطلت النظر يومها إليها، حتى خلتُ أننى أراها حقاً تجاهى. أى سلام ذاك الذى تسكينه أيتها الطاهرة على أرواحنا، وأى بهاء يشع من وجهك الهادئ، وعينيك المسبلتين. آه لو كنتُ أدركتُ زمانك، واغتسلتُ

بنور لقائك يا أمّ النور.. هل تشعرين بي؟ وهل يمكن لى، أن أريح رأسى على صدرك الطاهر المقدس..

قمتُ فألصقتُ خدّى بصورة العذراء، أغمضتُ عيني وقد انحدرتُ إلى لحيتى دموعٌ حارّة.. بقيتُ لحظةً معلقاً باليقونة، حتى شعرتُ بها تحملنى إلى سماءٍ بعيدة.. أخذنى النسيج حين شعرتُ بدمعتين تنحدران من عين العذراء، وتبللان خدى. احتضنتُ الأيقونة حتى التصقت بها تمامًا، فشعّ منها بردٌ وسلامٌ وسكينة، فامتلاً صدرى ورأسى بالضياء العلوى.. كنتُ..

- هيبا..

- مالك يا عزازيل.. ماذا تريد الآن؟

- أنطاكية، ولقاء نسطور، وبقية ما جرى..

عدتُ إلى السرير، فارتيمتُ عليه، كأننى عدتُ من تطوافٍ بالسموات البعيدة. وعلى غير ما توقعتُ، رُحْتُ فى نومٍ طويلٍ امتدبى لحدود الظهيرة.. لم أنم يوماً كعادتى، جالساً.. أفقتُ من نومي مبتهّجاً مفعم القلب بالمحبة. نويتُ أن أضع بعد عودتى للدير، ترنيمةً للعذراء مريم، أبدأها بقولى: يا حاوية الحنوّ، ويانبع النور.. نزلتُ الدرج المضاء بنور النهار عبر نوافذ كثيرة فى الجدار، بديعة الأشكال. كان كثيرٌ من القسوس والشمامسة والخدم، يتحرّكون فى الممر الطويل الواصل بين الغرف والردهات. سألتُ يوماً عن الراهب الفريسي، فلم أستدل على شئ، وسألتُ عن مكان الأسقف نسطور، فأخذونى إلى القاعة الفسيحة التى بمدخل بيت الضيافة الكبير. نوافذها العالية مطلّة على حديقته الصغيرة، وجوانبها الأربعة أرائكُ مصفوفة، عليها فُرُشٌ عتيقة من الصوف الملون.

كان نسطور جالساً فى زاوية الغرفة اليمنى، وييده كتابٌ فى مجلّد

كبير. كان حوله خمسةٌ من الكبار، بينهم الأسقفان اللذان كانا معه فى القدّاس. حين رآنى وضع الكتاب بجانبه، وقام لتحيتى، فأسرعتُ إليه وقبّلتُ يده. قبّل هو رأسى وباركنى، وأجلسنى بينهم، بجواره، ثم جرى بيننا هذا الكلام، الذى مازلتُ أذكره بحروفه.. قلتُ:

- نيافة الأسقف، كنتُ فى شوقٍ لرؤياك.

- كان عليك أن تُرسل بأشواقك هذه، ولو فى رسالة واحدة إلى القسطنطينية!

- عذراً يا أبت، فلستُ معتاداً على كتابة الرسائل.

- لكنك معتادٌ على كتابة الأشعار البديعة.. هل تعرف يا ربّولا أن هيبا شاعرٌ لا يقلّ عنك موهبةً، وهو مثلك يكتب الشعر بالسريانية واليونانية، مع أنه مصرى الأصل، والقبطية هى لغته الأولى.

ابتسم الأسقف ربّولا بتأقّلٍ مخلوطٍ بالمجاملة، ثم قال ما معناه إنه لن يحكم بجودة شعرى، إلا لو سمعه منى.. أضاف: الشاعر لا يدلّ على شعريته إلا قصائده، ولا تنفعه شهادات المحييين له، حتى لو كانوا فى مكانة الأسقف نسطور! ضحكوا جميعاً بوقارٍ، من دعابته اللطيفة التى لم تُضحكنى. أمسك الأسقف نسطور بالمجلد الذى كان بيده لحظة دخولى، ومدّه نحو الأسقف ربّولا، فأخذته من يده وناولته لربّولا الذى أخذه منى، ووضع به بحرصٍ على ركبتيه:

- هذه يا هيبا، هى الترجمة المباركة للأناجيل، التى نقلها الأسقف

ربولا من اليونانية إلى السريانية.. هل سبق أن رأيتها؟

- لا يا أبتِ المبجل، لكنى سمعتُ بها. وهى عملٌ جليلٌ من دون شك.

تحسّس الأسقف ربولا غلاف كتابه، وقد طفحت ملامحه بالزهو. قال وهو يهزُّ رأسه افتخارًا: هذا جهدٌ متواضعٌ، أردتُ به صرف الناس في بيعتنا، عن الديايطسرون وصاحبه المارق^(١).. كنتُ أودُّ لو أخذتُ الترجمة، فنظرتُ فيها. غير أنني صرفتُ عني هذا الخاطر، لما لمستُه من عجرة الأسقف ربولا.. بعد برهة، استأذن القسّان، وبقي الأسقفان وذاك الرجل الأنطاكي الذي يلبس رداء الكهنة. كنتُ أعرف الأسقفين لشهرتهما، وقد عرّفتني نسطور بالكاهن بأن قال: هذا كاهنٌ كنيسةنا، انسطاسيوس. هو أنطاكي الأصل، لكنه الآن معي في القسطنطينية. وهو أُنحّ نابه العقل، وقلبه مليء بالإيمان.

أومأت للكاهن برأسي محييًا بمحبة، فردّ تحيتي بإيماءة باردة من رأسه.. كان في وجهه حدة، وفي ملامحه استنفازٌ لم أدر أول الأمر سببًا له، حتى كان الحوار الذي دار بيننا، فأظهر كلامه ما كان مخبوءًا بقلبه! لما بدأ المبجل نسطور الكلام، تبدّدت الابتسامات، وبدا أن مجلسنا على وشك الخوض في أمرٍ جليل.

- يا هييا، لقد أرسلتُ في طلبك لأستشيرك في أمرٍ.

- عفوك يا أبّ، ومن أنا حتى أُشير على نياقة الأسقف نسطور، المبجل.

- إنه أمرٌ يخصُّ الإسكندرية.

خَفَقَ قلبي وارتجفتُ.. الإسكندرية ثانية! الأمرُ إذن جليلٌ وخطيرٌ، وكفيلٌ بتبديد الابتسامات التي كانت قبلها بقليل تُزيّن الوجوه. مدّ نسطور

(١) الديايطسرون ملخصٌ للأناجيل الأربعة، بالسرانية، قام بعمله مفكرٌ يوناني اسمه طاطيان وقد ذاع الكتاب وانتشر بأيدي الناس، لكنه لم يعجب رجال الكنيسة، لأن طاطيان كان وثنيًا.. (المترجم).

يده نحوي بلفافة من البردي، مكتوبٌ عليها كلامٌ كثيرٌ على عمودين متوازيين، الأول بالقبطية والآخر باليونانية. في أول اللفافة عنوانٌ باللغتين، خطف قلبي المرتجف: رسائل البابا كيْرُكس، رئيس أساقفة الإسكندرية والمدين الخمس الغربية ومصر والحبيشة، راعي الكرازة (الدعوة) المرقسية، الناطق بلسان القديس مرقس الرسول. تتلوها اللعنات الاثنتا عشرة، التي كتبها البابا كيْرُكس ضد المارق نسطور!

حين رأيتُ العنوان، ولمّا أقرأ الرسالة بَعْدُ، أخذتني هزّة خفية شاعت في بدني، فكأنها صارت تسري في عروقي برملي حارًّا بدلًا من الدم. أدركتُ في لحظة إشراقٍ مفاجئ، أن الرعبَ آتٍ لا محالة.. فيها هو الماضي يشب فوقنا من مكمنه، فيوشك أن ينشب مخلب المقت، في لحم ظهورنا المكشوفة.

الرَّقُّ السَّابِعُ عَشَرَ

الْحَبْلَى بِالْإِلَه

جَرَتْ عَيْنَايَ بِسُرْعَةٍ فَوْقَ سَطُورِ الْفَافَةِ، وَانْعَقَدَ حَاجِبَايَ لَمَّا عَرَفْتُ مَا فِيهَا. طَلَبَ مِنِّي نَسْطُورُ أَنْ أَقْرَأَ رِسَالَتِ كِيرْلُسِ الثَّلَاثِ، وَأَنْظُرُ إِنْ كَانَتْ تَرْجُمَتُهَا الْقِبْطِيَّةُ مُخْتَلِفَةً عَنِ نَصِّهَا الْيُونَانِي فِي شَيْءٍ.. أَسْنَدَ ظَهْرَهُ إِلَيَّ الْحَاطِطُ، وَمَلْتُ أَنَا بَرَأْسِي قَلِيلًا لِلْأَمَامِ. السَطُورُ الْأَوَّلِيُّ مِنَ الرِّسَالَةِ الْأَوَّلِيِّ قَرَأْتُهَا بِتَأْنِيٍّ وَصَوْتٍ مُرْتَفِعٍ، لَمْ يَلْبِثْ أَنْ اضْطَرَبَ وَخَفَتْ مَعِ تَوَعُّلِي بَيْنَ سَطُورِ الرِّسَالَتِ وَخَنَاجِرِهَا الْمَشْرَعَةِ. كَانَتْ الرِّسَالَةُ الْأَوَّلِيُّ مَعْرُوفَةً لِي مِنْ قَبْلِ ذَلِكَ بِفَتْرَةٍ، وَالثَّانِيَةُ أَيْضًا؛ فَقَدْ رَأَيْتُ نَسْخَةً مِنْهُمَا فِي الدِّيرِ بِالْيُونَانِيَّةِ، كَانَتَا بِحُوزَةِ الرَّاهِبِ الْفَرِّيْسِيِّ وَأَعَارَهُمَا لِي، فَأَعَدْتُهُمَا إِلَيْهِ فِي الْيَوْمِ التَّالِيٍّ مِنْ دُونِ تَعْلِيْقٍ مِنْ جَانِبِي، وَمِنْ دُونِ اهْتِمَامٍ بِالْإِتْسَامَةِ السَّاخِرَةِ الَّتِي ارْتَسَمَتْ عَلَى وَجْهِهِ وَهُوَ يَأْخُذُهُمَا مِنِّي! كُنْتُ أَظُنُّ أَيَّامَهَا أَنَّ الْأَمْرَ سَيَتَوَقَّفُ عِنْدَ هَذَا الْحَدِّ.. الرِّسَالَتَانِ الْأَوَّلِيُّ وَالثَّانِيَّةُ، فِيهِمَا اسْتَفْسَارَاتٌ حَانَقَةٌ مُسْتَنْكَرَةٌ، كَتَبَهَا كِيرْلُسُ بِخُصُوصٍ مَا تُقَالُ إِلَيْهِ عَنِ نَسْطُورٍ مِنْ إِنْكَارٍ لِعَقَائِدِ عَوَامِ الْمَسِيحِيِّينَ وَخَوَاصِهِمْ، خَاصَّةً اعْتِقَادَهُمْ أَنَّ الْعِدْرَاءَ مَرِيْمَ هِيَ وَالِدَةُ الْإِلَهِ!

قَرَأْتُ الرِّسَالَةَ الْأَوَّلِيَّ بِسُرْعَةٍ، وَنَظَرْتُ فِي تَرْجُمَتِهَا الْقِبْطِيَّةِ، فَكَانَتْ مُطَابِقَةً لِنَصِّهَا الْيُونَانِي الْأَصْلِي. قُلْتُ ذَلِكَ لِلْأَسْقَفَةِ الثَّلَاثَةِ، فَهَزَّ الْأَسْقَفُ رَبُّوْلًا رَأْسَهُ مُوَافَقًا، وَلَمْ يَحْرُكْ الْأَسْقَفَانِ نَسْطُورَ وَيُوحَنَّا سَاكِنًا. وَكَانَ الْكَاهِنُ انْسَطَاسْيُوسُ يَمِطُ شَفْتَيْهِ، وَتَعْلُو مَلَامِحَهُ عَلَامَاتُ التَّذَمُّرِ وَالضِّيْقِ. الرِّسَالَةُ الثَّانِيَّةُ كَانَتْ كَلِمَاتُ تَرْجُمَتِهَا الْقِبْطِيَّةُ لَادْعَةً، وَأَكْثَرُ حَدَّةً مِنْ نَصِّهَا الْيُونَانِي الَّذِي كَانَ بِدَوْرِهِ أَكْثَرُ حَدَّةً مِنْ نَصِّ الرِّسَالَةِ الْأَوَّلِيِّ.. قَرَأْتُ عَلَيْهِمُ الرِّسَالَتَيْنِ بِاللُّغَتَيْنِ، وَبَيَّنْتُ الْاِخْتِلَافَاتِ الطَّفِيفَةَ فِي التَّرْجُمَةِ الْقِبْطِيَّةِ، أَعْنَى الْكَلِمَاتِ الْأَكْثَرُ حَدَّةً.

الرِّسَالَةُ الثَّلَاثَةُ، الَّتِي تَتْلُوهَا اللَّعْنَاتُ الْاِثْنَا عَشْرَةَ، كَانَتْ هِيَ الْأَشَدَّ لَهْجَةً وَالْأَحَدَ تَهْدِيدًا، فِي اللَّغَتَيْنِ! كَانَتْ الرِّسَالَةُ تَبْدَأُ هَكَذَا: كِيرْلُسُ وَالْمَجْمَعُ الْكَنْسِيُّ الْمُنْعَقِدُ بِالْإِسْكَانْدَرِيَّةِ، بِمِصْرَ، يَبْعَثُونَ بِتَحِيَّةِ الرَّبِّ إِلَيَّ الْمَوْقِرِ جَدًّا، الشَّرِيكَ فِي الْخِدْمَةِ، نَسْطُورُ.. لَمَّا قَرَأْتُ عَلَيْهِمْ مَا سَبَقَ، وَأَخْبَرْتُهُمْ بِأَنَّهُ لَا اخْتِلَافَ بَيْنَ النَّصِّينِ الْيُونَانِي وَالْقِبْطِي فِي الدِّيَابَجَةِ، عَلَّقَ الْأَسْقَفُ يُوْحَنَّا الْأَنْطَاكِي سَاخِرًا، بِمَا مَعْنَاهُ أَنَّ الْأَسْقَفَ كِيرْلُسُ يَبْدَأُ دَوْمًا مَهْدَبًا!.. رَدَّ عَلَيْهِ نَسْطُورُ بِقَوْلِهِ:

- هِيَ حِيلَةٌ يَنْيَافَةُ الْأَسْقَفِ. يَبْدَأُ بِمَخَاطَبَتِي بِصِفَاتِ التَّبَجِيلِ حَتَّى يَثِيرَ حَفِيفَةَ النَّاسِ، ثُمَّ يَدْعُوهُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ إِلَى الْإِزْرَاءِ بِي. فَيُلْعَنُونِي لِمَرْوَقِي، وَيَبْجَلُونَهُ لِأَدْبِهِ.

أَشَارَ إِلَيَّ الْأَسْقَفُ رَبُّوْلًا بِأَطْرَافِ أَصَابِعِهِ، بِمَا مَعْنَاهُ أَنَّ أَكْمَلَ الْقِرَاءَةِ. كَانَتْ إِشَارَتُهُ سَخِيفَةً، وَفِيهَا مَسْحَةٌ تَحْقِيرٍ لَمْ أَدْرِ لَهَا سَبَبًا. نَظَرْتُ نَحْوَهُ بِمَا يَفِيدُ أَنَّ إِشَارَتَهُ غَيْرَ لَاقِقَةٍ، غَيْرَ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ يَنْظُرُ نَحْوِي.. كَانَ مُطَرِّقًا، وَالْوُجُوهُ يَكْسُو هَيْئَتَهُ.

أكملتُ قراءة الرسالة التي سرعان ما انقلب كلامها نارًا في اللغتين، واحتوت على فقرات عنيفة ضد الأسقف نسطور، بدأت بقول كيرلس له: إن نسخ شروحك قد انتشرت بين الناس، فأنتى حساب سوف يكون لنا جرّاء الصمت عليها، وكيف لا يكون ضروريًا أن نتذكر قول المسيح: لا تظنوا أنى جئت لألقى سلامًا على الأرض، ما جئت لألقى سلامًا بل سيفًا، فإنى جئت لأفترق، ضد أبيه والابنة ضد أمها.

توالت من بعد ذلك الفقرات النارية، التي منها قول أسقف الإسكندرية لنسطور: لن يكون كافياً لتقواك، الإقرار معنا بقانون الإيمان الذى أرسى بالروح القدس، فى مجمع نيقية العظيم أثناء الأزمة الحرجة. إنك لم تفهمه، ولم تفسره تفسيرًا صحيحًا، وإنما بطريقة منحرفة.. ولا بد لك من الاعتراف بأن تعاليمك ممقوتة، وكافرة.

عند هذا الموضع من الرسالة، كاد خفوت صوتى يصير صمتًا، وقد غلبنى الحرج حتى تلعثمت، وتبعثرت منى الحروف. سكثُ برهة، وسكتوا. ثم أشار لى نسطور بباطن كفه أن أكمل، فأكملتُ قراءة الرسالة النارية: إننا نقتر بكل تأكيد، بأن الكلمة اتحد بالجسد أُنوميًا، ولذلك نسجد لابن واحد، الرب يسوع المسيح، فلا نجزئ ولا نفصل الإنسان عن الله.. المسيح واحد، ابن ورب.. فهو إله الكل ورب الجميع، وليس هو عبدًا لنفسه، ولا سيّدًا لنفسه.

كانت كلمات الرسالة ومعانيها قد أنهكتنى، وأجهد روى الانتقال بين أصلها اليونانى وترجمتها القبطية، حتى أننى أوشكت على الاستئذان منهم فى أن أستريح قليلًا، أو يعفونى من الأمر برمته! غير أننى وجدت لفافة البردى على وشك الانتهاء، ولم يبق فيها غير السطور المعنونة باللغات الاثنتى عشرة. كانت الأولى منها تقول: مَنْ لا يعترف بأن المسيح (عمانوئيل) هو الله بالحقيقة، ومن ثم فإن العذراء هى والدة الإله، فيمكن

ملعونًا (محرومًا).. عند هذا الموضع، سألنى الأسقف يوحنا الأنطاكي عن الترجمة القبطية لكلمة العنوان اليونانية أناثيما التي تعنى (اللغات) فقلت له إن الكلمة القبطية تعنى: الحرومات. وإنه لا فارق كبير بين المعنيين، اللعنة والحرم، فكلاهما يعنى فى اللغتين: ما يُصبُّ على رأس المارقين والكفرة والمهرطقين!

عدتُ لتلاوة لعنات كيرلس أو حروماته الاثنتى عشرة، التى كانت عباراتها موجزة حاسمة، لاتدع مجالاً لأى تأويل أو تخفيف من وقّعها الكاوي للأكباد. وكانت كلها تنتهى بقوله، إن الذى يخالفه فيما يقرّره من عقائد أرتوذكسية قديمة: فليكن ملعونًا.. ليكن ملعونًا.. ملعونًا.. وعلى هذا النحو سارت الفقرات الاثنتا عشرة الأخيرة من رسالة كيرلس مؤكدة تلك اللغات التى انتقدت شرارتها من كنيسة الإسكندرية، ثم تأججت نازها وهاجت، حتى عمّت العالم بالحرائق.



لما انتهيتُ من القراءة، طغى على المجلس صمتٌ ثقیل. كنتُ أشعرُ بضيق فى التنفس كأن جبلاً حطّ فوق صدرى. الأساقفة الثلاثة والكاهن أنسطاسيوس، كانوا أيضًا مستغرقين فى همّ محيط. وكان نسطور يقلّب يده اليمنى فى الهواء، وقد مَطّ هو الآخر شفته السفلى استهزاءً وتعجبًا من الكلام الذى لم تكن هذه، بالقطع، هى المرة الأولى التى يسمعه فيها.. أخرجنا الأسقف رَبولاً من إसार الصمت بقوله لنسطور:

- هل تظن أن كيرلس كتب حقًا للإمبراطور فى هذا الأمر؟

- نعم يا رَبولاً المبارك، كتب أولاً رسالتين، إلى بولكيريا أخت الإمبراطور الكبيرة، وإلى يودكيا الإمبراطورة، لما يعلمه من نفوذهما. ثم كتب إلى الإمبراطور رسالةً طويلةً، على ظهرها

توقعات عشرات القسوس والأساقفة. رجالُ القصر أخبروني بذلك، لكن الإمبراطور لم يردّ عليه بعدُ، وأظنه لن يرد.

أطرق الأسقف رَبولاً وقد علاه الهمُّ، وبلغ انزعاجه مداه.. فجأةً انبرى الكاهن انسطاسيوس، وانطلق من فمه الكلامُ كما تنطلق ألسنةُ اللهب: فلنقاوم على الفور هذا العدو، ولنقف في وجه جميع المارقين القائلين بأن العذراء هي أم الإله (ثيوتوكوس) فالعذارى امرأة من النساء، مجرد امرأة من النساء، ومن المستحيل أن يولد الله من امرأة.

كان صوتُ الكاهن الزاعق انسطاسيوس مزعجاً، حائفاً، يكاد يخلع حنجرته عن عنقه اليابس، بل وتوشك عروقُ رقبته النافرة من الغيظ أن تنفجر. بدا أنه يريد أن يفيض في زعيقه، غير أنه توقف لما طرق الباب شماسٌ شابٌّ، ودخل علينا بأكوابٍ فيها مشروبٌ دافئ، تناولناها منه صامتين. لا أذكر الآن ماذا شربناه يومها. همس الشَّماسُ بشيء في أذن الأسقف يوحنا الأنطاكي، ثم خرج من فوره، ومن فوره عاد الصمتُ ليطبق علينا. قطع الأسقف رَبولاً أستار الصمت، بأن تنحج، ثم تكلم فقال:

- ألا ترى يا نسطور، أنه يجب عليك مهادنة الإسكندرانيين.

- كلا يا رَبولاً، لن أهادن في هذا الأمر أبداً. وليكف كيْرُلُس عن وهمه المريض بأنه حامى الإيمان في الأرض.

تدخل الأسقفُ يوحنا محاولاً، بلطفٍ، تهدئة نسطور. ولكن راحته محاولته، من دون جدوى. كان يناديه باللفظ اليوناني لاسمه: نسطوريوس، وكان يتحدث إليه بمودة واحترام.. بدا لي يوحنا الأنطاكي مخلصاً في محبته للمبجل نسطور، ومجتهداً في التخفيف عنه بعبارةٍ من مثل: لا تغضب يا أخى المبجل نسطوريوس، فيتسلل الشيطان إلى عقلك، ويكدر ذهنك الصافي.. ولكن نسطور لم يهدأ غضبه، وكان يردُّ عليه بما

معناه: إذا لم تغضب من أجل عقيدتنا، أيها الأب الجليل، تسلل الشيطان إلى قلب هذه الديانة وروحها..

لم يسبق لي أن رأيت الأسقف نسطور، ثائراً على هذا النحو. شعرتُ ساعتها بحرج بالغ من كلام الأساقفة في هذا الأمر الدقيق، أمامي، فوددتُ لو أستأذن في الخروج من حضرتهم.. غير أن نسطور فاجأني بسؤال عن رأيي فيما قرأته عليهم، فقلت:

- كما لا يخفى عليك يا نيافة الأسقف، فإنني بعيدٌ عما يجري بين الكنائس الكبرى. ولا علم لي بتفاصيل هذا الأمر، وإن كنتُ قد سمعت بمجملاته. غير أنني توجَّست حين وصلتنا، قبل شهر، رسالتكم التي تحذرون فيها على العوام والخواص، ترديد كلمة ثيوتوكوس. وازداد قلقي حين سمعت بالمراسلات الودية بين أسقفى الإسكندرية وروما، واتفاقهما على نبذ أقوال نيافتكم.

هزَّ الأسقف رَبولاً رأسه تأثراً بما قلته، وكأنه اقتنع به. ثم توجَّه نحوى بالكلام لأول مرة، فقال ما معناه إن التقارب بين الإسكندرية وروما مؤقَّت، ولا هدف له إلا إضعاف أسقفية القسطنطينية في شخص الأسقف نسطور! أما رسالة نسطور في تحريم لفظ ثيوتوكوس، فقد أرسلت إلى الكنائس الشرقية فقط، ومن المستبعد أنها وصلت إلى الكنائس والأديرة المصرية، ولا تُرجمت إلى القبطية. أضاف رَبولاً ما معناه أنه يعتقد بأن الذى وصل إلى الأسقف كيْرُلُس فأثَّره، هو أنباء الخطبة التى ألقاها المبجل نسطور يوم رسامته أسقفًا، حيث قال: يسوع إنسانٌ وتجنَّده هو مصاحبة بين الكلمة الأبدية والمسيح الإنسان، ومريمُ هى أم يسوع الإنسان، ولا يصح أن تسمى والدة الإله، ولا يجوز أن يقال لها: ثيوتوكوس!

تعجبتُ من قدرة الأسقف رَبولاً على تذكر عبارة نسطور بنصّها،

وجرأته على تلاوتها بهذه القوة أمام قائلها، ونحن فى قلب هذه الزوايع. كدث أساير ربولا، فأحاوره فى أقوال نسطور التى كنا نعلم أنها، فى الأصل، آراء الأسقف المتيقن تيودور المصيصى.. لكننى التزمت الصمت مكتفياً بهز رأسى، ولما لم أقاطعه، أكمل الأسقف ربولا كلامه وهو ما يزال ينظر ناحيتى، من دون أن يرانى! قال: الأسقف يوحنا الأنطاكى كتب ردًا مطولاً على رسائل الأسقف كيترلس الثلاث، وناقش معه الأمر تفصيلاً. مثلما فعل الأسقف المبجل نسطور من قبله. ولكنهم لم يصلوا إلى اتفاق. والآن، يريد الأسقف نسطور الرد على لعنات أسقف الإسكندرية، بلعنات مضادة.. وأرى أن ذلك سوف يثير مزيداً من النزاع، وعديداً من وجوه العدا، وسوف يؤجج نار الاختلاف والفرقة بين الكنائس الكبرى.

كان الأسقف ربولا بليغ الألفاظ، وفى كلماته صرامة وقوة إقناع. ولاعجب، فهو شاعر كنسى شهير. وهو الذى قضى بقصائده المعروفة، على المعانى التى كان يرددها فى أشعاره ابن ديسان (برديسان) الموصوف بالمارق! ويحفظها عنه الناس. وقد صار شعر ربولا اليوم أشهر من قصائد ابن ديسان.. خاصة بعدما تولى ربولا أسقفية الرها، وعظم شأنه عند الناس هناك، وصار رأساً للديانة فى تلك النواحي الشرقية. حتى أن أشعاره وترانيمه الكنسية، تُغنى اليوم فى أغلب القداسات والأعياد. ومع ذلك، شعرت بشيء ما فى الأسقف ربولا غير مريح.

جلستُ ساكتاً على بساط الأدب، متحيراً فى وسيلة خلاصى من تلك الجلسة التى لم تكن تخطر لى ببال. ثم انتبهت من شرودى حين نظر المبجل نسطور نحوى بوجه يعلوه احمرار حنقه، وسألنى: هل تعتقد يا هيبا، أن رهبان الأديرة المصرية الكثيرة فى وادى النطرون وفى صحراوات مصر، يوافقون كيترلس فيما يقول.

- إنهم يوافقونه فى أى شيء، فهم جيش الكنيسة المرقسية، والجنود المخلصون لبابا الإسكندرية.

- بابا، هه.. إذن، ليكن ما يكون.

نظر يوحنا الأنطاكى إلى نسطور بحنو أبوى، وكاد يتكلم لولا أن ربولا الرهاوى قام متثاقلاً، معتذراً إليهم برغبته فى المرور على حاكم أنطاكية الرومانى فى منزله، ثم الرجوع لحضور الصلاة. سأل الأسقف يوحنا إن كان سيمضى معه، فتردد الأخير لحظة، لكن نسطور حسم الأمر بأن قال: اذهباً معاً فى أمان الرب ورعايته، فإننى أريد أن أدخل قليلاً بالراهب هيبا.. خرجا متجاورين، وتركونا فى ركن الغرفة محاصرين. وهمس نسطور بشيء فى أذن الكاهن أنسطاسيوس، فقام الأخير من فور، وبقينا منفردين. بعد هنيهة من صمت، قلتُ مُترفعًا:

- يا أبت، إننى قلق عليك. ولا أنصحك بتحدى كنيسة الإسكندرية.

- يا هيبا، أنا لا أتحدى أحداً. ولكن كيترلس يريد أن يعلن وصايته على جميع الكنائس فى العالم.

راح نسطور يعيد على، ما كنتُ أعرفه من اعتقاده بأنه لا يجوز تسمية العذراء مريم ثيوتوكوس؛ فهى امرأة قديسة، وليست أمًا للاله. ولا يجوز لنا الاعتقاد بأن الله كان طفلاً يخرج من بطن أمه بالمخاض، ويبول فى فرشته فيحتاج للقماط، ويجوع فيصرخ طالباً ثدى والدته.. قال: هل يعقل الاعتقاد بأن الله كان يرضع من ثدى العذراء، ويكبر يوماً بعد يوم، فيكون عمره شهرين ثم ثلاثة أشهر ثم أربعة! الرب كامل، كما هو مكتوب، فكيف له أن يتخذ ولداً، سبحانه، ومريم العذراء إنسانة أنجبت من رحمها الطاهر، بمعجزة إلهية، وصار ابنها من بعد ذلك مجلى للاله ومخلصاً للإنسان.. صار كمثلى كقوة ظهرت لنا أنوار الله من خلالها، أو هو مثل خاتم ظهر

عليه النقش الإلهي. وظهور الشمس من كوة، لا يجعل الكوة شمسًا. كما أن ظهور النقش على خاتم، لا يجعل من الخاتم نقشًا.. يا هيبا، لقد جُنَّ هؤلاء تمامًا، وجعلوا الله واحدًا من ثلاثة!

تحصّنت بالصمت احترامًا لحقن نسطور وشفقة عليه.. بعد قليل، هدا، ورقت نبراته وهو يقول لي ما ملخصه أن التجلي المؤقت للإله المتعالى فى المسيح يسوع، هو رحمة أهداها الله لنا، ولا يجب علينا إهدار الهدية الإلهية بهذا التوسّع والاسترسال مع خرافاتنا الخاصة بالوهية المسيح، منذ كان فى بطن أمه أو منذ زمن طفولته، ولا يصح الاعتقاد بأن مريم العذراء ولدت الله! فالله باق على كماله الأزلى الأبدى، فهو الواحد الفرد، لا يولد ولا يموت، وهو يتجلّى حينًا، ويحتجب أحيانًا بحسب مشيئته.

نظر المبجل نسطور فى عينيّ بعينين يملؤهما الأسى، وقال ما معناه: هل فيما أقرره أىّ شيء عجيب، أم أن العجب مما يقوله كيّرلُس وأشياعه؟ يا هيبا، إن الخطر أبعد وأهم من لفظة ثيوتوكوس التى يتسلّى الجهلّة والعوام بتريديها. فالأمر يتعلّق بحقيقة الإيمان، وبقدرة هذا الدين الحق على مخاطبة قلب الإنسان وعقله، فى كل زمان ومكان. إن الوثنيين يهزأون من إسرائنا فى الخرافة، وسيأتى من بعد هؤلاء المستهزئين بنا مستهزئون منا، يسخرون من تلك الأوهام، ويحاولون طرحها، فيطرحون الديانة بجملتها.. إن البشارة والمعجزة الإلهية يا هيبا، سرّ نادر، لو أفرط فيه سيفقد معناه، ونفقد نحن الإيمان، ونضاد العقل!

كنتُ أعرفُ رأيه هذا، وأحفظه. ولكنى تركت نسطور يسترسل فى كلامه، تأدّبًا معه واحترامًا لغضبه النبيل. بعدما انتهى وقد هدا تمامًا، سألتُه متلطفًا: ولماذا لا تترك لعوام أهل الديانة، والجهال، اعتقاداتهم المختلطة بالأوهام المريحة لهم، والمناسبة لإدراكهم. ونشرح الحقائق لعلماء اللاهوت، ورجال الإكليروس، وكهنة الكنائس، لأن هؤلاء قادرون

على فهم هذه المسائل اللاهوتية الدقيقة، ثم نترك العوام يفهمون منهم، جيلًا من بعد جيل، من دون أن نصدمهم.

ولماذا نلجأ لهذه المناورة؟

مضطرون يا نيافة الأسقف، مضطرون. حتى نتفادى أنياب ومخالب الأسد المرقسى!

ابتسم نسطور لدعابتي الرامزة، وقد أدرك بذهنه اللّماح أننى أشير إلى ما ينتشر فى الإسكندرية من إيمان بأن القديس مرقس رسول الإسكندرية، اتخذ من الأسد شعارًا. أو بالأحرى، أعطاه الإسكندرانيون وأعطوا أنفسهم رمز الأسد، بأن رسموا القديس مرقس الرسول فى كتبهم وعلى جدران بيوتهم، وهو يكتب إنجيله والأسد رابض بجواره يتأمل ما يكتبه.. وقد أعادت الابتسامة العابرة إلى وجه نسطور بعض الصفاء الذى عرفته فيه سابقًا، وكنت أفتقده منذ ابتدأ لناؤنا الأنطاكي هذا، غير المتوقّع.

أردتُ أن أسأله عن صحة الأخبار التى وردت إلينا طيلة العام الماضى عن بطشه بالمعارضين له، وهدمه لكنائس الأريوسيين، وطردهم من القسطنطينية، وغير ذلك.. غير أننى شعرت بأن الأوان لم يحن لذلك بعد، فصبرتُ.

.. بعد هدأة طالبت بضع دقائق، اعتدل نسطور فى جلسته، وعدّل غطاء رأسه، ثم التفت نحوى وقد غشيه القلق، فلم تفلح ابتسامته فى إخفاء ما يعانى به. بدا مضطربًا وهو يخبرنى بأنه ردّ بعنف على رسالة كيّرلُس الأولى، ويُعدّ الآن الردّ على هذه الرسالة الأخيرة، وأنه يفكر أيضًا فى إرسالى للإسكندرية لأحاججه فى الأمر!

عفوك يا أبت المبجل، ورحمتك، هل تظنّ أن الأسقف كيّرلُس سوف يسمعى، أو يحترم أصلًا زيارتى؟

- ولم لا! أنت راهبٌ منذ شبابك المبكر وعالمٌ بالعقائد، وذو لسانٍ يونانيٍّ بليغ، ودرست بالإسكندرية.

- وهربتُ منها في يومٍ مشهود.

- وهل تظنُّه شعر بذلك وقتها؟ لا بد أن نشوته بمقتل هيبتيا شغلته عن غيابك.. بالمناسبة، هل التقيت به يا هييا في جلسات خاصة، أيام وجودك بالإسكندرية، المدينة العظمى؟

لفظ نسطور الوصف الشهير للإسكندرية، بسخريةٍ لا تخفى غيظه من وصف المدينة بالعظمى، وحرص كنيسة على الاستعلاء فوق مدينة المقر البابوي روما، ومدينة المقر الإمبراطوري القسطنطينية. ولأنه كان ينتظر مني الإجابة على سؤاله، ولأنني كنتُ أحبُّ نسطور كما أحبُّ أبي، ولا أودُّ له أن يلقي مصيرًا بائسًا مثل مصيره.. فقد أخبرته بما كنتُ أحرص دومًا على كتمانها! ومن أجل خاطره حكيتُ:

التقيتُ بالأسقف كيرلس مرةً وحيدة.. كان يومها قد مرَّ على وجودي بالإسكندرية عامان طافحان بالملل، كنتُ خلالهما مستسلمًا لمشية الرب، متناسيًا حلم النبوغ في الطب. قضيتُ أوقاتي هناك ما بين الصلاة مع الرهبان، وحضور القداس في أغلب الأيام، والإغفاء في أغلب القداسات. والانتظام بفصول المدرسة اللاهوتية، لأتعلم ثانيةً ما كان يدرسه تلامذة الكتابيب في صعيد مصر. كنتُ أيامها أدرس من الطب، ما يمارسه العطارون والعشَّابون وأهل الفلاحة في بلادى الأولى.. وبقيتُ على هذه الأحوال مقيمًا، مسلوب الإرادة والروح، وقد أدركتُ أن أحلامي التي علقتني بالإسكندرية، انقلبت بعد ما جئت إليها كوايبس جاثمةً على روحي، ولا فكاك منها.. ثم جاء ذلك اليوم الذي أخبرني فيه كبير كهنة الكنيسة المرقسية، بأنني، سأحظى بمقابلة البابا كيرلس صباح غدٍ، بعد

القداس. كان عمري آنذاك في حدود الخامسة والعشرين. وبطبيعة الحال، قضيتُ ليلتي تائهاً في صحراوات القلق والأرق. وفي اليوم التالي، دخلتُ على الأسقف كيرلس بعد ساعتين من الانتظار أمام بابه. سألتني أول ما رأني عن سني عمري، فأخبرته، وأخبرته أنني أتيت أصلاً للإسكندرية للتبحر في دراسة الطب، فردَّ عليَّ يسؤالٍ لم أفهم في البداية معناه:

- ومن هو أعظم المتبحرين في الطب؟

- يا صاحب القداسة، يُقال إنه مصريٌّ قديمٌ اسمه آمنحوتب، أو هو اليوناني الشهير أبقراط. أم تراك يا أبتٍ تقصد الذين جاءوا بعدهما من الأطباء الإسكندرانيين، من أمثال هيروفليوس، أو الذين درسوا بالإسكندرية من أمثال جالينوس؟

- خطأ.. إجاباتك كلها خاطئة، فالذين ذكرتهم كلهم وثنيون، ولم يستطع واحدٌ منهم أن يبرئ المجذوم والأبرص، وأن يحيى بلمسةٍ من يده إنسانًا مات!

- عفواً يا صاحب الغبطة، لكنني لم أفهم ما تقصد إليه.

- إن ربنا يسوع المسيح، أيها الراهب، هو بحرُ الطب. فتعلم منه، ومن سير القديسين والشهداء، واغترف البركات بيد تقواك وإخلاصك.

كان كلام كيرلس معي حادًا، لا يحيد لفظه عما يراه حقًا ويقينًا، فأثرتُ ساعتها الصمت، وتكلّم هو بما معناه أنني أوشكت على انتهاء فترة تعليمي بالمدينة، وأنه ينوي إرسالني بداية الصيف القادم إلى دير من أديرة وادي النطرون القاحل، الذي بقلب الصحراء الواقعة جنوب الإسكندرية؛ فتحلّ عليَّ بحسب قوله: بركات هذه الأرض الطاهرة، الحافلة برفات القديسين الذين وهبوا أرواحهم ليسوع، وهجروا من أجله الدنيا.. استدرك كيرلس

فقال لى، من دون أن ينظر ناحيتى: وقد أرسلك إلى أحد أديرتنا بمصر العليا أو بالحيشة، فإن أبناء الرب هناك بحاجة إلى دعمنا.

سكت كيؤلّس برهة كأنه يفكر ملياً، ثم نظر إلى واحد من قسوسه، وقال: لعله من المناسب أن نرسله إلى أحميم، فالشعب هناك يجاهد فى سبيل الرب، بعدما تكاثرت حولهم فى السنوات الماضية، الفأثرون من هنا والمستغلون بالعلوم التى لانفع لها.. احترت فيما يمكن أن أردّ عليه به، ثم واتتنى الجرأة أو الحمق! فحفظت من صوتى، وسألته بكل الأدب:

- وماهى يا صاحب القداسة، العلوم التى لانفع لها. حتى أعرفها، وأحرص على الابتعاد عنها؟

- هى أيها الراهب، خزعبلات المهرطقين وأوهام المشتغلين بالفلك والرياضيات والسحر. فاعرف ذلك وابتعد عنه، لتقترب من سُبُل الرب وطُرُق الخلاص. إن كنت تريد تاريخاً؟ إليك التوراة وسفر الملوك. أو تريد بلاغة؟ إليك سفر الأنبياء. أو تريد شعراً؟ إليك المزامير. وإن أردت الفلك والقانون والأخلاق، فإليك قانون الرب المجيد. فَم الآن أيها الراهب لتلحق بالصلاة، لعلك تحظى بنظرة عناية من ربنا المسيح الحى.



سمعتنى نسطور باهتمام وقلق، حتى شعرت من إنصاته أنه يدرك من المعانى الكامنة وراء حكايتى، ماهو أعمق مما يديه ظاهر الكلام. بعد لحظة صمت جليل، التفت نحوى وقد عاوده التحنن الأبوى الذى طالما عرفته فيه، وقال: سوف أعفبك يا هييا من مهمة الذهاب إلى هذا الرجل، وسوف أردّ بنفسى على سخافات، وأواجه لعناته بلعنات مضادة، أصبها

حامية فى رسالته مثل رسالته.. ما علينا من ذلك كله الآن، أخبرنى عنك وعن أحوالك فى الدير.

تذكرت رسالة رئيس الدير، فأخرجتها بسرعة من بين طيات ردائى، ومددتها نحوه، ففتحها برفق. نظر فيها، ثم قال باسمًا ومهمومًا: الراهب سمعان يطلب توسعة الكنيسة وبناء سور للدير. طمئنته يا هييا، سوف أحدث الأسقف يوحنا اليوم فى الأمر، وسوف يلبي طلبه بمعونة الرب.

استدعى نسطور بدواة وقلم، وأخرج من جيبه رقاً صغيراً كتب عليه رسالة لرئيس الدير، ثم ختمها بختمه وأعطاها لى. استأذنت منه فى العودة إلى الدير صباح الغد، فأخبرنى أنه سيجرّ فجراً إلى القسطنطينية.. ثم قام واحتضننى مودّعاً، وعاد لجلسته، وحيداً. عند الباب بدا لى أمرٌ كنت أكنمه، فعدتُ إليه لأسأله:

- يا أبت، لو احتدم الخلاف بينك وبين الأسقف كيؤلّس بأكثر من ذلك، هل سينصرك بقية الأساقفة؟

- يا هييا، الأساقفة كثيرون فى الأرض شرقاً وغرباً، وأهواؤهم شتى. فامض أنت فى عناية الرب، ولا تقلق، فالله هو الناصر والمعين.

أردتُ أن أزيده إيضاحاً، وأستزيده إفصاحاً، فقلت:

- إننى يا أبت أقصد الأسقفين، يوحنا ورَبُولَا.

- يوحنا الأنطاكى رجلٌ مخلص، وبيننا سنوات طوال من المودة. أما رَبُولَا، فلا أعرف ما ينويه.. لا تقلق يا هييا.. لا تقلق يا ولدى، فهذا العالم بكل ما فيه، وكل من فيه؛ لا يستحق قلق المؤمنين.

الرَّقُّ الثامن عشر

عِنْدَ حَوَافِّ سَرْمَدَةِ

فى طريق عودتى من أنطاكية، كنتُ أنوى المرور على دير يوبريوس لزيارة الراهب الضحوك، فقد كنتُ فى شوق لرؤياه. غير أنني لأمر خفى، انصرف عني ذلك الخاطر، وقررتُ العودة إلى الدير رأساً.. لاحظتُ عند خروجي من البوابة الشرقية أمراً غريباً، فالحمارُ الذى كنتُ دوماً أظنه حيواناً غيباً، مضى بى مسرعاً وكأنه يعرف طريق العودة! سار بلا أدنى توجيهٍ منى. كانت دَقَّاتُ حوافره، تشي بنشوته وابتهاجه بالرجوع إلى موطنه ومربطه فى حظيرة الدير.. الحمار يحنُّ إلى الأصل، ويبتهج بالرجوع إلى الوطن، وأنا تُرعبني فكرة الرجوع إلى بلادى، ولو فى مهمة قصيرة. لكننى فى الحقيقة، كنتُ مرعوباً من العودة إلى الإسكندرية تحديداً، فرجوع مثلى إليها محفوفٌ بالمخاطر.. فالذى يخرج من الإسكندرية مغاضباً أو مغضوباً عليه، لا ينبغي له العودة إليها. تجاربُ الأيام دَلَّتْ على ذلك، وأكَّدته! فقد عاد إليها أوريجين بعدما ذَهَبَ عنها مغاضباً، فأذاقه أسقفُ زمانه ديمتريوس الكَرَام كؤوس المرار. جرى ذلك قبل مائتى عام، ولم يكن أسقف المدينة أيامها بمثل قوة أسقفها اليوم، ولم تكن الإسكندرية وقتها تُعرف بالمدينة العظمى، ولم تكن واجهات بيوتها وجدرانُ كنائسها

قد امتلأتُ بصور مرقس الإنجيلي وبجواره الأسد الرابض، ولم يكن أوريجين مسكيناً مثلى! ومع ذلك ذاق على أيديهم المرار والويل.. وبعده بثمانين عاماً، استدرج الإسكندرانىون الراهب آريوس إلى القسطنطينية من منفاه ببلاد القوط (إسبانيا) بعدما كان قد استقر هادئاً هائناً بأقصى العالم. استدرجوه، بعدما حرموه وعزلوه ومثلوا بسمعته. لم يرضوا له أن يموت فى سلام. ولما انخدع وذهب ليلتقى بالأسقف إسكندر فى بلاط قسطنطين الإمبراطور، أملاً فى الوفاق وحل النزاع اللاهوتى الذى أغضب الإسكندرية، لقي آريوس مصيره المفجع ومات مسموماً. ولم يكن أسقف الإسكندرية أيامها بمثل قوة أسقفها اليوم، ولا كان آريوس مسكيناً مثلى!

على وقع خطى الحمار الرتبية فوق الحصى، كانت تلك الأفكارُ تُورجج رأسى، فلم تنجح خضرةُ الجَنَّاتِ المحيطة بأنطاكية، مع جمالها، أن تخرجنى من دَوَّامات الإسكندرية.. عنفٌ كثيرٌ يلفُ سيرة المدينة التى حلمتُ سنين بالوصول إليها، ولما وصلتُها نُقِيت إلى الفرار منها، وبقيتُ محبوباً فيها حتى جاء يوم هجاجى العارم.. كنتُ أود لو ليئتُ طلب نسطور، وعاونته فيما هو مقبلٌ عليه. ولكن كيف يجوز لى الرجوع إلى الإسكندرية؟ وهل ينتظر كيُّرُلس راهباً مثلى، ليحاججه، ويشرح له مقاصد نسطور اللاهوتية؟ إنه لن يقابلنى أصلاً، وإنما سيفتك بى. ولو نجوتُ منه، فهل سأنجو من العوام، ومن جماعة محبى الآلام. وهم يعلمون أننى جئتُ ممثلاً لنسطور الذى يرويه مهرطقاً! أهلُ الإسكندرية لا يرحمون، ولا يخشون عقاباً على أفعالهم. قتلوا هيباتيا على مرأى من سُكان المدينة، ولم يُعاقبوا. وقتلوا قبلها أسقف مدينتهم جورج الكبادوكى، ومزَّقوه فى الشارع الكبير، فخنق الإمبراطور جوليان وهو المرتد من المسيحية، عن

عقابهم، واكتفى بقوله فى مرسومٍ إمبراطورىٍّ فاضحٍ، إنه سيعفو عنهم إكرامًا لمعبود الإسكندرية سيرايس!

كيف يمكننى العودة للإسكندرية، بعدما رأيته منها وعرفته عنها؟.. وما أدرانى بما قالوه عني، لمّا عرفوا بهروبي فى اليوم المشهود؟ ألم يحدثهم عني أحدُ الحجاج العائدين من أورشليم؟ وهل اتخذى الاسم الكنسى هيبا سوف يُخفينى عن أنظار الكنيسة المرقسية وعن مخلب الأسد؟.. أترانى خذلتُ المبجلَ نسطور بتخاذلى عن تلبية طلبه؟ أم أن الرب كشف له أمرًا، فعدل عن فكرته الملقية بى فى آتون الإسكندرية؟ أم أنه لمع خوفى حين حكيثُ له قصة لقائى بالأسقف كيرلس، فأعفانى من هذه المهمة المرعبة، غير المجدية أصلاً.

أفقتُ من دوران الأسئلة برأسى، على أمرٍ عجيبٍ آخر فعله الحمار. كنا قد قطعنا قرابة نصف الطريق، وكان الأوان ظهرًا، فوجدته يتجه إلى الشجيرات التى وقفنا تحتها ساعة الظهيرة، قبل يومين، ونحن ذاهبان إلى أنطاكية.. تحت الشجيرات تسمّرت ساق الحمار، وراح يهز أذنيه وكأنه ينتهني إلى موعد غدائه. الحمار لا يمكن بحال أن يكون غيبًا، هو صبورٌ بطبعه. وقد يبدو الصبرُ غباءً أحيانًا، وجُبْنًا أحيانًا. يبدو أننى قضيتُ عمرى حِمَارًا!

نزلتُ عن الحمار، وألقيتُ البردعة الخشنة عن ظهره، فزفر زفرة المرتاح. ربطتُ ساقيه الأماميتين بالحبل المعلق بإحداهما، وعلقتُ برقبته مخللة العليقة، فراح يمضغها بالتذاذٍ وتمهّل. لم يكن لى رغبة فى الأكل، ولا فى النوم، ولا حتى فى التفكير. أسندتُ ظهري إلى ساق شجيرة، وأغمضت عيني وقد غامرني شعورٌ غامضٌ بالارتياح، لقرب عودتى إلى الدير.

بعد برهةٍ من سكون الظهيرة، مرّ بى شابٌ تكاد سنوات عمره تقترب من العشرين. جاء من بعيدٍ يسعى على الطريق المبلط، وهو يمسك بمقود عنزةٍ يتبعها ثلاثٌ من صغارها. أقبل نحوى من الناحية الأخرى للطريق، وسألنى بلطفٍ إن كنت أحتاج لشيء، فشكرته، ثم استدركتُ، فسألته إن كان من الممكن أن يجد لنا ماءً لنشربه، أنا وحمارى؟ فقال بهمةٍ عالية، إن هناك بئرًا قريبة. ربط عنزته تحت الشجيرات، وطار إلى ناحية بيوت البلدة، وعاد بعد قليل وبين يديه ماجورٌ كبير من الفخار، يترجرج فيه الماء العذب النظيف. ارتشفْتُ شُرْبَات حتى ارتويتُ، ثم أخذ الفتى الإناء من يدى، فوضعه أمام الحمار، وأنزل المخلاة عن رقبته، فمال لينهل.. عاد الفتى فجلس أمامى متأدّبًا، عند طرف ظل الشجيرات. بدا لى خجولًا، فأردتُ أن أجاذبه أطراف الحديث على سبيل التعبير عن امتناني، فسألته من أى بلدة هو؟

- من هذه البلدة يا أبت.. سَرْمدة.

نظرتُ ناحية البلدة النائمة فى سلام، تحت شمس الله التى تشرق على الأبرار والأشرار. البلدةُ صغيرةٌ، فقيرةُ البيوت، لايزيد عدد منازلها عن المائة. فى أطرافها بساتين قليلة، ومساحات من شجر الزيتون. لم أرَ عند البيوت أحدًا من سكان البلدة! أتراهم كانوا فى مثل هذا الوقت من الظهيرة، نائمين؟ مع أن أيام الشتاء هذه، نهارها قصير.. كان الفتى يجلس صامتًا، فسألته إن كان يشتغل بالرعى، مثلما يبدو من هيئته؟

- لا يا أبت، أنا أعمل أحيانًا بالمعصرة التى بطرف البلدة الغربى. وهذه معزة عمّتى، أخذتها بالأمس لتبيت عند جار لنا لديه جدّى قوى. والآن أعيدها إليها، بعدما قضت ليلةً مع الجدّى القوى..

- فهمتُ يا ولدى، فهمتُ.

لم تعجبني النظرة التي طفرت بعيني الفتى، حين ذكر الجدوى الموصوف بالقوى. كان حمارى ما يزال يعب الماء مستمتعاً ببرودته، وكانت المعزات الصغيرات يتمسحن ببطن أمهن.. ظل الفتى جالساً عند حدود الظل، مواجهاً لى. كانت الشمس تكسو جانبه الأيسر، ويقع على جانبه الأيسر ظل الشجيرات.. ترعب الفتى فى جلسته بعدما حَسَرَ طرف جلبابه، فظهرت ركبتاه، وبدا بياض ساقيه الخاليتين من الشَّعر، بعكس حال الرجال! حدقت فى ملامحه، فبدت لى إلى ملامح النساء أقرب، خاصة أن لالحية له.. فى شعر رأسه صفرة، وفى عينيه ميلٌ للاخضرار، وعلى وجهه ورقبته أثر لفحات الشمس، وكانت يده ناعمتين على غير العادة فى أمثاله من الفقراء.

أثار الفتى قلقي! أخرجت من مخلاتى نسخة المزامير المكتوبة بقلم يوناني دقيق، ونظرتُ فيها، فتململ وكأن لديه ما يريد أن يحكيه. تشاغلُ عنه بتلاوة خافتة، فسكن. حين توقفتُ عن التمتمة، ترخف الفتى نحوى وهو بعدُ جالس، وقال ما معناه أنه يود الاعتراف أمامى!.. أفهمته أن الاعتراف يكون فى الكنيسة، ويتلقاه الكاهن لا الرهبان من أمثالى.

- لكن كاهن كنيستنا يا أبت يعرفنى، وأنا أخجلُ من الاعتراف بين يديه.

- تغلب على خجلك يا ولدى، فيصح إيمانك، ويتأكد ندمك وإقرارك بالخطية التى فعلتها.

أطرق الفتى وعلى وجهه مزيجٌ من الخجل والحيرة والتحشر. نظرتُ ثانية نحوه مدققاً فى ملامحه، فشعرتُ تجاهه بشعور غريب! فى هيئته مسكنة وبراءة، وفى وجهه طولٌ وبياضٌ مشوبٌ بالهزال. الشعيرات المتناثرة على ذقنه تجعله أقرب إلى الأمرد منه إلى الرجل، ورقة نظراته

تقرّبه من النساء بأكثر مما هو إلى الرجال قريبٌ. جلسته الخاشعة مسّت أوتار الرحمة فى قلبي، ودعنتى للتساؤل عما يمكن أن يكون قد اقترفه هذا المسكين، الغريب. هو محض صبي يستعظم ذنوبه، ولا أظن خطاياهُ ستخرج عما يقترفه الناس من الصغائر وتوافه الأمور، ثم من بعد ذلك يتعدّون حتى يجدوا مَنْ يلقون بين يديه بأحمالهم، فيريحهم الاعتراف المؤهل للمغفرة، المؤكّد رحمة الرب. قلت فى نفسى: إن هو إلا طفلٌ صغيرٌ، ولا بأس لو ترقّفتُ به، هو بحاجة إلى مَنْ يستمع له ويهديه إلى الإيمان القويم.. قلتُ له:

- اسمع يا ولدى، بإمكانك الذهاب إلى أنطاكية للاعتراف فى واحدة من كنائسها الكثيرة.

- الطريق طويل يا أبت، وقد يعرفنى الكاهن هناك. ولا أظننى سألتقى بك ثانية، فاسمع أنت اعترافى.

- ولكن يا ولدى..!

- أرجوك يا أبت الطيب، أرجوك.

... قل ما عندك.

أطرقْتُ بعدما طويْتُ المزامير وشددت غطاء رأسى نحو جبهتى، متهيئاً لتلقى الاعتراف لأول مرة فى عمرى، ولآخر مرة.. سمعتُ يومها من الفتى أشياء ليس بمقدورى الآن تدوينها كلها. مع أننى نويتُ أن أكتب هنا، كل ما كان! غير أن ما حكاها الفتى كان بالغ الفحش والغرابة، ولم يكن وجود مثله يخطر لى على بال.. من الفواحش التى اعترف بها، أنه اعتاد منذ بلوغه نكاح الماعز، فكان يتحين الخلوة بالمعزة التى تطلب الذكر، فيضمها فى جوف الليل بين فخذيه، ويقضى فيها وطره. لما قال لى ذلك، لم أشأ أن أظهر أمامه انزعاجى، وبقيتُ ساكناً أحدق فى التراب الذى

أجلس عليه، وأرتب الكلمات التي سأرد بها عليه، مرصعًا كلماتي بآيات من الإنجيل. لكنه لم يُمهّلني، فقد اعترف بعد ذلك بأن أمه الأرملة التي في سنّ الأربعين، رأتها ذات ليلة وهو يفعل فعلته الفاحشة فانخطف قلبها قلقًا عليه، ونهرته بشدة وهي تغسل ما بين فخذيه ببعض الماء. ثم جلست وبكت بكاء طويلًا، وندبت فقرهم الذي يمنعهم من تزويجه.

- يا ولدي، كل الفقراء يتزوّجون.

- فقرهم يا أبت، ليس كفقرنا الشديد.

شعرتُ بالأسى يخنق أنفاسي، ولم أشأ أن أسمع من الفتى المزيد، لكنه ألحّ، وسالت من عينيه الدموع وأخذته النشيج.. لما هدا قليلًا، قال إن أمه ارتكبت معه خطية الخطايا! ففى قلب ليلة قمرية من ليالى الصيف، كانت تنام بجواره فى كوخهم متهدّم السقف.. التصقنا، وحدث بينهما الحدث..

انزعاجي مما يحكيه الفتى كان قد بلغ الغاية، ولم أعد قادرًا على سماع المزيد.. كان الفتى يسهب فى ذكر ما جرى بينه وبين أمه، وكنت قد امتلأتُ بالقلق. أخبرني بأنهما اعتادا ذلك فى معظم الليالى، وفى الليالى الأولى كانا يعلنان الخطية مرتين أو ثلاثة. لاحظتُ أنه أسقط حاجب الحياء، وبدا ملتدًا بما يحكيه، فقاطعتُه:

- يكفى هذا يا ولدي، يكفى. وعليك بالابتعاد عنها فورًا، والبحث عن زوجة صالحة، والتكفير عن ذنبك بمداومة الصلاة وحضور القدّاس.

- لكنها لن تستغنى عني يا أبت!

تعجّبت من تبجّج الفتى، ومن ابتسامته الارتفاع التي شاعت فى وجهه، فصارت ملامحه أشدّ غرابة مما كانت عليه. وبدت لى عيناه باردتين على

نحو مريب! هل كانت علاماتُ الألم الذى اعتصره قبل قليل، وهما توهّمته؟ أم تراه ارتاح بالاعتراف، فلم يعد يشعر بخطورة اقتراف الفعل الشنعاء؟ نظرتُ إلى السماء البعيدة، كانت سحابة ثقيلة تمرّ فوقنا، وشعرتُ أن الطريق إلى الدبر طويل، وقد مال الظلّ ناحية المشرق وربما تهطل الأمطار. أردتُ النهوض لاستكمال طريق العودة، ولما لملت أطراف ردائي متهيّئًا للوقوف، استوقفتنى بقوله:

- ألن تسمع بقية اعترافى.. يا أبت؟

رَنّ قوله (يا أبت) رنينًا غريبًا فى أذنى. لم يعد صوته ملفوفًا بحياء المعاناة مثلما كان حاله قبل الاعتراف، ولم أعد قادرًا على البقاء معه. بل إننى ندمتُ على أنى استمعتُ إليه أصلاً. قلتُ له إن الوقت تأخّر، وإن على استكمال رحلتى الطويلة. فقال ما فحواه إنه لم يُنه اعترافه بعد، وأن لديه ماهو أكثر خطرًا مما يريد أن يعترف لى به.

- لا يا ولدي، لا يوجد ماهو أخطر مما سمعته منك.

- بل يوجد أيها الراهب الطيب.

- لن أستطيع سماع المزيد.

قمتُ متعجلًا، فوضعتُ مخلاة العليقة تحت بردعة الحمار، بعدما دسستُ المزامير فى جيب جلبابى. تركنى الفتى أفلك وثاق ساق الحمار، من دون أن يعرض على المساعدة. مع أنه كان قبلها يلاحقنى كظليّ. لم أكن أنتظر منه كلمات الوداع، لكنه قال وهو يمضى ورائى حتى يكاد يلتصق بى، وقد امتزج صوته بنبرة تبجّج فاحش، إنه صار يستمتع بما يفعله! تجاهلته. أضاف أنه يفعل ذلك أيضًا مع أخته، حين تبيت معهما فى الليالى التى يسافر فيها زوجها مع القوافل! تجاهلته. أضاف أنه يستمتع بما يفعله معها، وهى أيضًا مستمتعة، لكنها صارت حُبلى منه.. دون أن أنظر ناحيته،

امتطيتُ حمارى ولويت عنانه نحو الطريق. بينما كنتُ أبتعد، صاح الفتى
فى بغيطٍ شديد وغلٌ مكتوم:

- لماذا تهرب منى أيتها الراهب، قِفْ لتسمع عن اللذات والمتع التى
حرمت نفسك منها. فعندى منها الكثير والكثير.

لكرتُ بطن حمارى بكعبيّ، فانطلق شرقاً بكل مافيه من عزم. انطلق
الحمارُ كأنه يهرب، أو لعله أدرك مثلى أن هذا الفتى ليس بفتى، وإنما هو
الشیطان قد تجسّد لنا فى صورة آدمية، ليعبث بى.

الرقُّ التاسعُ عشر السَّيِّدَةُ

قبيل الغروب، وصلتُ الدير وقد التصقت ملابسى بجسمى من العرق،
مع أن الهواء كان باردًا. كان رأسى يطنُّ بالهواجس، وتطحنه الأفكار.
عند منتصف التلة الصاعدة إلى البوابة، لمحتُ رئيس الدير جالسًا على
الحجر الكبير المربع، وفى يده على غير العادة، إنجيلٌ يقرأ فيه! مع أنه
يحفظ الأناجيل الأربعة وأسفار العهد القديم، عن ظهر قلب. حين رآنى
أطبق إنجيله ونهض، وقد وشت نظرتة بالقلق الكامن فيه.. وصلت عنده
ونزلت عن الحمار، وقبّلت يده كعادتى، فتأكّدت من ارتعاشة أصابعه أنه
مضطرب البال، بل مرتجف القلب. فى طريقنا إلى صومعته راح يسألنى
عن رحلتى، وعن أخبار اللقاء بالأسقف نسطور، وفى صومعته سألتنى عمن
رأيتهم فى أنطاكية، وقَدَّم لى طبقًا فيه حفنة من الفواكة المجففة.

بدأتُ كلامى بإخباره أننى سلّمت رسالته إلى الأسقف نسطور وبأنه
وعَدَ بتلبية الطلب الوارد فيها، وقَدّمت له الرسالة التى بعثها إليه ففتحها،
ونظر فيها بسرعة، قبل أن يطويها ثانية، ويدسّها تحت وسادته! استغربتُ
أنه لم يهتم بالرسالة كثيرًا. أخبرته بأننى التقيت فى أنطاكية بالأساقفة الثلاثة
وكاهن كنيسة العاصمة، كلهم فى موضع واحد! فلم يندهش لذلك، وكأنه

كان يعرفه من قبل. وهكذا لم أجد بُدًّا من إخباره بالمهمة التي كان نسطور ينوي إرسالها إليها، وكيف بدا له أمرٌ، فعدل عما كان ينويه.. بعدما حكيتُ، صمّت رئيس الدير برهةً، ثم قال:

- يا ولدى، لا فائدة في ذهابك للإسكندرية.

أراحتني العبارة، وأزاحت عني ثقل شعوري الجاثم على صدري، من فرط إحساسي بذنب التخلّي عن نسطور في محتته.. ولأنني كنتُ حائرًا فيما مرّ بي على طريق العودة، أخبرني رئيس الدير بما جرى مع الشيطان المتجسّد في صورة الفتى، عند حواف سرمدة. فابتسم بوهن، وهزّ رأسه وهو يقول: قم يا هيبا لتستريح، فما هذا الفتى إلا عابثٌ من أولئك الذين يتلهّون بالسخرية من الرهبان!

تهيأتُ للانصراف من حضرته، من دون أن أعرف سرّ القلق البادى على رئيس الدير، ومن غير أن أسأله.. قبل خروجه من صومعته، قال وكأنه يحادث نفسه: عزازيلٌ لديه حيلٌ ومداحلٌ أدقُّ من ذلك، وأمكر.. فليشملنا الرّب جميعًا، برحمته العميمة.



مضت الأيام التالية رتيبةً، والشهورُ. ثم دخل علينا الصيفُ، وتمطّى بساعات نهاره الثقيلة، وقصّر لياليه الخاطفة التي تمرُّ بحياتنا، مثلما تمرُّ في أيامه تنفّ الرباب وقطع السحاب.. كنتُ كثيرًا، ومازلتُ، أحدّق في الأفق ساعات العصر والغروب. فأشعرُ أن هيئة السحاب في السماء، هي كتاباتٌ إلهيةٌ ورسائلٌ ربّانيةٌ مكتوبةٌ بلغةٍ أخرى غير منظومة، لا يقرؤها إلا مَنْ يعرف أصولها المؤلّفة من الأشكال، لا الحروف. كان ذلك الإدراك واحدًا من أسرارى وخفاياي، غير أنني صرّحتُ يومًا بهذا

السّرّ لرئيس الدير، فقال بعد إطراقةٍ طويلة: لعلها مجلى لما في أعماق نفوسنا، من الكلام الإلهي الكامن فينا.

من الوقائع الغريبة التي جرت أواخر الصيف الماضي، أعنى صيف العام الثلاثين بعد الأربعمائة للميلاد، نزول الحمام بأنحاء الدير.. ففى صبيحة أحد الأيام، حطّت طائفةٌ كبيرةٌ من الحمام الجبليّ الذي اعتدنا أن نراه فرادى أو أزواجًا قليلة. غير أن عشرات كثيرة ملأت فجأة تلة الدير، وطوّفت بين أرضه وسمائه. ابتهج الرهبان لهذا الأمر، عدا الفريسي! وعُدّوها واحدةً من المعجزات، المبشرات بأن موضع الدير سوف يمتلئ ببركات السماء. الحمام الجبليّ يختلف عن النوع الأهلّي الذي يربيه الناس في البيوت المصرية، ويأكلون فراخه. الجبليّ أصغر منه حجمًا وأعسر هضمًا إذا أكل، وفي ريشه غبرة لطيفة، وليس له إلا لون واحد، هو الرمادي. بخلاف الحمام الأهلّي الذي منه الأبيض والبنى ومختلط الألوان، بحيث يسهل تمييز أفرادهم. أما هذا الجبليّ، فكله على نسق واحد! كأنه نسخٌ كثيرةٌ من حمامة واحدة، ريش جناحيها بلون الرماد الفاتح، وأطراف الجناحين فيهما خطان داكنان. وفي رماديه لمعة لطيفة، خاصة عند الرأس والعنق.

وكان من غريب أمر هذا الحمام، أنه لا يفرّح كثيرًا من حركة الناس. حتى إذا اقتربوا منه جدًّا، طار غير بعيد، ثم حطّ في مكان قريب. كان الفريسي وحده، هو الذي يحرص على إفزع الحمام وطرده بعيدًا بقدر ما يستطيع، وكان بقية الرهبان يندهشون من فعله، ولا يفهمون السّرّ من ورائه.

فى اليوم الثانى من نزول الحمام، راح الرهبان يتفنّنون فى بيان سبب نزوله ومكوّنه بأرجاء الدير. منهم من قال إنه هاجر إلى هنا، لينعم بخضرة التلة. والبعض قال إنه يلتمس روحانية المكان، ويأنس إلى أهله. آخرون

أكدوا أنه يطيع أمر السماء بالسكنى هنا، وأنه جاء ليجلّل الدير بهيئة السكينة وروح السلام.. فى الحمام، بالفعل، سكينةً وسلام! كنتُ أهنأ بالنظر إليه فى الصباح الباكر وقبل الغروب، وأقضى وقتاً طويلاً فى تأمل أحواله، مستغرباً بقاءه تلك الليلات فى شقوق الجدران، وفى المواضع التى انخلعت منها الأحجار، من دون أعشاش يأوى إليها ويسكن فيها ليفرّخ الصغار، بحسب ما نعرفه من عادات الحمام الأهلى والجبلى، بل الطيور على اختلافها.

فى ثالث الأيام من نزول الحمام، كنتُ جالساً عند السور المطل على السهول الشمالية. كنا قد انتهينا من صلاة الصباح، ولم يكن عندى رغبة فى الذهاب للمكتبة. بقيتُ وقتاً طويلاً أراقب طائفة من حمامات تطير بين الأعمدة والجدران، وتحطّ حيناً على الأرض، فتلتقط بمنقارها ما تجده صالحاً لغذائها.. كنتُ ساكناً فى جلستى، فكان الحمامُ يأنس لسكونى ويقترّب، مثلما كان الطير يأنس لمزمار داود النبى، ويحطّ حوله. بعد حين، صرْتُ أُمَيِّرُ ذكور الحمام من الإناث، وألحظ ما بينها جميعاً من محبة لا تهدأ، ولا تختص بزواج من دون زوج! فالحمام كله متحابّ، ينتفش الذكر منه، ويظل يومئ برأسه حول الأنثى القريبة، فإن هدأت اعتلاها، وإلا طار إلى غيرها آملاً أن تهدأ له، وانتظرتُ هى ذكراً غيره يحوّم حولها، فإن طاب لها، طَيَّبَتْ نفسها له باقترابها وعدم فرارها منه، فيكون ذلك منها إيذاناً له باعتلائها.. الحمامُ كثير السّفاد، ولا يكفّ طيلة نهاره عن التغرُّل والاتصاق، خاصةً أوان العصر وقبيل الغروب!.. كنتُ هائناً بجلستى عند السور، وبالحمام المحيط، ساعة جاء الفريسي من بعيدٍ يتدحرج فى مشيته كعادته. جلس بجوارى، وراح يلتقط من قطع الحجارة، ما يرمي بها الحمام ليطرده بعيداً عن موضعنا. سألتُه عما يفعل، فقال حانقاً إن الحمام يملأ أرجاء الدير زبلاً، ويزعج النائمين فجراً بصوت ذكوره التى تزوم بلا

انقطاع. نظرتُ إليه نظرة المشكك فى صدق ما يقول، فأضاف وكأنه يذيع سراً، أن الحمام يثير الشهوات، ويبعث على ارتكاب الخطية، وأن على الناس ألا ينظروا إليه ماداموا أتقياء!.. للفريسي آراءٌ عجيبة، مثله.

فى اليوم الرابع من نزول الحمام، رحل فجأةً مثلما جاء. اغتمّ الرهبانُ لرحيله المفاجئ، واغتممتُ، بعدما كنتُ قد أنستُ إليه فى الأيام الثلاثة السابقة. قضيتُ ليلتى فى المكتبة، ورأيت فى وسنات أول الليل أحلاماً يملؤها الحمامُ.. فى النصف الأخير من الليل، أُسرجتُ قنديل كائننى سأنظر فى الكتب، غير أن عقلى كان يجول فى آفاق بعيدة، وتتقاذفه أسئلةٌ ليس لها إجابة: أين ذهب الحمامُ حين رحل عنا؟ وهل هى حقاً إشارةٌ إلينا وبشرى من السماء، أم هى مصادفة؟ وهل سيعود الحمام بعد حين، أم أنها كانت مرةً لن تتكرّر؟ لماذا لا يتعلّم الناس من الحمام، العيش فى سلام. الحمامُ طيرٌ طاهر، وبسيط، وقد قال يسوع المسيح: كونوا بسطاء كالحمام.. الحمامُ مسالمٌ؛ لأنه لا مخالِبَ له، فلينبذ الناس ما بأيديهم من الأسلحة وعتاد الحرب! والحمامُ لا يأكل فوق طاقته ولا يخترن الطعام، فليكف الناس عن اكتناز القوت وتخزين الثروات.. والحمامُ يعيش حياة المحبة الكاملة، لا تفرّق ذكوره بين أنثى جميلة وأخرى قبيحة، مثلما يفعل الناس.. وإذا بلغ الفرد منه مبلغ الطيران، لم يعد يعرف أباً له ولا أمّاً، وإنما يدخل مع البقية فى شركة كاملة لا تعرف أنانيةً ولا فردانية. فلماذا لا يعيش الناس على ذاك الحال، ويتناسلون فى جماعات مسالمة، مثلما كان حال الإنسان أول الأمر؟ الكلُّ يعيش فى الكل، يحيا فى هناءة، ثم يموت بغير صخبٍ، مثلما تموت بقية الكائنات. ويختار الرجال من النساء، والنساء من الرجال، ما يناسب الواحد منهم للعيش حيناً فى محبة مع الآخر، ثم يتركه إذا شاء، ويأنس لغيره إذا أراد، ويصير نسلهم منسوباً لهم جميعاً..

وتكون النساء كالحمامات، لا يطلبن من الرجال غير الغزل ولحظات الالتقاء. فالنساء..

- يا هيبيا، هذا الذى تكتبه لا يليق برهبانتيك!

- دعنى يا عازيل.. أنت دعوتنى إلى التدوين، فاتركنى أكتب ما أريد.

- لكنك تتوغل إلى بعيد، ولا يزال أمامك الكثير مما كنت تحكيه، ووقتك ضاق.

- معك حق أيها اللعين!



فى يوم حارٍّ من شهور خريف العام الثلاثين بعد الأربعمئة للميلاد، كنتُ أنظرُ كعادتى للسحاب محاولاً فكَّ رموزه، أو استجلاء المعانى الكامنة بباطنى بحسب ما أراه من هيئته. كان الأوانُ عصراً، حين سمعتُ أصواتاً آتيةً من جهة بوابة الدير. قمتُ من جلستى المعتادة عند السور المتهدم المطلُّ على الأفق الشمالى الفسيح، وعبرتُ الساحة لأرى سبب الجلبة.. عند منتصف المرتقى الصاعد إلى البوابة من السهول الممتدة، حيث الكوخُ الخربُ المهجور منذ سنين، كان هناك رجلان وبغلتان وامرأتان، إحداهما عجوزٌ، والأخرى فى ملابس ملوَّنة لم أتبين ملامحها جيداً.

بعدما أفرغاً أثقالهما، انصرف الرجلان بالبغلتين، وبقىَت المرأتان تجتهدان فى إدخال الأغراض إلى الكوخ. أتراهما ستسكنان فيه؟ سألتُ نفسى، وانشغلت بالسؤال عن إيجاد الجواب، حتى مرَّ بى كاهنُ الكنيسة فى طريق خروجه من الدير.. هو يعيش بسفح الدير، فى واحدٍ من تلك

المتازل الصغيرة المتناثرة حول التلَّة، فلا بد أنه يعرف طرفاً من الخبر. لما استفسرتُ منه، أخبرنى أن المرأتين وفدتا لسكنى الكوخ. بعدما سمح لهما رئيسُ الدير بذلك، رافَّةً بحالهما.. أضاف الكاهنُ: العجوز مريضةٌ، وأظنها ستأتيك طلباً للمداواة.

على مائدة العشاء، كان رئيسُ الدير فى موضعه المعتاد يقرأ لنا المزامير، ثم لا يأكل معنا إلا كسرةً من الخبز الجاف يشكر بعدها الرَّبَّ. أشار إلى، ولما أقبلتُ إلى جواره مال ناحيتى، وقال همساً إن قيثاراً صغيرة سوف تصلنا يوم السبت من حلب، وإنه سوف يجمع لى شمامسةً وفتاةً صوتها عذب، كى أعلمهم بعض الترانيم لتلاوتها أمام المصلين فى قدَّاس أيام الآحاد، مثلما يفعلون فى الكنائس الكبيرة. أضاف: يمكنك أن تلحنَ لهم شيئاً من المزامير، أو بعضاً من أبياتك الشعرية القصيرة، أو بعض الأبيات من شعر الأسقف زبولاً؛ فالناس يحبون سماع الألحان أثناء القدَّاس.. أو مأتُ برأسى موافقاً وقد راقى لى الفكرة، لأننى بطبعى أميل إلى الألحان والتراتيل. كدتُ أقول لرئيس الدير إنه أصاب إذ قرَّرَ الشروع فى الأمر، ثم استدركتُ فسألته:

- يا أبانا الجليل. بخصوص الآلات الموسيقية، ألم يمنع القديس يوحنا ذهبى الفم، استعمالها فى الكنائس؟

- كان ذلك يا ولدى منذ أربعين سنة أو أكثر، وهو لم يقل بتحريمها، وإنما قال إن الرب يحتقرها، ويحبُّ أن يكون تسييحه بأفواه البشر. وإخواننا فى الرها ونصيبين، بحثوا الأمر فى عدة مجامع، وانتهوا إلى جواز استعمال الموسيقى فى الكنائس.

- نعم ياسيدى، ولكن ماذا عن غناء الفتاة فى الكنيسة؟

- سوف تدخل من بابها الخارجى، وترتّل وهى واقفة خارج الهيكل،
خلف الشماسة..

اعتقدتُ دومًا أن الموسيقى صوتٌ سماوىٌ مقدّسٌ، مكرّسٌ لما
نستعمله فيه من تركيبةٍ للروح أو إذكاءٍ للشهوة. ولطالما كانت تبهرنى
فى صغرى صور العازفات بالآلات، المرسومة على جدران المعابد فى
بلادى الأولى. كنتُ أقول فى نفسى: لولا أنهم كرّسوا الموسيقى للعبادة،
مارسوها على جدران المعابد! لكننى لم أحادث أحدًا من أهل الديانة،
فى هذا الأمر قط. وها هى الأيام تدور، فتلقى بين أيدينا هدايا الرب من
دون جهد، فنهنا بالآلحان.. استأذنتُ رئيسَ الدير فى الانصراف إلى
المكتبة، بعدما قلتُ له:

- سأعكف هذه الليلة على تأليف ترتيلٍ، يمزج بين مزامير داود
والمعانى الرهبانية الرقيقة.

- فى أمان الرب.. انتظر يا ولدى، سوف يكون الترتيل بالسريانية،
فهى هنا لغة الأكثرية.

- بالطبع يا أبتَ المبارك، بالطبع.

عبرتُ الساحة من قاعة الطعام إلى المكتبة بخطى ملؤها الحماسُ
والبهجة، كان نورُ القمر الخريفى يفرش الأرض، وينعكس ضوءه على
الحصى الأبيض، فيبدو مثل الجواهر المبتوثة بين رمال الساحة. النسماتُ
الليلية كانت منعشةً للروح المتوثب، المخلوق بى فى سماوات الغبطة. خفق
قلبى ذلك الخفقان الذى عرفته فى صغرى، لحظةً كان أبى يرفع شباكه من
ماء النيل، ولحظةً كانت امرأة عمى المريض تنادينا لطعام العشاء، ولحظةً
خرجت من نجع حمادى قاصدًا أخميم.. وما حياتنا على الحقيقة، إلا هذه
اللحظات الطيبة النادرة.

حين دخلتُ من باب المكتبة، خطرت لى فكرة. سوف أستغنى عن
نغمات القيثارة، أو أجعل دورها فى الترنيم محدودًا، بأن أضع ألحانًا يؤديها
الصبية والفتاة رخيمة الصوت بأفواههم، فأتحاشى بذلك قدر المستطاع
اعتراض المعترضين على الآلات الموسيقية. ولسوف أمزج سطورى
الشعرية التى ستؤديها الفتاة، بالمزمور الذى يرده الصبية. وأجعل ترانيمى
من البحر الخامس فى الشعر السريانى، فهو الذى يضم الأوزان الخماسية
والسداسية التى أميل إليها أكثر من غيرها.. ليلتها قلتُ فى نفسى: سوف
أملأ سماء كنيسة الدير الكبيرة، وكل الكنائس المحيطة بالترانيم الروحية
المرفرفة فى ملكوت السماء.

بعدما جلست إلى المنضدة الطويلة، وأسرجتُ القنديل، مررت بناظرى
بين رفوف الكتب من حولى وقد لفتنى الحماض. قمتُ إلى الرفوف اليمنى،
فتناولتُ الترجمة السريانية للمزامير، ولما فتحتها وقعت عيني بالصدفة
على المزمور الخامس عشر، فكتبت على ظهر الرّق السطر الأول منه،
وزدتُ عليه، فصار كالتالى:

اللهم احفظنى، فإنى بك اعتصمت

وارحم ضعفى، فلا نصير لى سواك

وبارك أهل البيعة، فلا يلجأوا لسواك

وأملأ قلوبهم بغبطة، لا يمنحها سواك

اللهم احفظنى، فإنى بك اعتصمت..

على الطريق القويم الذى رسمته، أسير

وبسير القديسين والشهداء، أستشير

وأعود للتراب الذى منه أتيت

ثم أحيأ الحياة التى بلا موت

اللهم احفظنى، فإننى بك اعتصمت ..



أمضيتُ ليلتى بطولها فى التأليف وتعديل الكلمات، يحدونى حماسٌ لاحدوده. قبيل الفجر ألهمتُ بأبياتٍ أخرى، كلماتها رشيقة رقيقة دقيقة المعنى، ماكانت تخطر لى ببال من قبل. ونويتُ أن أضع ألحانًا للصلوات السبع، ولأيام الأعياد، ليكون من ذلك كتابٌ للصلوات اليومية (أشحيم) وأضع للرهبان ترنيمةً بديعةً، عميقة المعانى، يرثيها الرهبان الذين لاتقطع صلواتهم فى صوامعهم. قلت فى نفسى: سوف أعبرُ فى تلك الترنيمة الخاصة، عن أدق الأسرار، بأرق الكلمات. وسأجعلها على ثلاث قومات، الأولى هادئة قليلة الكلمات، والثانية رتيبة مفعمة بالتسايج، والثالثة مبهجة سريعة ترفرف نغماتها بأجنحة الملائكة الصغيرة.. سوف أوزع أوقاتي بين الطب والشعر، أداوى بهذا الأجسام وبذاك الأرواح. والكلمة قد تفعل فى الإنسان ما لاتفعله الأدوية القوية، فهى حياةٌ خالدةٌ لاتفنى بموت قائلها.

لم أعد إلى صومعتى تلك الليلة، بثٌ فى المكتبة مفعماً ببهجة خفيفة. فى اليوم التالى، فاتتني صلوات الصباح فى الكنيسة، ولم أشته الإفطار، فبقيت فى المكتبة حتى وقت الظهيرة. جاء الفريسي ليطمئن على، فطمأنته وأخبرته بالأمر، فلم يبتهج مثلى! استفسرتُ منه، فقال إنه لا يحب الغناء، لاسيما من فتاة.. أشفقْتُ عليه وكدتُ أقول له: بل أنت تحب الغناء، وأحببت الحمام، وتحب النساء؛ لكنك تخشى من ذلك كله، ولا تحتمل محبتك له، فترفضه لتستريح!

لم أشأ أن أزجج الفريسي بحقيقة ما أراه من أحواله، خاصة أنه اشتكى لى الأرق الدائم الذى يعانيه. جسستُ نبضه فكان مضطرباً، وسألته عن

حال الطبيعة عنده، فقال إنه يعاني الإمساك. أعطيته مقداراً ضئيلاً من مسحوق السقمونيا، المخلوطة بكثير من الأينسون لإطلاق البطن، شربة واحدة؛ وأعشاباً مهدئة جالبة للنوم، يشربها أسبوعاً بعد صلاة نصف الليل.. كان ذلك هو أفضل تدبير طبيّ، رأيته مناسباً له.

خرجتُ معه إلى الكنيسة الكبيرة، فأدّيتُ مع الرهبان صلاة الساعة السادسة. وأخبرنى بعدها رئيسُ الدير، أن الصبية المنشدين والفتاة، سيأتوننى غداً فى المكتبة.. صار أيضاً يسميها المكتبة.

فى اليوم التالى، وأوان العصر، بددت السكونَ من حولى جلبهُ الصغار. جاءوا مع الشمّاس الذى دقّ بابى برفق، فلما فتحت، رأيتُ معه ستة من الصبيان وصيبتين، أعمارهم بين السابعة والتاسعة. جاءوا يومها بصحبة أهلهم، فملأوا المكان، بعضهم يلعبُ حول الجمع، وبعضهم يحدّق فى.. وجوههم مشرقة، ونظراتهم بريئة، لم تتل أفعال الزمان بعد من براءة دهشتها. صرفتُ الأهل مع الشمّاس إلى ساحة الكنيسة، واستبقيتُ الأطفال. إحدى الأمهات ظلت واقفة، فأخبرتها بلطفٍ دون أن ألثف إليها، أن عليها انتظار ابنها أو ابنتها عند البوابة أو أمام الكنيسة. قالت إنها ليست أمّاً لأحدٍ منهم، ولا لأحدٍ غيرهم. وأضافت باقتضاب: أنا المغنية.

اضطربتُ من قولها، أو لعلنى طربتُ، غير أننى لم أشأ ساعتها أن يظهر طربى ولا اضطرابى، فناديتُ الصبية: تعالوا إلى الداخل، وقفوا صفّاً واحداً، الأطول منكم فالأقصر. ثم قلتُ لها، من دون أن أنظر ناحيتها: وأنت يا ابنتى قفى فى الجهة المقابلة لهم.. اصطف الأطفال وانتظموا بعد تعديل يسيرٍ منى، وطلبتُ أن يؤدّى كل واحدٍ منهم، منفرداً، العبارة الأولى من المزمور الخامس عشر. كانت أصواتهم متفاوتة النقاء، لكنها فى مجموعها مقبولة. أصواتُ الأطفال بطبعها، طيبة نقية. بعدما انتهيتُ

منهم، التفتتُ نحو تلك التي وصفت نفسها بالمغنية! هي في حدود العشرين من عمرها. هذا ما بدا لي منها. لم أتبين ملامحها جيداً، فأنا لا أجدق في وجوه النساء، ولا أعنى بملامحهن. كان رداؤها هو الذي يشدُّ عينيَّ إليها، فهو زِيٌّ غيرٌ معتادٍ في تلك النواحي، لكنه على كل حال محتشمٌ وقورٌ.

كلَّمتها وقد غضضتُ عنها ناظريَّ، فطلبتُ منها أن تؤدِّي على نحو معين، السطرين الأول والثاني من الترنيمة التي ألَّفْتُها.. قرأتُ عليها السطرين بلحن تخيلته، فسألتني إن كان بإمكانها أن تغنيها بلحن كنسَى آخر تحفظه، فوافقتُ. في اللحظة التي رفعتُ عيني إلى وجهها، أراحَتْ غطاء رأسها الذي كان منسدلاً على جبهتها، وعادت خطوتين للوراء. أغمضتُ عينيها برقةٍ لا مثيل لها، ورفعت وجهها إلى جهة السماء.. وبعد هنيهة من صمتٍ وخشوعٍ، غَنَّت.. يا لصوتها الرقيق الذي أُناني صافياً من بين طيات السحاب. أُناني مطيِّباً بعقب شجيرات الورد وروح المروج الخضراء الزكية. غَنَّت: وارحم ضعفى، كأنها سوف تبكى، ثم قالت: فلا نصير لى سواك! فارتجف باطنى مع ارتجافة شففتها وهي تُطيل النطق بالحروف، فتلامس بنطقها أعالي السماء.. كان غناؤها الشجي نادرَ العذوبة.

• الأطفال الذين كانوا معنا، سكنوا لحظةً غنائها تماماً. غابوا مع غنائها، فكأنهم راحوا على أجنحة النغمات، إلى موضع بعيد. وكنتُ، كأننى وحدي بأقصى زاويةٍ من الكون الفسيح.. إذ أتذكر الآن تلك اللحظة، أشعرُ بصوتها الخلاب يأخذنى منى، إلى ما وراء الأشياء كلها. ويرنُّ ترجيعه السماوى بين قمم الجبال البعيدة، فيسبل قلبى بين الضلوع.. يا إلهى.

لما أنهتُ غناءها، ساد صمتٌ عميق. وددتُ لو أشرتُ لها لتغنى ثانيةً، بل وددت لو ظلت تغنى حتى يفنى العالم وتقوِّم قيامته، غير أن المقام لم يكن يسمح بذلك.. بينما كانت تُعيد سِرَّ رأسها إلى انسداله الأول على جبهتها، نظرتُ نحوى وابتسمتُ. كانت تعرف أن صوتها بديع، وتعرفُ

أن اللحن الذى غَنَّته كان أحلى مما اقترحته، وتعرف أننى أخذت بغنائها وغبتُ عنى، وتعرف أشياء أخرى كثيرة.. أما أنا، فلم أعد وقتها أعرف أى شئ. عيناى علقنا بوجهها، حتى انتبهتُ إلى أن هذا لا يجوز منى، ولا يصح. وجهها صغيرٌ، كمثرى الاستدارة. تبدو ملامحه الدقيقة من خلف سترها الحريرى الأسود الشفاف، المنسدل من غطاء رأسها الذى يشبه التاج، إلا أنه ألطفُ، وفيه تطريرٌ دقيقُ الصنع، وعند مبتدأ ثنياته الكثيرة خررٌ صغيرٌ ملوّن. رداؤها المخملئ الأسود ينسدل بنعومة من عند الكتفين، فيشى امتلاؤه عند الصدر، وضيقة تحت الخصر، بقوام متقن التركيب. ساعتها خادعتُ نفسى بنفسى، وقلتُ فى سريرتى إننى لأشأن لى بقوامها، مُثَقَّنًا كان أو غير متقن. المهم أن صوتها شجى يناسب الترانيم، وهى مُدْرَبَةٌ على الغناء. لعلها نشأت بقرب كنيسةٍ أو دير، واشتركت فى الغناء المكرَّس منذ طفولتها الباكِرة.

عاد الأطفال لصخبهم حين أرسل لهم رئيس الدير بعض الحلوى، فوزَّعتها عليهم بمن فيهم الفتاة المغنية. ولم أشأ أن أطيل عليهم فى يومنا الأول، فصرفتهم جميعاً بعدما دعوتُ لهم بالبركة. أخبرتهم أن غناءهم جميلٌ، وأنا سوف نلتقى عصرَ غدٍ. فقد كان الغدُ يومَ أحد، وسوف يكون الدير فى الصباح مزدحماً بالزوّار. تقافزوا فى طريقهم إلى الباب، ومشت الفتاة بعدهم بوقارٍ لافت.. لما مرَّت أمامى، سألتها دون أن ألتفت ناحيتها، تأدِّباً:

- ألن تخبرينى باسمك، أيتها العذراء الطيبة.

- لستُ عذراء يا أبت. واسمى مرتاً، وهى كلمةٌ قديمةٌ تعنى السيدة.

فأسمعها له بصوت مرتا الملائكي.. مرتا، كم عمر هذه الفتاة؟ ولماذا أخبرتني بهذا الجسم، أنها ليست عذراء!

يوم السبت لم تصل القيثارة التي كان رئيس الدير ينتظرها، فانزعج. طمأنته بأننا قد لا نحتاجها، وسوف نكتفى بأصوات المنشدين والمغنية، فارتاح. أخبرته بأنني سأخصصُ الفترة ما بين صلاتي الساعة الثالثة والسادسة، لرؤية المرضى، وما بين الصلاتين السادسة والتاسعة لتدريب مجموعة الإنشاد، والليل للصلاة والقراءة.. دعا لى بالبركة فى أوقاتي كلها، وأردف: إن كنتِ يا ولدى قد أتممت صوم الأربعين، فاهتم بصحتك قليلاً، فإننى أرى وجهك الليلة بالغ الشحوب والهزال.

انتهينا من صلاة الغروب التي يسمونها هنا صلاة الرمش، وعدت إلى المكتبة مبتهجاً، ماكنتُ أشعر بما لاحظته رئيس الدير من شحوبى. ظننته يقصد أننى شاردُ البال، ومشغول. أخذتُ بالحيلة رحاً أجسُ نبضى بيدى الأخرى، فوجدته منتظماً. أغلقتُ الباب خلفى، وخلعت ملابسى، وأخذت أضغط بإصبعى عند مواضع سريان الدم فى ظاهر الجسم، فكان اندفاقه للمواضع جيداً. نظرتُ إلى وجهى فى باطن الصفيحة الفضية التي تغلف الإنجيل، فبدت لى آثار الزمن.. لقد تقدّم بى العمر فجأة، وانقلب بياضُ عيني اصفراراً، وصارت لحيتى شعثاً كَلْحَاءَ، مثل لحي المتوحدين فى المغارات والكهوف.. لماذا أهملت مظهرى حتى صار مدعاةً للراء؟ هل نسيْتُ أننى طبيبٌ، وأن علىَّ المحافظة على هيتتى، وإلا فلن يثق بى مرضاى؟ لابد أن يُعنى الطبيبُ بمظهره، فهذا ما كتبه الفاضل أبقراط قبل مئات السنين، والتزم به الأطباء من بعده.. ولكن لا بأس، لكل داءٍ دواء، ولكل مشكلة حل؛ أعنى لمعظم الأدوية، ولأغلب المشاكل حلول!

الرَّقُّ العشرون

القلقُ المجاورُ

يوم رأيتُ مرتا أول مرة، استبدَّ بى الأرقُ المقيم، فبقيتُ مسهّداً حتى الفجر. فى البدء لم أفكر كثيراً فى كونها الفتاة، غير العذراء! كان صوتها الشجى هو الذى يشغلنى رنينه بداخلى. أمضيتُ ليلتى أعيذُ صياغة بعض الكلمات حتى تتوافق مع طبقات صوتها، وأجتهدُ فى وضع ترانيم مخصوصة تناسب دفء صوتها وشجوه. تقاذفتنى فى جوف الليل أفكارٌ كثيرةٌ، وتمنياتٌ، وقلقٌ: سوف يأتى الناسُ للقّداسات كى يسمعوا مرتا، فتعمر كنيسةُ الدير بعوام المؤمنين، وقد تصل شهرتنا فى الترتيل إلى أنطاكية والقسطنطينية.. أثراها متزوجةٌ من رجل؟ أى رجل ذاك الذى يحتمل البقاء قرب جمالها؟.. مالى أنا بها؟ عندى ما يشغلنى ويملاُ أوقاتي قلقاً.. كيف حال المبحّل نسطور وكيف تجرى أيامه؟ هل كفَّ عنه الأسقفُ كيْرُلُس، أم تراه يرتّب أمراً ليووقع به؟ سوف أكتب رسالةً غداً، وأرسلها مع أول مسافر للقسطنطينية.. سوف أسأل رئيس الدير إن كان يريد شيئاً من الأسقف نسطور حتى أذكره فى الرسالة.. سوف يفرح برسالتى، هو يعرف أننى لم أعتد كتابة الرسائل.. سوف أولّف ترنيمةً بديعةً وأهديها إليه، سأكتبها على ظهر الرسالة. سيفرح بها، ويوماً ما سيأتى ليزور الدير،

خرجتُ بهمةٍ من المكتبة، فجزتُ الساحة كأننى أطير إلى صومعتى. أخرجتُ من هذا الصندوق الرداء الذى أهده لى قبلها بعام قَمَّ أنطاكي، كنتُ قد عالجتُه من القولنج بأيسر المداواة، وشفى فى مدَّة يسيرة. لماذا طويْتُ هذا الرِّى وحفظته، حتى كادت العتَّة تصل إليه؟ سأرتديه غدًا. فى قعر الصندوق مقصٌ قديم صدئ، لكنه كفىلٌ يتهذيب ما شعث من لحيتى.. ومن تحت الطاولة أخذتُ أدوية مفردة، أعشابًا جافة منها ما يبلُّ ساعة فى الماء، ثم يوضع على العين ضماذا؛ لإذهاب صفرتها. ومنها ما يُذاب بالزيت ويطلّى به الوجه، فيحسن لونه بجذب الدم إليه. ومنها الرياحين التى يُغسل الجسمُ بمنقوعها، فيصير أطيبَ رائحةً وألطفَ ملمسًا.. غدًا صباحًا سأكون إنسانًا آخر، خليقًا بأن يوصف بالراهب الطبيب الشاعر.

أديتُ كل ما يجب فعله، ثم نمت بصومعتى ملء جفونى. كانت قد مرَّت على أسابيع لم أبت فيها بالصومعة، ففى شهور الصيف الماضية. كنتُ أقضى الليلات بالمكتبة، مفضلًا جوَّها الرطب. أو بالأحرى، متكاسلًا عن المجيئ من هناك، إلى صومعتى الخائفة هذه.. قبيل الفجر صحوْتُ نشطًا، فملأتُ الدلو ماءً من الماجور الكبير المجاور لغرفة الطعام وأدفاته قليلًا على تنوُّر المطبخ، ثم صعدتُ إلى الصومعة، فأغلقتُ بابى واجتهدتُ فى حَكِّ جلدى بليف النخيل الخشن، لإزالة ما بقى على من ثفل الأعشاب، ودلَّكتُ أطرافى بحجر خَفَاف أثناء استحمامى.. وأخيرًا لبست الرداء الكنسى الأنيق، الذى كان منسبًا بصندوقى.

لما رأتى رئيس الدير عند باب الكنيسة صباح يوم الأحد، أشرق وجهه بابتسامة وهو يقول لمن معه: الراهب هيبا وجد إكسیر الحياة، فالليلة الماضية كان على بُعد خطوتين من الموت، فإذا به يعود هذا الصباح صبيًا فى العشرين! قلتُ خجلًا من دعابته الودود: هذه ياسيدى هيئة الأطباء والشعراء، وقد تَبَهَّنَى كلامك بالأمس إلى الحالة المزرية التى كنتُ عليها..

وهو يدخل من باب الكنيسة وحوله الرهبان لصلاة الصباح، دعا لى رئيس الدير: بارك الرب فيك يا هيبا، ونفع بك إخوانك ومرضاك..

لما رأتى الشَّمَّاس لحظة خروجنا من الكنيسة الكبيرة، ابتسم بمكر الصبيان ابتسامة لم أعرف معناها، ولم أهتم بها، فقد كان بالى يومها مشغولًا بما هو أهم من دلالة ابتسامته. وقت الظهيرة ساعدنى ثلاثة من الرهبان فى تنظيم المكتبة. صففنا الكتب التى كانت متناثرة، بموضعها الأول على الرفوف. وأدخلنا دكةً طويلة ليجلس عليها الصبية المنشدون، وضعناها على يمين الداخل من الباب، وأمامها كرسيان خشبيان، أحدهما للمغنية والآخر لى. الطاولة الكبيرة أخذناها إلى الركن المقابل للباب، وفى الركن الآخر، وضعنا طاولة صغيرة؛ لأكتب عليها متى شئت أو أنام جالسًا.. صار المكان أوسع، وأنظف، وأكثر راحة.

قبيل العصر دَقَّ بابى خادماً من خُدَّام الدير، وأخبرنى أن امرأتين جاءتا إلى طلبًا للمداواة، فطويت كتاب الموسيقى، ونهضت للقياهما لدى الباب. كانت مفاجأة مفرحة؛ مرتا بثوبها المميز، ومعها عجوزٌ فى حدود الستين من عمرها. أخفيتُ دهشتى وفرحتى، ودعوتهما للدخول. ظل الخادم واقفًا برهةً عند الباب، ثم انصرف. بدأت مرتا الحديث:

- يا أبت، هذه خالتي تشكو السعال الليلي منذ شهر، ولم تنفع معها الوصفات المشهورة.

- لأبأس عليك يا عمَّة. فى أى وقتٍ تأتيك نوبات السعال؟

- طيلة الليل وأول النهار، أشعر بصدرى يتمزق مع النوبات.

جسستُ نبض العجوز فكان مضطربًا، ولاحظتُ أن بدنهما هزيلٌ جدًّا. استأذنتها فى أن أضع أذننى على ظهرها لأسمع أنفاسها، فجاءت متحاملة على ذراعٍ منى، وقفت أمامى، واستدارت. ملئتُ بجانب وجهى، علم

ظهرها، حتى ألصقت أذنى . كانت مرتا تنظر فنى باسمه . سمعت حشرجة دالة على امتلاء صدر العجوز بالبلغم والرطوبات .. علاجها سهل، البزور الطاردة للبلغم يُشرب منقوعها دافئاً، وإحكام الغطاء عند النوم، واستنشاق البابونج على النحو المعروف.. ونصحت العجوز: لا تجلسى يا عمة أمام الفرن لمدة أسبوعين، حتى لا تهيج بصدرك الرطوبات بسبب الدخان.

- نحن يا أبت لم نجدد الفرن بعد، فقد جاورناكم منذ يومين فقط، ووجدنا فرن الكوخ خرباً.

- إذن، أنتما الجيران الجدد.. إنى أرى كوخكما من شباكى هذا. هل تعيشان فيه وحدكما؟

- نعم يا أبت.

رَدَّت المرأتان فى وقت واحد. صوت مرتا كان أعلى، وأحلى. وحين رفعت الستر الحريرى المنسدل على وجهها، نظرت نحوها نظرة حذرة، فوجدت على وجنتيها ابتسامة مشرقة، تطلُّ باستحياء مثل الشمس الصافية أيام الشتاء الباردة، أو مثل النسومات اللطيفة فى ليالات الصيف الخائقة.. كانت ابتسامتها..

قمتُ مرتبكا، فاغترفتُ من تحت الطاولة بعضاً من البزور، وعدتُ بها لأضعها فى كَفَى العجوز. مرتا مدت يدها أولاً، فلم يكن لدى الخيار. تحاشيتُ لمس يدها، لكنها حين أطبقت كفيها على البزور. لمستُ من دون قصد، أو بقصد، ظاهرَ يدي اليمنى. لحظتها شعرتُ بقشعريرة تسرى فى ذراعى، وظللت أشعر بها لأيام تالية. سألتهما إن كان عندهما شئ من البابونج، فأجابت مرتا بالإيجاب، ثم قالت لخالتها:

- قومى لأوصلك إلى البيت، وأعود لدرس الترتيل.

استندت العجوز إلى ذراع مرتا، وخرجتا من عندى وعيناي تتبعهما.

كنتُ جالساً على الكرسي المواجه لدكة المنشدين، لم أتحرك من موضعى.. عند الباب، التفتت مرتا نحوى وهى تسدل ستر رأسها، فتحجب عنى بسمتها الرائقة وعينيها اللتين بلون الآيسون.

لم تتأخر مرتا إلا هنيهة، عادت بعدها لتجدينى جالساً على الحجر المرّيع الذى ألفته الزلازل القديمة، أمام باب المكتبة. مشيتها وهى مقبلة، تدلّ على ابتهاجها الخفى الظاهر.. جلستُ أمامى على حجر قريب، وهى تسألنى بصوتها الصافى:

- ألم يأت الصبية بعد؟

- أرسلت الشَّمَّاس ليحضرهم، رحمةً بأمهاتهم من مشقة صعود التلة.. سيأتون بعد قليل.

حاولت التشاغل عنها بالنظر فى الرقوق التى كانت بيدي، فلم يفلح الأمر. أخرجتُ من جيبى إنجىلاً صغيراً، وكدتُ أشرع فى القراءة، لولا أنها فاجأتنى بقولها:

- يا أبت، فيك اليوم شئ مختلف عن أول أمس.

- نعم، هذا الرداء جديد.

- الرداء فقط!

تجاهلتُ إشارتها، وسعدتُ بها. لم أظهر لها سعادتى، ورحتُ أفكر فيما يمكن أن يكون عليه حالى مع هذه الجارة الجديدة، التى لن تكتفى فيما يبدو بالجوار. فقد اخترقت حُجب عزلتى وانزوائى بطرف هذا الدبر، منذ رأيتها وسمعتها تغنى. انتابنى قلق. استمهلتهاريشما أعود ببعض الأوراق، وتعمدت أن أغلق خلفى باب المكتبة، حتى لا تفكر فى اللحاق بى.. أحسست أنها تبتسم من ورائى، لكنى لم أنظر نحوها. بقيت واقفاً داخل

المكتبة خلف الباب المغلق، وبقيت هي جالسة في الساحة المكشوفة. لما سمعتُ صخب الأطفال يأتي من بعيد، فتحتُ بابي ودعوتهم جميعًا للدخول، ودعوتُ الشَّناس أيضًا.. وهكذا بدأ دَرْسُ الترتيل الأول الذي تنالت من بعده دروسٌ كثيرة، لا أذكر الآن عددها، ولكنني أتذكر جيدًا ما جرى خلالها، ولسوف أقصُّ منه الكثير.

الرَّقُّ الحادى والعشرون

القافلة

وصلت القيثارةُ إلى الدير، بعدما أمضينا أسبوعًا كاملًا في التدريب بدونها. وكانت المجموعة قد اعتادت أداء الترانيم من دون نغمات، فاكتميتُ من القيثارة بأقلَّ موسيقاها.. امتدَّ التدريب بضعة أسابيع، كان ترتيلُ الأطفال خلالها يتحسنُ يومًا من بعد يوم، أما غناء مرتنا فقد كان حسنًا منذ اليوم الأول. ولذلك كانت تتغنَّى أحيانًا بأبيات أخرى من أشعارى، لن تؤذيها مع الأطفال في الكنيسة. كانت تأتى قبلهم بقليل، ثم ينضمون إليها لأداء التدريبات المعتادة.. الأيام الأخيرة من التدريب كانت في الكنيسة الكبيرة، في الساعة الممتدة بين الصلاتين اللتين في الظهر والعصر، أعنى صلاة الساعة السادسة وصلاة الساعة التاسعة. حضر رئيسُ الدير معنا أول أيام التدريب بالكنيسة، وحين عَنَّتْ مَرَّتًا أسند جبهته على عصاه، ولما هامتُ في الغناء، دمعت عيناه. ظل مُطرقًا حتى انصرفنا جميعًا، ولما رَأَى في المساء بصالة الطعام، رَبَّتْ مُمْتَنًا على كنفى مرتين، ولم يقل شيئًا.

في اليوم الثانى من أيام التدريب الأخيرة بالكنيسة، جاءتنى مَرَّتًا بالمكتبة كعادتها، مبكرةً، قبل وصول الأطفال. طَرَقْتُ بابي، ودخلت متهاديةً على

بساط من استحياء متصنّع. رفعت ستر وجهها، فأشرق ابتسامتها وهي تخبرني أن خالتها، بدأ سعالها الليلي يقل، وكادت حشرجة صدرها تهدأ. أخبرتني أيضًا أن خالتها تنوى أن تنسج لي صديريّة سوداء من الصوف، لأرتديها في ليالي الشتاء الذي اقترب. هما ماهرتان في النسج على النول، ويكسبان عيشهما من هذا العمل، هكذا قالت.. يومها سألتها:

- لماذا قلت لي بحسب يوم رأيك، إنك لست عذراء؟

- لأنني لست عذراء!

- هل يعرف رئيس الدير ذلك؟

- وكيف لي أن أعرف، إن كان يعرف أم لا!

شعرت أنها تراوغي، فالتزمت الصمت. شعرت هي بضيق، فتلطفت في القول وهي تخبرني بأن كاهن الكنيسة، يعرف أنها كانت يومًا متزوجة، فهو قريب لأمها من بعيد، لكنه قدّمها إلى رئيس الدير يوم جاءنا للسكنى هنا، بقوله: هذه الفتاة وخالتها من أهل المسيح، وهما مسكيتان والعجوز مريضة، فلو سمحت لهما بالإقامة في الكوخ الخرب، سيكون فضلك عليهما عظيمًا، فهما لا أهل لهما ولا نصير.. أضافت: هكذا قال الكاهن يومها، فصرت عند رئيس الدير فتاة! وقد أخبرته بأنني كنت أنشد الترانيم الكنسية وأغنيات القوقيون منذ طفولتي المبكرة، فصرت عنده مغنية. وعلى هذا النحو قدّمني إليك يا أبت الطيب، الحنون.

نطقت مرّتا كلمة الحنون بتحنان بالغ، ورقة لا حدود لها. حتى أنني لم أتمالك نفسي، فرفعت وجهي رغماً عني، ونظرت في قلب عينيها.. رأيت صفاء امتزاج العسلية باللون الأخضر في أحداقها. ورأيت امتداد رموشها الكثيفة، المؤطرة بجمالها جمال استدارة العينين. ورأيت كثافة حاجبيها اللذين ألقن الله صنعهما؛ فأظهر سوادهما اللامع بياض وجهها النقي.

شعرها بحسب ما بدا من أطرافه المنفلتة من غطاء رأسها، كان كحاجبيها فاحم السواد، ولامعًا براقًا.. مرّتا آية من آيات الجمال الإلهي في الكون في وجهها طفولية ونزق، وفيه بهاء صورة العذراء؛ غير أن نظرتها جريئة جدًا، ومربكة لمن هو مثلي.

يومها، رفعت عيني إلى غطاء رأسها ذي الثنيات الحريرية المطوية بإتقان، وبعدم تأملته طويلاً، سألتها عن الوقت الذي يلزمها لإعداده بهذا الاتقان. قالت: لا يا أبت، لا يلزمه أي وقت، فهو يخط مرة واحدة، لا يحتاج بعدها إلا وضعه على الرأس، يمسك الشتر الحريري المنسدل منه.. وبحركة مفاجئة لم أتوقعها، رفعت غطاء رأسها، فانهمر شلال شعرها الأسود الكثيف الناعم. كان شعرها معتقلاً تحت غطاء الرأس، يتوق للتحرر، فلما أحاط بوجهها صارت آية للإبداع الإلهي في خلق الإنسان.. أي جمال ذاك الذي كان مختفياً تحت حجابها، وآية نظرة تلك التي رأيتها بعينيها. لسعتني نظرتها، وروّعتني جمالها، حتى كاد يغمرني على من جلال الجمال؛ فقلتُ بسرعة:

- استري شعرك يا ابنتي، حفظك الرب.

ببطء متعمّد، لفت مرّتا حول رأسها، شعرها الذي أسدلته على الكون كله. رفعت يدي، وبالأخرى أطبقت عليه بالتاج الحريري ذي الثنيات والخرز الدقيق الملون. لم تحوّل نظرها عني، فتشاغلّت عنها بالنظر إلى رفوف الكتب. تناولت كتاباً قريباً، ورحت أقلب صفحاته من دون أن أقرأ فيه شيئاً، ولا أرى سطراً من السطور.. أخرجتنا هي من صمتنا بقولها:

- هذا الزئى كله دمشقي، كان لأمي، أخذته بعد وفاتها.

- أنت إذن من عائلة عربية؟

- قيل لي إن عائلتي كانت في الزمن القديم من أثرياء تدمر، ثم فروا منها وتركوها، لما خرّبها أورليان، عليه لعنة الرب.

- يا ابتى لاتعودى لسانك إطلاق اللعنات، وقد خربت تدمر منذ زمنٍ طويل.

- نعم يا أبت، منذ زمنٍ طويل. ثم بعدها تفرَّق أهلى فى الأرض، واستقرت أسرتى أولاً ببلدة حلب، ثم هجروها إلى دمشق وقد صاروا فقراء. وهناك أنجبوا أمى التى تزوّجت رجلاً دمشقيًا، فأنت بى إلى هذا العالم.

- إذن فأنت تعرفين العربية والسريانية.

- وأُعنى باللغتين.

جاءنا صخبُ الصبية القادمين، فأسدلت مرتا خمارها الدمشقى، واعتدلت فى جلستها. انتقلنا للكنيسة ولما بدأ الترتيل، كنْتُ هائماً فى فلوات ذاتى. فى اليوم التالى، جاءت مرتا مبكرة ومعها خالتها التى انكفأت على يدي لتقبّلها، مظهرَةً امتنانها لمداواتى.. الرَّبُّ هو الشافى. جلستُ العجوزُ معنا حتى جاء الصبية، فلم نتكلم يومها فى شئ. وانصرفوا جميعاً، فمرَّ اليوم من دون أن أرى من وجه مرتا، إلا ما بدا منه من تحت سترها الحريرى الشفيف.

كان اليوم التالى مشهوداً، فقد خرجنا من الكنيسة بعد صلاة الساعة الثالثة، على جلبية كبيرة وأصواتٍ متداخلة تأتي من ناحية بوابة الدير. أسرعنا إلى البوابة، ولحق بنا رئيسُ الدير والكاهنُ وكُلُّ الرهبان، فرأينا عند سفح التلّة قافلةً كبيرة قد أناخت مطاياها عند مطلع الدير. كان فيها ما يزيد عن الخمسين جملًا ومثلهم من البغال، وبعض الحمير، وكثير من التجار من مختلف الأعمار. ثلاثةٌ منهم ضخامُ الأجسام، صعدوا إلينا وهم يستندون رجلاً أضخم منهم، لا يكاد يقوى على المشى. صعد معهم جنديان من الحامية، كانا يتبسّمان ببلاهة! الرجلُ المسنّدُ كان فى حدود الخمسين

من عمره، زيه الكردي ملطّخ ببقع من الدم. لثِقَلِ بدنه وسقوطِ قوته، صعد به مساعدوه التلّة بجهدٍ جهيد. اثنان منهم يرفعانه من تحت إبطيه، وواحدٌ قصير عنهم يسنده من خلف ظهره. البقية من تجار القافلة، وقفوا يتطلّعون باهتمام كبير، من موضعهم بسفح التلّة. لما اقترب الصاعدون إلينا، رأيتُ خيطاً من الدم يسيل من فم الرجل المسنّد، ولمحتُ مَرَّتاً وعمتها واقفتين عند كوخهما، ينظران بدهشة للصخب الذى أحاط فجأة بنا.

تقدّم رئيسُ الدير نحوهم خطوتين، فأخبره القادمون أن صاحب القافلة الذى يسندونه، يحتاج لإسعافٍ عاجل من أطباء الدير.. وكأن فى الدير طبيباً غيرى! قالوا إن الرجل يشرف على الهلاك، وإنه سوف يموت ما لم نعالجه عاجلاً بشئ يتقّده. أفسح لهم رئيس الدير الطريق، فدخلوا الساحة بالرجل، وأجلسوه على مصطبةٍ بقرب حظيرة الماعز المواجهة للبوابة. أخذنى رئيسُ الدير من يدي، وتقدّم نحوهم، فسألهم عما جرى للرجل، قالوا:

- المسكين، شرب من بثر الشيطان!

صرف رئيسُ الدير الرهبان لأعمالهم، وجلس الجنديان عند بوابة الدير، وانتحيثُ بواحدٍ من تجار القافلة لأستجلى منه حقيقة الأمر، فلحق بنا الآخران.. عرفتُ منهم أن قافلتهم تقصد أنطاكية من بلاد الأكراد الواقعة وراء الصحراء الشرقية، بين حدود الفرس والرومان، وأن رئيس القافلة هذا شرب منذ ثلاث ليالٍ من بثر معطلة فى الصحراء يسميها رجال القوافل بثر الشيطان. فقد أراد إثبات أن البثر ليس فيها شياطين! فأقدم على الشرب منها ليلاً.. وفى اليوم التالى صار يقئى دماً، ومضى به على هذا الحال يومان من دون طعام حتى كاد يهلك، فنصحهم أهل القرى أن يأتوا به إلى الدير، لأنه لامحالة سيموت قبل بلوغهم أنطاكية فأتوا به أملين فى نجاته بدواءٍ أو بتعويذةٍ أو بأى أمرٍ من شأنه أن يشفيه. أضاف الرجل القصير:

سيكون مسيحياً فاضلاً لو شفيتومه، فهو وأهله من الموعوظين الكبار الذين سيدخلون في دياتكم قريباً.

ألهمنى الرب بالسبب المؤدى إلى معاناة الرجل، وبالعلاج الذى يُنجيه مما هو فيه.. أخذت أعوان رئيس القافلة الثلاثة إلى حيث جلس مُنهأً، وهمستُ إليهم جميعاً بما مفاده أن العلاج صعب، وأن عليه احتمال ما سوف أقوم به مداواة، ولا يتعجل. كان الرجل مستسلماً، متلاحق الأنفاس، زافع العينين، وكأن الشيطان الذى يتوهمونه يسكنه حقاً. ظل رئيس القافلة يردّد بصوت متحشرج: *افعل بعون الرب ماتراه.. افعل بعون الرب ما تراه..*

كان رئيس الدير واقفاً بالقرب منا يراقب ما يجرى بقلق، وكانت مرتا واقفة بجوار خالتها العجوز عند البوابة تنظران إلينا بحذر، وكان الجنديان الرومانيان ينظران إلى مرتا من خلفها، ويتهاوسان فيما بينهما.. أحضرتُ حبلاً من حظيرة الماعز، وطلبت من الأعوان أن يربطوا رئيسهم من يديه ورجليه إلى المصطبة، وناديتُ مرتا وهمستُ لها بأن تحضر دلوًا من الماء العكر، وتذيب فيه شيئاً كثيراً من الملح، وتحضر أيضاً إناءً من الماء البارد العذب، المطيب بروح النعنع. أسرعرتُ مَرْتَا لَتَأْتِي بما طلبتُ، وذهبتُ أنا إلى مطبخ الدير، فالتقطتُ من كسر الخبز وبواقي الطعام الرديئ شيئاً كثيراً.

وسط دهشة الجميع، ملئتُ على أذن الرجل المريض، وهمست له بأن عليه أن يأكل كل ما أضعه في فمه، ويجتهد في بلعه، وإلا فلن يبرأ أبداً. هَزَّ رأسه موافقاً، فأخذتُ أدس الطعام الرديئ في فمه، بعدما خلطته وبللته ببعض الماء، فأخذ المسكين يبلعه بصعوبة كبيرة. لما توقفتُ عن البلع زعقتُ فيه، ففتح فاه، ورحتُ أدس فيه المزيد من الطعام، فكان يبلعه مضطراً وهو يلهث. لما امتلأ جوفه، صحتُ فيه بأن يصبر برهة على ما

سوف أفعله.. أخذت قشاً من أرضية الحظيرة مختلطاً ببعير الماعز، ورحتُ أدسه في فمه وهو يهرب بوجهه يميناً وشمالاً، ويجتهد لفك وثاقه. الجميع من حولي كانوا مرتاعين، وكانت مرتا تمسك بالدلو وهي ترتجف. أخذته من يدها، وارتكزت بركبتى اليمنى على فخذ الرجل، ورحت أدس القش بيد وبالأخرى أسقيه الماء المالح. ظل الرجل يقاومنى، وظللتُ أصرخ فيه: *هذا دواؤك الوحيد، فاصبر*. لما شعرتُ بقوته تخور، وبأن جوفه قد امتلأ، وقفتُ منتصباً، وفتحتُ شفتيه عنوةً، وصببت في فمه مزيداً من الماء المالح. حتى إذا كاد الرجل يهلك تماماً، وتسقط عافيته بالكلية، طلبتُ من معاونيه أن يفكوه. وابتعدت عنه إلى الناحية التى تقف فيها مَرْتَا ناظرةً إلى ما يجرى بعينها الجميلتين، المذهولتين. كان رئيس الدير يجلس على حجر كبير، ويميل بوجهه إلى عصاه وقد علاه الهم.

لما انفك وثاق الرجل، هاج واندفع نحوى كالثور وهو يرفع ذراعيه فى الهواء، وكأنه على وشك الإطباق على عنقى. لم أتحرك. وقف لحظةً أمامى وهو يلهث، وكفاه معلقتان فى الهواء، والعرق يساقط من جبهته. كان لحظتها كمثمل ماردٍ انفلت من كتب الخرافات القديمة.. فجأةً، حدث ما توقعتُ وسعيتُ إليه. استدار الرجل وجرى نحو سور الحظيرة، فجثا على ركبتيه وراح يقيى قيثاً مريعاً. لحقتُ به، وأخذتُ من خلفه أهز كتفه، وأدعوه لأن يقيى أكثر، فيفعل. كان الذهول يلف الجميع، والاندعاش.

حين انتهى الرجل من قيئه، غسلتُ وجهه بما بقى فى الدلو من الماء المالح، وسقيته الماء المطيب بالنعنع، فاسترد عافيته سريعاً، وأخذته النشوة فوقف على قدميه وهو يضحك. أقبل على، فأخذ يدى وراح يقبلها وهو يقول: لقد خرج الشيطان من جوفى.. تصايح رفاقه، فتصايح بقية رجال القافلة الذين كانوا قد اصطفوا عند بوابة الدير.

- هل تسمح يا أبت!

قلتُ ذلك لرئيس الدير، فقام معي. أخذته مع رئيس القافلة وأعوّاه
الثلاثة إلى الناحية التي قاء فيها الرجل. مرتا لحقت بنا. أشرتُ إلى قعر
الرجل لينظروا، وأنا أشرح لهم حقيقة الحال التي كان الرجل يعانيها: هذا
الدود الدقيق الذي تروّنه، هو دود العَلَقَة الذي يعيش في الماء الآسن.
فلما شرب الرجل من البثر المعطلة ليلاً، ابتلعه مع الماء من دون أن
يراه. فما نزل من العَلَقَة في أمعائه البعيدة، قتلت قوى البطن الهاضمة.
وما علق منه في جوفه القريب ومعدته، راح يمتصّ دمه، فيُسَيِّل الدم إلى
المعدة، فتطرده، فيقيئ دماً.. ثم قلتُ: هل عرفتم الآن، الشيطان الذي
كان بالبئر!

ضحكوا جميعاً كأطفال عاد أبوهم من سفر. نصحتهم أن يسقوا الرجل
لبن الماعز، ولا يطعموه إلا القليل من الأغذية الرطبة، إلى أن تعاوده قوته
في اليوم الثالث.. تقدّم أحد خُدّام الدير إليه بإناء مملوء لبنًا، فعبّه الرجل
وهو مبتهج، ثم فاجأنا بقوله: هل يمكنني أن أنام قليلاً هنا؟

أخذه رئيس الدير إلى إحدى الغرف المجاورة للكنيسة الصغيرة، وتركه
ليرقد هناك. وانصرف الجميع نحو القافلة الرابضة تحت أقدام الدير، بعدما
جاء كثيرٌ منهم، فسَلَّم وقَبَّل يدي.. قبيل الغروب، دخل على المكتبة رئيسُ
الدير ومعه الرجل الذي كان مريضاً وقد ارتدى ثوباً فاخراً. دخل معهما
الرجلان اللذان كانا يسنداناه وقد غمرتهما البهجة، ومن خلفهما أربعة من
الرهبان. قال لي رئيس الدير إن الرجل يريد أن يكافئني على طبي الشافي،
فقلت إنني لا آخذ على الطب أجراً، وأن الشافي هو الله.

تقدّم رئيس القافلة نحوي، فجلس على الكرسي القريب مني وه
يقول: يا مُبارك، لقد جعلك الله سبب شفائي، ولسوف ألبّي ما تطلبه مني

وأنا مسرور. وعندي من المال والمتاع والثياب الشيء الكثير، فلا تتردّد في
الطلب.

- شكراً لك أيها الرجل الطيب، ولكنني لا أطلب شيئاً من أحد، ولا
أخذ على الطب أجراً.

قلتُ ذلك، وأطرقْتُ لأُنهي الحديث. فقام الرجل وقَبَّل رأسي، راجياً
أن أقبل ما سوف يرسله لي على سبيل الهدية. قلت له: لا ترسل شيئاً،
صدّقني أنا لا أحتاج لشيء. فاسأل رئيس الدير، إن كان يحتاج لهذا المكان
شيئاً. ويمكنك لو أردت، أن تعطي الفتاة التي ساعدتني ثوباً مناسباً لأداء
الترانيم في الكنيسة أيام الأحاد.

الرَّقُّ الثَّانِي والعشرون

كَمْوُنُ الإِعْصَارِ

رحلت القافلة فجرًا، وساعة الظهر فتحت مَرَّتًا باب المكتبة من دون أن تطرقه. باغتني صوت صرير الباب، فانتبهتُ من استغراقى فى قراءة كتاب النبض لجالينوس. نظرتُ ناحية الباب، فرأيتها واقفةً على عتبة العالية.. يحيطُ بها الضوءُ الداخِل من ورائها، فكانها حوريةٌ هبطت إلى الأرض ملفوفةً بالنور السماوى لثمنحنى السلام، وتملاً الكون رحمةً بعدما امتلأ جورًا وظلمًا. كان الضوء يُؤطرها، يحوطها من كل الجهات، ويطغى على أطرافها، فتبدو وكأنها مغلفةٌ بالنور. لن أنسى هذه اللحظة ما حييت. لم أشعر بيدي إلا وقد أزاحت عني غطاءً رأسى الملىء بالصليبان، لأستقبل النور الذى أشرق فجأةً من عند الباب. تأكّدتُ لحظتها من أن مرّتا هى أجملُ امرأةٍ خلقها الرَّبُّ.

كان رداؤها يمسك بصدرها وخصرها بإحكام حنونٍ، ثم تساب ثنياه الكثيرة، فتصير كدائرةٍ مركزها قدمها الصغيران اللتان اتعلتا حذاءً من لون الرداء. على رأسها منديلٌ حريرى لامع، لونه ناصعٌ، يمسك بشعرها من دون أن يخفى من وجهها شيئاً. من جانبيّ المنديل تدلتُ صغيران تلامسان بأطرافهما أعلى نقطتين فى صدرها. عند طرفى الكتفين ترتفع ثنياتُ ثوبها

المخملَى الملمس، الأرجوانى اللون، ثم تهبط الثنيات وتنسبط، فتحيط بذراعيها بإحكام. حتى إذا قاربت الأكمَامُ الكفين، اتسعتا ليتغطى ظاهرُ اليدين بالتطريز المذهب الذى يؤطّر الأكمَام وذيل الفستان وأطراف منديل الرأس.. تركتني مرّتا برهةً أنأملها، وقد أملتُ رأسها برقةً جهةً اليمين، وأسندتُ كفيها المضمومتين على طرفى خصرها. مختالةً الخطو والابتسام أقبلتُ نحوى، وقد أمسكتُ ثوبها الفضفاض بأطراف أصابعها من عند الفخذين، ورفعته قليلاً، فكان ذيل الثوب المؤطّر بالخیوط الذهبية، تراقص ثنياه المخملية مع خطواتها الرشيقة التى تطير بها نحوى..

- أراك مستمتعاً بالوصف! لكن هذا القدر فيه كفاية، فأكملُ حكاية ما

جرى، فوصفُك لمرّتا يثيرنى!

- إليك عنى يا عزازيل..

لما اقتربتُ مرّتا يومها منى، رفعتُ وجهى إلى صدرية الرداء.. تاه ناظرى فى الأزرار الكثيرة المصطفة فى خطّين يرتفعان مع طرفى الصدرية، من موضع الشرة إلى منبت العنق، ويعتقلان فى طريقهما امتلاء النهدين.. ولما اقتربتُ منى أكثر، دارت رأسى عند ارتقاء عنقها نحو ذقنها الدقيق. ولم أستطع الارتقاء بناظرى، حتى أغوص بقلب عينيها.. وأظنّها أدركتُ لحظتها عذاباتي، فزادتها بابتسامةٍ صافيةٍ رفعتُ نظرى إلى الغمازتين اللتين بقلب الخدين.. ولما نظرتُ أخيراً فى عينيها، غصتُ فى بحرٍ عميقٍ من العسل. قالت:

- ما رأيك يا أبت. هذا واحدٌ من الفساتين الثلاثة التى أهداها لى

رئيس القافلة ليلة أمس.

- جميلٌ يا مرّتا، جميلٌ جداً يا ابتى.

- هو ضيقُ بعض الشيء عند صدري، لكنه سيأخذ شكل جسمي مع الوقت.

- نعم، نعم.. تعالى لنجلس عند الباب.

- يا أبت، مازال الوقت مبكرًا على مجيئ الصبيان، دعنا نجلس هنا.

- لا يا مرتا، لا يصح ذلك.. مكاننا هناك.

لم يكن من اللائق أن نجلس في أقصى ركن من المكتبة، حيث لا ينير الضوء الداخل من الشباك القريب، إلا الطاولة التي أقرأ عليها. الجلوس عند الباب أليق، وأبعد بنا عن الشبهات. والضوء هناك أزيد، وسوف أرى الرداء بصورة أفضل.. جاءت مرتا ورائي، فجلست أمامي على كرسيها وقد دسّت كفّيهما تحت فخذيهما، وراحت تؤرجح ساقيهما جيئةً وذهابًا. كان الرداء يرفُّ مع حركتها، فيزيد من شعوري بالدوار. وكانت تنظر مباشرة في عيني، فتحاشيتُ النظر ناحيتها.. من دون أن أطلب منها، غنّت أغنيةً لم أكن أعرفها، فنظرت نحوها مسلوب الإرادة.

كانت مرتا إذا غنّت ازدادت بهاءً، وإذا انهمكت في الغناء رفعت ذقنها الدقيق، وأغمضت عينيها، فصارت كأنها تناجي السماء. غناؤها يومها سرى بخدر في ظاهر بدني، ثم غاص في باطني. وأخذني صوتها إلى أفق بعيدٍ لانهائية له، ثم راح يؤرجحني، ويملؤني شجناً على شجنٍ، حتى أذهلني عنى.. حين انتهت من غنائها، كنت قد انتهيت.

- أئن تضع غطاء رأسك، يا أبت.

أربكتني عبارتها، ونهتني إلى أننى لا أشعر بانكشاف رأسي. لم أكن في حقيقة الحال أشعر إلا بحضورها الطاغى الذي يسلبني، ويسحبني مني إليها. قمت مضطرباً، فأحضرتُ القلنسوة، ولم أجد حرجاً في النظر ناحيتها أثناء عودتي. هي أيضاً كانت تنظر ناحيتي، وعلى وجهها ابتسامة

غامضة، تزيد سحر وجهها سحرًا.. كان يجب عليّ أن أتكلّم بأيّ شيء، لكن الحروف فرّت من طرف لساني. كنت أقول في نفسي، إن جمالها ظالم لمن يعرفه، ظالم لأنه أعمق من أن يُحتمل وأبعد عن أن يُنال.

- لماذا تنظر لى هكذا، يا أبت، ولا تقول شيئاً؟

- لا شيء يا مرتا، لاشي. أنا أفكر.. أخبريني، كم عمرك؟ ومتى تزوجت؟.. وأين زوجك؟ وعائلتك؟.. ولماذا جئت للسكنى هنا مع خالتك؟

- هذه أسئلة كثيرة يا أبت!.. عمري عشرون سنة، وبقية الأسئلة سأجيب عنها الأيام المقبلة، كل يوم سؤال.

لأبأس يا مرتا لأبأس. احكي وقتما تشائين، وحسبما تودين. ولكن، هل ستمتد الأيام بنا وفق ما أهوى؟ لقد اعتدت رؤياك الأسابيع الماضية، وبعد حين سينتهى التدريب على الترتيل، فلا شيء سبب سوف أراك بعد ذلك؟ الرهبان لا يرحبون بدخول النساء إلى الأديرة، وأنا مستسلم لدخولك إلى قلبي. هل سأكتفى برويتك صبيحة أيام الآحاد، ترتلين مع المجموعة في الكنيسة؟ لا، سوف أجد سبباً آخر.. سأزرع الأرض المحيطة بكوخك بالنباتات الطبية، وأعهد إليك برعايتها، وأمر كل يوم للاطمئنان على المزروعات، فأراك من دون إثارة الريبة. وهكذا سيمضي الحال لسنوات وسنوات!.. وربما يأتي يوم يُقال لى فيه إن مرتا ستزوج بواحد من الفلاحين، وأنها سترحل للسكنى في بيته.. يومها ستتركن وراءك خالتك العجوز، وآلام العتية.

- هل عدت للصمت والتفكير!

- نعم يا مرتا.. إننى أفكر فيك.

- أعرف، وأشعر بك يا هيبا.

روعتني الطريقة التي نطقت بها حرف الباء من اسمي، فلم أفكر في جرأتها على مناداتي به مجردًا. كنت أنظر لحظتها إلى شفتيها، وأقول في نفسي: هل تتعمد هذه الطفلة إثارتى، أم تراها تعبث بى؟ ولعلها أحبتنى بعدما عرفتني، ورأت منى المهاراة في علاج خالتها، وفي معالجتى المبهرة لرئيس القافلة بالأمس وسط ذهول الجميع! لقد رأيت ساعتها الانبهار بعينيها، ولمست فيها افتخارها بى. ولكن هل تأكدها من مهارتى الطبية، سيدعوها للهيام بى؟ أنا الذى أرفل فى الرداء القدسى، وأسكن الدير! ثم إنها طفلة فى العشرين من عمرها، لا تعرف أصلاً ماهو الحب.. ما هو الحب! أنت أيضًا لم تعرفه أيها الراهب المسكين. وهذا الذى كان قبل عشرين سنة مع أوكنافيا لم يكن حبًا، كان خطية.. لا، كان حبًا خالصًا من جهتها هى، وخطية منى. كانت أيامى المعدودة معها بديعة، لكننى لم أعرف قيمتها وقتها، فانتهى الأمر بأن فقدتها، وفقدت نفسى على النحو المفجع الذى كان، فقد خفت من حبها، ورضيت بالفرار منها، ثم ورثت بمقتلها أمام عيني، جرحى الذى لن يندمل أبدًا.. أترانى سأفقد مرتا أيضًا، تلك الجالسة الآن أمامى تؤرجح قدميها كطفلة لاهية؟ وهل سأهدر ذاتى من أجل خاطر عارض مبهم؟ لا، لا يجوز ذلك لك، وما عليك إلا أن تماسك.. اصبر على ما يعصف بك، واعرف أن الحب إعصارٌ كامنٌ فى زاوية بعيدة بأعماق القلب، وهو يتوق دومًا لاجتياح كل ما يعترض طريقه.. أنت راهبٌ مبجلٌ، وطبيبٌ مرموقٌ، فلا تمنحه الفرصة لاجتياحك، وإلا ألقى بك فى صحراء الازدراء.. لكنك من الناحية الأخرى شاعرٌ، وهذه المشاعر تملوك شوقًا نحو هذه الطفلة البهية الجالسة أمامك، مستمتعة بمشاغبتها لك، وشغفها عليك.. ثم إنك اليوم فى الأربعين، وهى منك بمنزلة الابنة. وغدًا، قد تجدها قد ألفت نفسها فى حضن رجل آخر، وتعود أنت لعبوسك الأزلى وأيامك الجرداء.

أى رجل آخر ذلك الذى يستحق مرتا ويعرف قدرها؟ لا أحد غيرى يدرك عمق السحر الساكن فى عينيها، وروعة السر الكامن فى ثناياها. إن رجلاً آخر غيرى، سوف يحولها مثله إلى فلاحية من اللواتى يملأن القرى.. مهلاً، فهى قد تزوجت من قبل، فأى رجل هذا الذى تزوجته؟ أتراها استسلمت له فى ليالى الشتاء الطويلة؟ هل عبث بشمار جسمها الرقيق؟ وهل امتلأ به؟.. أدركنى يا إلهى برحمتك.

- أتريدنى أن أذهب، وأعود حين يأتى الصبيان؟

- لا، يمكنك البقاء قليلاً، سوف يأتون حالاً.

- لكنك صامتٌ، ولم تعد تنظر نحوى.

- يامرتا، أنت.

كنت أنوى الإفاضة بما أعانيه من شعورى بها، وأعانيه. وكانت قد تهيأت لسماع أمر مهم، وعقدت ذراعيها على صدرها، وكفّت عن أرجحة قدميها. هى جميلة أيضًا حين تهتم وتصغى، عيناها تتسعان، فيزداد جمالهما.. غير أنى لم أقل ساعتها أى شئ بلسانى، فما كدت أبدأ البوح، بعدما نظرت فى قلب عينيها نظرة طويلة، حتى سمعنا جلبة الصبية الصاخبين آتية من عند بوابة الدير. قمت من فورى، فأحضرت أوراقى. وأعطيت لمرتا نسختها لنبدأ الترنيم، ونهى هذا الأفق الحالم الذى كان ممتدًا بيننا. ظل الصبية يرّدون المزمور، ثم تشدو مرتا بالأبيات الشعرية، فتطيط بكل حواسى، وتطوحن خارج الكون، ثم أفيق مع ترديد الصبية للمزمور، ثم أعود مع غنائها لتطوافى خارج الكون.

عند خروجهم، تأخرت مرتا خطوتين؛ لتسألنى إن كنت هذه الأيام صائماً، فأخبرتها بأنها ليست أيام صوم. همست: سأحضر لك شيئاً. غابت بسرعة، ثم عادت بعد فترة، وهى تحمل طبقاً فيه حلوى من تلك التى تشتهر

بها حلب والقرى المحيطة. كان واحداً من رهبان الدير يجلس معي حين جاءت. وضعتُ الطبق على الطاولة، وانصرفت من دون أن تقول شيئاً، وأكمل الراهب شكايته من التقلصات التي تؤلم أمعاءه كلما تناول شيئاً غير الطعام المسلوق.

في المساء أخذتُ معي الحلوى إلى صالة الطعام، فامتدحها الرهبان الذين أكلوا منها. ولما شكرتُ مرتاً صبيحة اليوم التالي، أخبرتنى أن هذه الحلوى الفاخرة، هي هديةٌ إليها من رئيس القافلة. الظاهر أن الرجل كان كريماً جداً، فقد أخبرني رئيس الدير في الليلة السابقة عند جلوسنا على مائدة العشاء، أنه أعطاه مبلغاً من المال لبناء سورٍ للدير، وبوابة خشبية على هيئة صليب كبير.

لم أخبر مرتاً بأنني لم أكل من الحلوى، ولم أقل لها أيّ شيء آخر، فقد جاءت في ذاك اليوم متأخرة، بعدما كان الصبية قد اصطفوا في مكانهم. اعتذرتُ بأنهما، هي وخالتهما، كانتا مشغولتين في بناء فرن جديد.. وكان غناؤها يومها مضطرباً، وكان رداؤها هو الرّئيّ الدمشقي الذي رأيتها فيه أول مرة. انصرفتُ مرتاً مع الصبية فور انتهاء التدريب، وأكملتُ يومي في تعاسةٍ لحدود لها.

نظرتُ يومها كثيراً إلى ناحية الكوخ، من شباك المكتبة، فكنتُ أرى حركةً كثيرة: مرتاً في ملابسها المنزلية تروح وتجيئ، خالتها في ملابسها السوداء الكاحلة تجلس حيناً أمام النول، وتقوم أحياناً، ثلاثة من الصبية يغنون وهم يرممون حوائط الحظيرة التي أمام الكوخ، النّجّار يدق في الباب المسامير.. لا بد أن لديهم إصلاحات كثيرة يقومون بها، غير الفرن. قبيل الغروب، تصاعد دخانٌ كثير من الفرن الجديد، ثم سكنت الحركة.

فكرتُ ليلتها في المبيت بصومعتي، كيلا يضايقتني الدُخان الصاعد من الفرن الجديد، ثم فضّلتُ إغلاق النافذة والبقاء في المكتبة، لأنها أقرب إليها موضعاً. أغلقتُ بابي، وأشعلتُ فتيل قنديلي، وعدتُ لقراءتي المتأنية لنسختي الوحيدة من كتاب جالينوس في النبض، آملاً في إيجاد حلولٍ لاضطراب هذه النسخة المليئة بأغلاط النّسخ. فانتى ليلتها موعد العشاء، ولم أحضر صلوات أول الليل مع الرهبان. بعد الصلاة زارني راهبان من أهل الدير، أحدهما شيخٌ وقور، والآخر أصغر سنّاً وأضعف جثّة. كان معهما راهبٌ زائر، عرج إلى الدير في طريقه من روما إلى أورشليم.

لم يتحدث الراهب الزائر بشيء طيلة جلستنا، فلم أره. بل إنني لا أذكر الآن ملامحه. أتذكر فقط إطرافته الطويلة وصمته، وأنه بحسب ما أخبرني الراهبان: يحمل كتاباً من بابا روما إلى أسقف أورشليم، بشأن اجتماع كبير! استغربتُ ما سمعتُ، ولم أفهم السّر وراء سفر هذا الراهب منفرداً، وسلوكه طريقاً بريّاً لبحريّاً كما هو معتاد. ولماذا كان يتجنّب المدن الكبيرة، ولم يمرّ بأنطاكية في طريقه! غير أنني لم أشأ أن أثقل عليه بأسئلتي، خاصة مع ما لمستّه فيه ليلتها من ميل للصمت. وقد انجلى الأمر بعد حينٍ، وأدركتُ أنهم كانوا يربّون من وراء ظهورنا، لانعقاد المجمع المسكوني الذي اصطلخ في إفسوس.

الراهبان جلسا عندي فترة، أعددتُ خلالها للراهب الزائر دواءً لحرقه يشعر بها دوماً بصدوره.. تحدّثنا ليلتها عن كنائس روما الكبيرة، والأديرة الكثيرة المتناثرة على تلالها السبعة، وعن موعد الشروع في بناء السور الذي سوف يحيط بالدير، وعن أشياء أخرى كثيرة. ثم انصرفوا عني عند منتصف الليل. أمام الباب ابتسم الراهب الأصغر سنّاً، الأضعف، وهو يقول لي إن الحفل الذي أقامه التجار قبل يومين احتفالاً ببرء رئيسهم،

غَنَّتْ فِيهِ الْفَتَاةُ الَّتِي سَكَنْتُ الْكَوْخَ مُؤَخَّرًا. أَضَافَ بِإِشَارَةٍ مَرَعَةٍ بِالْهَمْزِ، لَا تَلِيقُ بِالرَّهْبَانِ، أَنَّ رَئِيسَ الْقَافِلَةِ وَالْفَتَاةَ كَانَا مَنْسَجِمِينَ خِلَالَ الْحَفْلِ، وَأَنَّهَا بَعْدَ الْوَلِيمَةِ صَحَبَتْهُ إِلَى خِيَمَتِهِ.
.. شَبَّتْ بِيَاطِنِي حِرَائِقُ لَا إِطْفَاءَ لَهَا.

الرَّقُّ الثَّالِثُ وَالْعَشْرُونَ

هُبُوبُ الْإِعْصَارِ

لَمْ يَغْمُضْ لِي جَفَنٌ طَبِيلَةَ لَيْلَتِي، وَمَعَ طُلُوعِ شَمْسِ النَّهَارِ، تَوَهَّجَتْ النَّارُ الْمَتَأَجَّجَةُ بِقَلْبِي، فَأَحْرَقَتْ بَدَنِي، فَكَأَنَّنِي فِي حَمَى لَا تَنْقُطِعُ نَوَابِتُهَا. لَمْ أَسْتَطِعْ مَفَارِقَةَ الشَّبَاكِ الْمَطْلِ عَلَى الْكَوْخِ، حَتَّى رَأَيْتُ مَارَتَا تَخْرُجُ مَتَكَاسِلَةً لَتَنْشُرَ مَلَاءَةً عَلَى الْحَبْلِ الْمَشْدُودِ خَلْفَ الْفَرَنِ الَّذِي أَوْقَدُوهُ بِالْأَمْسِ، وَلَا يَزَالُ يَتَصَعَّدُ الدِّخَانُ مِنْهُ. خَطَفْتُ مَلَابِسِي، وَانْخَطَفْتُ نَحْوَهَا. كَانَتْ خَالَتُهَا هِيَ الَّتِي رَأَيْتُ أَوَّلًا، فَجَاءَتْ نَحْوِي مَتَهَلِّلَةً فَرَحَةً. سَأَلْتُهَا عَنْهَا فَتَادَتْ عَلَيْهَا، وَاسْتَأْذَنْتَنِي فِي الْعُودَةِ لِإِحْمَاءِ نَارِ الْفَرَنِ الْجَدِيدِ. إِذْ لَا بَدَأَنْ تُقَادُ نَارُهُ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ مُتَوَالِيَةٍ! أَوْمَأَتْ لَهَا بِرَأْسِي، وَبَقِيَتْ وَاقِفًا فِي مَوْضِعِي عَلَى مَقْرَبَةٍ مِنَ الْكَوْخِ.

جَاءَتْ مَرَّتًا بِمَلَابِسِهَا الْمُنْزَلِيَّةِ تَتَهَادَى فِي مَشِيَّتِهَا، كَأَنَّهَا تَتَعَمَّدُ التَّبَاطُؤَ. لَا حِذَاءَ فِي قَدَمَيْهَا، وَعَلَى رَأْسِهَا طَرِجَةٌ مَهْتَرَةٌ الْأَطْرَافِ كَانَتْ فِيهَا مَضَى زَرْقَاءَ اللَّوْنِ. وَمَعَ أَنَّهَا جَاءَتْ فِي ثِيَابٍ فَقِيرَةٍ، إِلَّا أَنَّهَا كَانَتْ فِي ضَوْءِ الصَّبَاحِ الْبَاكِرِ جَمِيلَةً، وَظَالِمَةً. لَمَّا وَقَفْتُ مَرَّتًا أَمَامِي عَقَدَتْ حَبِيرَةُ الْغَبِيرَةِ لِسَانِي، فَلَمْ أَسْتَطِعْ النُّطْقَ. هِيَ نَطَقَتْ أَوَّلًا.

- ماذا يا أبتِ، هل أنت مسافرٌ اليوم إلى مكان؟

- لا، ولكنى أريد أن أعرف منك شيئاً.. هل ذهبت حقاً مع رئيس القافلة إلى خيمته، ليلة باتوا هنا، وغنّيت لهم؟

- ولماذا تسأل؟

- لأننى..

لم أكمل، لم يكن عندي ما أكمل به كلامي.. شعرتُ بالتهابٍ في حَلْقِي، واختناقٍ في أنفاسي، وحرقة في روحي.. استدرتُ فجأةً عائداً إلى الدير، وتركتها ورائي من دون أن ألتفت إليها، ولو لمرة واحدة.

صعدتُ رأساً إلى صومعتي، فأغلقت خلفي بابها، وتكوّمت في ركنها الأقصى. رأسي بين ركبتيّ، وذراعاي ملتفتان حوله، وبداخلني تطنُّ أصوات متداخلة تعذبني، تفصّدني، وتسخر مني. بعد فترة من انكماشٍ حول ذاتي، رحّت أزوومٌ وحدي، وكان بي كلاليب أو مشارط تحزّ أطراف كبدي. رثيتُ لنفسي، واحتقرتني: أهذا ما كنت تريده وتسعى إليه، أيها الراهب الطبيب الشاعر؟ أن تصير هزأة بين الناس، بسبب طفلة جاهلة لا تعرف عنها أى شيء؟ كيف ارتضيت لنفسك أن تكون لعبة بيد امرأة لعوب، لمجرد أنك تظنّها جميلة؟ ظللت تسأل نفسك إن كانت طفلة عذراء، فأدرك صاحب القافلة الذي شفّيته، أنها أنثى خليعة تذهب مع العابرين إلى خيامهم ليلاً.. أتى شقاء هذا الذي جلبته لنفسي؟ أردتُ أن أهديها ثوباً عن طريق صاحب القافلة، فعرف هو طريقه إليها، وأجزل لها العطاء: ثلاثة أثواب، وحلوى فاخرة.. وقد تكون هناك هدايا أخرى، لم تذكرها لك. أنت قدّمتها إليه، فلا تلو منّ إلا نفسك أيها المتباهي بقدرتك على شفاء المرضى. يا إلهي، أعرف أنك تعاقبني على خطيئتي، فارحمني.. إنني معترفٌ بكلّ ما اقترف قلبي من اشتياقٍ، وبكلّ ما خالفْتُ من الوصايا والأحكام الثابتة، وتناسيتُ

المكتوب في إنجيل متى: كل من نظر إلى امرأة يشتهيها فقد زنى بها قلبه، فإن قادتك لذلك عينك اليمنى، فأقلعها وألقها عنك، فإنه خيرٌ لك أن يهلك أحد أعضائك، ولا يلقى جسدك كله في جهنم.

يا إلهي، أعرفُ أنني أخطأتُ، فأدركني بعفو منك يا رحيم، ولا تلق بي في جحيمك من الآن. إن النار تشتعل فيّ، تشتعل بي، فصيرني رماداً أو هباءً مثوَّراً على الطرقات. ارحمني، فإنني ماعدت أحتمل العذاب المقيم. أنا يا إلهي مسكينٌ، منكسّرٌ، وديعٌ. إنني محزونٌ وأنت رحيمٌ، وقد قال يسوع المخلص، في أول عظة ألقاها على الناس: طوبى للمساكين بالروح، فإن لهم ملكوت السماوات. طوبى للودعاء، فإنهم يرثون الأرض. طوبى للحنّاني، فإنهم يعزّون. وأنا يا إلهي، لا أطمح إلى ملكوت السماء، ولا وراثة الأرض، ولا حتى العزاء. كل ما أرجوه، أن ينطفئَ اللهبُ الساري بين ضلوعي، وأن تذهب عني الآلام التي ألقت بي في هذا الركن منبوذاً، مُهاناً..

- يا أبتِ، هل أنت بالداخل؟

جاءني صوتُ الشَّمْسِ ممزوجةً بدقّاته المتشنّجة على باب غرفتي، فانتشلتني مما كنت غارقاً فيه.. أتراها كانت إشارةً لى من السماء، كى أخرج عن الحالة المزمية التي أوصلت نفسي إليها؟

- يا أبتِ، هل أنت نائم.

توالى نداءُ الشَّمْسِ وتناثرت دقاته، فقامت مترنّحة من الركن المظلم، ورحتُ أَسْتَد على الحائط حتى رفعت مزلاج الباب. ألمني الضوء الآتي من خلف الشَّمْسِ، وأزعجني صوته: يا أبتِ، أنت هنا! إننى أدق على بابك منذ ساعة، ما كنتُ أعرف أن نومك ثقيلٌ هكذا.

- ماذا تريد يا بني؟

- يريدونك فى المكتبة.

انصرف الشَّمْسُ من أمامى، فكدتُ أقع على الأرض. كأننى كنت متماسكًا من أجله، أو كنتُ متكئًا على حضوره المفاجئ، المزعج.. يريدوننى فى المكتبة! مَنْ الذين يريدوننى الآن؟ أنا لا أريد أن أرى أحدًا، ولا أريد أن يريدنى أحدٌ.

متأقلاً الخطو نزلتُ الدرج، كأننى أهبط من قمة جبل قُسقَام الموحش، إلى ناحية الصحراء الممتدة وراءه غربًا.. كانت ساحة الدير خالية، وشمسُ الظهيرة مبهرة لعينى النكلى. مشيتُ نحو المكتبة بخطى مسافرٍ يغالب النعاس، وعقلٌ مكدودٌ بالسؤال عَمَّن ينتظروننى فى المكتبة؟.. بالكاد وصلت إلى الباب الموارب، ودفعته برفق.

- مرنا!

- نعم يا أبت، انتظرتك طويلاً.

- ماذا تريدان الآن؟

- اجلس يا أبت، أرجوك.

جلستُ من دون أن أنظر نحوها. كادت دموعى تسيل، فغالبتها حتى حبستها. ظلت مرثاً صامتة.. ولما طال بنا الصمتُ نظرتُ نحوها، فوجدتُ فى عينيها دمعةً كثيراً يكاد ينسكب. كانت تنظر ناحية ركبتيها اليسرى، وقد انسدل على جانبي وجهها خمارها الحريري الشفاف، الأسود كلون ردايتها الواسع.. اسوداد ملايسها زاد من إشراق بياض وجهها بملامحه الطفولية البريئة. بعد ثوانٍ من التأمل فيها، شعرتُ بأنها من النقاء بحيث لا يمكن أن تأتى الفعل الفاحش الذى أظنه، فإنها لو كانت من أهل الفحش، لكان الربُّ قد سلبها هذه الهيئة الملائكية، وكساها هيئة الفاحشات. ولو كانت امرأة لاهية، لما اهتمتُ بالحقاق بى والجلوس أمامى بهذا الصمت البرئ الذى

يضوع بعطر الطُّهر، ولا صَحَّ لها هذا الحضور المريمى الأسر للروح.. رفعتُ مرثاً وجهها نحوى، وبينيها المليتين بالجمال الشجى، قالت وهى تنظر فى قلب عيني:

- أرجوك يا هييا، لا تظلمنى، فالظلم قاسٍ. وقد عانيتُ فى حياتى، الكثير من قسوته.

- هل ذهبتِ يا مرثاً لخيمة هذا الرجل، ليلة غُنيّت له؟

- سأحكى لك كل شئ.

بعبارةٍ مفعمة بالصدق، قالت لى مرثاً قبل أن ينهمر دمعها. إن صاحب القافلة أرسل لها يومها، قبيل الغروب مع تابع من تابعيه، ثلاثة أثواب، وجوالاً من القمح، وآخر من الفواكه المجففة. قال الرجل إنها هدية من سيد القافلة، لأهل هذا البيت المجاور للدير المبارك، هكذا قال. وبعد الغروب جاء التابع نفسه، ليخبرها بأنهم عرفوا من الجيران، أنها تجيد أغنيات الخزّافين وصنّاع الفخار، المعروفة هنا باسم القوقيون، وقال إنهم سيقمون مأدبة للرهبان وأهل المنطقة ابتهاجاً بشفاء سيدهم.. سكتت مرثاً برهة، ثم قالت: حَدَّثَنِى الرجلُ بأننى إذا جئتُ للغناء، فسوف يعطينى رئيس القافلة أجرى، فذهبتُ إليهم مع عمى وغُنيّت.. القوقيون كما تعرف يا هييا، أغنيات وقورة، ليس فيها ما يعيب. وقد كان كثير من رهبان الدير والشمامسة حاضرين، وكذلك أكثر أهل البيوت المحيطة بالدير. وقد انتظرتُ أن أراك هناك، وظللتُ أفتش عنك بناظرى طيلة الليلة، ولكنك لم تأت. ولما انتهينا، أَخَذْنَا رئيس القافلة ناحية خيمته، أنا وخالتي، فدخلها وخرج بثوب لها وبعض المال لى. فَأَخَذْنَا ما أعطاه لنا وَعُدْنَا إلى كوخنا، فلم نخرج منه إلا اليوم التالى..

قالت مرثاً ذلك كله، والصدق يحفُّ بها، يجللها.. أَطْرَقَتْ بعدما

انتهت، وتقطر الدمع من عينيها. كان لابد أن أتكلّم، لأخفّف عنها:

- لقد قالوا لي إنكِ ذهبتِ معه، فظننتُ..

- لا تنظنيّ بىّ السوء يا هيبا.

- هاه.. لقد صرتِ تنادينيّ باسمى!

- عفواً، لكننى مرتبكةٌ.. وسعيدةٌ، لأنك ظلمتنيّ بظنونك الثائرة

- سعيدةٌ يا مرتا!

- نعم، لأن ظنونك الثائرة أكّدت لي أنك تحبّنيّ، مثلما أحبك.

قامت من فورها، فأرّةً إلى كوخها.. وتركتنيّ في حالٍ لا يعلمها إلا
الإله الرحيم، المحتجب خلف سماواته البعيدة.

الرّقّ الرابع والعشرون

أفقُ العشق

للمحبة في النفس أحوالٌ شدادٌ، وأهوالٌ لا قيلَ لي بها، ولا صبرَ لي
عليها ولا احتمال! وكيف لإنسانٍ أن يحتملَ تقلبَ القلب مابين أودية
الجحيم اللاهبة وروض الجنّات العطرة.. أئى قلبٍ ذاك الذى لن يذوب،
إذا توالى عليه نسماتُ الوله الفوّاحة، ثم رياح الشوق اللافحة، ثم أريج
الأزهار، ثم فيح النار، ثم أرق الليل وقلق النهار. ماذا أفعل مع محبتي
بعدها هبّ إعصارُها، فعصف بى من حيث لم أتوقّع؟ هل أنا قريحٌ بحبٍ
مرتاً أم أننى أخشاه؟.. سيقولون إننى غررتُ بها، وسيقولون بل هى غررت
به! لن أنجو من هذا الحب الذى قدّحت مرتا زناده بكلمة واحدة، فصار
عشقاً.. وأنا لاخبرة لي بارتياح بلاد العشق.

فى ذاك اليوم كان الربُّ رحيمًا بى، فلم يفتح عليّ خلوتى أحدٌ، إلا
السَّماس الذى مرّ بى بعد الظهر، ليخبرنيّ بأنّه فى طريقه لجمع الصبية،
فأخبرته بأن اليوم راحة لهم من التدريب على الترتيل. لابد أنه أخبر مرتا
بذلك؛ لأنها لم تأت يومها فى الموعد المعتاد.. ساعة العصر اعتصرنيّ
اشتياق، فأخبرتُ رئيس الدير بعد صلاة الساعة التاسعة، بضرورة الشروع

فى زراعة المنحدر بالأعشاب الطبية، إذ الآن أوان غرسها! فبارك الفكرة ونادى على اثنين من خدام الدير، ليساعداني فى تمهيد الأرض، ولحق بنا الشَّمَّاس وصبى آخر.. لما رأتنى مرتاً مُقبلاً نحو كوخها، أشرق وجهها بنور الحب، وتدرج قلبى نحوها. من بعيدٍ قالت: مرحباً يا أبت، ولما انفردنا همست: كنتُ ملهوفة لرؤياك يا هيبا.

وقف الشَّمَّاس عند بقعةٍ بأعلى الكوخ مستوية كالمصطبة، وصاح بما معناه أنها ممهّدة تصلح للزراع. أفهمته أننا نحتاج خمسة مواضع بمثل مساحتها، متدرّجة على طريقة حدائق بابل، فضحك ببلاهة وهو يقول: وما حدائق البابل هذه؟ لا بد أنها بعيدة جدّاً عن هنا!

صباح اليوم التالى، أرسل صاحب المزرعة الكبيرة الذى كان أول مريض عالجه هنا، اثنين من الزّراع المحترفين القارّين فى الأرض، وثلاثة من العمال. فأصلحوا خلال ثلاثة أيام، الأرض المحيطة بالكوخ، بأن جعلوها على خمس مصاطب كبيرة، مثلما تمنيتُ. شقّوا فى وسط كل مصطبة منها مجرى للماء، بآخره مسقط ينزل منه الماء إلى المجرى الذى تحته.. سوف نأتى بالماء من الخزانات الحجرية التى بطرف الدير الغربى، حيث يتجمع ماء المطر هناك كل شتاء، ويبقى أسناً إلى الشتاء التالى. وكان ما أنوى زراعته من أعشاب، لن يحتاج على كل حال مياه كثيرة.

عصر اليوم الثالث، غرسوا عند حواف المصاطب الخمس شتلات أشجار، من شأن جذورها الكثيفة، أن تحمى الحواف من الانهيار عند سقوط أمطار الشتاء. بعدما انتهوا من عملهم وقت الغروب، صار المنظر بديعاً، وكانت مرتاً فرحة. جاءت نحوى بعدما انصرف العمال والزراع، وقالت وهى تكاد تلمسنى بكتفها: سوف يبدو كوخنا بين هذه الزروع قصراً من قصور الجنة.. لم يكن عندى ما أردّ به عليها، أما هى فكان لديها ما تقوله لى! نظرتُ إلى عيني بعينها العسلتين الخضراوين، وقالت كلمة واحدة أطاحت بعقلي، ثم أسرع نحو خالتها: أُحِبُّكَ جدّاً يا هيبا.

ارتقيتُ نحو بوابة الدير محلّقاً بمحبتى، بل محمولاً على أطراف أجنحة الملائكة. جزّت الساحة مسرعاً، متحاشياً لقاء أحدٍ حتى لا أسمع أى كلمة من أى إنسان، بعد ما سمعته منها.. صعدتُ إلى صومعتى ورنّات قولها أحبك جدّاً تجول فى أرجائى. أغمضت عيني على صدى الكلمتين، حتى أحبسهما بداخلى.. أخذنى للنوم خدرٌ جميلٌ، وامتلات ليلتى بالأحلام المؤطّرة بالأفراح. لم تغب مرتاً عن حلم واحدٍ منها. فى الصباح كنتُ شخصاً آخر، غير الذى عرفته فى نفسى طيلة السنين التى فاتت من عمرى.



كان قد مرّ يومان من دون تدريبٍ على الترتيل، وصباح الأربعاء سألتنى رئيس الدير عن الموعد المرتقب لبدء الترانيم فى الكنيسة، فلم أتردّد فى الإجابة: سنكون جاهزين يا أبت، يوم الأحد القادم.. فأشرق وجهه بابتسامة الرضا.

مرّ الشَّمَّاس يومها على مرتاً عند نزوله لجمع الصبية، فجاءت قبلهم بفترةٍ لم أجد خلالها حرجاً فى أن تنتظرهم معى فى الزاوية البعيدة من المكتبة، فقد كنت أجلس هناك من قبل مجيئها. جاءت فى ثوبٍ مخملىّ أسود، محلّى عند الأكمام بشريطٍ من الحرير الأحمر اللامع، يمتد من عند منبت العنق إلى ظاهر كَفَّيها. الشريط ذاته يدور مع أطراف الثوب، فيغطى أعلى صدرها، ويوشى بلمعانه منبت عنقها. بدت كالأميرات اللواتى رأيتهن بأحلامى زمان طفولتى، أو كالملائكة التى تحلّق فى خيالاتى ساعة الصفو.

قبل أن تجلس أمامى، أخبرتنى أنها رأت فى طريقها رئيس الدير وسألته

إن كان رداؤها يصلح للترتيل، فباركها.. أضافت: والآن، لا يمكن لك أن تعترض على ثوبي، مع أنه يبرز صدري، ويجعلني امرأة جميلة!

- بهذا الثوب أو بدونه، أنت أجمل امرأة تمشي على الأرض.

- كلامك حلو، من أين تأتي بهذا الكلام الذي يذهب العقل.. ولكن مهلاً، لماذا لم تخبرني بأنك أمرت رئيس القافلة بأن يهديني هذه الأثواب. رئيس الدير حكى لي بالأمس ما جرى بينكما؟

- أنا لم أمره بشيء. قلت له يعطيك ثوباً، فأعطاك ثلاثة!

- زاد الأثواب، لأنه أراد أن يشركك يا حبيبي بزيادة.

- ماذا قلت يا ممرتا؟

- يشركك بزيادة.

- لا أقصد هذا.

- آه، تقصد: يا حبيبي.. يا حبيبي، يا حبيبي.

التقت عينانا في عناقٍ حارٍّ، غبتُ خلاله عن كل ما حولي، وأظنّها أيضاً كانت غائبة. لم نشعر بمرور الوقت مع التحام النظرات الولهي، فبقينا ساكنين، غارقين فيما نحن فيه، حتى انتزعنا من أفق العشق، صخبُ الصبية القادمين والشماس.. قمنا من فورنا إلى التدرّيب، كان يومها بالمكتبة لا الكنيسة.

امتد وقت الترتيل على أفضل ما يكون، كانت نظراتنا تلتقي من حيث لا يشعر بنا الصبية، ولا الشَّماس الجالس على الطاولة يهزُّ رأسه مع النغمات، غير أنني لاحظت يومها اضطراباً في ترنّم مرتا بالكلمات الممدودة بالنغمات الطويلة. بعدما انصرف الصبية سألتها عن سرِّ اضطراب قلبها وصوتها، بقصد مداعبتها، فقالت جادة إنها تشكو من صدرها، وإنها

كانت تسعل اللبالي الماضية سعالاً حاداً. أفلقني كلامها. قمتُ من فوري، فأحضرتُ من البزور، ما من شأنه أن يهدئ السعال ويريح الأنفاس، وقد أدركتُ أن دخان الفرن هو السبب في تهيج صدرها. لما عدتُ بالبزور ومددتها لها، مدّت يديها لتأخذها، وأطبقت بكفيها على كفتي. كانت المرة الأولى التي نتلمس فيها، وقد كادت روحى تنسحب مني لحظتها، مع لمستها. كنت واقفاً قبالتها، وهي جالسة في الموضع التي جلست فيه خالتها، يوم جاءتا إليّ أول مرة.

- ألن تسمع صدري يا هيبا؟

فهمتُ إشارتها.. كانت تريد أن أضع أذني على ظهرها، مثلما فعلت مع خالتها من قبل! تردّدت قليلاً، ثم جلستُ بجوارها، ووقفتُ هي أمامي، واستدارت عائدةً للوراء خطوتين، حتى كادت ركبتيّ تلامسان باطن ركبتيها. لم أفكر ساعتها في أن أحد الرهبان أو المرضى قد يدخل علينا من الباب المفتوح، أو أن رئيس الدير قد يأتي لزيارتي كعادته. لم أفكر في أي شيء، سواها. وشجّعني أنني لم أسمع لحظتها وقع خطوات على الحصى المتناثر بساحة الدير. كان السكون تاماً، وكان اشتياقي جارفاً. ملتُ بأذني على ظهرها، لأسمع نبضها، فأعرف سبب ما بصدرها من حشجة.. لم يكن بصدرها شيء، سمعتُ فقط دقات قلبها متتابةً، عالية. شعرتُ أنها تناديني. أطلتُ استماعي مستمتعاً بلمس الثوب المخملي الملتصق بجسمها، وبجانب وجهي.. ومن دون تدبير، وضعتُ يديّ على طرفي خصرها. جذبتها برفق نحوي، فمالت حتى لمست مؤخرتها صدري. وضعتُ يدي بطنها على ظهرها، وأخذتهما ليلتقيا عند سُرّتها. ضغطتُ على يدي، فضغطتُ على بطنها.. ارتفعتُ بيديّ وقد غطّتهما يداها، حتى لمستُ صدرها بباطن كفتي. عصرتُ بيديها يديّ، فعصرتُ ما تحتها.. لحظتها، اندفقتُ أنهارى الكامنة كمثّل شلالٍ أت

من أزمئةٍ سحيقة، ليروى أرضاً تشققتْ جفافاً عشرين عاماً. ارتجفت مرتاً تلك الرجفة التي عايتها قبل عشرين عاماً، فى قبو النيبذ. لكن ارتجافة مرتا كانت أحلى، وأدلُّ على الارتواء.

استدارت نحوى بوجهها وهى لم تزل، بَعْدُ، بين ذراعى المحيطين بها. وهبتنى قبلةً ناعمة على حَدِّى، وانفلتتْ مسرعةً نحو الباب.. وبقيتُ جالساً وسط دھولى، حتى مضى وقتٌ طويلٌ تمددتُ بعده على الدكة الكبيرة، ورحتُ فى نومٍ عميقٍ، أحلى من النوم المعتاد.

الرَّقُّ الخامس والعشرون

الحنين

صحوْتُ فجر اليوم التالى، فوجدتنى أحتضنُ واحدةً من الوسائد الخشنة التى فوق الدكة. قمتُ من موضعى، كمن يُبعث بعد دهور.. أغمضتُ عينى على صورة احتضانى لمرتاً، فعاودتنى النشوة التى كانت فى اليوم السابق! مع انتشار ضوء الشمس الكسلى، جاء المزارعُ المختص بغرس البذور. كان معه ثلاثة من العمال العارفين بالزراعة. صحبتهم إلى الحدائق المعلقة المحيطة بكوخ مرتا، ولمحتها مرتين أثناء الغرس وتهيئة التربة. لما انتهينا، ساعة العصر، أرسلتُ الشَّمَّاس ليأتى بالأطفال، ومررتُ على مرتا لأدعوها للتدريب الأخير، فقد كان أمامنا يومان على بدء الترتيل فى القُدَّاس، يومان فقط..

لحقت بى مرتا من دون توائن، وجلست فى مكانها المعتاد بالمكتبة، وجهى إليها ووجهها نحو الباب. شعرتُ بها قريبة الموضع منى، فلم يكن يفصلنا إلا مقدار ما أمدُّ ذراعى نحوها وتمد ذراعها، فتتماسُ أناملنا، وقد نلتحم، فيندفق فينا نورٌ واحد، يلفنا حتى نغيب عن كل العوالم. ساعتها تماوج قلبى وغاب عقلى، ولولا بقية من وجلٍ لتعجَّلت الأجل، وأطلقت

روحي من سجن البدن لتحلّق في العوالم السرمدية، ولا تعود أبداً لهذا الجسد الفاني وتوقه المعذب.

التفتت مرتاً نحوي، فأطلت شمس وجهها كاملة.. أزاحت عن رأسها طرحتها السوداء الشفافة، فانساب شعرها على جانبي وجهها، وازدادت بهاء. كنت أرقبها في صمت، هائثاً، حتى فاجأني قولها:

- هيبا، ألا تشتاق إلى بلادك.. التي كان فيها مولدك؟

- لماذا تسألين؟

لم تستدر نحوي إلا بمقدار حركة واحدة من كتفها اليمنى، فكان ذلك كافياً لأن تقع عيناى البائستان على عنقها السامق نحو خدودها الملكية. لا بد أنها انحدرت من سلالة ملكية غابرة، فقدت سلطانها مع تقلبات الزمان، وبقيت ملامحها متوارثة في الأحفاد. خايل شفتيها التبسّم الملائكي، وهي تقول:

- هل تجيب عن سؤالى، بسؤال؟

- ليس سؤالاً واحداً يامرتا، عندي لك أسئلة كثيرة.

- اسألني عن أى شئ، وسوف أجيبك، يا مولاي.

لم أستطع منع ابتسامتي، فالتسعت ابتسامتها، واشتدّت توهجات الروح في عينيها. التفتت ناحيتي بكلها، فالتصق نظري بصدرها. لم أستطع تحويل عيني عن الموضع الذى أودّ أن أميل برأسى عليه، ولم تنزعج هي من ثبات نظرتي على الموضع المحرّم. لعلها أرادت أن تبيح لي هذا الحرّم، لئلهديّ الأحران التى تستبد بروحي منذ سنين، وتنهى زمن الحرمان.. آه لو ملّت برأسى يومها على صدرها. كان يجب أن أجثو أمامها، أضع رأسى بين نهديها، وتضمّني إليها، فأخبو فيها وأموت.

- ألن تسألني؟

أيقظني سؤالها، فرفعت عيني عن صدرها المخبوء، فعرجت إلى عنقها، إلى خديها، إلى أنفها الدقيق كزهرة مضمومة، إلى بحر العسل الجبلى الذائب في عينيها.. كنت هائثاً، فاستمسكت بالكلمات:

- مارتا، حدّثيني عن عائلتك.

- هذا حديث طويل!

قالت ذلك، وقد كادت ابتسامتها تصير ضحكاً. عادت بكتفيها قليلاً للوراء، فصارت أشهى، ثم راحت تقصّ على القصص. حكّت وقائع كثيرة لا رابط بينها، عن جدتها التى كانت لا تمل الحكى عن مدينة تدمر التى دُمّرت، والجدّة بغد طفلة! وعن أبيها الذى كان حدّاداً ببلدة دمشق مشهوراً هناك بإتقانه صنّغ السيوف الفاخرة، التى يصنعها من الحديد الدمشقيّ المعروف بجودته.. ولسبب ما لم تصرّح هي به، أو لعلها لم تكن تعرفه، ارتحل أبوها إلى حلب، فلم يتقبّله الحلبيون، وظلّ هناك أعواماً يسعى لدخول الديانة، ويجتهد فى الالتحاق بالأبرشية لخدمتها. لكنهم كانوا يرفضون؛ لأن زوجته، أمها، كانت امرأة وثنية متدينة، وقد شوهدت مرة توقد الشموع، خلصة، فى أطلال المعبد المهجور الذى على جانب الطريق المؤدّى إلى حلب. كان يتعيّن على أبيها أن يبقى تحت عين الشامسة والقسوس خمس سنوات، ليوافق المطران على دخوله حظيرة الرب. فلم يصبر الأب، ورحل بأسرته إلى.. تلك القرية الصغيرة النائية على خدّ الطريق الممتد من حلب إلى أنطاكية: سرمدة. وهناك كان مولدها. تسع عشرة سنة أو عشرين، من سنين هذا الزمان.

- إذن، عاش أبوك وثنيّاً؟

- لم نعرف له دينًا، حتى وفاته. مات مبكرًا، في بداية الأربعين من عمره، لكنه على كل حال، كان يريد أن يكون مسيحيًا.

- وهل مات مسيحيًا؟

- مات مقتولًا.

انحدرت منها دمعتان، فأنحدر قلبي نحوها. كدت أقوم لأضمّهما لصدري مثلما جرى في خيالي، أو أحيط وجهها بكفّي مثلما كنتُ أفعل مع حمام عَمّي الأبيض.. وهل كانت مارتا إلا حمامة بيضاء هبطت إلى هذا العالم، من فوق السحاب؟ لماذا لم أضمها يومها؟ لقد كانت معذبة تبكي أباهما، تبكي نفسها، تبكي خراب العالم.



سألته في اليوم التالي عن زوجها، فانهمرت من عينها دموع كثيرة وهي تحكى أنها كانت في التاسعة من عمرها، يوم لقي أبوها مصرعه بعد خلافه مع جماعة من قُطّاع الطريق، كان يصنع لهم السيوف. بعد وفاة أبيها بشهرين، أخبرتها أمها أنها ستزوّجها، فلم تفهم من كلمة الزواج، أكثر من أن رجلاً سوف يعيش معهم. كان الزوج قد عبر الخمسين من عمره، وكان أفاقًا يتاجر في السيوف وُعْدَة الحرب، يجمعها من الصُّنّاع في المدن الكبيرة، ويسافر بها إلى بلاد بعيدة في الشرق، فيبيعها إلى جماعة من المحاربين اسمهم الشنكاره.. هكذا قالت!

- تقصدين الشوانكاراه؟

- لا أعرف بالضبط، فقد كنتُ صغيرة جدًا.

- إنهم جماعة من الأكراد، يسكنون، على حدود دولة الفرس. واسمهم مشتق من كلمة الرعاة، التي تُنطق باللغة الكردية: شوانكاراه.

- كيف تعرف هذه الأشياء كلها؟

- لأنني عالجتُ رجلاً منهم، ولأنني رجلٌ هَرِمٌ يكبرك بعشرين عامًا!

- لا يا حبيبي. بل أنت طفلي الصغير، المحبوب.

قامت من فورها، فقَبَلَتْنِي، وانفلتت. كدتُ أحيطها بذراعيّ لولا أنها عادت بسرعة إلى مكانها، وهي تنظر حذرةً ناحية الباب.. اعتدلتُ في جلستي، وطلبت منها أن تخبرني بما جرى مع هذا الزوج الذي كان يكبرها بأربعين سنة! قالت إنه لم يكن زوجًا بالمعنى المعروف، وإنما ظلت عامين معه، لا تعرف معنى الزوجية. حتى كانت ظهيرة ذاك اليوم اللاهب من أيام الصيف. يومها كانت تلعب مع أطفال الجيران خلف البيت، فنادتُها إحدى الجارات، وأخذتها من يدها إلى زوجها. لم تكن أمها بالبيت، كان وحده يجلس على الأرض وظهره للحائط، ولم يكن على جسمه الضخم، إلا جلبابٌ قصيرٌ منحسرٌ عن ساقيه اللتين يغطيهما، كما قالت متقرّزةً، الشَّعْرُ الخشنُ.

امتزج صوتها بألم دفين وهي تُكمل: وقفْتُ بي الجارّة العجوز على باب الحجرة، مُبتهجةً لأمر لا أدركه! ثم اغترفتُ بقدح نحاسي قديم من إناء الماء المجاور للباب، فصببت بعضًا منه في كفها، ومسحت وجهي، ثم فكّت صفائري، وبللت بالماء شعري.. وكان هو يتسم للجارة التي أخذت تشدني نحوه حتى ألقتني في حِجره، فكنتُ مثل عصفور وقع على فخذ ماردي. لما خرجت العجوز صمّنتُ إليه حتى شعرت بأضلعي تتكسر بين ذراعيه، ثم أخذ يتحسّس ثناياي بيده الخشنة. لم يكن بجسمي آنذاك ثنيات كثيرة، فأخذ يعتصر إبطي بأصابعه، ثم مرّ بها على صدري الذي كان بالكاد قد نهّد. كنتُ مستسلمةً، وخائفةً، وملتاعةً لغياب أمي عن البيت.. عَرَاني

تمامًا، ومددني على فخذه العاريين من دون أن يخلع جلبابه، وراح يمر بباطن كفه اليمنى على بطني، وساقني. انتابني إحساس غريب لم أعرفه، فأغمضت عيني واستسلمت له. فجأة، دَبَّ إصبعه فني، فانفجر مني دم. صرخْتُ، وقمت هاربة إلى الباب، فقام ورائي وأمسكني من شعري بيده الملطخة بدمي. ظللت أصرخ بين يديه، حتى ألقاني بقوة في ركن الغرفة، فانكمشتُ هناك ورأسي بين ركبتي. وعلى هذه الحالة نمت، أو أخذتني غيبوبة لم أفق منها، إلا حين جاءت أمي، وأخذتني في حضنها.

- يكفي هذا يا مارتا، يكفي هذا.

- بل سأحكى لك كل شيء، كي تعرف كم ظلمتني الأيام.

حكاية مرثا هذت أركانِي، خاصة بعدما عرفتُ منها أن زوجها لم يكن، على الرغم من ضخامة بدنه، يعاشر النساء! وأنه كان يتلهَّى بها حين يرجع من أسفاره، كلما سنحت له الفرصة.. عندما بلغت الخامسة عشرة ماتت أمها، ومنعها زوجها من الخروج من البيت. كان يغيب في تجارته أسابيع، ويعود ليجد العوبته في انتظاره.

سالت منها دموعٌ بللت صدرية ثوبها، لكنها أصرَّت يومها على حكاية المزيد. ربما لتتخلص مما يجثم على صدرها، أو لأنها أرادت تعريفني بمعاناتها، أو لعلها أحبت أن تشرك غيرها فيما تخفيه هيئتها الملائكية. قالت بعدما مسحت خديها: كانت شفتاه الغليظتان تنفرجان بارتياح وبلاهة، حين أسرع إليه بإناء الماء، لأغسل قدميه المؤطرتين من أسفلهما بقُشْفِ قاس. كانت تلك نصيحة أمي، وكانت تلك عادتي معه كلما دخل البيت وارتمى، متصنِّعًا الإرهاق، على الدكة المبنية من الطين في مدخل بيتنا الصغير المكوّن من غرفتين. بعد أسابيع من اعتياده على فركي لقدميه بالماء، صار يأمرني أن أطيل الفرك حتى ينام! كان ينام جالسًا، ويعلو

شخيره.. بعد أسابيع من اعتياده النوم على هذا النحو، صار يأمرني أن أغلق الباب الخارجي وأعود لجلستي، ويظل يعيث بأصابع قدمه اليمنى في نهدي، حتى يأخذهُ النوم.. وبعد أسابيع من عبثه المقيت بصدري، جاء يومٌ أمرني فيه بأن أتجرّد من ملابسِي وأعود للجلوس تحت قدميه. كان يعيث بإحدى قدميه في ثنايا جسمي العاري، بينما أفرك بيدي قدمه الأخرى.. ظهيرة يوم شديد الحرارة كنت أنشِفُ قدميه، حين دَسَّ إصبع قدمه اليمنى في فمي، وأمرني أن أمصّه! رفضتُ، فدفعني غاضبًا بباطن قدمه اليسرى. ألقنتني دفعته العتية على ظهري، فتمددتُ على الأرض. قَهقهه متشّيًا بصرختي الخافتة، ويعري الصارخ الممدّد تحته.. قام فوقف فبدأ لي لحظتها، كصخرة توشك أن تسقط على من فوق جبل عال. وددت يومها لو يلقى عنه ملابسه ويقع على، فيضاجعني بقوة حتى أموت تحته وأستريح منه. لم يفعل ما تمنيت، وإنما وضع باطن قدمه اليسرى أسفل بطني العاري، وراح يفرك.. ويضحك.

- إنني أشعر الآن بكعبه يسحقني.

- هوّني عليك يا مرثا، واشكرى الرب أن خلّصك من ذاك الرجل غير الصالح.

سكنت برهةً وهي تنظر في اتجاه ركبته اليسرى. راحت بخيالها نحو ذكريات بعيدة، مؤلمة، ورحت أنظر بحنو إلى خديها وأهداب رموشها الطويلة. لما انسال من عينيها خطآن جديدان من الدمع، واكتسى خدّاها بحمرة خفيفة، صار لوجهها سمٌّ بتولّي يُذهب بصفائه العقل، ويعصر القلب. وددت لو أضمتها، لكنني ترددتُ، ثم استسلمت لترددي. آه لو أننى يومها قمتُ، فمسحتُ خديها الناعمين بباطن كفي، ثم ضمنتُ صدرها لصدري، ومسحت بيدي على شعرها وأغمضتُ عيني، ورحتُ أتنفّس الهواء المُطَيَّب بنسيم باطنها.. كانت ستميلُ إلى صدري برأسها،

فأحيطها بذراعي حتى أدخلها فيّ، ونسكنُ.. نثبتُ.. نصير تمثالاً من الرخام الأبيض، تكون فيه آيات للناس.

لماذا لم أحتضنها يومها؟ وبقيتُ ساكنة لا أفعل شيئاً، حتى أكملت هي، وقد صار كلامها همساً، أو كان مثل الهمس.. قالت: كنتُ أتقلى على الأرض من تحته، وأصرخُ، ولما رفع قدمه عنى هربتُ من تحته نحو الباب، ففتحتُه وجريتُ فزعة في شوارع القرية، فزعة وعارية. كانت صرخاتي تملأ الطرقات، وكانت الناس تنظر. أخذتني امرأة إلى داخل بيتها، فسترت عريي بجلباب قديم. في المساء اجتمع الناس، وجاء هو سكران يترنح بيده الضخم.. طلقني لأنني لا أنجب! وطردني من منزلنا. لم يعد لي مكان أعيش فيه، فذهبتُ إلى خالتي هذه في بيتها القديم ببلدة حلب، فأمضيتُ هناك الأعوام الثلاثة الماضية، وهناك تعلمتُ الغناء. ولما ضاقت بنا المعيشة، وكثرت بي التحرشات، تركنا بيت خالتي المتهالك، وجئْتُ معها للعيش هنا.. بجوارك.

- جفّفتُ دموعك يا مرتا، وقومى إلى بيتك قبل مجيئ الصبيبة، فإنهم على وشك الوصول.

- هل ستأتى إليّ، بعد أن تفرغ منهم.

- نعم، سأتى قبل الغروب لأراك عند الكوخ، وسأتى ثانية غداً بعد الشروق. لن يمر بعد اليوم يوم، من دون أن أراك.

لا أعرف كيف وانتنى المرأة على لفظ العبارة الأخيرة. غير أنها سعدت بكلامي، فسعدتُ بابتسامتها ونظرتها الحالمة. قامت لتهندم غطاء رأسها على عجل، وترحل على عجل. عند الباب التفتت نحوي، وبقيت مشدوهاً.

- سأكون في انتظارك، لا تتأخر يا هيبا.

نطقت باسمي، كأنها الملاك الذي سيوقظني يوم الدينونة من موتى، كى أفيق من نومى وأدوب في النور الإلهي. عند الباب، أحكمت غطاء رأسها، وأسدلت على خديها الحجاب الحريري الشفاف، ثم ألقت بطرفه الأيسر على كتفها اليمنى. عادت ناحيتي خطوتين، لتقول بعتاب هامس: سألتك، فلم تجبني عن أى شيء، وسألتني، فأخبرتني بكل الأشياء.

- سوف أخبرك اليوم، بكل ما تودين معرفته..

لما توارت عنى، قمْتُ من فوري لأرقبها من الشق المتعرج الذى فى الجدار، ثم من الكوة التى بين الخزائن الخشبية، ثم من نافذتي الوحيدة. رأيته تصل إلى بوابة الدير، وتتحرف يمينا لتهبط التلة، غابت عن ناظرى شيئاً فشيئاً: قدماها.. وسطها.. رأسها.. لما غابت عنى تماماً، غبتُ عنى تماماً. أخذتني أُمُنياتٌ مستحيلة. وحين انتبهتُ، ورأسى مستند للجدار، حدثت نفسى طويلاً لأُثنيها عما تشناق إليه، وأقلع جذور التوق من قلبى. تمنيتُ أن أموت على حالى هذه، فجأة، فأخلص من حيرتى.

مالَت الشمس، وسمعتُ صوت الصبية القادمين، فتهيأتُ لاستقبالهم، ولم أطل فى تدريبهم. لما انتهتُ منهم أخبرتهم أنه يوم التدريب الأخير، ولسوف نلتقى فى الكنيسة صبيحة أيام الأحد، ابتداءً من بعد غدٍ.. خرجتُ معهم إلى سَفح التلة، وطلبتُ من الشَّماس أن يعود لى، بعدما يوصلهم، عند الحقل الذى حول الكوخ.

كانت مرتا تنتظرني عند الباب فى ملابس منزلية فاتنة، لم تكن ملابسها غير واحدة من تلك الجلابيب التى تلبسها النساء فى هذه النواحي، لكنها كانت فاتنة. استقبلتني عند مدخل الكوخ، ودعتني للدخول، وأكدت خالتها دعوتها، فدخلتُ. قدّمت لنا الخالة مشروباً بارداً، لا أنذكر الآن ماذا كان. لكننى أذكر أنه كان طيب المذاق، وأننى كنتُ أرشف منه، بينما

تنهل عيناى من بحر العسل المنسكب منذ الأزل، فى أحداق مرتا الفاتنة،
الجالسة أمامى على الأرض وقد كشفت فتحة صدر جلابيها، عن انضمامه
نهديها.. التصقت عيناى، فلم أستطع لهما حولا حتى انتبهت مرتا إلى
ذهولى، فضمت فتحة صدرها بكلتا يديها، باسمه، وناظرة بدلال نحوى،
وهى تعض بأسنانها العليا شفتها السفلى.

دارت عيني فى الكوخ. هو غرفة واحدة جوانبها الخشبية غير محكمة
البنيان، ملحق بها غرفة أصغر من دون باب، أظنها لقضاء الحاجات.
أمام الباب مساحة صغيرة من الأرض المستوية، على جانبها الفرن الذى
أعمروه مؤخرا، كان مايزال يتصاعد منه دخان قليل. بجوار الفرن غرفة
صغيرة، حوائطها من الطوب القديم، ومن غير باب. كانت مرتا تنظر نحوى
باسمه هانئة، وكانت خالتها تخرج قذرا صغيرا من الفرن الذى أوشكت
ناره على الخمود، وفاحت منه رائحة طبخ شهى.

- سأذهب إلى الجنود بالطعام!

لما قالت الخالة العجوز ذلك، قامت مرتا من فورها، فأخذت من زاوية
الكوخ سلّة من جريد النخل، ووضعت فيها آنية الطبخ الفواح مستعينة
بخزعة بالية، ومضت خالتها بالآنية بعدما استأذنت منى.. دون أن أسألها،
أجابت مرتا على ماكان يدور برأسى: أفرأد الحامية الرومانية، الحراس
الذين تسميهم خالتها الجنود، اتفقوا معها بالأمس على أن تطبخ لهم كل
يومين وجبة ساخنة، يأتون لأخذها أو تأخذها إليهم الخالة قبيل الغروب!
هم يبعثون باللحم والخضروات وأجر الطبخ فى الصباح، ليهنأوا بالوجبة
فى المساء.. إذ أنهم حسبما قالت مرتا لا يعجبهم الطعام الذى يأتهم من
مطبخ الدير كل يوم!

حين نزلت الخالة بالسلة، كنت جالسا على السرير القصير المترنح،

أستمع لمرتا وهى تخبرنى بخبر الطبخ الذى كنت غير مهتم به. سألتنى إن
كنت جاتنا، فهزرت رأسى نفيا وعيناى معلقتان بها. أدركت مرتا اشتياقى
لها، فأتت نحوى باسمه.. اقتربت من دون أن تقول شيئا، حتى كاد صدرها
يلامس وجهى. لما أحاطت بكفيها رأسى لتميلها إلى صدرها، انتشيت.
ضممتها بقوة وأنا بعد جالس، فتأوهت فى أذنى. رفعت عن ساقها ثوبها،
بكلتا يدي، فأسدلت هى الثوب من عند كتفيها، بكلتا يديها. وقفت مرتا
أمامى عارية تماما، ونثرت بأناملها شعرها، فانخطف قلبى من سطوة
الجمال.. ألقىت عنى ثوبى، وكان بيننا ما يكون بين الرجل والمرأة، حين
يطرحان رداء الحياة.



جلسنا متجاورين من دون أن نتكلم. وبعد حين، جاءت خالتها منادية
عليها من خارج الكوخ، وكأنها تثير انتباهنا لمجيئها. لم تجفل مرتا مثلما
جفلت! ارتديت ثيابى بسرعة، واقتربت من الباب ولهاثى متتابع. لحقت
بى مرتا بعدما ألقت فوقها رداءها، واحتضنتنى من خلفى بتحنان جارف..
خرجنا معًا من باب الكوخ، وكانت خالتها تضع مقعدا صغيرا بلا قوائم،
أمام النول. سألتها مرتا:

- هل كانوا كلهم هناك؟

- نعم، وسألونى عنك.

لما جلسنا الخالة أمام النول، خرجنا من أمام الكوخ؛ لنجلس عند
طرف الأرض المزروعة، حيث نطل على الأفق الغربى الممتد أمامنا،
ولا يطل أحد علينا.. كان المساء قد ابتدأ بهبوطه، وكانت مرتا تترنم بأغنية
هامسة فيها استعطاف للحبيب. نسمات المغيب، كانت ساعتها لطيفة.
لما جلسنا على الأحجار المتناثرة عند حافة المنحدر، اقتربت مرتا منى،

وسألتني عن بلادى الأولى، فأخبرتها بطرف مما جرى معى هناك.. بعد لحظة صمتٍ، تنهدت، وسألتني عن البيت الذى كنتُ أسكنه؟ فقلتُ إنه لابد قائمٌ فى موضعه القديم فوق الربوة المشرفة على النيل، ولابد أنه الآن مغلقٌ وخربٌ، فالمنازل تزوى بعد هجران الأهلين.. غمرتني مرتا بنظرةٍ تفيضُ حُناً ومحبةً، وسألتني بعدما وضعت يدها على كتفى:

- هل الطريق إلى مصر طويل؟.. كم يستغرق الوصول إلى هناك؟

- لو ركبنا البحر، ثم أبحرنا فى النيل، قد نصل بعد شهر.

- هيبا.. تعال لنعمر البيت، ونعيش هناك بقية عمرنا معاً، ونأخذ خالتي معنا فتعنى بأطفالنا، وأفرغُ أنا للعناية بك.

- كيف يمكنُ ذلك؟

- نتزوج.. وتكون إن شئتُ كاهناً لكنيسةٍ هناك، وأنت على كل حال طبيبٌ ماهر، وتستطيع أن تكسب الكثير من عملك. سنعيش معاً أحلى الأيام، ويكون لنا أطفالٌ وبيتٌ جميل.

كانت مرتا معذورةً، فهي لا تعرف أى شئ.. لا تعرف أننى لن أستطيع العيش بين أهل بلدتى الأولى! الأطفال الذين عيّرونى قديماً بما فعلت أُمى، قد صاروا اليوم رجالاً. سيعيروننى بنظراتهم! وهى لا تعرف أننى لن أستطيع العودة إلى نجع حمادى فلا بد أن عمى المريض قد مات الآن، وربما ماتت أيضاً زوجته النوبية. ولا مكان لى هناك، ولا حاجة لهم بطبى!

- هذا الأمر يحتاج إلى تفكيرٍ عميقٍ يا مرتا.

- لا تفكرُ وحدك، دعنا نفكرُ معاً فى حياتنا الآتية. سأكون مخلصاً لك طول العمر، وأُمّاً لأطفالك، ولسوف..

سمعنا صوت الشَّمَّاس يحدث الخالة العجوز وهو مقبلٌ نحونا بحثُ الخطى، فانقطع بيننا خيط الكلام. قامت مرتا من جانبى، وجلست على الأرض، ولما وصل إلينا الشَّمَّاسُ قُمنّا.. مررنا بين شتلات الأعشاب صاعدين إلى بوابة الدير، وهناك فارقتنا مرتا، ونزلت إلى كوخها، دون أن تسنح لى الفرصة للنظر نحوها. كان الشَّمَّاسُ جائعاً، فمضيتُ معه إلى صالة الطعام، وساعدنا خُذَّام المطبخ فى إعداد المائدة، وسط تمتعات شكرٍ منهم. كنتُ أيضاً جائعاً. أكل الشَّمَّاسُ بسرعة، ثم قام من ركن القاعة قاصداً غرفته لينام. هذا ما قاله لى! وكان علىّ بالطبع، أن أنتظر وصول الجميع.. تقاطر الرهبانُ كسلاحف تعرف بالكاد طريقها، وبعد حين دخل رئيس الدير وحوله ثلاثة رهبان، وعند دخوله صاح بأسى، على غير عادته:

- مساؤكم مبارك يا أبناء يسوع.. اقربوا لنبدأ الصلاة.

قرأ رئيسُ الدير صلوات المساء، فلم أُنْتبه من استغراقى فيما جرى مع مرتا، إلا حين قال الجمعُ وراءه بصوت واحد: آمين.. سألتُ نفسى ساعتها: أترانا نرددُ فى كل صلواتنا، اسم الإله المصرى القديم، آمون، مازجين فى اسمه بين الواو والياء؟.. وسألتُ نفسى: لماذا تعود إلى مصر دوماً أصولُ الأشياء كلها، لا أصول الديانة فحسب؟.. وسألتُ: لماذا لا أعود إلى بلادى الأولى للعيش هناك، ما دمْتُ لم أعد صالحاً لحياة الرهبنة!

اعتراانى حنينٌ مفاجئٌ إلى النيل الممتد كذراع الإله فى الأرض، وكأن دلتاه كُفَّه وأصابعه. تذكرتُ المركب الشراعى التى حملتنى على صفحته، وهجوع النجوع والقرى على ضفتيه، وميل فروع الشجر إلى حافته، والخضرة الممتدة بالحقول إلى نهاية البصر، وهياج العصافير بالأهازيج

ساعة الفجر وعند الغروب.. آه يا مصر البعيدة. كادت دمعَةٌ تفرُّ من عيني، وكاد الحنينُ يأخذني ممن حولي.. بعد العشاء المفعم بهمهمات الرهبان، استعد الجميع للعودة إلى صوامعهم. عند خروجنا، أشار إلىَّ رئيس الدير كى أقرب منه، ففهم الآخرون أنه يريد الانفراد بى. حُثُوا خطاهم نحو الكنيسة، فسبقونا بمسافةٍ تسمح بانفرادنا:

- أراك الليلة شاردًا يا هيبا؟

- إننى مشغولُ البال يا أبتِ، أشعر بالحنين يجرفنى.

- هذا يا ولدى قلق الروح، يثور ثم يهدأ.

- لم أعد يا أبتِ أطيق هذا القلق الدائم، فحياتى لا تهدأ بمكانٍ، ولا تستقرُّ على حال.

- أنت قلقٌ مما يحدث فى القسطنطينية؟

- وما الذى يحدث فى القسطنطينية يا أبتِ؟.. هل وقع مكروهٌ للأسقف نستور؟

- لا يا ولدى، ليس بعد. وبمشيئة الرب ستهدأ الأمور، ولن يصيبه أى مكروه، بمشيئة الرب؟

- يا أبتِ، لقد زدت من قلقى.. فما الذى يجرى؟

- لقد وافق الإمبراطور على طلب كيِّرُلُس عقد اجتماع لرؤساء الكنائس فى العالم، للنظر فى عقيدة الأسقف نستور. وسوف يُعقد الاجتماع قريبًا فى مدينة إفسوس.

أطرق رئيس الدير وراح يتمتم بدعاء، وقد أسند جانب وجهه إلى أعلى عصاه. رأيتُ الهَمَّ يجلله، ولا رغبة له فى المزيد من الكلام.. نائها،

سرتُ خطوتين مبتعدًا عنه. ثم انتبهتُ لأمرٍ، فعدت إليه لأقول بلسانٍ مضطرب، وذهنٍ شارد:

- يا أبتِ، هل نبدأ الترتيل فى قُدَّاس الأحد، بعد غدٍ.. أم يجب..

- لا يا هيبا، علينا تأجيل هذا الأمر، فالوقتُ لم يعد مناسبًا لذلك.

قال رئيس الدير ذلك، من دون أن يرفع رأسه، أو ينظر نحوى.. فمضيتُ عنه إلى تيهٍ سحيق.

الرَّقُّ السَّادِسُ وَالْعَشْرُونَ

وُقُوعُ الْمَحْظُورِ

لم أَرِ مرَّتين يوم السبت بطوله، كنتُ مشغولاً بخادم المطبخ الذي أجريته له في الصباح الباكر جراحةً تحت إبطه، لبَطُّ خُرَّاجٍ كبيرٍ كنت أداويه في الأيام السابقة بالمرهم الأسود المشهور، وكان أوان فتحه قد حان. ظننتُ أولاً أنها جراحةٌ بسيطة، لن تطول؛ لكنني وجدتُ الرجلَ ضعيفَ البنيان والصديدَ توغَّلَ إلى صدره. نزف كثيراً، حتى كاد يهلك بين يدي؛ لولا رحمة الرَّبِّ. بقيتُ طيلة النهار أسوسُ جرحه، حتى أخرجتُ منه كُلَّ القيح، وضمَّدتُه بمضادات القروح.. لما نزلت من صومعتي، بعد اغتسالي، كانت الشمس قد غابت. وكان من غير اللائق، أن أمرَّ على مرَّتين في كوخها، بعد الغروب.

في صلاة التسبيحة، كنتُ مستغرقاً بين الوجد والترقُّب وحالات التماوج الباطني.. لما خرجنا من الكنيسة، كان الراهبُ الفِرَّيسي يسير بجانبى، بخطى متثاقلة. في وسط الساحة الصغيرة، سألتُه إن كان يودُ المجيئ معي إلى المكتبة، فوافق من دون حماس. بينما كنتُ أفتح أمامه الباب، سألتُه إن كان يعرف مزيداً من أخبار المجمع المقدس المنتظر

انعقادُه، فقال باقتضاب إن الأسقف كيرُّلس وصل إلى بلدة إفسوس، ومعه الراهبُ الأخميمي الشهير، شنودة رئيس المتوحِّدين؛ على رأس وفدٍ مصريٍّ كبير، فيه قسوسٌ ورهبانٌ سكندريون، ومؤمنون كثيرون. وهم ينتظرون الآن وصول أسقف روما، والإمبراطور، ليبدأوا المجمع.. أضاف، متردداً، أن أساقفةً كثيرين وصلوا من أرجاء المسكونة، ولكن الأسقف يوحنا الأنطاكي نزل إلى مدينة حلب منذ يومين، وهو ينتظر حاميةً رومانيةً لتصحبه إلى هناك، فالطرق إلى إفسوس غير آمنة هذه الأيام.

ـ الطرق، أم أن إفسوس ذاتها غير آمنة؟

قلتُ ذلك، وأنا أمدُّ نحوه كوباً من مشروب الخروب المحلَّى بسُكَّر الفانيد، فأخذه من يدي، دون أن يرفع وجهه ناحيتي. بعد هنيهة قال:

ـ لا أعرف يا هيبا، لا أعرف. لاتجرّني إلى كلامٍ لا أحبُّ أن أقوله!

على غير العادة في مثل هذا الوقت من السنة، كان هواء الليل بارداً. سألتُ الفِرَّيسي إن كان يود أن أوقد بعضاً من الخشب والأغصان الجافة في المدفأة، أعني ذلك الطست النحاسي، الذي نجتمع حوله في أيام الشتاء مستمتعين بما يشعُّ من دفئه. وافق بإيماءةٍ من رأسه. لما تصاعد اللهبُ من الطست وطقطقت حوافُّ الأخشاب، كنتُ مستغرقاً تماماً فيما قاله لى رئيس الدير بالأمس بعد العشاء، وما قالت لى مرَّتين عند حافة المنحدر، قبيل الغروب.. قطع الفِرَّيسي صمتنا العميق، بأن قال بعدما تنهَّد: سيكون المجمعُ عاصفاً، وسوف يطيح بالأسقف نسطور.

أزعجتني عباراته، وبددت صورة مرَّتين التي كنتُ أراها بين ألسنة اللهب المتراقصة. أثرت الصمت حتى أتيتُ له ما يحبه من الإفاضة في الكلام، كلما وجد مستمعاً جيداً، وقد رجوتُ أن يخرجني كلامه، مما كنتُ هائماً فيه. صَحَّ الصمتُ معه، فأفاض كما توقعْتُ.. راح يرسم في الهواء كلماته،

على عادته كلما انهمك في الحكاية. بدا وكأنه يحدث أناساً آخرين، غيرى. لم يكن، حتى، ينظر نحوى وهو يقول بمراة: إنكم لم تصدقونى حين قلت لكم إن خلافتنا حول طبيعة المسيح، هو جوهر ديانتنا. وأن الجوهر ذاته دقيقٌ ومُشكّلٌ، ويندر بالانشقاق والفرقة. الرهبان هنا كانوا يستخفون بالأمر، ورئيس الدير حظر الكلام فيه، والقسوس فى أنطاكية عَنقُونى، وأنذرونى بالحرم والطرْد، إن كتبت الرسالة التى كنت أنوى تأليفها. ولم يسمحوا بعودتى إلى هنا، إلا بعدما أعطيتهم موثقاً غليظاً، بعدم الخوض ثانيةً فى أمر الأَقنوم. مع أن الكلَّ مختلفون فى هذا الأمر. المصريون مصرّون على أن الله تجسّد بكامله فى المسيح، من يوم صار بطن أمه. فلا انفصال فى المسيح بين الألوهية والإنسانية، فهو إلهٌ وربُّ كاملٍ تامٍّ، ولا ناسوت له مستقلاً عن اللاهوت. عبارات الأسقف كيترلس فى رسالته الأخيرة، حاسمة: جسد المسيح لم يتحوّل إلى طبيعة إلهية، ولم يتحوّل الله إلى طبيعة الجسد، حتى حين كان المسيح طفلاً مقمّطاً.

التفت الفرّيسى نحوى، وكأنه اكتشف وجودى. نظر ناحيتى، كأنه يرى شخصاً آخر يحتجب بداخلى. للفرّيسى هذه النظرة الغريبة، التى تُربك من لا يعرفونه. رفع حاجبيه فاستعت عيناه الواسعتان، وأزاح غطاء رأسه، فبدت صلته اللامعة.. مسح جبهته بباطن كفه، وقال: أنظر يا هيبا إلى قوة تعبير الأسقف كيترلس حين يقول: كلمة الله اتّحد أقنومياً بالجسد، فهو إلهٌ الكلُّ وربُّ الجميع، وليس عبداً لنفسه ولا سيّداً لنفسه، هو مثلنا مولود تحت الناموس، مع أنه أعطى الناموس، كإله.. هو أقنومٌ واحد، شخصٌ واحد، طبيعةٌ واحدة، إنسانٌ وإلهٌ، ابنٌ وربُّ.. وحيث إن العذراء القديسة ولّدت جسدياً، الله متحدًا بالجسد حسب الأَقنوم، فهى والدة الإله.. الأسقف كيترلس بليغٌ جدًّا يا هيبا، ويعرف ما يقول، وهو لن يرجع أبداً عما قاله. ولن يرجع الأسقف نسطور أيضاً، عما يعتقد من أن الله اتخذ

يسوع مجلى له، ومن أجل الله غير المنظور نسجد نحن للمسيح المنظور، مدركين أنه شخصان. هما بحسب قول نسطور: المسيح الأخذ الذى هو كلمة الله، والمسيح الإنسان المأخوذ الذى يدعى باسم الذى اتخذه.

بحركة غير إرادية، مدَّ الفرّيسى يديه ناحية اللهب مستدفئاً، وفرك بأصبعه باطن كفّه وهو يضيف: الأسقف نسطور يعتقد فيما سمعه من الأسقف تيودور المفسّر، ومن غيره، فيؤكد تجلّى الله فى المسيح الإنسان! فكيف يمكن أن يتفق الفريقان، وقد سار كلُّ منهما فى الناحية المقابلة للآخر. وكلما ساروا وراء ما يعتقدون، تعمقوا فى اختلافهم أكثر واتسع البون بينهما.. وحتى لو اتفقوا حول طبيعة المسيح، فإنهم سوف يختلفون حول أقنوم روح القدس، الغامض المحيّر. ولن يعتقد أحدهم، بغير ما اعتقده سلفاً. فلا يبقى هناك إلا المواجهة، ومن ثمّ الاحتدام، ثمّ الحرب.. الحرب يا هيبا رويح يسرى فى الناس، يغمرهم، يحتقن فيهم ويمرور، فلا يهدأ حتى ينجّهم، ويُثبب بينهم النزاع فيفسلون، وتذهب ريحهم وتمترّق روحهم.. الحرب.. هل كان يسوع المسيح يقصدها، حين قال إنه جاء ليُلقي فى الأرض سيفاً؟

حدّق الفرّيسى فى النار التى تأجّج لهيبها، وبدا كعرّاف مجوسىّ يستطلع الغيب من هيئة اللهب.. بعدما صمّت لوهلة، اكتست عيناه بغلافٍ من الدمع الرقيق الذى تجمّع فوق جفنيه، ثم انسرب منه خيطان سريعان مرّاً بخده المتنفخ وتوغلا فى شعر لحيته.. حسبته انتهى من كلامه، غير أنه مسح وجهه بطرف كُمّه، وراح يقول وقد صار صوته متهدّجاً، على غير العادة: الديانة كدّين فادّيح، لا يمكن لأحد أن يوفى به. ديانتنا تدنيننا. تدنين من دان بها، بأكثر مما تدنين غير المؤمنين. وتدين أيضاً غير المؤمنين! الكل مدان، الكل ضال، والآب السماوى أقنومٌ مفارقٌ محتجبٌ خلف هذه الاعتقادات كلها. وهو لا يظهر لنا بتمامه، لأننا لا نقدر على الإحاطة بظهوره التام. هو

فوق لفظ الأَقْنوم، وفوق كلمة الطبيعة، وفوق إدراكنا. هو بعيدٌ عنا، ونحن بعيدون عن بعضنا، لأننا جميعًا مرهونون بأوهامنا. الأَقْنوم ذاته وهمٌ غامضٌ، اخترعناه وصدّقناه واختلفنا فيه، ولسوف نحارب بعضنا دوماً من أجله. وقد يأتي يومٌ، يكون فيه لكل إنسان اعتقاده الخاص المختلف عن اعتقاد غيره، فتتمحى الديانة من أساسها وتزول الشريعة.. ويومها.. هل سيكون.. سأقومُ إلى صومعتي! (١).

تركنى الفريسي فجأةً، وكأننى لم أكن معه أصلاً، ولم يهتم بإغلاق باب المكتبة وراءه.. كان أنيى الحصى تحت أقدامه، يخفّ مع ابتعاده وتوغّله فى قلب الليل. غمّ السكون حولى، وصرتُ وحيداً جداً، ومستوحشاً.. أغلقتُ بابي، وأزحمتُ عنى غطاء رأسى. وبالقرب من الجمر الدافئ، تمددتُ وقد ألصقتُ ظهري بالأرض ومددتُ ذراعى بطولهما.. وأخذنى نومٌ يشبه الإغماء.



أيقظنى صخبُ العصافير فجراً، غير أننى بقيتُ ممدداً على الأرض. كنتُ كالذى أب من سفرٍ طويل، ويوشك على الخروج لسفرٍ أطول.

(١) فى طرف الرق، تعليقٌ طويلٌ من تلك التعليقات المكتوبة بالقلم الدقيق، باللغة العربية، منه الفقرة التالية:

يظهر لى أن هذا الراهب المسمى بالفريسي، كان مباركاً حقاً؛ فقد مرت علينا الآن، ألف سنة من الحرب بين الكنائس.. وما خروجي من بلادى الشرقية، إلا بسببها. ومعروف، أن أنهار الدم تدفقت فى الإسكندرية، بعدما نتجّ أسقفها كيرلس، وأمعن أهل الصليب فى تخريب المدينة، وقتل غير المسيحيين من اليهود والوثنيين. بل ثار الإسكندرانيون على أسقف مدينتهم بروتيريوس، ومزقوه إرباً وأحرقوا جثته.. وقاتلوا أيضاً أسقف الإسكندرية طيموثاوس؛ وكان قُتل كثيرٌ بهذه المدينة العظمى.. ثم انزوت اليوم أخبارها، بعد وقوعها فى قبضة المسلمين.

استجمعت قوتى لأنهب، فلم أقدر. أخذتنى وسناتٌ متقطعةٌ بلا أحلام، حتى دقّ بابى طارقٌ، ظننته أول الأمر خادماً من خُدّام الدير، ثم عرفت بعدما فتحت الباب، أنه حارسٌ من أفراد الحامية الرومانية:

- العجوزُ تريدك عند البوابة!

أية عجوزٍ تلك التى تريدنى، فى هذا الوقت الباكر؟ خرجتُ قلّقا، فرأيتُ خالةً مرتاً فى غبش الفجر، جالسة على الحجر المربع المجاور للبوابة. كانت تضع حول كتفيها قطعةً من صوفٍ قديم.. لما اقتربتُ منها، قامت متأدبةً وهمتُ إلى تقبيل يدي. تركنا الحارس وهبط التلة، كأنه سوف ينزل إلى مقر الحامية.. جلستُ على الحجر المربع المنقوش، وجلستُ العجوز على الأرض. كان الهواء بارداً، حتى أن كتفى أخذتا ترتجفان:

- ما الذى جاء بك مبكراً يا عَمّة؟

- أريدك فى أمرٍ مهم.

كان أمرها المهم، عجيئاً. فالعجوز تريدنى أن أقنع مرتاً، بالعودة إلى حلب للغناء هناك؛ إذ المعيشة هنا صارت صعبةً، حسبما قالت، ولابد من الاستعانة عليها بما سوف تكسبه من الغناء.. أدهشتنى العجوز حين أضافت:

- ما دامت مرتاً لن تُرتّل فى الكنيسة، فلتذهب للغناء فى حلب.

كيف عرفتُ العجوزُ أننا أرجأنا الترتيل؟ رئيس الدير أخبرنى بذلك مؤخراً، فكيف بلغها الأمر بهذه السرعة. لابد أن أحداً من سكان الدير يزورهم، أو لعل رئيس الدير أخبر الكاهن قريبهم، فأخبرهم.. لم أشغل بالى بمن أخبرهم، فقد كان الأهم ساعتها عندى، هو أن مرتاً قد تذهب إلى حلب، كى تغنى فى الأمسيات لأراذل التجار العرب

والأكراد.. والمطلوب منى، أن أدفع بعصفورى الوحيد، إلى قفص القطط المتوحشة! قلتُ:

- لكن مرتا أخبرتنى أنكما تعملان على النول، وتطبخان لعسكر الحامية.

- هذا كله غير مربح يا سيدى، فلا أحد يشتري غَزْلَنَا، والعجنودُ بخلاف.

استوقفنى قولها يا سيدى! فهى لم تقل يا أبت، ولم تعد تحدثنى من خلف حجاب الحياء، مثلما كانت تفعل من قبل. فهل حدثها مرتا بما وقع بيننا؟ ولماذا تشكو العجوز الآن، شظف العيش وقلة الحيلة؟ وكيف جرؤت أن تأتبنى قبل طلوع الشمس، لتسألنى فى أمر كهذا..

- قومى إلى بيتك يا عمّة، وسوف أكلم مرتا فى الأمر، بعد الظهر.

أردتُ فسحةً من الوقت للتفكير، ولم أشأ أن تشعر العجوز باضطرابى. قمتُ من فورى إلى الكنيسة الكبيرة، لمشاركة الرهبان فى الإعداد لصلوات يوم الأحد. قبل دخولى الكنيسة، التفتُ إلى ناحية البوابة المهذّمة، فرأيتُ العجوز جالسةً فى موضعها، والحارس الذى دَقَّ بابى، يصعد التلة ثانية.. وقفتُ برهةً أنظرُ من بعيد، فرأيت الحارس يصل عند العجوز ويجلس على الحجر، حيث كنتُ جالساً قبلها بقليل.

من بين أحجار سور الدير، رأيتهما يتحدثان، ولم أستطع لبعد المسافة أن أسمع ما يقولانه لبعضهما. غير أن جلسة الحارس كانت لافتة للنظر، فهو منهمكٌ فى الحديث وكأنه يوصل كلاماً كان بينهما ثم انقطع. كان يميل ب صدره للأمام، وقد أسند كوعيه على ركبتيه، وراح يحرك يديه بما يدل على اهتمامه بما يحكيه. وكانت العجوز تومئ برأسها، وكأنها توافقه

على ما يقول. كدتُ أعود إليهما لأستجلى الأمر، لولا أن سمعتُ أقداماً تطأ الحصى، قادمةً نحوى.

- صباحك مبارك يا هيبا.

كان الفرّيسى بوجهه المنتفخ وقد ازداد انتفاخاً، واكتست عيناه حمرةً دالة على أنه لم ينم ليلته. عاتبته بألفاظٍ رقيقة على رحيله المفاجئ الليلة الفائتة، فاعتذر لى باضطراب حاله. سألتُه إن كان يعانى من مرض فى جسمه، فقال متذمّراً: بل أعانى كل أعراض أمراض الروح! مضينا بخطى متثاقلة حتى دخلنا الكنيسة الكبيرة من بابها الداخلى.. كان الوجوم يخيم على المكان، ويكسو وجوه الرهبان كلهم.

بعد انتهاء الصلوات وانصراف الرّوّار، نزلتُ إلى كوخ مرتا وناديت عليها، فلحقت بى عند طرف الأرض المغروسة. المكان هناك أهدأ، وأليق بجلوسنا حيث لا أحد يرانا. نظرتُ طويلاً إلى وجهها، مستطلعاً ما تخفيه ملامحه البريئة، فلم لم أر شيئاً. سألتها عن الحارس الذى كان يحدث خالتها فى الصباح، ورجوتها أن تصدقنى القول وتخبرنى بحقيقة الحال..

- هو يريد أن يتزوّجنى.

- كيف؟

- مثلما يتزوّج الناس يا هيبا. يقول إنه جاء منذ شهرين فقط، وسوف يظل هنا أعواماً، ولا بأس لو اتخذ زوجة.. وهو يريد أن يقيم معنا فى الكوخ، أو نستأجر لنا منزلاً فى القرية.

ولكن..

- أنا لا أريده يا هيبا، أريدك أنت.. فإن أبعدتني عنك، فسوف أعود إلى حلب. فالحياة هناك على صعوبتها، أسهل من هنا.
- ومن أخبر خالتك بتأجيل الترتيل في كنيسة الدير؟
- الحارس الروماني الذي طلبني للزواج. إنه يوناني الأصل، في الثلاثين من عمره، واسمه..
- لا أريد أن أعرف.

كنتُ أشعر بضيق شديد يجثم فوق صدري، وكانت مرتا تنظر إلى السهول البعيدة، شاردة البال. بعد لحظة صمتٍ مديدة، قامت مرتا فجأة لتجلس بجواري. وحين وضعت كَفَّها على كتفي، تلفتُ حولي خشية أن يكون هناك مَنْ يرانا. لم يكن حولنا أحدٌ، إلا حمامةٌ جبليةٌ تنبش الأرض بمنقارها.. من داخلني انبعث صوتٌ هامسٌ، يدعوني لوضع يدي على فخذها والغيابُ معها في سكرةٍ من سكرات العشق، ثم الإبقاء عليها بجانب بقية العمر. كان الصوتُ الهامس ذاته، الذي عرفْتُ بعدها بأسابيع، أنه صوت عزازيل. كان يستعطفني بنداءٍ باطني عميق: لا تفقدِ مرتا، مثلما فقدت أوكتافيا قبل عشرين عامًا.

- لم يكن صوتي يا هيبا، كان ذاك نداءً روحك.
- عزازيل، لا تشوش عليّ، دعني أكمل الكتابة. فقد صار وقتي ضيقًا، وصدري، فسوف أرحل عن هنا بعد أيام.
- طيب، سأسكتُ وأسكنُ تمامًا.. لكنه لم يكن صوتي.



مضى الآن قرابة شهرين على جلستي الأخيرة مع مرتا، عند طرف الأرض المغروسة بالبذور. كان الأوان عصراً. لم أستجب ساعتها للنداء

الذي انبعث من داخلني، داعيًا أن أضع يدي عليها وأنهل من غسل العشق. غير أنني كنتُ أفكر، فيما سيؤدي ذلك إليه.. سوف أتعلقُ بها أكثر، وتعلقُ بي، والمفترض في أنني قطعُ علاقتي مع المظاهر الدنيوية، فما بالك بالعلاقة مع امرأة.. لكن مرتا لم تكن مثل كل النساء، كانت أقرب إلى الطفولة والملائكية. فكيف سأتركها لأحضان هذا الحارس الروماني، يوناني الأصل، الذي لم أعرف اسمه. كيف سيفهمها مثلما فهمتها، وكيف ستحبه مثلما تحبني؟ وهل سترتخي له يومًا، وتشدو على سريريه بأغنياتها الهامسة؟ مرتا ليست مثل كل النساء. لكنها لو ذهبت للغناء في حانات حلب، وسط السكاري من أراذل التجار العرب والأكراد، فلن تكون إلا امرأة هابطة، تتقاذفها أحضان الرجال العابرين. لقد أمضتُ مرتا سنوات وهي تغني هناك، ولم تذكر لي شيئًا مما جرى معها تلك الأيام، وأنا لم أسألها.. أم تُرى خالتها تحتال عليّ بالأمر كله، لتدفعني إلى الهرب بها والزواج منها؟ وكيف لي أن أتزوج، بعدما أمضيتُ حياتي كلها راهبًا؟ عشرون عامًا قضيتها في الرهبنة، سأقدمها مهرًا لفتاة في العشرين من عمرها، وبعد عشر سنوات أصير هَرَمًا في الخمسين من العمر، وتصير هي امرأة جميلة في سن الثلاثين، تصبو إلى الرجال، وترنو إليها العيون الطامعة، وقد تمتد نحوها الأيدي. هل سأقضي معها السنوات الأخيرة من عمري حارسًا لها، منها؟.. هل سينتهي بي الحال حارسًا لامرأة، بعد حياة تقلبتُ فيها أحوالي، حتى أنني ما عدتُ أعرف لي وصفًا محددًا: هل أنا طبيب، أم راهب، أم مكرس، أم ضائع، أم مسيحي، أم وثني..

كانت مرتا جالسة يومها بجواري، وقد أخذتني تلك الأفكار من جوارها. حتى إذا استطالَت سكوتي، لمستُ بأناملها ظاهركتي، وأخرجتني من تردد أفكاري بقولها، بغتة فائقة العذوبة:

- هيبا، خذنى معك إلى بلادك الأولى.. نتزوج ونبقى طيلة عُمرنا هناك.

- هل صحيحٌ ما قالته خالتك، من تبتك الغناء فى حلب؟

- هى تريدُ ذلك، وأنا لا أريد إلا أنت.. فهيا نرحل عن هنا.

- كيف يا مرتا، كيف؟ الناس فى بلادى أغلبهم مسيحيون.

- وما شأنهم بنا، نحن أيضًا مسيحيون.

- زواجنا محظورٌ فى ديانة المسيح.

- محظور!!

- نعم يا مارتا محظورٌ، ففى إنجيل متى الرسول، مكتوبٌ: مَنْ يَتَزَوَّجْ مطلقاً، فهو يزنى.

- يزنى.. وما الذى كان بيننا بالأمس فى الكوخ؟ ألم تكن هناك نزنى.

انسَلَّتْ مرتا من جانبي، مثلما تنسحب الروح من بدنٍ نحيل، أنهكتها العليلُ المزمنة. لم أنظر ناحيتها وهى تفارقنى إلى كوخها، ولم أتحرك من موضعى، إلا حين أثنانى الشَّمْسُ ليدعونى إلى صومعة رئيس الدير.. قال إنه يريدنى فى أمر عاجل. كانت ساقاى فى خَدَرٍ، فكدتُ أقع على الأرض حين وقفتُ، لولا أننى استندتُ إلى ذراع الشَّمْسِ.. صعدنا إلى الدير من الممر الذى يعلو الكوخ، كى لا ألتقى بخالة مرتا العجوز. كنتُ منهكاً.. لحظة دخلت على رئيس الدير، كانت حباتُ العرق تنحدرُ من جبهتى، وتنسربُ تحت طيات ملابسى مثل خيوط المطر.

الرَّقُّ الثامن والعشرون

المرزبة

دخلتُ على رئيس الدير من باب صومعته الموازب، فوجدته مستغرقاً فى صلاةٍ عميقةٍ أخبرنى بعدما انتهى منها، أنها كانت من أجل نسطور.. أضاف أنه سيدعو أهل الدير وكل المؤمنين المقيمين حولنا، إلى صوم أسبوعٍ تتوالى فيه القُدَّاسات والصلوات، ابتداءً من الليلة، لاستئصال الرحمة الربانية من أجل أهل الديانة، وكشف الغمة عن الكنائس الكبرى. استغربتُ ما قال، فذكر لى ما بلغه من أن الأسقف كيرلس وأسقف أورشليم وجماعة من الأساقفة والقسوس، قرروا عقد المجمع المسكونى غداً، برئاسة كيرلس.. ونسطور لا ينوى الحضور!

بعد لحظة صمتٍ دارت فيها رأسى، وتهدَّجت أنفاسى. قال رئيسُ الدير إن يوحنا أسقف أنطاكية، نصير نسطور فى محنته، أرسل إلى الأساقفة والقسوس المجتمعين بإفسوس، يُعلمهم أنه سيتأخر أياماً بسبب خطورة الرحلة.. أضاف: الرحلة خطيرةٌ فعلاً هذه الأيام، فالبِحُر هائجٌ والطريقُ البرئى غير آمن.. قُطَّاع الطرق نشطون، والاضطراب يعُمُّ النواحي.

تزايد العرق المتصّيب من جبهتي، واعترتني رجفات خفية ودواؤ. لم استوضح من رئيس الدير عن المزيد، لكنه أكّد أن الكلّ متوجّس مما سيحدث في إفسوس، أما هو فمرتأخّ.. ذهلتني كلمات رئيس الدير عن الرد، وصرتُ موقفًا تمامًا بأن هول الإعصار قادمٌ. فقد عشتُ في الإسكندرية سنين، وعرفتُ، في ذلك الزمان السكندري البعيد، كيف تهبُّ أهوال الأعاصير.. لم أسأل رئيس الدير عن الطريقة التي تصله بها الأخبار، وإنما سألتُه إن كانت أخباره هذه مؤكدة؟ فأومأ برأسه أسفًا. ثم قال إنه يريد أن يبعث معي برسالةٍ إلى مطران الأبرشية بحلب، تتعلّق بما يجري في إفسوس.

لما نطق رئيس الدير بكلمة حلب، انتزعني من أمامه الأفكار، ودارت رأسي تحت دقات التساؤلات: لماذا تحوطني حلب فجأة، وتحاصرني من كل الجهات.. تترصد روعي.. تسلبني.. تطيح بي، وبكل ما حولي.. حلب الحوانيت التي تنادي على مرتا، وتخيلها فتخيلني.. وحلب الأبرشية التي يزداد غليانها، مع النيران الهائلة في إفسوس.. لماذا يختارني رئيس الدير ليعت معي برسالته؟ ولماذا يرسل حلب الآن؟ أم هي رسالة للأسقف يوحنا الأنطاكي؟ ما هذا الذي يجري من حولي..

أعادني رئيس الدير إلى حضرته، بأن قام من جلسته وهو يقول إنه سيكتب الليلة رسالته، ويمكنني الخروج بها فجر غدٍ، بعد القدّاس.. استأذنته في الذهاب لصومعتي، على أن ألحق به بعد ساعة في الكنيسة.. لما خرجتُ إلى الساحة، كان الرهبان منهمكين في الإعداد لشئ لم أتبيّه. لم أكلم أحدًا في طريقي، ولم تكذ ساقاي تحملاني حين ارتقيت الدرج.. أغلقتُ باب صومعتي، ولم أسرج الفتيلة. جلست في الظلام حينًا، ثم تمددتُ على ظهري، دون أن أبسط على الأرض ذراعي.. أغمضتُ عيني، فرأيت مرتا غير باسمه. غطيت وجهي بذراعي، فرأيت أوكتافيا وهـ

تموت.. ثم رأيت نسطور يسير مطرّقًا، وحوله جنودٌ عابسون.. ثم رأيتني وحيدًا، فوق جبل قسقام.

نهضتُ من رقتي، وقد ملأني خوفٌ لم أعرف له مصدرًا. سألتُ نفسي: أيجب الذهاب الآن للكنيسة، كي أشعر ببعض الأمان؟ لا بد أن الصلوات الليلية ابتدأت.. البقاء مع الجماعة يبّد الفزع، ولا شئ يثير الخوف مثل الانفراد. أم أذهب لكوخ مرتا القريب، وأصلح ما انكسر بيننا، ثم أتوسّد الأرض تحت سريرها؟.. هل تنام مرتا على السرير الذي ترنّح بنا قبل يومين، أم هي تفتش الأرض مثلي؟.. أنا لا أعرف الكثير عنها.. لم أرها من الداخل، ولم أراي شئ من داخله، أنا أطوّف دومًا بظاهر الأشياء ولا أغوص فيها. بل أراني أخشى الغوص في باطني، لكي أعرف حقيقة ذاتي الملتبسة.. كل ما فيّ ملتبش.. عمادي، رهبتي، إيماني، أشعاري، معارفي الطبية، محبتي لمرتا.. أنا التباس في التباس! والالتباس نقيض الإيمان، مثلما إبليس نقيض الله.



كانت ليلتي ليلاء. وفي قلب الليل البهيم، كنتُ أتقلّى فوق لهب الأفكار الغريبة، النزقة.. وددتُ لو ذهبتُ إلى كوخي مرتا، ودسستُ نفسي في حضنها. أو أعتلى العمود الذي يلقي رئيس الدير عظامه للشعب من فوقه، ثم أشرع ذراعي في الهواء، وأستجمع ذاتي وأطير إلى نسطور. لا بد أنه يصلّي الآن منفردًا، ولا بد أنه سيفرح لرؤيائي.. وددتُ لو عدتُ طفلًا في زمن قديم، وكانت لي أمٌ غير التي كانت، وأبٌ آخر يشبه أبي الذي كان، عائلة كبيرة تفتخر بي، كلما قلّت شعرا جديدًا.. وزوجتان تُحبّانني، إحداهما مثل أوكتافيا، والأخرى تشبه مرتا.. أو أكون مثل ذكور الحمام الجبلي، بسيطا وطاهرا، أحظى لحظةً بمن اقتربت مني، ثم نظير..

راحت الأفكارُ النزقة تسحبني نحو السرب المظلم الذى بجوف النفوس، وتبقيني فى قعر هاويةٍ سحيقة، لا رجوع من عندها. شعرتُ ببرْدٍ يغوص فى عظامي، فسحبْتُ المقرش الخشن الذى كان مطويًا فوق الطاولة، ووضعتُه فوق كتفيَّ.. خرجْتُ من الصومعة قاصدًا الكنيسة، فمررتُ عليها، ولم أدخلها. مضيتُ ثقيلَ الخطوِ إلى ناحية بوابة الدير. كانت هيئة النجوم فى السماء تدلُّ على اقتراب الفجر، وكان الظلام يلفُّ الكون كله، ويلقُّني. لم يكن عند البوابة أحدٌ من أفراد الحامية الرومانية، ولا كلبهم كان هناك.. نظرت ناحية كوخ مرتنا، وعادتنى الأمانى المستحيلة والمخاوف المفرطة.



طالت جلستى عند بوابة الدير، وتناولت على الأفكار. غالبتها حتى ضعفتُ عن دفعها، فتركها تجتاحنى. أبحرتُ إلى عوالم بعيدة، وراء هذا العالم. غُصتُ فى أزمنةٍ سحيقة لم تعرف الشقاء البشرى، أزمنةٍ أسبق مما يحكيه سفر التكوين عن بدء الخليقة.. مَنْ الذى كان موجودًا قبل وجود الإنسان على الأرض. الله، الملائكة، الشيطان؟ ماذا كانوا جميعًا يفعلون، قبل وجودنا وانشغالهم بنا؟

بدا الخيطُ الأول من نور الفجر.. لحظتها شعرتُ، لأول مرة، أنني لستُ وحدى. أحسستُ بأن هناك مَنْ يرانى، مِنْ حيث لا أراه. لا أعنى الله. وإنما هو شخصٌ آخر قريبٌ من مكانى، مخبئٌ فى موضع لصيق.. تلفتُ حولى، وأصخْتُ السمع، علّنى أجد ما يؤكّد شعورى، أو ينفيه. قلتُ فى نفسى، إنما هى توهّماتُ المؤرّقين بعد ليلة الشَّهد الطويلة. وقد يكون بالقرب منى ثعلبٌ أو أرنبٌ برئى، أو لصٌ عرف أن حامية الدير أغلب أوقاتهم نائمون.

أخذتُ حجرًا من الأرض، وألقيته جهة اليمين. أحجارًا أخرى صغيرة، رميتها فى كل الجهات. لم يتحرّك شيءٌ، ولم أسمع غير صوت الأحجار الملقاة على الحصى. إذن، هى ملاعبُ الظنون وقلقُ الأرق، والرهبنة من المجهول المحتبئ. قمتُ من جلستى، فشعرتُ بالشئ ذاته يتبعنى. وقفتُ فى وسط الساحة الخالية، فوقف. تابعتُ سيرى المضطرب، فسار سيرًا مضطربًا.. وسرتُ بباطنى رعدةً.

كان بابُ الكنيسة الداخلى مغلقًا، فتابعْتُ سيرى حتى صار المبنى الغامض قبالتى، وصوامع الرهبان جهة اليمين. أسرعْتُ يمينًا، وارتقيتُ الدرج إلى صومعتى هذه، وأحكمتُ إغلاق بابى ورائى، وبقيتُ فى الظلام. قلتُ فى نفسى: سوف تشرق الشمس بعد قليل؛ فلا داع لأن أسرج قنديلًا. والأفضل أن أهجع قليلًا، فيومى يومٌ طويل.. بين أخذات النوم وانتباهات الأرق، شعرتُ بأن الذى كان معى، لا يزال معى. غير أننى لم أعد خائفًا من إحساسى به، مثلما كنتُ.. كنتُ متأكدًا من إغلاق الباب، ومن أننى بالغرفة وحدى.. ومتأكدًا أيضًا من أن شيئًا ما، موجودٌ بالقرب منى.

- هيا..

انتهيتُ إلى النداء العميق، وتولانى خوفٌ مفاجئ، اقشعرَّ معه جلدي ذراعى، ثم غمرتني القشعريرة، واستقر مركزها برأسى. الصوتُ الذى نادانى كان مسموعًا، فمن أين جاء؟.. هو لم يأت من ناحيةٍ بعينها، وإنما أتانى من كل الجهات.

- هيا.. ألا ترانى؟

نظرتُ حولى، فلم أرَ شيئًا. ونظرتُ فى باطنى، فرأيتُ من بين حُجُب الخوف والقلق، وسهًا باهتًا. أهو الفتى الذى لقينى عند حواف سرمدة؟ أم هو الرجل المتأنق الماكر، الذى رأيته على طريق العودة إلى أسبوط

من جبل قسقام؟ العين عينُ الفتى، والبسمةُ الساخرة التي على الشفاة، بسمةُ الرجل. كنتُ محققاً إذن، حين جفَلْتُ منهما. لم يصدّقني رئيسُ الدير لما قلتُ له إنني قابلتُ الشيطان في وَصَحِ النهار.. الشيطان.. ليكن، ماذا عساه أن يفعل معي؟

سؤالي الأخير لذاتي دفع عني بعضاً من مخاوفي، وجَرَ وراءه كثيراً من التساؤلات: ماذا عسالك يا إبليس، يا أيها اللعين، أن توصلني إليه؟ هل تريد أن تُصلّني عن إيماني بالمسيح؟ أولم تدرك أنني ما عدتُ مؤمناً مثلما كنتُ.. هل تغويني بالمفسدات؟ أولم تعرف ما جرى قديماً مع أوكتافيا، وما يجري اليوم مع مرتا.. أم أنك تريد أن تأخذني إلى سُبُل الهرطقة؟ وما هو أصلاً الإيمان القويم، الذي تكون الهرطقات بخلافه؟ لا يصح وجود هرطقات، مالم تصح الأرثوذكسية القويمة.. وما الأرثوذكسية؟ أهى ما يقرّونه في الإسكندرية، أم ما يعتقدونه في أنطاكية؟ هل هي إيمان الآباء الأولين، الأتقياء المقدّسين.. أم هي الاعتقادات الوثنية التي فتك أهلها بآباء أولين، صاروا مع الأيام أتقياء ومقدّسين؟

تماوجت في باطنی الأسئلة التي لا إجابة عنها: هل القويم هو إيمان كيّرلُس، أم هو إيمان نسطور المسكين الذي سيلحق عما قريب بمن سبقوه من المحرومين: بولس السيمساطي، أريوس المطرود، تيودور المبجل.. كل المهرطقين هنا، كانوا مبجلين هناك! وكل الآباء مطعون عليهم، عند غير أتباعهم. الشيطان يلعب بالجميع، فهل تراه يسعى الآن كي يلعب بي؟ ألا يكفي لعبه مع هؤلاء الذين يستعدون للحرب في إفسوس؟ وتلك النار التي يشعلها في كل الكنائس.. هو لا يعرف الاكتفاء، ولا الانكفاء على مطلوب واحد.. وإلا، فما نداؤه الآن لي؟ وما مشاغبه الدائمة لي، وشغبه على جبهة، عند أطراف سرمدة؟

تحدّدت صورته أكثر في الظلام. حدّقتُ في ملامحه التي بدت لي

أولاً، فوجدتها قد تغيّرت. لم يعد الرجل المتأنق المبقّع وجهه بالبهاق، ولا الفتى الذي التقيته.. صار أرقّ وجهًا وأقل حجماً، وبدا وجهه أشبه ما يكون بوجه مرتا. حدّقتُ، فإذا هو مرتا بتمامها. بضحكتها العذبة ورأسها الجميل الذي يميل ناحية اليمين، إذا تكلمت. ناديتها نداءً خفياً، فغام الوريجه وتبدّد، مثلما تنفكّ خيوط الدخان. شأهت ملامحه، وتاهت صورة مرتا التي كانت.. احترت، وبعد تيهٍ طويل في العماء، أخذني نومٌ عميقٌ، فلم أعد منتبهاً لما حو لي.



وقت الضحى، أرسل رئيسُ الدير راهباً إلى صومعتي ليستوضح سبب غيابي، فقلتُ له إنني متوحّد بسبب التعرّض لبرودة الفجر. وقت العصر، جاءني الشّماس ليطمئن. كان حلقى جافاً، ورأسى تظنّ. سألتُه عن أخبار الاجتماع المسكوني المقدس، فزادتنى إجابته المختصرة نوعاً: بدأوا، اليوم، والإمبراطور لم يصل بعد.. الحماّم الزاجل جاء بالأخبار.

أغلقتُ بابي خلفه، وبقيتُ في الظلام مستلقياً على ظهري، ثم تكوّمرت على الأرض، وملتُ ناحية الحائط وذراعي تحيطان برأسى. راودني نوحٌ، وعاودني الإحساس بأن معي، في الصومعة، الكيان ذاته، غير المنظور. غبتُ قليلاً، فرأيت مرتا ثانية، بدت لي ساعتها كخيوط دخان تشكّل داخل رأسى. حادثتها، فلم تجاوبني. اقتربتُ فابتعدت. حدّقتُ في ملامحها، فتغيّرت إلى وجهٍ شبيه بوجه أُمى.. اقتربتُ مني، حتى شعرتُ بأنفاسها. لم تكن لها رائحة أُمى، ولا رائحة الزيت العطري الذي تدهنُ به مرتا. لكل شيء رائحة، حتى الأحجار، غير أن الذي رأيته كان لا رائحة له. هو رجة تبدّل ببطءٍ ملامحه، فيتخذ في كل حين شكلاً جديداً.

وقت الغروب قمْتُ من رقدتي، وقد خامرني شعورٌ كأنه الانبعاث من الرقدة يوم الدينونة. خرجْتُ من الصومعة مرتجفاً، فألقيْتُ الدير ملفوفاً بالسكون التام. كانت الشمس قد مالت إلى جهة المغرب، واكتسى المبنى الغامض بحمرة خفيفة.. بينما أهيط الدرج، بدت لي الكنيسة الكبيرة القريبة، بعيدة. فاستقلْتُ النزول وعدتُ إلى صومعتي، وعاودتُ النوم.

في جوف الليل، عادت الأفكار الجامحة لتجتاحني.. لماذا لا أقوم الآن فأخذ مرتاً بعيداً عن هنا؟ أو أترك كل شيء ورائي، وأرحل إلى إفسوس؟ لن يعرفني هناك الرهبانُ والأساقفةُ السكندريون.. سأبقى بالقرب من نسطور في محنته، وقد ينقلبُ الحال لصالحه، حين يصل الإمبراطور والأساقفة المؤيدون له. ولسوف ينصره الإمبراطور، فهو أسقفُ عاصمته، وسأعود معه إلى القسطنطينية بعد انقضاء هذه المحنة..

- هيبا.. لن تنقضي هذه المحنة، حتى تنقضي على نسطور.

- مَنْ أنت؟

- ألا تعرفني، حقاً!

الطيبُ المخايلُ صار يتكلم.. كلامه أبهت صورته، وعَيبَ عنها الملامح التي كانت تبدلُ بين وجوه شتى. لم أعرف بأى كلامٍ يجب أن أجابه. غير أنني لم أعد خائفاً، من حضوره حولي.

- أنا لست حولك يا هيبا، أنا فيك.

قَدَرْتُ أن الجنون انتزعني من عالمي المضطرب، فصرتُ أهدي. قلتُ لعلني الآن نائم، وما هذا إلا حلم عابر. نعم، هو حلمٌ عابرٌ سوف أفيق منه،

ثم بصير ذكرى سرعان ما أنساها. لقد صرتُ قلقاً من كل ما حولي، والقلقُ يثير المخاوف.. لا بد أن أُهدي قليلاً من قلقي.

- أنت قلقٌ يا هيبا مما فيك. لأنك تعرف ما سوف يحدث في إفسوس، وتعرف أنك ستفقد مرتاً، مثلما فقدت من قبل ما كان لك: حلمُ النبوغ في الطب، الأملُ في إدراك سرِّ الديانة، الغرامُ بأوكتافيا، الولعُ بهيباتيا، الاطمئنان بالغفلة، الإيمانُ بالخرافات.

كان الصوت يأتيني هذه المرة هامساً، واضح النبرات، ثم صارت ملامح الوجه، أبين وأظهر. كان يشبهني، وكان الصوتُ صوتي. هذا أنا آخر، غيري، محبوبٌ بداخلي.. لا بأس لو حدثتُ نفسي قليلاً، وصارحتُها بما يجب السكوت عنه. اشتياقي لمرتاً، وخشيتي عليها، وخشيتي منها. وأنا تائهة في صحراوات الذات، وغير مستبشرة بضربة الأسقف كيترُلس المتوقعة في إفسوس، فسوف تكون مروعة.. كيترُلس هو رأس كنيسة الإسكندرية، المرقسية. وكلمة مرقس تعني ضمن ما تعني آه.. المطرقة الثقيلة التي نسميها في بلادنا.. المُرزبة.

آه.. سوف تنهال المُرزبة السكندرية على رأس نسطور لامحالة، وستتهزُّ جدران هذا الدير، وكل الأديرة والكنائس التابعة لأسقفية أنطاكية. سيكون المجد، من نصيب الإسكندرية وحدها. حتى روما العريقة، ستنزوي وتموت مثل كل المدن القديمة.. لا بد لي أن أقر من هذا العالم المليء بالأموات.

- دع الأموات يهناؤن بموتهم، وخُذْ مرتاً وعُدْ إلى بلادك الأولى.

- اسكُتْ، وعُدْ أنت من حيث جئت.. أيها الوجودُ الغامضُ المخايل.

- أَعِدْنِي أَنْتِ، فَأَنْتِ الَّتِي أَوْجَدْتَنِي.
- أَنَا لَمْ أَوْجِدْ أَحَدًا.. أَنَا الْآنَ أَحْلَمُ.
- إِذْنِ، سَوْفَ يَطُولُ حَلْمُكَ يَا هَيَّا!
أَنْتِ تَنَادِينِي بِاسْمِي الْمَشْهُورِ.. فَمَا اسْمُكَ أَنْتِ؟
- عَزَازِيلُ.

الرَّقْعُ التَّاسِعُ وَالْعَشْرُونَ

الْحُضُورُ

غَبْتُ. فَرَأَيْتُ أَشْجَارًا تَمَلَأُ الْكَوْنَ، وَرَأَيْتُنِي أُسِيرُ بَيْنَ أَدْغَالٍ مُتَشَابِكَةٍ
الْأَغْصَانِ وَالشَّجَرِ. أَفْقْتُ، فَوَجَدْتُ الشَّمْسَاسَ يَجْلِسُ بِجَوَارِ سُرِيرِي، وَكَانَ
صَدْرُ جِلْبَابِي حِينَ تَحَسَّسْتَهُ، مَبْلَلًا بِمَاءٍ دَافِئٍ. غَبْتُ ثَانِيَةً، فَجَاءَ عَزَازِيلُ
بِوَجْهِ نَاصِعٍ، بَدَا وَسْطَ الظَّلَامِ مُضِيئًا. ثُمَّ أَفْقْتُ، فَكَانَ بَابُ صَوْمَعَتِي
مَفْتُوحًا، وَكَانَتْ أَنْوَارُ النَّهَارِ تَأْتِينِي مِنْ بَيْنِ أُرْدِيَةِ رَهْبَانٍ وَاقِفِينَ عِنْدَ الْبَابِ.
كَانُوا يَتَكَلَّمُونَ بِكَلَامٍ لَمْ أَفْهَمِهِ. بَدَا سَقْفُ الصَّوْمَعَةِ عَالِيًا، وَبَعِيدًا عَنِّي.
سَمِعْتُ صَلَاصِلَةَ أَجْرَاسٍ تَدُقُّ بِلا انْقِطَاعٍ، فَتَكَادُ تَفْتَتُّ عِظَامِي. سَكَتَتْ
الْأَجْرَاسُ، فَجَاءَتْ، وَجَاءَ عَزَازِيلُ مَبْتَسِمًا. جَلَسَ سَاكِنًا قِبَالَتِي، ثُمَّ تَزَحَّفَ
حَتَّى اقْتَرَبَ مِنِّي. تَحَسَّسْتُ وَجْهَهُ بِأَنَامِلِي، فَكَانَ رَطْبًا، زَلَقًا. ارْتَعْتُ مِنْ
مَلْمَسِهِ.. بَعْدَ حِينٍ، مَدَّ يَدَهُ الْبَارِدَةَ إِلَى جِهَتِي، فَأَتَانِي بَرْدٌ غَاصَّ فِي رَأْسِي
وَهَذَا مِنْ رَوْعِي. نَمْتُ فِي مَنَامِي، وَرَأَيْتُ فِي حَلْمِي أَنَّنِي أَحْلَمُ.

- هَيَّا..

- مَاذَا تَرِيدُ يَا عَزَازِيلُ؟

- أريدك أن تقوى، وتفريق مما أنت فيه؟

الإفاقة فقرّ وفاقة! الغيبة أحلى، وأجلى لهذه الشمس والأقمار الوفيرة التي تملأ سماء الغسق الحمراء.. رأيتني أجوب أرجاء الدير، وحدي. دخلت المبنى الغامض، من الفتحة التي بأعلاه. دُرْتُ في ردهاته، حتى وصلت إلى قاعه. لم تكن هناك مسامير صدئة تتوهج في الظلمة، ولم أجد هناك أي شيء غير الظلام المكّس فوق الظلام. جلست على الدرج الدائري، وناديت عزازيل ليونس وحشتي، فجاء وجلس إليّ جوارى.. خرجنا معاً من المبنى الغامض الذي لم يعد غامضاً، فوجدنا تلة الدير خالية تماماً. لا أحد فيها ولا حجر، ولا تلك المباني التي كانت قائمة. فقط، حصي صغير وأشجار سرى وأعشاب زرقاء تملأ المكان. وهمس لي عزازيل بأن تلك كانت تلة الدير في الزمن السحيق، من قبل أن يوجد البشر، ومن قبل أن يخلق الله الإنسان.. ثم سألتني:

- هل خلق الله الإنسان، أم العكس؟

- ماذا تقصد؟

- يا هيبا، الإنسان في كل عصر يخلق إلهاً له على هواه، فإلهه دوماً رؤاه وأحلامه المستحيلة، ومُنَاه.

- كُفَّ عن هذا الكلام، فأنت تعرف مكانك من الله، فلا تذكره.

- أنا مذكورٌ يا هيبا، مادام هو مذكورٌ!

غلبنى الغياب، فتركْتُ عزازيل يقول ما يريد، وانصرفْتُ عنه.. بعد حين عدتُ إليه، فكان يتكلم منفرداً. أنصتُ، فوجدته يقول بلغة غريبة ما معناه أن الله محتجبٌ في ذواتنا، والإنسان عاجزٌ عن الغوص لإدراكه! ولما ظنَّ البعض في الزمن القديم، أنهم رسموا صورةً للإله الكامل، ثم أدركوا أن الشر أصيلٌ في العالم وموجودٌ دوماً؛ أوجدوني لتبريره. هكذا قال..

لم أعد أجادل عزازيل فيما يقول، كنتُ غير قادرٍ أصلاً على جداله. شعرتُ مراتٍ بأنني أنفض، وبأنني جائعٌ. كان يضع في فمي ملعقةً فيها حساءً لا رائحة له، ولا نكهة طعام. كنتُ أبتلع الحساء، فيشقُّ حلقي، وأنا لم وأنام. كنتُ أحياناً أرى الشَّمْس، لا عزازيل، هو الذي يسقيني الحساء، والماء.. كان مذاق الماء أحلى.



في أصل عزازيل، آراء وأقاويل. بعضها مذكورٌ في الكتب القديمة، وبعضها منقولٌ عن ديانات الشرق. لا تؤمن كل الديانات بوجوده، ولم يعرفه المصريون القدماء، العرفاء.. ويُقال إن مولده في وَهْمِ الناس، كان في زمن سومر القديمة، أو كان أيام الفرس الذين يعبدون النور والظلام، معاً، ومنهم عرفة البابليون. ثم كان ذكره الأشهر، في التوراة التي كتبها الأحبار بعد عودة اليهود من السبي البابلي. أما في ديانة المسيح، فالمذهب كلها تؤكّده، ولا تقبل الشك فيه. فهو دوماً في مقام عدو الله، وعدو المسيح، ولا يُعرف مقامه من الروح القدس!.. روى عنه القدماء، أنه خلق الطاووس، فقد ورد في نقش قديم، إنهم عَيَّرُوا عزازيل بأنه لا يفعل إلا القباح، ولا يدعو إلا إليها، فأراد أن يثبت لهم قدرته على فعل الجمال، فخلق هذا الطائر. قلْتُ ذلك يوماً لعزازيل، فابتسم وهزَّ كتفه اليميني متعجباً.

سمعتُ صوت عصفير تملأ الأفق، وكان باب الصومعة مفتوحاً، وعزازيل يجلس صامتاً عند الباب. أحببتُ أن أسمع منه صوتي، فسألته أيّ أسمائه أحبُّ إليه؟ فقال: كلها عندي سواء، إبليس، الشيطان، أهريمان، عزازيل، بعزروب، بعزبول.. قلْتُ له إن بعزبول تعني في العبرية: سيد الزبالة، وبالعزروب تعني: سيد الذباب؛ فكيف لا يكثر بالفروق التي بين

أسمائه، ويرأها كلها سواء؟ قال: كلها سواسية، فالفروق في الألفاظ، لا في المعنى الواحد.

انتبهتُ، فوجدتُ الشَّمْسَ يعصرُ بين شفتيّ، قطعةً من قماش أبيض مبلولةً بماء بارد، ثم يفردُها على جبهتي. تحسَّستُ وجهي، فكانت حَبَّاتِ العرق تغمرني، وتغمر وسادتي الخشنة.. سألتُ عزازيل عن المعنى الواحد لأسمائه الكثيرة، فقال: النقيض.

عزازيل نقيضُ الله المألوه.. هذا ما قاله لي همساً، بلغةٍ أخرى، غير اللغة السابقة التي لم أعرفها. غير أنني فهمتُ عبارته، وهمتُ في معانيها.. هو إذن نقيضُ الإله الذي عرفناه، وعرفناه بالخير المحض. ولأن لكلِّ شيء نقيضاً، أفردنا للشر المحض كيئناً مناقضاً لما افترضناه أولاً، وسميناه عزازيل وأسماء كثيرةً أخرى.. قلتُ هامساً:

- لكنك يا عزازيل، سببُ الشرِّ في العالم.

- ياهيبا كن عاقلاً، أنا مبررُ الشرور.. هي التي تسببني.

- ألم تزرع الفرقة بين الأساقفة؟ اعترف!

- أنا أقرُّف ولا أقرُّف، فهذا ما يريدونه مني.

- وأنت، ألا تريد شيئاً؟

- أنا ياهيبا أنت، وأنا هم.. تراني حاضراً حيثما أردت، أو أرادوا. فأنا حاضرٌ دوماً لرفع الوزر، ودفع الإصر، وتبرئة كل مُدان. أنا الإرادةُ والمريدُ والمرادُ، وأنا خادِمُ العباد، ومُثيرُ العباد إلى مطاردة خيوط أوهامهم.

أخذني دوائرٌ، وجرَّ نظري فيها حولي. كان المكانُ مثل صومعتي، وهذا الوجه الذي يحدق في، مثل وجه رئيس الدير. وهذه الزامير التي أسمعها، بصوتٍ مثل صوته.. الجثثُ خائفٌ، والرطوبةُ تحبس الأنفاس.

استجلبتُ الإغماء نحوي، لأستريح لحظةً، فأخذتني رجفةٌ نفضتُ باطني.. رأيتُ بحر الإسكندرية، ورأيتني أدورُ في أعماقه.. ثم أخذتني دَوَّامةٌ لا آخرَ لعمقها.



بقيتُ زمناً، ملفوفاً بقلب الدَوَّامة التي أخذتني. وأتحسَّس قوام الماء الواقف حولي.



لقد أفاق.. وهو يطلب الطعام.

أتاني صوتُ الشَّمْسِ من وراء باب الصومعة المفتوح. لم أنتبه إلى معنى عبارته، إلا حين دخل على متهللاً، قائلاً: سيأتي الطعام حالاً يا أبت، نشكر الرب على شفائك. إنها معجزةٌ من السماء.. كلهم قالوا إنك ستموت، لكنني كنتُ أعرفُ إنك ستبرأ من الحمى.

- أية حمى يا شماس، أنا لا أفهم شيئاً.

- لا تجهد نفسك يا أبت. استرخ، وسوف يأتبك الطعام.

كنتُ جائعاً جداً، وأتوق للخروج إلى النهار، لكنني لم أقوَ على النهوض من رقدي. كانت قواي خائرة تماماً. بالكاد نطقْتُ بما أريد، فطلبتُ من الشَّمْسِ أن يُعيني لأستوى جالساً، فرفعني من تحت إبطي، وأسندت ظهري للحائط.. كدتُ أذهب في إغفاءةٍ، لولا أن انتبهتُ إلى وَقْعِ أقدامٍ آتية.

كان الفريسي أولَ من دخل الصومعة، وكانت عيناه تلمعان بالفرحة.

بعده دخل راهب بقدرح فيه حساء. ارتشفَتْ رشفات آلمت معدتي برهةً، ثم غلب الجوعُ الألمَ، فأحتسيت القدرح كله.. خرج الراهبُ وخلفه الشَّماسُ، وظلَّ الفريسي عند الباب. ابتسمتُ له بكل ما أوتيت من عافية، فاقترَب، فرأيتُ عينيه تدمعان.

- خذني إلى المكتبة.

- ليس الآن يا هيبا، فالشمسُ حامية. نذهبُ بعد العصر.

هل صارت شمسُ الظهيرة، أقوى من احتمالي؟ أنا الذي طالما انقذت سهامها الحامية، فوق رأسى العارى..! أردتُ أن أحادث الفريسي، غير أن وسنات النوم كانت تؤرجحنى، ثم تطوَّحنى فى غيابة القدرح. بالكاد شعرتُ به يضع علىّ دثارًا، ثم يخرج ويغلق علىّ باب صومعتى. صحوْتُ من غفوَتى بعد حينٍ غير معلوم، وقد عاودنى جوعى وعطشى. لا أحد فى الصومعة، لأطلب منه الماء.. تحاملت على الجدران حتى وقفتُ، ثم سرتُ مترنِّحًا نحو الجِرة المغطاة بلوح خشبى مستدير، عند الباب. رفعتُ غطاءها، وملأتُ القدرح النحاسى، ورحتُ أعْبُ الماء بنهم لم أعرفه من قبل.. الماء بدء الحياة. كان بدنى يابسًا، مثل أرضٍ شققها جَدْبٌ طويل وحرمان.

أسندتُ رأسى للجدار، واستجمعتُ قوتى فلم تجتمع. جلستُ فى موضعى، برهةً، حتى استطعتُ النهوض ثانيةً، وحين فتحتُ الباب، ألم عيني ضوءُ الشمس، فحجبتها عنى بكُمى لأحتمل ضوءها.. مشيتُ مستندًا إلى سور الممر الواصل بين غرف الرهبان، وتنفسْتُ ملء صدرى.. تذكرتُ مرتا، فجأةً، فأخذتني رجةً.

رأيتُ الرهبان يخرجون من الكنيسة بعد صلاة الساعة التاسعة، كانوا

يرتدون زِيَّ الأعياد. رأونى فتهللوا، وأقبل معظمهم نحوى. لقيتهم عند أولى درجات السلم، بعدما نزلته بحرص بالغ وبساقين ترتجفان. فى طريقنا إلى المكتبة، عرفْتُ منهم أن الحمى أخذتني عشرين يومًا كاملة. سألتُ نفسى، أية حمى تلك التى تطول هذه المدة، وتتابع نوباتها حتى تكاد تلتحم ببعضها؟ أكانت حمى اليوم التى تأتى نوبتها ليلاً؟ أم هى حمى الغبِّ، التى تدع نوباتها يومًا، وتأتى فى اليوم التالى؟ هى على كل حال، واحدة من الحميات الحادة لا المزمنة، وإلا ما كانت تعصف بى، على هذا النحو الشديد.. عشرون يومًا، من شأن الحميات الحادة أن تقتل المريض فى فترة أقل.. كيف نجوتُ؟.. أى تدبير طبي كانوا يتبعونه معى؟.. أين الشَّماس لأسأله عن مرتا؟.. ماذا حدث فى إفسوس؟.. ما هذه الرؤى التى كانت تأتيني فى نوبات الحمى؟.. هل كنتُ أحاور عزازيل حقًا، أم هى خيالات المحموم؟

وصلنا إلى المكتبة بعد جهد. تقدَّم أحدُ الرهبان وفتح الباب أمامنا، فوجدتُ الأتربة تغطى كل شئ. المواضع تهرم، إذا غاب عنها الأهل. أسرع أحدهم بقطعة قماش، ومسح التراب عن موضع جلوسنا، وتحلق حولى من الرهبان قرابة العشرة. سألتهم عن أخبار المجمع المقدس، فتدخلت إجاباتهم: بادر الأسقف كيْرُلُس وعَقَدَ المجمع قبل وصول الإمبراطور، وسط هتافات الرهبان المصريين وعامة الناس.. ترأس كيْرُلُس المجمع، وجمع توقيعات جماعة من الأساقفة والقسوس، على قرار كنسى بعزل الأسقف نسطور، وخزّمه!.. الأسقفان يوحنا الأنطاكي ونسطور، عقدا مجتمعا آخر بعد أيام، فى البلدة ذاتها، وجمعا توقيعات جماعة من الأساقفة والقسوس، على قرار بعزل الأسقف كيْرُلُس وخزّمه.. لما وصل الإمبراطور من القسطنطينية ومعه بابا روما، غضبا مما جرى، وقررا مع جمع من الأساقفة والقسوس عزل الأسقفين الكبيرين، وخزّمهما!..

صار نسطور وكيرلس محرومين، مطرودين من رتبة الأسقفية، معزولين عن الكنيسة.

ما هذا الجنون المطبق؟ نظرت ناحية الفريسي الذي ظلّ طيلة جلستنا، صامتًا. ولما أطلت النظر إليه، هزّ رأسه ومطّ شفتيه، من دون أن يقول شيئًا.. دخل رئيس الدير علينا، فنهض الرهبان توقيفًا له. أشار إليهم بما معناه أنه يريد الخلوة بي، فانصرفوا متتابعين وفي عيونهم فرحة نجاة من الحمى، وحيرة ما قصّوه على من أخبار إفسوس.

كاد رئيس الدير يتكلم، لولا أن خادماً دخل من الباب بلوح خشبي مربع، عليه قدح نحاسي قديم، فيه حساء وقطع صغار من لحم الدجاج، معه طبق فيه بعض الفواكه الرطبة. تمهل رئيس الدير حتى انصرف الخادم، ثم مدّ لي الحساء، فأخذته بكلتا يدي. دعاني لتناوله، ففعلت. ناولني طبق الفاكهة، وألح عليّ لآكلها، فأخذت واحدة ونحييت الطبق.. صمتنا برهة، كان رئيس الدير خلالها مستغرقاً في تلاوة خافتة، وتسييح لم أتبين ألفاظها. لما انتهت تمتمته الهادئة، سألته:

- ما ذاك يا أبت، الذي جرى في إفسوس؟

- هو صخب الدنيا، وأطماعها التي أمالت القلوب.

- وكيف سينتهي الأمر؟

- هم اليوم يعقدون المجمع رسميًا، برئاسة الإمبراطور وبابا روما.. مع أنه عيد القيامة.

- عيد مبارك يا أبت. ولكن، هل تعتقد، أن هذه الغمة ستزاح؟

- لا أظن يا هيبا.. فالشيطان يصطخب في إفسوس.

اضطربت لما ذكر رئيس الدير الشيطان، عزازيل. وأشفقت من الأسى

التي اكتسى به وجهه؛ حتى أن رجفة خفيفة أخذتني. انتبه رئيس الدير الرقاد فقام وهو ينصحنى بالخلود إلى الراحة، حتى تمرّ أيام نقاهتي من الحمى، بسلام.. دعاني للرجوع إلى صومعتي للراحة، فاستأذنته في أن الرقاد بالمكتبة، فقد ضقت بالصومعة، وأظنني سأرتاح أكثر بين رفوف الكتب.. هزّ رأسه موافقًا، وتهيأ للخروج، وتهيأت للنوم على الدكة التي عند الباب. قبل أن يفارقني، فاجأني بقوله:

- عليك يا ولدي بعد صلاة الرّمس، بصلاة سوتورو، فهي تطرد عزازيل اللعين، وتهدم قوى أعوانه من الأبالسة^(١).

(١) الصلوات السريانية (والقبطية أيضًا) عددها في اليوم والليلة، سبع صلوات. وصلاة الرّمس تؤدي عند الغروب، وكلمة سوتورو تعني في اللغة السريانية: السّر والسّار. (المترجم).

أخرجتني من كوني، ثم هجرتني حين ظننت أنني أموت. ياليتني متُّ واسترحت.

- أخذوا معهم كل متاعهم، لا أظنُّ يَأْبَتُ أنهم سيرجعون للعيش هنا.

- نعم يا شماس، هذا واضح.

- هل ترى يا أبت، أن استسمح رئيس الدير في مسكني في الكوخ؟

- يا شماس، أنت صغيرٌ على العيش منفردًا، بقاؤك في بيت الكاهن أصلح لك.. اتركني الآن لأنام.

- نادني إن احتجت لي يا أبت، سأكون قريبًا.

تركتني الشَّمَسُ بعدما دعوتُ له بالبركة، ودعوتُ الله في نفسي أن يأخذني منها لأستريح. كان رأسي يطنُّ، فلم أستطع النوم إلا وسنات خاطفة، وكانت غفواتي توجعني. وجع النوم علامةٌ رديئة، كما هو معروفٌ عند الأطباء من كلام أبقراط: *إذا كان النوم في الأمراض المزمنة، يُحدث وجعًا، فذلك من علامات الموت..* ليكن، فموتي وحياتي صارا عندي سواء، وربما الموتُ أفضل! غير أنني برئت من حمّاي، مزمّة كانت أم حادة. وآلام النوم عندي، هي من أوجاع الروح لا آثار الحمى.

قمت من فوق الدكّة واستغرقتُ في الصلاة. أدبْتُ صلاة سوتورو قبل موعدها، وأخذتُ أعيدها حتى سكن الليل. وحتى تأكدتُ، أنها لا تفعل شيئًا.. كنتُ أشعر بعزازيل قريبًا مني، أكثر من أي وقت مضى. هو إذن، لم يكن حلمًا ولا طيفًا مرّبي عند اختلاط ذهني، مع نوبات المرض. هو الآن قريبٌ، أشعر به ينظر نحوي، ولا يتكلم. أتراني ألقى نفسي في غيابة جُوب الجنون؟

الرَّقُّ الثلاثون

الفَقْدُ

بعدما تهَيَّأتُ للنوم، سمعت صوت الشَّمَسِ يأتي خفيضًا من وراء الباب: *هل أنت نائِمٌ ياسيدي؟..* دعوته للدخول، فجاء وفي يده قطعة من قماش أسود. مدّها إليّ، فمدّتها بين يديّ. كانت صديريّة سوداء اللون، محلاة من عند أطرافها بضلّبان من الغزل ذاته، لونها رمادي. عرفتُ بالأمر من فوري، وزادني الشَّمَسُ إيضاحًا وتأكيّدًا: لقد رحلت مرثا وخالتها قبل أسبوع، وتركت العجوزُ لي هديتها مع الشَّمَسِ، وتركت مرثا معه رسالة من كلمة واحدة: *مضطرّة!*

اضطرت مرثا للذهاب إلى حلب! أي اضطرابٍ حدا بها للرحيل، والحمى تفتك بي؟ ألم يكن بوسعها أن تنتظرنِي بضعة أيامٍ آخر؟ لا بد أنها يشّت من شغائي، وتيقّنت من أنني هالكٌ لا محالة.. تركتني لموتي، وذهبت لتبحث لها عن حياة. هذا شأنُ النساء. كلهنّ كما أكّد الفريسي خائناتٌ، ولا خلاق لهن. هو أعرف مني بأحوالهن. الآن تيقّنت من أنني ضللتُ نفسي بأوهامٍ صنعتها، وأتيت مع مرثا خطايا لا غفران لها. هي

انتبهت فجراً على صوت أقدام تفرك الحصى بسرعة، وهى آتية نحو المكتبة. هذه مشية الفرّيسى، فلا بد أنه جاء ليطمئن علىّ. أنهيت صلاتي، وفتحت الباب له، فدخل وفي يده منديل فيه فواكه. دخلت أمامه، وجلسنا متقابلين على الطاولة الكبيرة:

- كيف حالك الآن يا هيبا؟

- أحسن، وأظننى سأتحسن. مالك يا أخى تبدو مهموماً.

- وصلت الأخبار الآن. المجمع المقدس، برئاسة الإمبراطور، أعاد كيّرلُس إلى رتبته الأسقفية، وأقرّ عزل نسطور.. ونفيه!

- ما الذى تقوله، وكيف حدث؟

- الأساقفة تخلّوا عن نسطور، عدا يوحنا أسقف أنطاكية. ولم يشأ الإمبراطور وبابا روما أن يُغضبا الإسكندرية، للأسباب المعروفة. ولما رأى الأسقف رُبولا والذين معه، أن كفة الميزان تميل لصالح كيّرلُس، انقلب على نسطور وأدانه. وقد صاغ المجمع قانوناً جديداً للإيمان، فيه إضافات على القانون الذى أقرّ قبل مائة عام فى نيقية.

غامت عيناى، فأغمضتهما وأحطت رأسى بذراعى المستندين إلى الطاولة. فى غمرة الغيوم، انتبهت لأمرٍ دقيق. لم يكن مجمع نيقية قبل مائة عام، وإنما كان قبل مائة وست من السنين! الذى كان قبل مائة عام بالضبط، هو اللجنة الرهيبة التى شكّلها الإمبراطور قسطنطين، من القسوس المتشددين، سعيًا منه لإرضاء الأساقفة. كان ذلك سنة إحدى وثلاثين وثلاثمائة للميلاد. اللجنة راحت تفتش دور الكتب وتدهم بيوت الناس، لتجمع كتب الفلاسفة والمهرطقين، والأناجيل غير الأربعة المعترف بها، والكتب الدينية المخالفة لما استقر من رأى الأساقفة، والرسائل

الغنوصية. كانوا يجمعون كل ذلك فى ساحات المدن والقرى، ويحرقونه علناً، مهذّدين من يخفى هذه الكتابات الممنوعة، بالويل.. الويل. رفعت رأسى وسألت الفرّيسى:

- ماذا سيفعلون مع المبجل نسطور؟

- لم يعد مبجلًا، وسوف ينفونه من هنا إلى مكان قصيّ تابع للإسكندرية المدن الخمس الليبية أو أحميم، لا أعرف بالضبط. وقد أدان المجمع، الأسقف تيودور المصيصى، وأنكر آراءه.

انقبض قلبى مما قاله الفرّيسى، وضاق بالأخبار صدرى. قمت لأفتح الشباك المطل على ساحة الدير، فدارت رأسى، وترنّحت حتى كدت أفع على الأرض. أدركنى الفرّيسى وأعاننى لأجلس ثانية، وفتح هو شباكى.. جلسنا صامتين برهة، حتى تململ وبدأ فى عينيه أنه يريد أن يخبرنى بأمر آخر. لم أكن قادرًا على سماع المزيد.. سألت منى رغما عنى، دمعات حارة لم أستطع إمساكها، فمسحتها عن وجهى بسرعة.

فتح الفرّيسى منديله، وقرب الفاكهة منى وهو يقول إنها فواكه طازجة أتت من حلب، وأنه أحضرها لى لأتقوى بها.. اضطربت لذكر حلب، ونظرت فى عينيه، فوجدت فىهما طيفَ شفقة. دعانى للأكل فامتنعت، ونحيّت المنديل بظهر يدي. سألته هل وفد أحد من حلب؟ نفى، وأخبرنى أن هذه الفاكهة الصيفية، أرسلها تاجرٌ من الموغوظين، هديةً للدير.. رجاني ثانية أن أكل منها، فأخذت من يده حبة المشمش الكبيرة التى مدها، ووضعتها جانبًا. دار برأسه فى المكتبة ثم قال إن الجو خائف، وسألنى إن كنت أريد الخروج للجلوس عند البوابة، فوافقت استندت إلى ذراعه، وخرجنا نجرّ أقدامنا كالنساء الثكالى.

عند خروجنا، وجدتُ الشَّمْسَ نائمًا على الأرض بقرب بابي، فدعوته للذهاب إلى بيته، وأكدتُ أنني لن أحتاجه الآن في شيء. مضى ظلام ما قبل الشروق، ومضينا إلى البوابة. لم يكن قمر السماء منيرًا، فقد كان أوان المحاق. جلسنا في ظلام ما قبل الشروق، على الحجر الذي كنتُ جالسًا عليه يوم جاءتني خالة مرتا فجرا، لتخبرني بأمر ذهابهما إلى حلب. الحجر الذي جلس عليه بعدى، الحارسُ الرومانى الذى طلبها للزواج!.. هل ودَّعته عند رحيلها؟ وما الذى شجَّعه أصلاً، لأن يقترح عليها الزواج؟ أتراها نال منها نيلاً فى العشرين يوماً، التى أخذتني فيها الحمى؟

كنتُ انظر إلى ناحية الكوخ الغارق فى الظلام، وكان الفَرْيسى صامتًا يرسم على الأرض التى ترَّبع عليها، بعودِ يابس، أشكالا متقاطعة.. جاءت نسائمٌ باردة، فأغمضتُ عيني وملاّت صدري منها، ثم زفرتُ زفرةً مكثورة. أشار بالعود اليابس إلى جهة الكوخ، وقال إن المرأتين رحلتا عن هنا. لم أرد. أضاف أنه لم يكن يستبشر بما شرعنا فيه، من أمر الغناء فى الكنيسة. لم أرد. قال إنه لم يكن يرتاح لهذه المرأة التى اسمها مرتا، فخفق قلبى بشدة.. تلوّنت السماء بحمرة الشروق، وشعرتُ ببرد الهواء فطلبْتُ منه أن نعود إلى المكتبة لأنام قليلاً، فقام معي. لم أستند إلى ذراعه فى طريق عودتنا، وقبل أن يفارقنى عند الباب، سألته إن كان يخفى شيئاً عني؟ قال:

- أنت الذى تحاول إخفاء ما فيك، مع أننا جميعًا نعرفه!

- ماذا تقصد؟

- لا شيء يا هيبا. ولكنك كنتَ تنادى كثيرًا باسم هذا المرأة، مرتا، فى نوبات الحمى.. رحيلها عن هنا، رحمة من الرَّبِّ بك وبنا، فنحن كما تعلم، لن نرضى لك ما هو غير صالح.. وقد كانت هذه المرأة، أمرًا غير صالحٍ بالمرّة.

أغلقتُ خلفي باب المكتبة، وارتميتُ فوق الدكة القريبة.. لا أعرفُ كيف نمت؟ ولكننى انتهتُ فزعًا ساعة الفجر، وقمت من فوري إلى الطاولة، والتهمتُ كل ما كان بالمنديل من فاكهة، كنتُ أكل مثل مريض بجوع كلبى، وكانت دموعى تسيل.. ملتُ برأسى على راحتيّ الموضوعتين فوق الطاولة، ثم أجهشتُ بالبكاء والنشيج. أفقتُ بعد حين، وقد أزاحت كل الأفكار عن رأسى، فكرةً واحدة. لقد انتهى كل شيء. أنهزم نسطور، واختفت مرتا، وغاب عزازيل، وعرف أهل الدير حقيقة حالى. لقد انتهت حياتي كلها، فليس أمامي إلا الموت.

- أمامك حياةٌ طويلةٌ يا هيبا، فلا تفكر الآن فى الموت.

- عزازيل.. أين كنت؟

أفهمنى أنه كان، وسيظل دومًا، حولي، وأن العالم الحقيقى إنما هو فى داخلى، وليس فى الوقائع التى تثور وتهدأ، وتنتهى لتبدأ أو يبدأ غيرها.. استغربتُ من أنه لم يكن مخبئًا، وحين ظهر لى لم يكن مكتئبًا. كنتُ مازلتُ منكفئًا برأسى على الطاولة، مغمضًا عيناى، ومحدقًا فى الفراغ. سألته:

- هل أسقى نفسى سُمًا لأخلصَ مما بى، ويتخلَّصَ الهواء إلى الهواء؟

- هل جُنتت! الموتُ لا معنى له. المعانى كلها فى الحياة، أنا حتى دومًا، ولن أموت إلا بموتك، وموت المؤمنين بى، والمكتشفين وجودى فيهم.. وليس من حَقِّك أن تُميتنى، بموتك، قبل الأوان؟ كيف أحياء، وقد جرى كُلُّ ما تعرفه؟

- تحيا يا هيبا لتكتب، فتظل حيًا حتى حين تموت فى الموعد، وأظلُّ حيًا فى كتاباتك.. اكتب يا هيبا، فمن يكتب لن يموت أبدًا.

عزازيل يعيش الحياة فهي مرتعه، ولذلك هو يكره الداعين إلى نبذ المباحج والأفراح، ولا يطيق الزَّهَاد والمنقطعين عن الحياة. يسميهم الحمقى! قمتُ من جلستي، فأغلقت الشباك الذي كان مفتوحاً على ساحة الدير، وكان نور الصباح قد بدأ إشراقه. أردتُ مواصلة الكلام مع عزازيل، فأسندت جبهتي إلى الجدار، وسألته:

- أأنت الذي قابلتني عند حدود بلدة سرمدة، وعند نزولي من جبل قُسقام بمصر؟

- ما هذا الذي تقول؟ أنا لا وجود لي، مستقلاً عنك. أنا ياهيبا أنت، ولا أكون إلا فيك.

- ألا تتجسّد يا عزازيل في أشخاص بعينهم؟

- التجسّدُ خرافةٌ.

سمعتُ صوت أقدام، ففتحت الشباك ثانية. كان جماعةٌ من رهبان الدير آتين لزيارتي، وكان معهم خادمان يحملان طاولة كبيرة، عليها طعام الفطور... أخبروني أن رئيس الدير سيلحق بهم، وسوف نفطر جميعاً هنا. كان ذلك عطفاً كبيراً منهم.

تكلم رئيس الدير بعدما تلا بعض المزامير، فقال لنا وكأنه يحدثني أنا، تحديداً: يا أبناء الرّب، دعونا في هذا الصباح المبارك ندعو الله ونبتهل إليه شاكرين نعمته، ومستجلبين رحمته.. واعلموا أن الله حاضراً دوماً في قلوبكم، وإن كان عرشه في السماء. وقد رأيتُ أن الكثيرين منكم، قد فُجعوا بما جرى في إفسوس، واهتزَّ إيمانُهم، واضطربت قلوبهم. والذي جرى محزنٌ لنا، فليشملنا الرّب جميعاً بعفوه. ولكن طريقنا نحن الرهبان، لا شأن له بمشكلات اللاهوت والمجادلات الدائرة بين رؤوس الكنائس. هؤلاء يثورون حيناً، ويهدأون أحياناً، فليكن بينهم ما يكون،

وليكن بيننا الطريق الذي يعون الرب اخترناه، وليجمع بيننا أمرٌ وحيدٌ هو محبة الرب وبشارة يسوع وتوقُّير العذراء المقدسة، سواءً هي أُمُّ الإله، أمُّ أُمِّ المسيح. فنحن وقد ودعنا صَحْب الدنيا، نعرف العذراء بقلوبنا، لا بأقوال اللاهوتيين ولا بمذاهبهم. سوف نلتزم هنا بقانون الإيمان الذي صاغوه في إفسوس، ونجمع الناس إليه في حظيرة الرب، حتى لا نترك العوام للشيطان، فيعبث بهم إذا تفرَّقوا. ولنا من بعد ذلك، طريقٌ إلى الله، لا يحده قانونٌ مكتوب، ولا كلماتٌ مخصوصة. للرهبنة سرٌّ يعلو فوق الألفاظ، ويسمو عن اللغات، ويدقُّ عن التعبيرات. ولسوف تظلُّ الرهبنة والشركة والديريّة، منارةً تهدى المؤمنين، وسبيلاً لمن وهبوا أنفسهم، مخلصين في محبتهم للرب، وتعمقوا في إيمانهم بيسوع المسيح، وفي تقدّسهم للسيدة العذراء.

طابت نفسي من كلام رئيس الدير، فأكلتُ مع الرهبان لقيمات. غير أنني كنت أشعر ساعتها بعزازيل، يجلس في الركن القَصِي من المكتبة، وبيتسم بمكر وسخرية.. ودعنى الرهبان، وذكرني رئيس الدير بضرورة الخلود إلى الراحة. وسألني إن كنتُ أريدُ شيئاً من مطبخ الدير، فشكرته.

أوان العصر عاودني الحنينُ، وتكدّرت روحي. كنتُ وحدي في المكتبة، فدعوتُ عزازيل لأشغل بآرائه العجيبة عما أعانيه، سألته عن رأيه فيما قاله رئيس الدير في الصباح، فأجاب وهو يبتسم ويُمعن في إغاضتي: ماذا يمكن لرئيس الدير أن يقول غير ما قاله، وإلا صار عليه أن يجد مكاناً غير هذا الدير، ليرأسه! رأيتُ أنه يتجنّى على الأب الجليل، فزعتُ فيه بأن يلتزم الأدب.. فاختنفى.

في أول المساء جلستُ إلى الطاولة، ونويتُ أن أكتب ترنيمةً جديدة.

كان الشَّعْرُ يُلْحُ عَلَى بِشْدَةٍ، فأديتُ صلاة الليل وحدي، وأحضرتُ الرقوق.
كتبْتُ هذه القصيدة:

يا إلهي، أَشْرِقْ بِخَيْطٍ مِنْ نورك الأزلِي،
نُيِّرْ قلبي المظلم، ويبدد وحشتي.

يا أبانا الذي في السماء، أَفِضْ على الأرض بشارات العزاء،
فكلنا محزونون، وأحزاننا موجعة.

يا يسوع المخلص، أنت مبدؤنا ومنتهاها،
وأنت بقاؤنا بعد فناء دنيانا.

كتبْتُ الأبيات بعد محاولات عسرة، كأنني أقتلع الكلمات من جوف قلبي، فتدمني. كان بدني لم يزل هزياً، وكنتُ على وشك الذهاب في سكرة نعاس، تأخذني إلى الأفق البعيد، غير أنني فوجئت بصوت عزازيل يتصعد من أقصى مواطن فراغي، وأحلكها، فيُسيل قلبي بين الضلوع، ويشعرنى بأن السماء انطبقت على الأرض وأنا محشورٌ بينهما. كان يقول: متى ياهيبا ستكتب الكتابة الحقّة، وتكف عن المراوغة وتتغنّى بالألم الذي فيك؟ لا تكن مثل ميت ينطق عن ميتين، ليرضى الميتين! قُلِ الحقّ الذي بقلبك، مثلاً: يا مرتا، أَشْرِقْ بلحظةٍ من وصالك، لتنير قلبي المظلم، وتبدد وحشتي..

- اسكتْ ياملعون، لن أتغنّى إلا بالمسيح الحيّ.. فالشَّعْرُ دُرٌّ منظوم،
وقد قال المسيح يسوع: لا تلق بالدر للخنازير.

- هل صارت مرتا عندك كالخنازير. أفقْ ياهيبا وانتبه، فإن شوقك إليها
يعتصرُّك ويهضرُّ قلبك.. اذهب إليها، خذها وارحل عن هذه البلاد:

اسعدُ بها ودعها تمرح، ثم صُبْ على اللعنات لأنني أغويتك؛ فنكون
نحن الثلاثة قد تحقّقنا، وحقّقنا ذواتنا.

قلتُ في نفسي، لن أصغى لتشكيكات عزازيل، فهو بطبعه متشككٌ
ومثيرٌ للقلق. سوف أغسل قلبي بماء اليقين، وأستعصم بإيماني من غواياته
وهرطقته وميله للمتّع الزائلة. مهما كان تعلّقِي بمرتا، فإنه مؤقّت، مثل كل
ما في الدنيا. ولن أبيع الباقي من أجل الفاني، والغالي من أجل الرخيص.
سوف أعيشُ حياتي في المسيح الحيّ.

- أهو حيّ، كيف وقد قتله الرومان؟

- مات أياً ما، ثم قام قيامته المجيدة من الموت!

- وكيف مات أصلاً.. كيف لك أن تصدّق يا هيبا، أن الحاكم الروماني
بيلاطس وهو الإنسان، قادرٌ على قتل المسيح الذي هو الإله.

- كان ذلك هو السبيل الوحيد لخلاص الإنسان.

- بل كان السبيل الوحيد لتخليص المسيحية من اليهودية!

لم أشأ أن أسمع من عزازيل المزيد لكنه ظل يهمس في أذني، أثناء
نومي، برأى عجيب. كان يقول أشياء كثيرة، منها أن اليهود أهانوا فكرة
الألوهية التي اجتهدت الإنسانية طويلاً كي تصوغها. حضارات الإنسان
القديمة علت بالإله، واليهود جعلوه في توراتهم منهمكاً مع البشر، فكان
لا بد من إعادته إلى السماء ثانية.. وهكذا جاءت المسيحية لتؤكد وجود
الله مع الإنسان في الأرض، في شخص المسيح، ثم ترفعه مستعينة
بالأساطير المصرية القديمة، إلى موضعه السماويّ الأول. بعدما ضحّى
(الإله) بنفسه، على ما يزعمون، من أجل خلاص البشر من خطية أيهم

آدم!... فهل انمحت الخطايا بعد المسيح، وهل صعب على الله أن يعفو
عن البشر بأمرٍ منه. من غير معاناةٍ موهومة، وصلبٍ مهينٍ، وموتٍ غير
مجيدٍ، وقيامةٍ مجيدة..



غاب عزازيل بداخلي وسَكَتَ، فغمرتني راحةٌ مفاجئةٌ، شعرتُ بعدها
بالفراغ يلفُّني.. بعد حينٍ توسَّدتُ فراغى، ونمتُ فى نومى.

الرُّقُّ الحادى والثلاثون

قَانُونُ الْإِيمَانِ

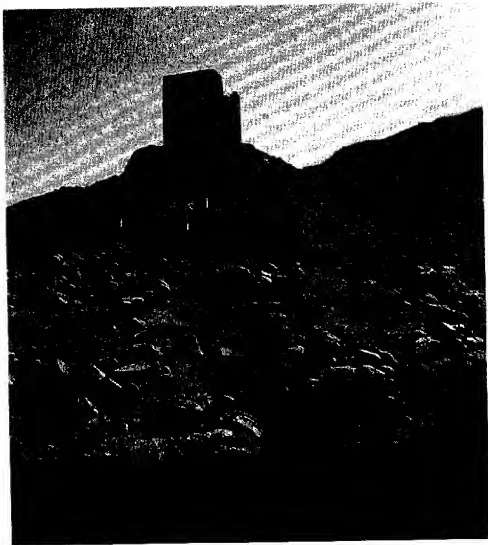
نُعْظَمُكَ يَا أُمَّ الثُّورِ الْحَقِيقِيِّ، وَنُحَمِّدُكَ أَيُّهَا الْعَذْرَاءُ الْقَدِيسَةُ، يَا وَالِدَةَ
الِإِلَهِ، يَا ثِيُوتُوكُوسَ، لِأَنَّكَ وَلَدْتَ مُخَلِّصَ الْعَالَمِ، فَأَتَى وَخَلَّصَ نَفُوسَنَا.
الْمَجْدُ لَكَ، يَا سَيِّدَنَا وَمَلِكَنَا الْمَسِيحَ، فَخَرَّ الرُّسُلُ، إِكْلِيلَ الشُّهَدَاءِ، تَهْلِيلَ
الصُّدِّيقِينَ، ثَبَاتَ الْكَنَائِسِ، غَافِرَ الْخَطَايَا. نَدْعُو وَنُبَشِّرُ بِالثَّالُوثِ الْمُقَدَّسِ،
لَا هَوَيْتَ وَاحِدٍ نَسْجُدُ لَهُ وَنُحَمِّدُهُ. يَارَبُّ ارْحَمْنَا. يَارَبُّ بَارِكْ. آمِينَ.

تلك هى مقدمة قانون الإيمان التى وصلتنا من إفسوس، مع توصيات
مشددة بتعميم هذا القانون على الشعب كله، وتلاوته بجمع الكنائس، بما
يليق به من إجلال.. أعنى إجلال الصيغة، أعنى صيغة القانون، أعنى قانون
الإيمان، أعنى الإيمان بالإله الذى أعادته ديانتنا ثانية إلى السماء.

أمضيتُ يومين بالمكتبة أحاور عزازيل حتى أفنعتته بأمور، وأفنعتنى
بأمور كنتُ متردداً فيها.. كان مما أفنعتنى به وصادف هوئى فى نفسى، أن
أحتلى بصومعتى هذه أربعين يوماً، أدوّن خلالها ما رأيته فى حياتى منذ
هروبى من قرية أبى، حتى رحيلى عن هنا، غداً، للقيام بما اتفقنا عليه.

وها هي الأيامُ الأربعون قد مرَّت، وتَمَّ اليومُ تدويني. وما ذكرتُ فيه إلا ما تذكَّرتُ أو رأيتُ في أعماق ذاتي.. وها هو الرِّقُّ الأخير، ما يزال معظمه خاليًا من الكتابة ولسوف أترك هذه المساحة بيضاء، فربما يأتي بعدى مَنْ يملؤها. والآن سأغفو قليلاً، ثم أصحو قبل الفجر، فأضعُ الرقوق في هذا الصندوق، وأواريه التراب تحت الحجارة الكبيرة التي عند بوابة الدير. ولسوف أدفنُ معه خوفي الموروث، وأوهامي القديمة كلها. ثم أرحلُ، مع شروق الشمس، حُرًّا..

ملحق الصور



بقايا منزل هيبا، في بلاده الأولى (أو هكذا كان!)



قد تكون صورة السيد الصقلي، المرسومة على تابوته (من مجموعة: وجوه الفيوم)



الصخور البيضاء، التي اعتقدوا قديمًا أنها نزلت مع النيل من السماء



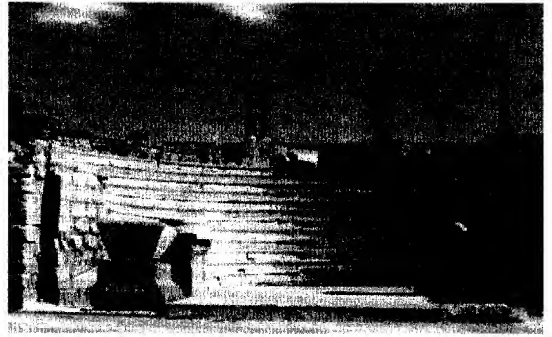
هيباثيا، العالمة الجميلة القتيلة (من خيال الرسامين)



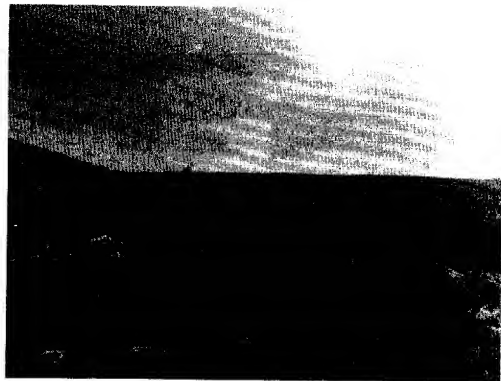
ما بقى من أرضية منزل التاجر الصَّقلى (من مقتنيات مكتبة الإسكندرية)



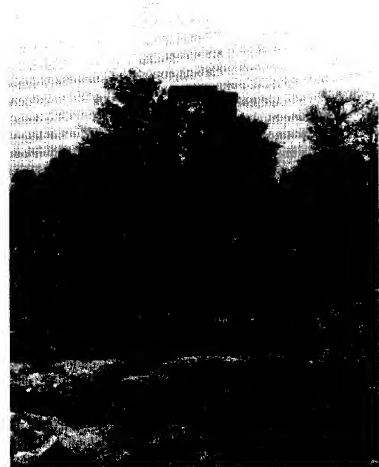
الأسقف ثيوفيلوس يدعو لهدم السراييون (بردية محفوظة بمتحف فيينا)



بقايا المسرح، حيث استمع فيه هيبا لهيبياتيا



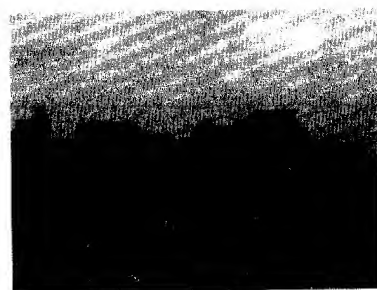
المطلُّ الغربيُّ للدير (السمّوى)



الخرائب الأثرية الواقعة شمال غرب حلب (حيث وُجدت الرقوقي)

B.HAMDAN

5-8-2008



أطلالُ الديرة، كما تبدو اليوم